مغامرات
ابن بطوطة

إعداد: راجي عنايت
رسوم: بهجت عثمان



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

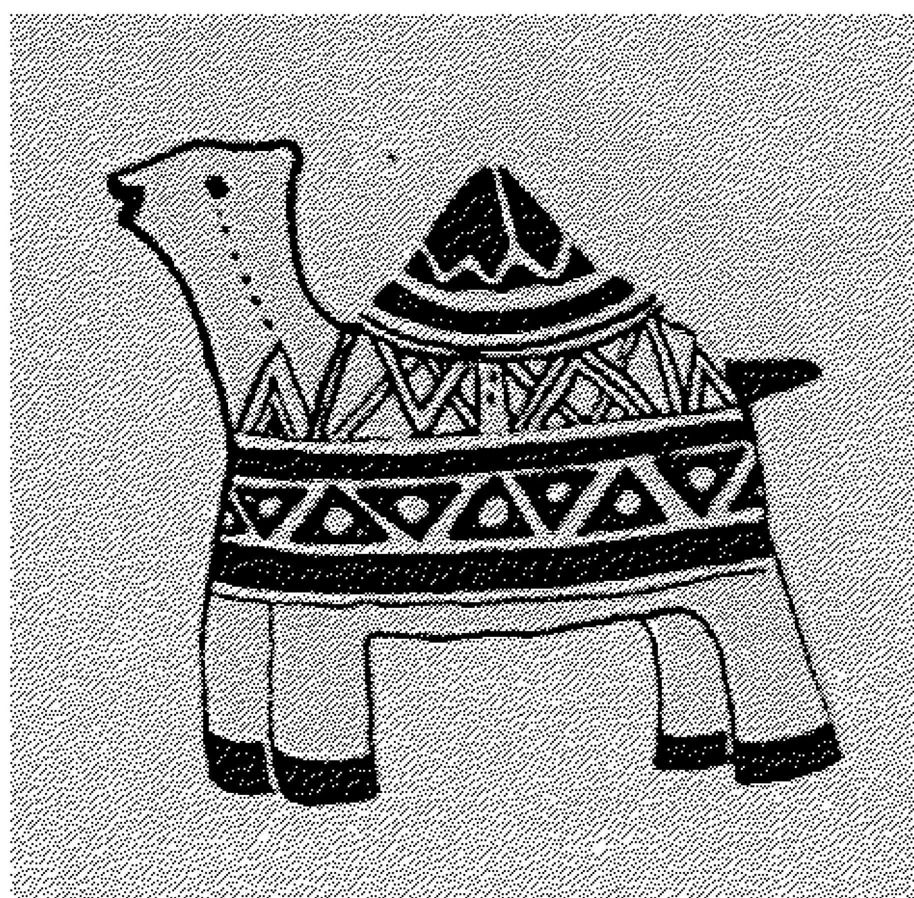
مغامرات

ابن بطوطة

إعداد: راجي عنايت
رسوم: بهجت عثمان

الطبعة المجلدة الأولى
١٩٨٨

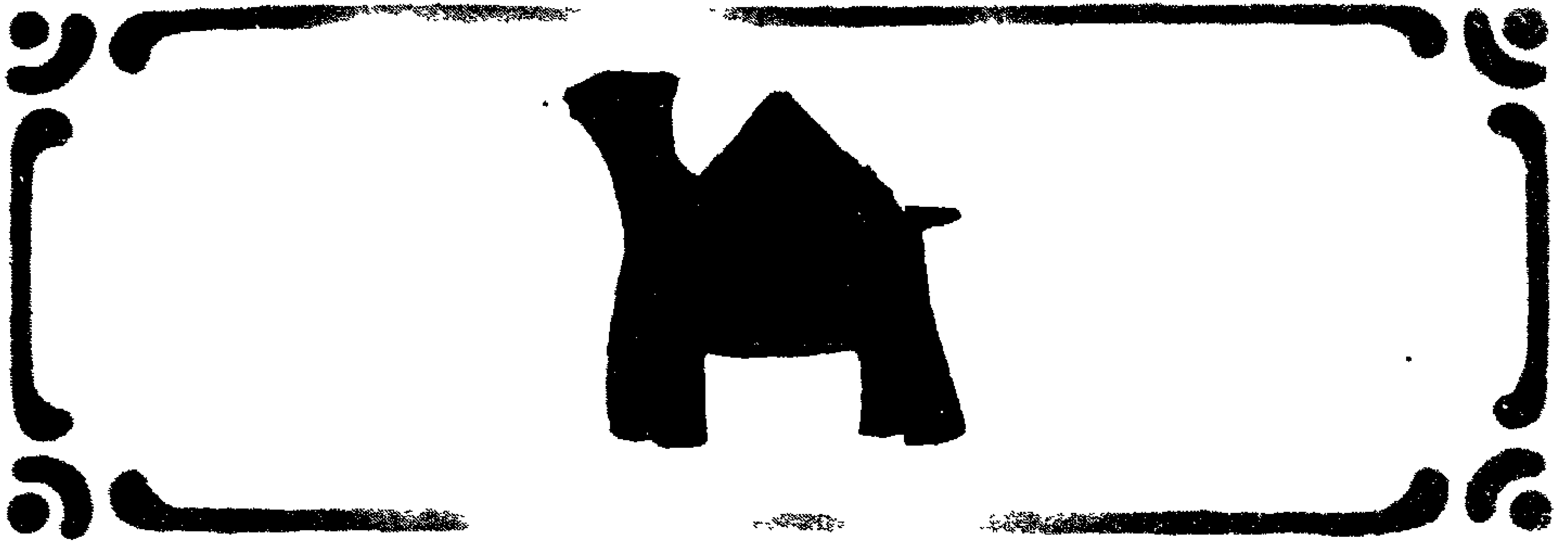
المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير -
ت ١/٨٠٧٩٠٠ برقياً «موكيالي»
بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY - ٤٠٠٦٧ .



مغامرات
ابن بطوطة

حلم الطفولة

اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت وبدر



الى أيـن .... يا محمـد ؟..

عند انتهاء الدّرس ، كان الصبيُّ الصغيرُ يجمعُ أَدَواتِه وكُتبَه في كِيسِ القُماشِ المُزخْرَف ، ويُسْرِعُ بـالانصراف ، لا تَسْتَهويهِ وَقْفَةُ أصحابهِ في الطريقِ يَلْعبون ويَتَضاحكون. وكان زميلُه وصديقُه الحَميمُ إدريسُ يحاولُ أن يَلْحَقَ به وهو يصيح «يا مُحَمّد... إلى أين؟»، فلا يَلْتفت الصّبيّ الى إدريسَ ، وتصبحُ خُطواتُهُ مُتلاحقةً سَريعة ، حتى يَختفي عن نظرِ صاحبِه. يقفُ إدريسُ في مكانِه مُندهشاً بعضَ الوَقت ، ثم لا يَلْبثُ أن يعودَ الى باقي الصِّحابِ يشاركُهم لَهْوَهم ، وَبَالُه منشغلٌ بذلك السرّ الذي يَرفُضُ محمدٌ أن يُشْرِكَه فيه... سر الرحلةِ الغامضةِ التي يَقومُ بها بعدَ انتهاءِ الدُّروس !.

يَعْلمُ إدريسُ حقيقةً ثابتةً ، هي أَنَّ محمداً لم يكنْ يسرعُ الى بيتِهِ ، فكم من مرّةٍ افتقدَه بعدَ انتهاءِ ساعاتِ الدرسِ بين يَدَي الفَقِيهِ ، وأسرعَ يبحثُ عنه في دَاره ، فكانَ دائماً يتلقّى نَفْسَ الإجابةِ «لم يَحضُرْ بَعْدُ.. فما الذي يَجيءُ به مُبكّراً هكذا ، قبلَ انتهاءِ الدّرْس؟..». لم يكن إدريسُ يحاولُ أن يُجيبَ عن هذا التّساؤل ،

أو يفكّرَ في مصارحةِ أهلِ محمدٍ بأنَّ ساعاتِ الدرسِ قد انتهت !.. وأنَّ الفَقيَه الذي يَتلقَّوْنَ على يَديه دُروسَ الدينِ والفِقْهِ قد مَضى منذُ زمنٍ الى بعضِ أعمالِه.

كان إدريسُ يَنصرفُ مُسْرعاً، قبلَ أن يُلِحَّ عليه أهلُ محمّدٍ بالسّؤال، طامعاً في أن يحظَى مِن صديقهِ في الغَد، بتوضيحٍ لسر هذا الاخْتِفاء.

البحر من ورائـــكم

كان محمدٌ يَمْضي بعدَ انتهاءِ الدّرسِ مُباشَرةً، يَشُقُّ طريقَه وسَطَ الأسواقِ المُزْدَحِمَـة، مُتفادِياً الدّوابَّ الساعيـةَ في الطُرقاتِ والدُّروب... يتحركُ بِحِرْصٍ وَسْطَ هذه الدروبِ الضيّقةِ المتشابكةِ المُتعرِّجة... تَبْهرُ عَينيه انعكاساتُ شمسِ الظَّهيرة، على الحوائطِ البيضاءِ النّاصعة، مُتجاهلاً نداءاتِ الباعةِ بما فيها مِنْ إغْراء.

بعدَ قَليل، تَخفِتُ الضَّوضاء، وتنكسرُ حِدّةُ أشعةِ الشّمس، وقد امتصَّتْها الأشجارُ العاليةُ التي أصبحَ يَسْعى بين جُذوعها الضَّخمة. ويَشعُرُ بنَسَماتِ البَحرِ الرَّطْبَةِ تُلطّفُ حرارة وَجْهِهِ، وتجفّفُ ما تجمّعَ على جَبينه من قَطَراتِ عَرَقٍ صغيرة، مِن فَرْطِ جُهدِ السيرِ الجادّ... ومن فَرطِ حَماسِه الشديدِ لبلوغِ الغـايةِ التي يَسعى اليها في رحلتِه اليوميّة.

من وَسْطِ ظُلمةِ الغابةِ ورطوبتِها، يخرجُ محَمد، لينفتحَ أمامَه المشهدُ الذي استولَى عَليه، والذي عَشِقَه عِشْقاً لا مزيد عليه...



مشهدُ الرمالِ البيضاءِ النّاصعة، تُتَوِّجُها على امتدادِ البَصرِ زُرْقةُ المُحيطِ الذي لا نهايةَ له. يقفُ محمدٌ بعضَ الوقتِ في مكانِه هذا لا يَتحرّك، يستنشقُ في تلذّذٍ رائحةَ البحرِ والرّمال... وقد التمعتْ عيناهُ بأحلامٍ كبيرةٍ غامضة، لم يكن هو نفسُه يُدْرِك مَدَاها.

في خُطواتٍ بطيئةٍ مُتأنّية، يَمضي محمدٌ وعيناه لا تُفارقان مياهَ المحيطِ البعيدةَ. يَنتزعُ قَدميه انتزاعاً من الرِمالِ الناعمةِ الدّافئة، حتى يصلَ الى مُوقعِه المُخْتار، فوقَ صخرةٍ بارزةٍ قريبةٍ من المَاء، فيُلقي الى جانبِه بكيسِ القُماشِ الذي يَحتفظُ فيه بدفاترِه وكتبِه وأدواتِه، ويَمُدُّ ساقَيه وهو يتنهّدُ سَعيداً.

فوقَ هذه الصخرةِ التي تَطِلُّ على مَضيقِ جَبلِ طارق، اعتادَ محمدٌ أنْ يجلسَ بعد انتهاءِ دُروسِ كلِّ يوم، المحيطُ الأطلسيُّ إلى يسارِه، والبحرُ الأبيضُ المتوسطُ الى يمينِه، والمَضيقُ المشهورُ أمامَ عَينيه، يَحْلُمُ بحياةٍ حافلةٍ مُثيرة، ينطلقُ فيها من مكانِه هذا، يَخُوضُ المغامراتِ التي لا تَنتهي، يريدُ أن يُشْبِعَ نَهَمَهُ الشديدَ لاكتشافِ المجهولِ من حولِه...

يجلسُ محمدٌ في مكانِه، يستعيدُ ما سَمِعَه من أهلِه وذَوِيه حولَ الأحداثِ التي جَرَت في هذا المكانِ منذُ سبعِمائةِ عام... متخيّلاً حاكمَ (طنجة) القَديمَ، طارقَ بن زياد، وقد وَقَفَ حيثُ يجلسُ هو الآن... غارقاً في التّفكير، يبحثُ عن طريقةٍ يُحققُ بها المُهمّةَ التي أُوكِلَتْ اليه.. هذه المُهِمّةُ التي يُدركُ مدَى خُطورتِها.. فَتْحُ الأندلسِ ونَشْرُ الإسلامِ فيها.

يتصوّرُ محمدٌ ذلك القائدَ الاسلاميَّ العَظيم، وقد حزَمَ أمرهِ، فأخذَ جيشَه وعَبّرَ به الخلسجَ الفاصلَ بين افريقيا وبلادِ الأندلس...

يَتصورُه وقد استشعرَ مَقْدِمَ جيوشِ الأعداء، يَخطبُ في جنودِه خُطبتَه الشَّهيرة «أيها الناس.. أينَ المَفرّ؟. البحرُ مِن ورائِكم والعدوُّ أمامَكم، وليس لكم إلاّ الصِدقُ والصَّبْر..». ثم يَرى بخيالِه، جنودَ طارقٍ بنِ زياد وقد دبَّ فيهم الحَمَاس، وقَوِيَتْ عَزيمتُهم، فاستجابوا لنداءِ قائدِهم الشّجاعِ... وتقدَّموا شَمالاً، يضاعفُ حَماسَهم إيمانُهم بالرسالةِ التي يُحاربون من أجلِها، فَيتمُّ لهم الاستيلاءُ على جَميعِ بلادِ الأندلس.

رُبَّ ضـارةٍ نافعـــة!

لم تكنْ هذه هي المُتعةَ اليوميةَ الوَحيدةَ في حياةِ صَبيِّنا، بل كان يَحْرِصُ في كلِّ يومٍ على أن يكونَ قَريباً من مجلسِ أبيه. كان والدُه عبدُ اللهِ الطَّنْجي من رجالِ العِلمِ والدّين، يَعْملُ قاضياً لمدينةِ طَنجة، وكان يجتمعُ في مجلسِه كلَّ يومٍ عددٌ من العُلماءِ والأدباء، يَتبادلون الحكاياتِ والرواياتِ والنقاشَ في مُخْتَلِفِ العلومِ والآداب.

ومع انْدهاشِ محمدٍ بكلِّ ما يَدُورُ في مجلسِ أبيه، وحِرْصِه على سَماعِ كلِّ ما يُقال، واستيعابِ كلِّ ما يَسْمَع، فقد كان يَصلُ به الحَماسُ الى غايتِه، عندَما يتطرقُ الحديثُ الى ذِكْرِ المغامراتِ العَجيبةِ التي قامَ بها الرحّالةُ العَرَب، أمثالُ الإدْريسيّ، وابْنِ جُبيرٍ الاندلسيّ وابْنِ سعيدِ المَغْرِبِيّ.

كانت الساعاتُ تَمْضي على الصبيّ الصّغير، وهو جالسٌ في

مكانِه، لا يَطْلبُ طعاماً أو شراباً، انما يُشْبِعُه ما يسمعُه من سَيَرِ وتواريخِ هؤلاءِ الرحّالةِ العِظام، عن رِحْلاتهم المثيرةِ التي سافروا فيها الى البلادِ البَعيدة، وعادُوا لِيَصِفوا ما شاهدوه، في كتبٍ يتردّد ذكرُها على ألسنةِ أصحاب أبيه، ويَرى بعضَها في الخِزانةِ الضخمةِ التي تَضمُّ كُتبَ الشرعِ والفقهِ والتفسيرِ التي يَقْتنيها والدُه.

كان يستمعُ في اشتياقٍ الى مُغامراتِ الإدريسيّ التي سَجّلها في كتابهِ «نُزهةُ المُشتاق في اختراقِ الآفاق»، وما كانَ من المَلِكِ النّورمانديّ روجيه الثاني، عندما سمعَ عن الإدريسيّ سليلِ أمراءِ الأندلس وعن رِحْلاتِه لشَمالِ افريقيا وآسيا الصّغرى، فاستدعاهُ إلى بلاطِه وقرّبه اليه، وأَغْدَقَ عليه المكافآتِ حتى يَتفرّغَ لتأليفِ كتابه الشّهير، وحتى يَنتهي من انجازِ خريطةِ العالَمِ المُجسَّمة، التي رَسَمَها فَوقَ كُرةٍ كبيرةٍ من الفِضّةِ تَزنُ ٤٠٠ رَطْل، وبيّن عليها مختلفَ البلادِ والبحارِ والأنهارِ والجِبال.

كان محمدُ يُسرعُ بالانتهاءِ من دروسِه عَصْرَ كلِّ يوم، حتى يستطيعَ أنْ يتابعَ ما يَدُور في مجلسِ أبيه، عندَما يتوافدُ أصحابُه ويكتمـلُ مَجلسُهم، ثم تَبـدأ روايـاتُهم وأحـاديثُهم المُمْتعة. وهو لا ينسى القصّةَ التي رَواها الشيخُ عبدُ اللّطيف، أقربُ الأصحابِ الى قلبِ أبيه، عندَما رَاحَ يحكي أخبارَ الحادثةِ التي جرَت منذ أقلَّ مِن مئتي سنة، للعالِمِ الجغْرافيّ الشهيرِ ابنِ جُبَير... ذلك العالمُ الذي نَشأَ وعاشَ في الأندلس، وكان صديقاً لأمير غِرْناطة.

إنّه يذكرُ دائماً تلك الضِحْكَةَ الرّائقـةَ التي أطلقَها الشيخُ عبدُ اللّطيفِ وهو يقولُ لأبي محمد: «لقد صَدَقَ عليه القولُ الشائع..

رُبّ ضارّةٍ نافعة.. لولا تلك الحادثة، لكُنّا فَقَدْنا عالماً جليلاً من علماء الجغرافيا العَرَب..».

تناسى محمدٌ دَعوةَ امه، وإلحاحَها عليه بالنّوم، وهو يستمعُ من مكانِه الخفيِّ عن عيونِ الكبار، الى الشّيخِ عبدِاللطيفِ يَحكي لأصحابِ أبيه قصّةَ ابنِ جُبير مع أميرِ غِرْناطة، وقد سادَ الصمتُ بينهم، يَسْتمعون الى اسلوبِه الرقيقِ المُمتعِ في سَرْدِ الحِكايات.

قال الشيخ عبدُ اللطيفِ بعدَ أن أطلقَ ضِحكةً أثارت فضولَ الحاضرين: كان ابنُ جبيرٍ جالساً في حُجرتِه يَقرأ، عندَما دَخلَ عليه خادمُه يُخبِرُه أنّ رسولاً من عندِ أمير غِرناطة جاء يطلبُ ذَهابَه إلى بيتِ الأمير. وعندما دخلَ ابنُ جبير على الأمير، وجدَه مَخموراً يتناولُ الشّراب، والعياذُ بالله... مدّ الأميرُ يَدَه الى ابنِ جُبير بكأسٍ من الخَمْر، فأظهرَ ابنُ جُبيرِ الاستياء الشّديدَ وهو يَقول: «سيّدي الأمير.. ما شَربت الخمرَ قَطّ في حياتي!»، وتجاهلَ يدَ الأمير المَمدودة بالكأس. غَضِبَ الأميرُ غَضَباً شديداً، وقال صائحاً بصوتٍ مَخْمور: «والله لَتَشْربنَّ منها سبعاً!!».

تعالت أصواتُ الاحتجاج في المَجلس، نَقمَةً وَسُخْطاً على ذلك الأميرِ الفاسق، فقال والدُ محمدٍ يُقاطِعُهم: «صَبراً يا أصحابي... ودعوا الشيخَ عبدَ اللطيفِ يكملُ روايتَه». كادَ محمدٌ أن يُصفّقَ إعجاباً بكلماتِ والدِه وشوقاً الى سَماعِ باقي الحِكاية، ولكنّه أمسكَ عن ذلك خَشْيَةَ افتضاحِ وجودِه في مِخْبَئِه. قال الشيخ عبداللطيف بعد أن هَدأ ضجيجُ الصّحابِ وسَكَنت أصواتُهم:

«عندما رأى ابنُ جُبير إصرارَ الأمير، وأحسّ بنظراتِ الشرّ في عينيه المَخمورتين، استسلمَ لتهديدِ الأمير، وشَربَ الكؤوسَ السَّبع...

تجاهلَ الشيخُ عبدُ اللطيفِ الشَّهقاتِ الغاضبةَ التي تَصاعدت حولَه من الحاضرين، واستطرَد قائلاً: «ولكن... ما لَبثَ أن أحسّ الأميرُ بالندمِ على فِعْلته مع ابنِ جبير، وأرادَ أنْ يُعوّضَه عمّا ألْحقَه به من ضَرر، فَنادى على رجالِه، وأمرَهم بأنْ يَملأُوا الكأسَ سبعَ مرّاتٍ بالدنانيرِ الذَّهبية، وأن يُفْرِغوا الذَهبَ في حِجْرِ ابنِ جُبَير.. مضى ابنُ جُبيرٍ مبتسماً، حامِلاً معه الدنانيرَ الذَهبيةَ الى منزِله، وقد اعتزمَ أن يُنْفقَها في الحجِّ الى بيتِ الله، تكفيراً عن ذنبِ احْتساءِ الخَمر، على الرغمِ من أنه قد أُجبرَ على ذلك».

ضحك الشيخُ عبدُ اللطيفِ وهو يقول: «.. وهكذا مضى ابنُ جُبير في طريقِه الى الحجِّ متّجهاً في البدايةِ الى مدينةِ (سَبْتة)، ومنها اتّجه الى جَزيرةِ (سردينيا)، حيثُ رأى أسَرى المُسلمين العَربَ يُباعون في سُوقِ العبيد، فَشَعَرَ بالألمِ الشّديد، وأَدْرك أنّ ما أصابَ هؤلاءِ البُؤساء، انما هو نَتيجةُ فِسْقِ الحكّام وانصرافِهم عن الدّين، مما أدّى الى تَفكُّكِ العالَمِ الاسْلامي. وقررَ ابنُ جُبير في ذلك الوقت، أن يسجّلَ مُشاهداتِه عن ما يَمرُّ به، حتى يَقرأَها كلُّ العَرب، ويُدْرِكوا أهميةَ اتحاد كَلمتِهم، وانصِلاح أحوالِهم، حتى يَستطيعوا مواجهةَ الخَطرِ الأوروبي».

يُطْرقُ الشيخُ عبدُ اللطيف، فَيسودُ الصّمتُ الحاضرين، يتأمّلون ما جاءَ في حَديثِه من أفكار. ثم يَرفعُ الشيخُ رأسَه ويَقولُ وقد ارْتسمت ابتسامة على شفتيه: «وهكذا يا أصحابي.. كانت البدايةُ

مَعْصيَةً أُرْغِمَ عليها ابن جبير ، وجاءت النهايةُ عَملاً جاداً أفادَ المُسلمين».

كان محمدٌ يستمعُ إلى أَخبارِ .هذه الرِحلاتِ بشوقٍ وشَغَفٍ شَديدين ، وكان يَحْرِصُ على ألاّ تفوتَه حكايةٌ منها. وعندما كان يجلسُ على صَخرتِه النائيةِ في مواجهةِ المُحيطِ الوَاسع ، ويَرى الأمواجَ العاليةَ المُتلاطمة ، يتصورُ نفسَه واحداً من الرحَّالةِ العربِ الذين سَمِعَ عنهم الكَثير... تارةً يتصورُ نفسَه فوقَ ظهرِ سفينةٍ كَبيرة ، يخترقُ البِحارَ والمحيطاتِ في شَجاعةٍ وإقْدام ، يَزُورُ البلادَ البعيدة ، ويتعرّفُ على أحوالِ خلْقِ اللهِ في أنحاءِ العالَم المُترامية. وتارةً أخرى ، يرى نَفْسَه فوق حصانٍ قَويّ ، يَقْطَعُ الصَّحارَى ويرتقي الجبال ، ويَهْبِطُ الى الأودية ، ويَعْبُرُ الأنهار.

يُفيقُ محمدٌ من هذه الأحلام الطّويلة ، وقد تصاعدَ حماسُه ، وتضاعَفَ شوقُه الى حياةِ الارْتحالِ والمُغامرة ، فينكبُّ على دُرُوسِه ، يريدُ أن يتعجّلَ الأيام ، حتى يَدْخُلَ الى طَورِ الشَّبابِ والرُّجولة ، فيُتاحَ له أن يُحققَ أحلامَه التي لا تفارقُ خيالَه.





الحِلـمُ القَديمُ يَتحقّق

وَتَتحَّقَقُ أحلامُ الصَّبِيّ...

تَمرُّ السنوات، ويُمْضِي الصبيُّ سنواتِه، كما يُمضيها أبناءُ الأسرِ الكبيرةِ في طنجة.. يحفظُ القرآنَ الكَريمَ، ويتفوّقُ في عُلومِ الدينِ والفِقهِ واللّغة. فَنراه عندما بلغَ الحاديةَ والعشرين من عُمرِه، قد أنهَى دِراسَته، وبلغَ مَبْلَغَ الرِجال، يعتزمُ تأديةَ فَريضةِ الحجّ.

كانت فرحتُه بالحجِّ فرحةً مُضاعفة، فمحمدٌ هذا الذي عَرَفَه العالمُ فيما بعد باسم «ابنِ بَطُّوطة»، كان تَقياً وَرِعاً يُؤدّي فروضَ الصَّلاةِ في أوقاتِها، ويَتلُو القرآنَ الكَريم، ويتعاملُ دائماً مع صَحْبِه بما يُرْضِي الله. وكان الحجّ الى بيتِ الله الحَرام، حُلماً من أحلامِه، يُراودُه منذ كان صبياً صغيراً.

ما إن بلغَ سِنَّ الرُّشد، حتى أسرَّ الى والديه برغبتِه في تأديةِ فريضةِ الحج. ورغمَ المخاوفِ التي رَاودت أُمَّه، فقد وافقَ والدُه على رغبتِه، وبارَكَ سَعْيَه الى تأديةِ هذه الفَريضة. وكانت أُمُّه مُحقّةً في مخاوفِها، فالسفرُ الى مكّةَ المُكرّمة والمدينةِ المُنوّرةِ في ذلك الوقتِ كان مغامرةً مَحفوفةً بالمَخاطر، يتعرّضُ فيها الحاجُّ لكثير من المَصاعبِ والمَشاقّ... فالسفرُ على ظَهرِ الجيادِ أو الابِل، يواجهُ فيه المسافرُ تقلّباتِ الطبيعة، من حرٍّ لافح، الى بَرْدٍ قارس، الى أمطارٍ وعواصِف.. هذا إذا هو سَلِمَ من عِصاباتِ اللصوصِ التي كانت تَقطعُ على مواكبِ الحجِّ طريقَها، سعياً الى نَهْبِ ما فيها من مالٍ أو مَتاعٍ أو دَوابّ. ومع

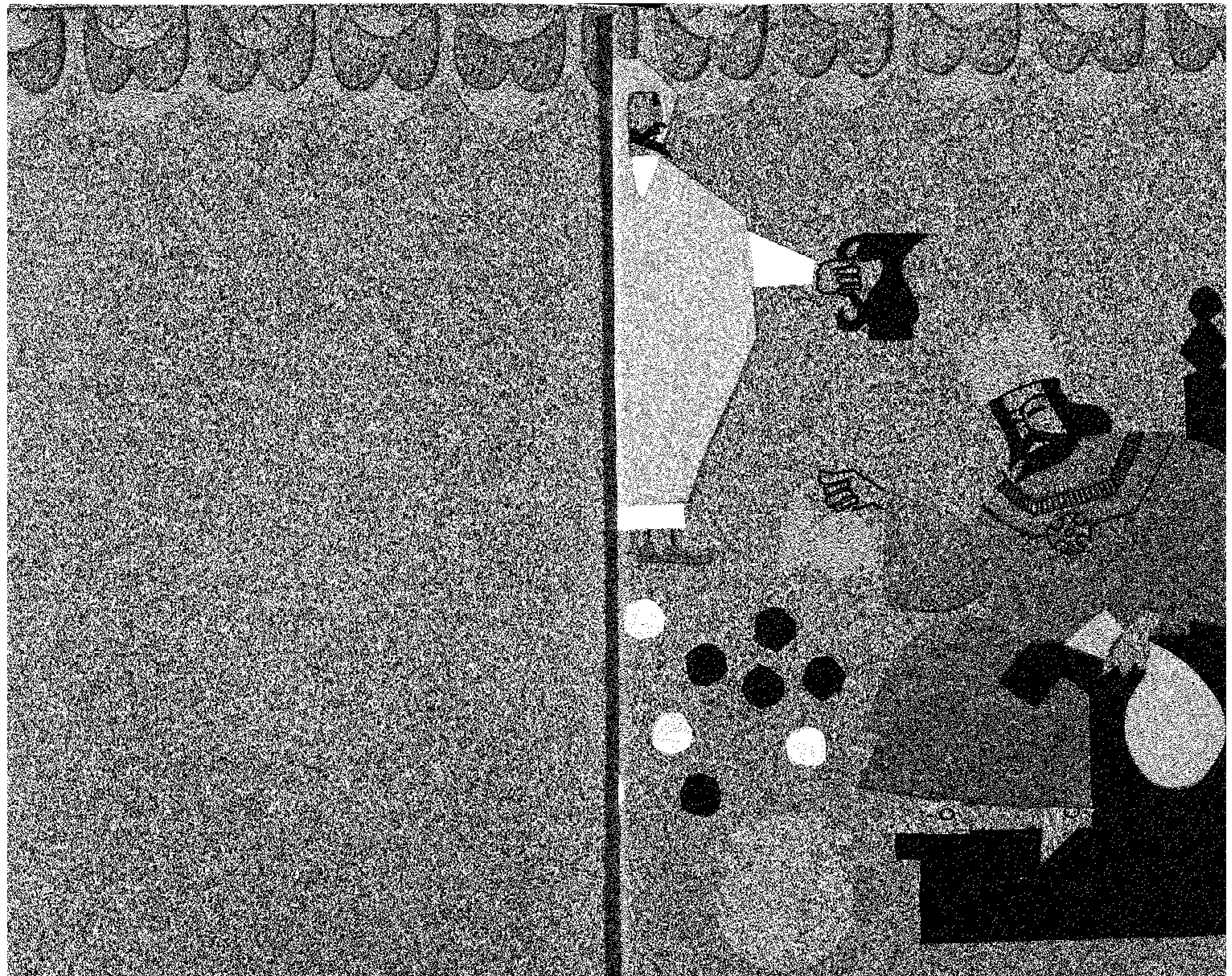
هذا قال الشيخُ عبدُ الله لزوجتِه: «انّ ثقتي في محمدٍ لا حَدّ لها.. وأرى أنّ تحقيقَ أُمنيَّته بالحجِ الى بيتِ الله، ستقوّي ايمانَه، وتَصْقلُ شَخصيّتَه، وتُنضِجُ رُجُولتَه.. دَعِيه يتحرّكْ على بَركةِ الله».

وإلى جانبِ الفَرحةِ بتأديةِ فَريضةِ الحج، كان اَبنُ بَطُّوطة يَتَشوّقُ الى التعرّفِ على البلادِ التي سيمرّ بها في الطريقِ إلى بيتِ الله، وإلى مشاهدةِ المُدنِ والأنهارِ والبحارِ التي طالما سَمِعَ عنها في أحاديثِ الشيخِ عبدِاللطيفِ صَديقِ والدِه الحَميمِ. وكان يستعيدُ سِيرةَ الرحّالةِ اَبنِ جُبير الذي بدأَ حياتَه العمليةَ الحافلةَ بِمثْلِ هذه المرحلة، ويتصورُ نفسَه وقد استطاعَ أن يُحقّقَ بعضَ ما حقّقَه ذلك العالِمُ الجَليل.

عندما انتهى اَبنُ بَطّوطَة من جميعِ الترتيبات الخاصةِ برِحْلتِه، اختارَ الحصانَ الذي سيسافرُ فوقَ ظَهره، وجمَعَ ما يحتاجُه من طعامٍ وملابِسَ... وحلّت ساعةُ السَّفَر.

في موقفِ الوَداعِ تَبدّدت الفَرحةُ التي كان اَبنُ بطّوطَة يَشعُرُ بها طَوالَ أيامِ الإعدادِ للرحلةِ والترتيب لها، فانْهمرت دموعُه وهو يشعُرُ أنّه على وَشْكِ مفارقةِ أبيه وأمِّه... ارتمى على صَدْرِ أمِّه يَبكي، وقد مرّ بخاطرِه أنّه لن يراها عندَ عَودتِه من رحلتِه هذه. ورغبةً في انهاءِ هذا الموقفِ المُؤلِم، انْفَلتَ اَبنُ بطّوطة مُمتطياً جوادَه، وانطلقَ به، مُشيحاً بوجهِهِ حتى لا يرى أبوه دُموعَه التي كانت تَسيلُ على خدّيه.

انطلق ابنُ بطّوطة وحيداً، بلا رفيقٍ يُؤنسُ وَحدتَه، قاصداً مدينةَ (تِلْمِسَانَ) شرَقاً، على أملٍ أن يَلْقى هناك، مَن يسعى الى الحجِّ مِثلَه، فيزاملَه في سَفرِه ليخفّفا عن بعضِهما وَحْشةَ الطّريق.



وعندما وَصَلَ الى تِلْمِسان، أخذَ يَسألُ هنا وهناك عَمّن يمكن أنْ يُصاحبَه في سَفره. قال له واحدٌ من أهلِ تِلمسان: «ليس بيننا من يعتزمُ الخروجَ الى الحجِّ هذه الأيّام»، وأطرقَ قليلاً، ثم قال مسْتدركاً: «لكنّي سمعت بوجودِ رَسولين من عندِ ملكِ تُونس، جاءا برسالةٍ الى سُلطانِنا أبي تاشفين بنِ مُوسى، وأعتقدُ أنهما الآن يتهيآن للعودةِ الى بلدِهما... وأرى أن تَمضيَ بصُحبتِهما الى تونس، فربما وجدت هناك رَكْباً يتحرَّكُ الى الحَجِّ، فَلحِقتَ به».

في صحبـــة الرسولـــين

فرح ابنُ بطّوطة بهذه الأخبار، وأخذَ يَسعى للاتصالِ بالرّسولين. كان أحدُهما قاضِيَ الزواج بمدينةِ تُونس ويسمّى أبا عبدِ الله النّفزاوي، والآخرُ من الفُضَلاء ويسمّى بأبي عبد الله الزُبَيدي. بعدَ بحثٍ وعَنَاء، اكتشفَ ابنُ بطّوطة انّهما كانا قد غادَرا المدينةَ متجهين الى تونس، فأسرعَ يجهّزُ نفسَه للرحلةِ القادمة، ويَعدُو بجوادِه ليَلحقَ بهما وهما في بدايةِ الطريق، فأدركَهما عندَ مَدينةٍ قَريبةٍ تسمّى (ملْيَانَة).

عندَما وصلَ ابنُ بطّوطة الى المَدينة، واستدلَّ على مكانِ الرّسولين، وجدَهما يَرقُدان في إعياء، وقد مَرضا بسببِ شِدّةِ الحرِّ في ذلك الوقت. فبقيَ الى جانبِهما عَشَرَةَ أيامٍ حتى تحسّنت صِحّتُهما. كان ابنُ بطّوطة رفيقاً بالشّيخين، يَحنو عليهما، ويُسرعُ الى تلبيةِ طلباتِهما، فأحبّاه، وعاملاه كابن لهما، ممّا أسعدَه وخفّفَ عنه بعضَ ما يعانيه من فِراقِ أبيه.

تحاملَ الشّيخانِ على نَفسيهما، واعتزما مواصلةَ السَفرِ الى تُونس وهما يَصطحبان اَبنَ بطّوطة. لكنْ ما إن ابتعدَ الركبُ أربعةَ أميالٍ عن مدينة مليانة، حتى اشتدَّ المَرَضُ على الشيخِ القاضي، فاختارُوا مَوقعاً فيه ماء، أقاموا عنده ثلاثة أيام، يعالجان الشيخَ القاضي الذي أخذت حالتُه تَزدادُ سوءاً يَوماً بعدَ يَوم. وذاتَ صَباح، لَفَظَ الشيخُ النّفزاوي أنفاسَه الأخيرة، فعاد اَبنُ بطّوطة مع الشيخِ الزبيدي الى مدينةِ مليانة، حيث قاما بدفنِه هناك.

ظَهَرَ الحزنُ والاكتئابُ على اَبنِ بطّوطة، وتَشاءَم مما حدَث، فقال له الشيخُ الزُّبيدي: «يا بُنَي.. ما لي أراك مُنقبضاً؟.. اذا كنت لا تحتملُ مخاطرَ السّفر، وما جرَى ليس إلاّ أقلّها، فارجعْ الى أهلِك ودارِك... فما زالَ الطريقُ في أوّله، وهو حافلٌ بالمَخاطرِ والمُفَاجآت..». أطرقَ اَبنُ بطّوطة، ثم رَفَعَ رأسَه وقال: «ليس ما بي لخوفٍ ممّا يَجيء، ولكن أسَفاً على فِراقِ ذلك الشيخِ الجَليل، الذي كنت أعتبرُه بمثابةِ والدي..».

ما إن انتهت مَراسِمُ الدَّفن، حتى تَحرّكَ الركبُ مرّةً ثانية، وقد انضمَّ اليه عددٌ من تُجّار تُونس. عندَما وصَلَ الركبُ الى مَدينةِ (بجاية)، سَقط اَبنُ بطّوطة مَريضاً، وقد أصابته الحُمّى، وارتفعت درجةُ حَرارتِه وارتعشَ جِسمُه.. اقترحَ عليه الشيخُ الزُّبيدي أن يبقَى في بجايةِ حتى يَبْرأَ من مرضِه، لكنّ اَبنَ بطّوطة صَمّمَ على مواصلةِ السفرِ معهم، قائلاً: «اذا كان الله عزَّ وجلَّ قد قَضَى عليّ بالموتِ في هذا المَرض، فلتكنْ وَفاتي بالطّريق، وأنا أقصِدُ قبْرَ الرسولِ عليه الصلاةُ والسّلام..». وعندَما تَبيَّن الشيخُ اصرارَ اَبنِ بطّوطة قال له: «إذا كان الأمرُ كذلك، فعليك أن تبيعَ دابَّتَك ومَتاعَك، وسأعيرُك

حصاناً خفيفاً حتى يُمكنَ أن تَلحقَ بنا في عَدْوِنا السّريع .. فانّ المَرحلةَ القادمةَ في سَفَرِنا الى تونس ، تَقتضِي الاسراعَ في الحَرَكة ، خوفاً من غَاراتِ اللصوصِ وقُطّاعِ الطريق. وكان ما أشارَ به الشّيخ ، وبدأت الرحلةُ الى تونس.

مَرْبوطـاً على ظَهْرِ الحِصَــان

مضَى الرَّكبُ إلى مدينةِ (قُسَنْطِينَة)، وقبل أن يصلها أَظْلمت السّماء ، وتدفقَت عليهم سيولُ الأمطار، تَعُوقُ حَرَكتَهم ، وتَصْفَعُ وُجوهَ الخَيل ، فتنفرُ هائجةً ساخطة. وعندَما وَصَلوا الى مشارفِ المدينةِ حاولوا بَسْطَ خِيامِهم وإقامتَها ، حتى يَحْتَمُوا بها إلى حينِ أن يَطلَعَ النّهار، لكنّ العواصفَ والأمطارَ المُنهمرةَ مَنَعتهم من ذلك ، وأخذوا يَبْحثون عن مكانٍ يَأويهم هَرباً من العاصفة. حدَثَ هذا ، وابنُ بطّوطة يكادُ أن يفقدَ وعْيَه ، يشعُرُ بالحُمَّى دَاخلَه تبعثُ اللّهيبَ في دِمائِه ، وتَلْطِمُه الرِيحُ والأمطارُ البَاردة ، فلا يَدرِي ، أيشكُو من سُخونةٍ أم من بَرْد؟!.

في صباحِ اليومِ التّالي ، لَقِيَهم حاكمُ المَدينة ، وعندَما نَظَرَ الى ابنِ بطّوطة بارتعاشِه ، وبملابسِه المُبتلّةِ المُتّسِخة ، أشفَقَ عليه ، فأمرَ له بملابسَ جديدة ، وعَقَدَ في طَرَفِ الرِداء بعضَ النقودِ الذّهبيةِ كهديةٍ منه. فَرِحَ ابنُ بطّوطة برعايةِ الحاكمِ له ، واطمأنّت نفسُه عندَما رأى الله يضعُ له في طريقِه مَن يرعاه ويحبُّه ويُشفِقُ عليه.

فذَهبَ عنه التشاؤمُ الذي سادَ نفْسَه، وارتفعت رُوحُه المَعنوية، واستعدَّ لمواصلةِ الرِحْلة.

وصَلَ الركبُ الى مدينةِ (بونة). فأقاموا بها أياماً. وذات يوم، مالَ الشيخُ الزُّبيدِي على ابنِ بطّوطة قائلاً: «يا بُنيّ... علينا أنْ نفارقَ التجّارَ الذين بصحبتنا، فسفرُنا معهم يُعرِّضنا لهجماتِ اللصوص في الطّريق.. فهل أنت مستعدٌّ الآن للسَّفر؟..»، قال ابنُ بطّوطة: «أرى أنّ الحُمَّى التي أصابتني قد خفّت حِدَّتُها... وأشعرُ أن بامكاني أن أمْضِيَ معك في سفرك... فلنتوكلْ على الله».

لكن ما إن بَدأت الرِحلة، حتى اشتدَّ المَرضُ على ابنِ بطّوطة، ورآه الشيخُ الزّبيدي يَهتزُّ فوقَ حِصانه، يكادُ أن يسقطَ على الأرض. شدّ الشيخُ لِجامَ حِصانِه، وتوقفَ قائلاً: «يا بُنيّ... أرى أنّ وَطأةَ المَرض قد اشتدّت عليك... وأخشى إن مَضَينا هكذا أنْ تَسقَطَ من فوقَ جَوادِك.. ونحن في موقعٍ تكثُرُ فيه اللّصوص، فلا يمكنُنا أنْ نَتوقَّفَ عن السَّير.. أو نُبطئَ فيه.. فماذا تَرى في ذلك؟..». تماسك ابنُ بطّوطةَ يغالبُ الحُمّى التي تلتهبُ في جوفِه، ثم خَلَعَ شَالَ عِمامتِه، وقال مخاطباً الشيخَ الزبيدي: «يا سيدي... خُذ هذا الشّال، وارْبطْني على حِصاني حتى لا أسقط.. وهكذا أستطيعُ أنْ أواصلَ العَدْوَ، حتى نَتجاوزَ هذه المنطقةَ الخَطِرة..».

راحَ الشيخُ يَربط ابنَ بطّوطة على حِصانِه، وهو يُضْمِرُ اعجاباً بهذا الشابّ الذي لا يَستسلمُ للمَرض، والذي لديه الرغبة في أَداءِ

فَريضةِ الحجِّ، برغمِ صِغَرِ سنّه، وبرغم المَرَضِ ومَشاقِّ السفر. وهكذا مضيا، بأسرعَ ما يُطِيقان، هَرباً من قُطّــاع الطريق، حتى لاحت عن بعدٍ أسوارُ مدينةِ (تونس) فابتهجا، وحَمدَا الله على سَلامةِ الوصول.

دُموعٌ... وأَفْــراح!

ما إن شاعَ خبرُ وُصولِ الشيخِ الزُبيدي... حتى خَرجَ عددٌ من أهل المدينة يرحّبون به... يعانقون الشيخَ ويُقبّلونه، ويَحْمَدون الله على سَلامتِــه. وكان ابن بطّوطة يقفُ مُتنحياً جانباً، يشعُرُ بوحشةٍ شديدة، وهو يرى ذَلك اللقاء الحارَّ بين الأصدقاء، فلا يَجدُ من يتحدّثُ إليه، أو يرحّبُ به. ويشتدُّ عليه الإرهاقُ من عَناءِ الرِّحلة، وآثار المَرَض، والشّوقِ الى أهلِهِ وأصحابِهِ، فَتسيلُ دُموعُه في صَمْت، يجاهدُ أنْ يُدارِيَها خَجَلاً، فينتبهُ اليه الشيخُ الزبيدي، ويَرِقُّ قلبُه لرفيقِ سَفرِه، فيقدّمُه الى صَحْبِه خَيْرَ تقديم، فَيُقْبلون عليه بالسّلامِ والتّحية والإيناس، يَسألونه عن أخبارِه وأخبارِ بَلدِه، مما يعيدُ الطُمأنينةَ والسّكينةَ الى نفسِه.

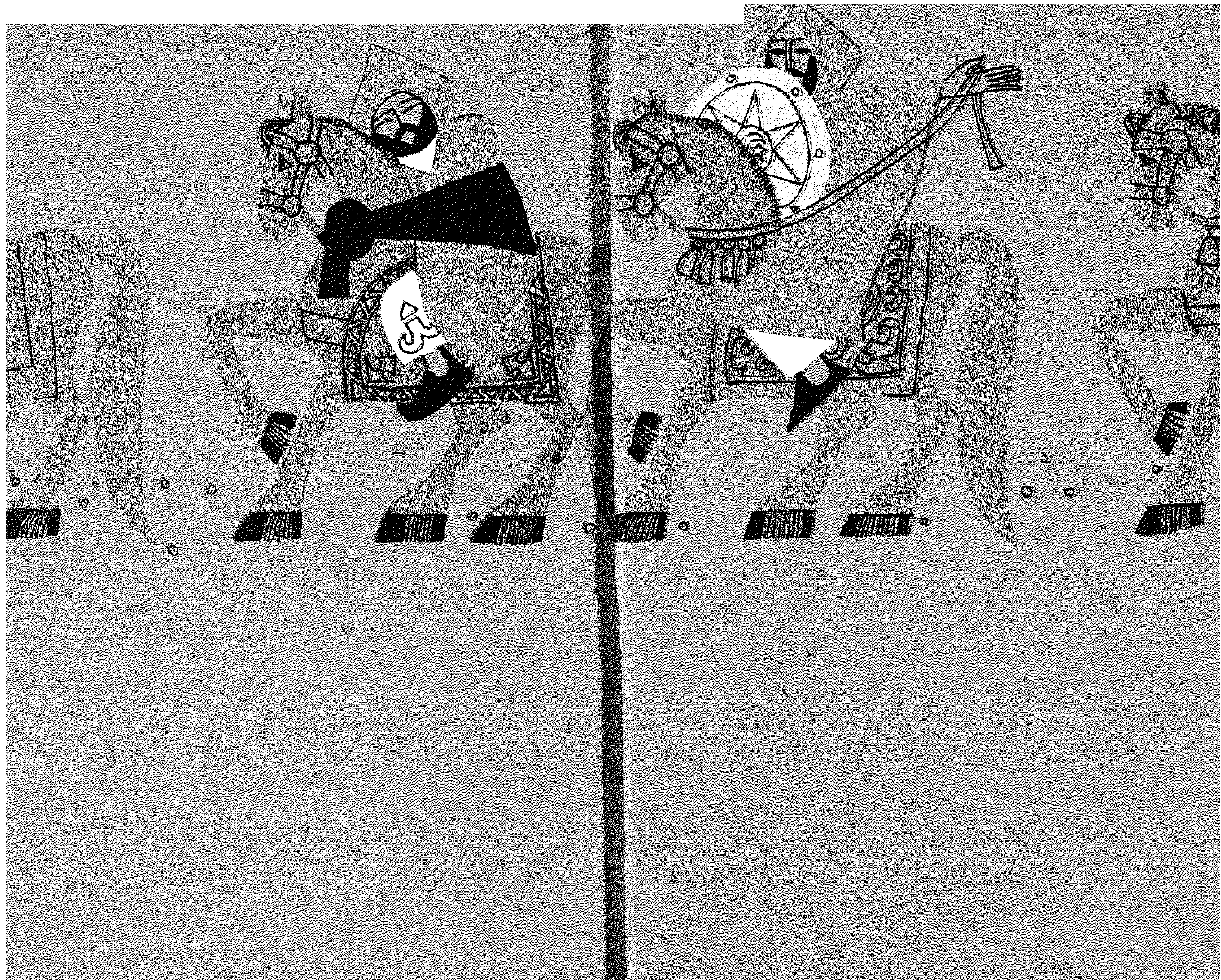
ما إن يَستقرُّ الحَالُ بابنِ بطّوطة في تونس، حتى يكونَ قد تَعرّفَ على عددٍ من عَلمائِها ورِجالِ الدِينِ فيها. وكان يجلسُ في جامِعِ الزّيتونةِ كلَّ يومِ جمعةٍ بعدَ انتهاءِ الصّلاة، يستمعُ إلى الفَقيه أبي علي الهَوّاري، وقد اجتمعَ حولَه الناسُ يَسألونه في مسائلِ الدين والشّرع،

لا يغادرُ مَجلسَه هذا ، حتى يَنتهِي من الافتاءِ في أربعين مسألة ، مما يسألُ فيه الناس ، وكان ابنُ بطّوطة يستمعُ بشَغَفٍ الى حديثِ ذلك الشّيخ ، يتطلّعُ بين الحِينِ والآخرِ الى مبنَى الجَامعِ بإعجاب. فقد كان جامعُ الزيتونةِ من أحسنِ الجَوامعِ وأَتقنِها وأكثرِها إشْراقاً ، جوانبه مسقوفة، وَوَسَطُه فَضاء قد نُصِبت فيه أعمدةٌ من خَشَبٍ على قَدْرِ ارتفاعِ الجِدار ، وَشُدّت إليها حبالٌ مَتينةٌ في حَلَقٍ من حديدٍ مُثبتةٍ فيها وفي السّقوف وعلى هذه الحِبالِ قِطَعٌ من نَسيجِ الكتّان ، تطوى وتبسط حسب الحاجة.

بقي ابنُ بطّوطةَ في تُونس ، يترقّب تحرُّكَ موكبٍ مِن مواكبِ الحجِّ المُسافرةِ الى الحِجاز ، فيحلُّ عيد الفطر ، ويستغرقُ في متابعةِ عاداتِ أهلِ تونس عندَ احتفالِهم بالعيد.

ذَهَب الى الجامعِ في صَباحِ يومِ العيد ، فرأى أهلَ تُونس وقد خَرجوا من بيوتِهم ، يَرْتدون أجملَ المَلابسِ وأثمنَها ، وراحوا يَتبادلون التّهنئةَ بالعيد.

كان سلطانُ تونسَ في ذلك الحِين ، هو السلطانُ أبو يَحْيَى بنُ أبي حَفْص ، وكان الناسُ يَنتظرون موكبَه حتى تبدأَ الاحتفالاتُ بالعيد. وفَجأة.. يتعالَى صياحُ الناسِ وضَجيجُهم خارجَ الجامعِ الكَبير ، إيذانا بِمَقْدِمِ السّلطان ، فَيُسرِعُ ابن بَطّوطة يبحثُ لنفسِه عن مكانٍ يَرى منه المَوكب ، فيرى السلطانَ رَاكباً جوادَه ، ومِن خَلْفِهِ أقارِبُه وحاشيتُه وخَدَمُه يَمْشون على أقدامِهم في تشكيلاتٍ بديعة. ما ان وصَلَ السلطانُ الى الجامع ، حتى نَزَلَ من فوقِ حصانِه ، ومضى يأخذُ مكانَه بين المُصّلين ، فأسرعَ ابنُ بطّوطة يؤدّي الصّلاة ،



واستمعَ بعدَ ذلك الى الخَطْبة. وعندما انتهى الاحتفال، انطلقَ مع الناسِ في شوارعِ تُونس، يَرى فَرْحَتَهم بالعِيد، ويشعُرُ في قَرارةِ نفسِه بحزنٍ لا تَمْحوهُ فرحةُ العيدِ مِن حولِه، فهذا هو عيدُ الفِطرِ الأولُ الذي يَقْضيه بعيداً عن أهلِه وأبناءِ بلدِه.

كانت سعادةُ آبنِ بطّوطةَ عظيمة، عندما علم أنّه قد تَمَّ تَجهيزُ رَكْبِ الحجازِ الشّريف، الذي سيُمَثِّلُ سَلطنةَ تونس في أداءِ فَريضةِ الحجّ. وعندما اتصلَ بشيخِ الركبِ وقائدِه أبي يَعقوب السّوسي، ناقشَه الشيخُ في شؤونِ الدينِ فوجدَ عنده مَعرفةً وإدراكاً لا يَتّفقان مع من كان في سنِّه، فأُعجبَ به، وعيّنه قاضياً للرَّكْب، يُفْتي في شؤون الناس أثناءَ رِحلةِ الحَجّ.

جنودٌ لمواجهةِ اللُّصُـــوص

خَرجَ الرَّكبُ من تونس، سالكاً طريق السَّاحل، وأخذَ آبنُ بطّوطةَ يتطلّعُ مِن حولِه الى المَشاهدِ التي يَراها لأولِ مرّةٍ في حَياتِه، لا يريدُ أنْ يَفُوتَه مَشهد منها.. تارةً يتطلَّعُ الى البَحرِ عن يَسارِه، ويرى أمواجَه الزرقاءَ تَرتمي في رِقّةٍ على الشاطئِ الرّمليِّ الأبيض.. وتارةً أخرى ينظرُ الى يَمينِه، فَيرى الجبلَ بتربتِه الحَمْراء، وقد انتشرت على سَفْحِه وعلى الأرضِ المنبسطةِ أمامَه، أشجارُ الزّيتون بخُضْرتِها الدَّاكنة.. شريط ممتد من الأشجار لا ينتهي. حتى وصَلَ الرَّكبُ إلى مَدينةِ (سُوسَة)، على شاطىءِ البَحر.

توقَّف الرّكب، ورفَضَ ابـنُ بَطّوطةَ أن يبقَى مع الذين بَقُوا في مكانِهم يَستريحون. ومضى يتعرفُ على هذه المدينةِ الجَميلةِ الصَّغيرة.. التي تتميّزُ بالبيوتِ البَيضاءِ النّظيفة، وبالأشجارِ الخَضراءِ المُورِقَة، وبأسوارِ نَباتِ الصَبّارِ التي تَحيطُ بحدائقِهـا، وبمينائِها الصغيرة التي تزدحم بـالسُفـن.

لم يَطُلْ توقفُ الركبِ في سُوسة، فما أنْ استراحوا بعضَ الشيء، حتى عادُوا إلى التحرّكِ من جَديد. وكان توقّفُهم بعدَ ذلك في مدينةِ (صَفَاقُس). وكعادتِه مضى ابنُ بطّوطة يتفقدُ المَدينة، فوجدَها مدينةً كبيرةً، فيها ميناء أكبرُ من ميناءِ سُوسة، ويشتغـلُ أهلُها بزراعةِ الزَّيتون، وصيدِ الأسماك.

بعد مغادرةِ صَفاقُس، لم يتوقّفْ الركبُ إلاّ في مدينةِ (قَابِس)، وفي قابِس كانت الأمطارُ تَهطُـلُ بغزارة، فاضطُرُّوا للبَقاءِ فيها مدَّةَ عَشَرةِ أيام، تعرَّف خلالَها ابنُ بطّوطة على المدينة، وما بها مِن نَخيل، ووجدَها تَشتهرُ بالبَساتين والحدائقِ الكَبيرة، التي تَحظى من أهلِ قابِسَ بكلِّ رِعاية، فتبدو جميلَةً على أحسنِ نِظام.

وقد انتهزَ شيخُ الركبِ أبو يعقوبَ السّوسي، فرصةَ إقامتِهم في مدينةِ قابِس، لِيَدْعمَ الركبَ ببعضِ الجُندِ القادِرين على استخدامِ السِلاح، لمواجهةِ عِصاباتِ اللصوصِ التي تعترضُ المُسافِرين الى مدينتِهم التاليةِ (طَرَابُلْس). وما أن غادرَ الركبُ مدينةَ قابس، وأصبحَ في الخلاء، حتى بدأَ ظُهورُ اللّصوص، فتصدّى لهم الرَّماة، مما جَعلَهم يَفّرون خَوفاً، ولا يَرجعون للتعرضِ مرّةً ثانية. وحلّ عيدُ الأضحى، والركبُ ما زَالَ في الطّريق، لم يصلْ بعد إلى مدينةِ



طَرَابُلْس ، فاحتفلوا به احتفالاً خاطفاً ، خوفاً من عصاباتِ لصوصٍ جديدةٍ تَظهرُ لَهم ، وعادُوا الى مواصلةِ السيرِ حتى أدركوا مدينةَ طَرَابُلس في أواخرِ شَهرِ مُحرَّم.

استراحَ الركبُ في طَرابلس ، انتظاراً لتحسّنِ الطّقس ، وما أن تَهيَّأت الظروفُ لمُواصلةِ الرّحلة ، حتى كانوا يُسْرِعون في طريقِهم إلى (الاسكندرية)، التي وصلوها في أولِ شَهرِ جُمادَى الأولى.

الثَّغْرُ المَحْــروس

يصلُ ابنُ بطّوطة إلى مدينة الاسكندرية ، فَيَنْبَهِرُ من اتساعِها وجمالِها ، وما يَزدحمُ فيها مِن بَشَر من كلِّ جنسٍ ووطن. فيكتبُ عنها في مذكّراتِه «هي الثغرُ المَحروس ، والقُطْرُ المَأنوس ، العَجيبةُ الشان ، الأصيلةُ البُنْيان ، بها ما شئت من تَحسينٍ وتَحْصين ، ومآثرِ دُنيَا ودِين».

يستقرُّ ابنُ بطّوطة في الأسكندرية ، فلا يتعجّلُ السّفرَ إلى ما بعدَها من مُدن ، ولكنّه في نفسِ الوقتِ لا يَرْكَنُ الى الرَّاحة ، بل تَغْلِبُ عليه روحُ العالِمِ البَاحث ، فيقومُ بالزّياراتِ العَديدةِ لأنحاءِ المدينة ، ويُجري الاحاديثَ المستفيضةَ مع أهلِها.

أولُ ما يَلْفِتُ نَظَره أبوابُ المَدينةِ الأربعة ، كلُّ بابٍ منها يَستقبلُ القادمين من جهةٍ بعينِهــا ، بابُ سِدْرة يستقبلُ القادمين من بلادِ المَغربِ العَربيّ ، وبابُ رَشيدِ يستقبلُ القَادمين من جنوبِ

المَدينة ، ثم بابُ البَحر الذي يستقبلُ رُوّاد المدينةِ الذين يَفِدون الى مينائِها . أمّا البـــابُ الرابعُ والأخير ، واسمُه البابُ الأخضر ، فلم يكنْ يُفتحُ إلاّ في أيامِ الجمعةِ من كلِّ اسبوع ، فيخرجُ منه أبناءُ المدينةِ لزيارةِ قُبورِ أهلِهم وذويهم .

ويهتمّ ابنُ بطّوطة بزيارة ميناء الاسكندرية ، فيندهشُ لضخامةِ *مرساها التي يفوق أكبرَ المَراسي التي زَارَها أو سَمِعَ عنها* . ويَقْصِدُ بعدَ ذلك الى مَنارِ الاسكندرية ، أحدِ عَجائبِ الدّنيا السبع ، فيرى أحدَ جوانبِه متهدّماً ،لكنّـه يصرّ على تفقدِ المنار الشاهِق من الخارجِ والدَّاخل ، ثم يعودُ الى الخانِ الذي كان يَبيتُ فيه ، ويُخرجُ مذكراتِه ليدوّنَ فيها ما شاهدَه في يومه ، فيكتبُ في وصفِ المَنار : « داخلَ البابِ موضعٌ لجلوسِ حارسِ المَنار ، وداخلَ المنار بيوتٌ كثيرة ، وعَرْضُ الممر بداخلِه تِسعةُ أشبار ، وعرضُ المَنارِ من كلِّ جهةٍ من جهاتِه الأربعِ مائةٌ وأربعون شِبراً ، وهو على تلٍّ مُرْتفع » . يمضي ابنُ بطّوطة في تسجيلِ مذكراتِه عن المَنار ، فيَحْرِصُ على تحديدِ موقعِ المنار بالنسبة للمدينة ، وكيفيةِ الدخولِ اليه ، وغيرِ ذلك من التفاصيلِ الدّقيقة ، التي لا ينتبهُ إليها السائحُ العَابر ، بل يهتمُّ بها العالِمُ المدقّق .



أَعظــمُ عمــامة ! !

وهكذا يَمْضي ابنُ بَطّوطةَ في تسجيلِ مُذَكّراتِه عن كلِّ ما يَراه ، ومن يَلْقاه. فهو لا يَقتصرُ على وصفِ الأماكنِ التي يَزورُها ، بل يَعمدُ الى ذِكْرِ أهمِّ الأشخاصِ الذين التقَى بهم ، وأكبرِ الأحداثِ التي تَمُرُّ بالبلادِ التي يزورُها .. ومن بينِ مَن التقَى بهم ابنُ بطّوطة ، قاضي الاسكندرية. وكان اسمُه عمادَ الدّين الكِنْديّ.

لم يكن الذي لَفَت نظرَ ابنِ مطّوطة الى ذلك القاضي ، ما يُشْتَهرُ به من عِلمٍ ، أو ما يُشاعُ عنه من حِكمةٍ وتَمَكُّنٍ من اصولِ الشّريعة .. لكنْ عِمامتُه الكبيرةُ .. عمامةٌ كبيرةٌ لم يَرَ مَثيلاً لها مِن قَبل ، وهو لا ينسى أن يكتبَ في مُذكّراتِه بعدَ لقاءِ ذلك القاضي ، فيقول : «وكان يَعتمُّ بعمامةٍ خَرقت المعتادَ للعَمائم ، لم أرَ في مَشارقِ الأرضِ ومغاربِها عِمامةً أعظمَ منها ، رأيته يوماً قاعداً في صَدرِ المِحراب ، وقد كادَت عِمامتُه أن تملأَ المِحراب».

ويَحكي ابنُ بطّوطة عن حادثةٍ وَقَعت في ذلك الحينِ بالاسكندرية ، تَعكسُ شكلَ الحياةِ بها في ذلك الحين. فيقول إنّه شاهدَ مُشاجرةً وَقعت بين أهلِ الاسكندريةِ وبعضِ التُجّارِ من الروم ، انحازَ فيها حاكمُ الاسكندريةِ وكان يسمّى الكَركيّ الى جانبِ تجّارِ الروم ، فجمعَ المُتشاجرين من أهلِ البلدِ وَحَبَسَهم في مكانٍ وأحكمَ إغلاقَ الأبوابِ عليهم. فثارت جماهيرُ الناسِ بالاسكندريةِ للظّلمِ الذي وقَعَ على أهلِهم ، وهَجَموا على ذلك المَكان ، ثم كَسَروا الابوابَ

وأفرجوا عن المَسْجونين، واتّجهوا بعدَ ذلك في غَضَبٍ وثورةٍ الى منزلِ الحَاكم. فخافَ منهم الكركيّ وتَحصّنَ في بيتِه، ثم أرسلَ أخبارَ هذا التمرّدِ الى سُلطانِ مصرَ الناصرِ قَلاوون بواسطةِ الحَمَام الزّاجل، الذي كان في ذلك الحينِ أسرعَ وسيلةٍ للاتصال.

أرسلَ السّلطانُ النّاصرُ إثنين من أعنفِ الأُمراءِ مع جُنودهِم، فَدخلا الاسكندرية، وقَبضا على كبارِ الناسِ والتجّارِ فيها، واستَولوا على أموالِهم، ووضعوا الأثقالَ الحديديةَ في عُنقِ قاضي المَدينة، ثم قتلوا ستّةً وثلاثين شخصاً من أهل المدينة.

وكان أحدُ كبارِ التجّارِ قد تقدّمَ الى الأميرين، يتوسَّطُ للصُّلح، فقال لهما: «أنا أضمنُ هذه المدينة..». وتعهّدَ بأن يُنهيَ هذه الفِتنة، ويتكفّلَ بمرتباتِ العسكرِ والجُند. فما أنْ علمَ الأميران بما عندَ التاجرِ من قاعةٍ مليئةٍ بالسّلاح، وبأنه يُنظّمُ من الأتْباع أكثرَ من مائتي رجل من المدرَّبين على استخدامِ السلاح، حتى شكّا في أمرِه، وقالا له: «انّما تريدُ الثورةَ على السّلطان..»، وكان جزاء تَدخُّلِه أن قتلوه... ويُعقّبُ ابنُ بطّوطة على هذا قائلاً: «إنّما كان قَصدُه، رَحمَه الله، إظهارَ النصحِ والخدمةِ لِلسلطان، فكان فيه حَتْفُه».



رؤيـةُ هلالِ رَمضـــان

بعدَ أنْ يَنتهيَ ابنُ بطّوطةَ من التعرّفِ على مدينةِ الاسكندرية، يقررُ مواصلةَ السّفَرِ جنوباً في طريقِه الى الحِجاز. فيمرُّ على العديدِ مِن مُدنِ مِصر، تارةً يسعَى على اليابسة، وتارةً أخرى ينتقلُ بالمَراكبِ التي تسعَى في النّيل.

يمرُّ على مدينةِ (دَمَنْهُور)، فيقول فيها: «.. وهي مدينةٌ كبيرة، جِبَايتُها كثيرة، ومحاسنُها أثيرة، أُمُّ مُدنِ البُحَيرةِ بأسرِها، وقُطبُها الذي عليه مَدارُ أمرِها». ثم يصلُ الى مَدينةِ (فوّه)، سائراً في محاذاةِ النّيل، حتى مدينةِ (أبيار).

ويصفُ ابنُ بطّوطة مدينةَ أبيار فيقول عنها: «قديمةُ البناء، كثيرةُ المَساجد، ذاتُ حُسنٍ زائد. تُصنعُ بها ثِيابٌ حِسَان، تَعلو قيمتُها بالشّام والعراق». وفي أبيار يصفُ ابنُ بطّوطة احتفالَ المدينةِ برؤيةِ هِلالِ رَمَضان. ويصفُ كيف اجتمعَ فُقَها المَدينةِ وكبارُها بعدَ العصرِ بدارِ القاضي، وعندَما اكتملَ حضورُهم، ركبَ القاضِي ومِنْ خَلفِه باقي مَن بالبَيت، ومن خلفِهم نسا المدينةِ وصِبيانُها، حتى وَصَلوا الى موقعٍ مرتفعٍ خارجَ المَدينة، يَرقُبون منه الهلال. وقبلَ وُصولِهم، كان بعضُ الرجالِ قد تَوَلّوا فَرشَ المَكانِ بالبسط والسَّجاجيد، ليجلسَ عليها القاضي ومَنْ معه يَرقُبون ظُهورَ الهِلال. وعندما ثَبَتَتْ رؤيةُ الهِلال، عادُوا الى المدينةِ بعدَ صَلاةِ المَغرب، وبين أيديهم الشُّموعُ والمَشاعلُ والفَوانيسُ لتبدأَ الاحتفالاتُ بالشَّهرِ الكريم.

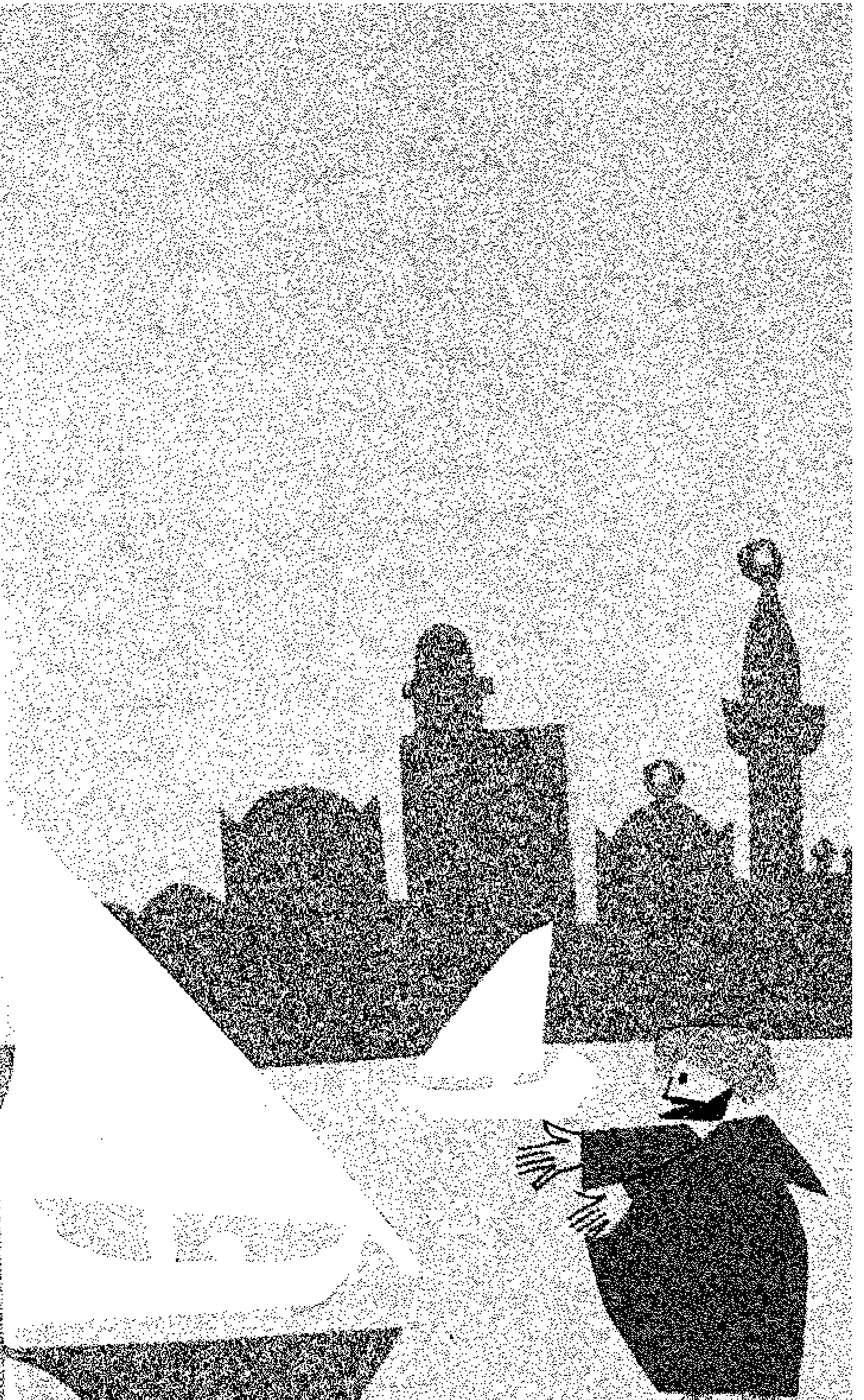
سُورُها حَلْوَى وكِلابُها غَنَم

يبدأ ابنُ بطّوطة تَحرّكَه من أبيار، وبدلاً من أن يَتّجه جَنوباً على امتداد فرعِ رشيد، حتى يصلَ إلى القاهرة، يسمعُ في أبيار عن مدينةِ (المَحلَّة الكبرى)، وَسَطَ دَلتا النيل، فيرحلُ شَرقاً إليها، ثم يَسمعُ عن مدينةٍ عجيبةٍ على فَرعِ النيلِ الآخر، قريباً من البَحر، يَصِفونها بأنَّ «سُورَها حَلْوى، وكلابَها غَنَم!»... ذلك أنّ أشجارَ المَوزِ الكثيرةَ تُحيطُ بها، كما أنّ غَنمَها كثيرة تَسعى في أنحائِها ليلاً ونهاراً بلا رَقيب.

هكذا يرتَحلُ ابنُ بطّوطة إلى مدينةِ (دمياط)، فيُعْجِبُه تَرتيبُها الجَميل، فيقولُ عنها: «فسيحةُ الأقطار، متنوعةُ الثِّمار، عجيبةُ التّرتيب آخــــذة من كــــل حسن بنصيب. وبلفت نظره في دُميـــاط إجْرءات الأمـنِ التي كـــانت متّبعـــةً في ذلك الحِين، وكيف ينظّم حـــاكمُ المَـــدينـــةِ دُخولَ النّـــاس، ثم خروجَهم، إذا دَخَـــلَ المدينـــةَ أحَـد، لا يخرجُ منهـا إلاّ بِمُـوجبِ قِطعـةٍ منـالـورقِ عليهـا خـاتَمُ المدينـة (مـا يقـابـلُ جَوازَ السّفرِ اليوم)، يُظهرُهـا للحرّاسِ حتى يَسمحوا لــه بمغـادرةِ المدينـة. أمّـا عـامّـةُ النـاسِ، فَيَتِمُّ وضْعُ الختمِ على ذِراعِ كلٍّ منهم...

ولا يقتصرُ ابنُ بطُّوطة على تسجيلِ وصفِ المدينةِ كما يَراها عندَ زيارتِه لها، بل يروحُ يَبحثُ في تاريخِها، وما مرّ بها من أحداث، فيقولُ عن دُمياط: «ودمياطُ هذه حديثةُ البِناء، والمدينةُ القديمةُ هي التي خَرّبها الفرنجُ في عهدِ المَلكِ الصالح»، والصحيحُ أنّ خَرابَ





دُمياطَ تَمّ في حقيقةِ الأمر على يَدِ أمراءِ مصرَ من المماليك خَوفاً من عودةِ الصّليبيين اليهـا بعـدَ هُجومهم عليهـا في عـامَي ١٢١٩م، و١٢٤٩م.

رِحلـةٌ في النيـل

بعدَ دمياط، يبدأُ ابنُ بطّوطة رِحلتَه إلى القاهرة. فيمرُّ على عِدَّةِ مدن، وعندَما يصلُ الى مدينةِ (سَمَنّود)، يركبُ مَركَباً بالنيلِ يَتّجه إلى القاهرة (أو كما يُسمِّيها، مصر).

عندَما يَمْضي المَركَبُ مُتهادياً في لُطفٍ على صَفحةِ النّيل، يتطلعُ ابنُ بطّوطة إلى المشاهدِ التي تَمرُّ به بطيئةً مُنْسابة، ويستمتعُ بالجو اللطيفِ وبنسماتِ النيلِ الرّقيقة، فيتذكرُ ما عاناه في بدايةِ رحلتِه من مِحَنٍ ومَصَائب. يتذكّرُ قَسوةَ الجوّ، مِن حرٍّ لافحٍ الى عواصفَ مُمْطرة. يتذكّرُ الخوفَ والفَزَعَ والهَربَ من عِصاباتِ اللصوص. يتذكرُ المَرَضَ والحُمّى، فَيحمدُ الله على ما هو فيه، ويقولُ واصفاً هذه الرِحلة: «ركبت النيلَ مُصعِّداً الى مصر، ما بينَ مدائنَ وقُرًى مُنْتَظَمة، مُتّصلٍ بعضُها ببعض، ولا يفتقرُ راكبُ النيلِ الى استصحابِ الزَّاد، لأنّه مهما أرادَ النزولَ للشّاطئ، نَزَلَ للوضُوءِ والصّلاة، وشراءِ الزادِ وغيرِ ذلك».

يَمضي ابنُ بطّوطة في رِحلتِه النيليةِ هذه، يحلُمُ بالوُصولِ الى مدينةِ القاهرة.. أو مصرَ كما كان يُسمّيها. ويتذكّرُ ما سَمِعَه من

اساتذتِه وأصدقائِه عن هذه المدينةِ الكَبيرة ، التي لا يَمَلُّ الحديثَ عنها ، مَن زارَها ولو مرّةً واحدة .

يتذكَّر ابنُ بطّوطة وصْفَ الشيخِ عبدِ اللّطيف ، صديقِ والدِه ، وكلماتِه التي كان يُلقيها بصوتِه الرّائقِ عن مِصرَ بعدَ أن زارَها ، يتـذكّرُه وهو يقولُ : « مصر... أمُّ البِلاد ، وقَرارةُ فِرْعونَ ذِي الأوتاد ، ذاتُ الأقـاليمِ العَريضة ، والبلادِ الأرِيضة ، المتناهيـةُ في كَثْرةِ العِمارة ، المتناهيةُ في الحُسنِ والنَّضارة ، مِجْمعُ الوَاردِ والصَّادر ، ومحطُّ رَحْلِ الضعيفِ والقَادر ، وبها ما شِئتَ من عالِمٍ وجاهل ، وجادٍّ وهازل ، وحليمٍ وسَفيه ، ووضيعٍ ونَبيه ، وشريفٍ ومَشْروف ، ومُنْكَرٍ ومَعروف ، تموجُ موجَ البَحرِ بسُكَّانِها ، وتكادُ تَضيقُ بهم على سَعَةِ مكانِها ، شَبابُها يَجدُّ على طُولِ العَهد ، وكوكبُ تَعديلِها لا يَبرحُ عن مَنْزِلِ السَّعد ، قَهَرت قاهِرتُها الأممَ ، وتَملّكت مُلوكُها نواصيَ العربِ والعَجَم ، ولها خصوصيةُ النيلِ التي جلّ خطَرُها ، وغَنَاها عن أنْ يَستمِدَّ القَطْرَ قُطْرُها ، وأرضُها مسيرةُ شهرٍ لمُجِدٍّ السَّير ، كريمةُ التُّربة ، مُؤنسةٌ لذوي الغُربة ».



اثنا عَشَرَ ألـفَ سقّــاء..

وأولُ ما يَلفِتُ نَظرَ ٱبنِ بطّوطة في القَاهرة، اتّساعُها الشّديد، مع كثرةِ ما بها من سُكّان، بالقِياسِ الى المُدنِ التي عَرَفَها مِن قبل. يُدهشُه أنّ بمصرَ من السقّائين الذين يَجْلِبُون الماءَ الى الدُّور فوقَ ظُهورِ الجِمالِ اثْني عشرَ ألفَ سقّاء، وأنَّ بها ثَلاثين ألفَ مُكارٍ يسوقُ كُلٌّ منهم حِمارَه لِيُقَدِّمَ خِدْماتِه لأهلِ القاهرة، سواءٌ في نقلِ الناسِ أو البَضائع. تَبْهَرُه البَساتين الجميلةُ الكَثيرة، وأماكنُ النُّزهةِ العَديدةُ، وأنواعُ المَلاهِي المُبْتَكَرة.

أمّا النيلُ، فيبعثُ في نَفْسِ ٱبنِ بطّوطة الاعجابَ والاحْترام، فيقولُ عنه: «أفضلُ أنهارِ الأرضِ عذوبة مَذَاقٍ، واتّساعَ قُطْرٍ، وعِظَمَ مَنْفَعة، والمدنُ والقُرى بضِفّتيه مُنتظَمة، ليس في المَعمورةِ مثلُها»، وهو يقول انّ بنيلِ مصرَ من المراكبِ ستةً وثلاثينَ ألفاً تَمْلِكُ الدّولةُ بعضَها ويَمْلِكُ الناسُ باقِيها. وإنَّ هذا العدَد من المراكبِ يَسعى بنشاطٍ بين صعيدِ مصرَ وبينَ الاسكندريةِ ودُمياط، موانىءِ مصرَ التي تُطلُّ على البحرِ الأبيضِ المتوسّط، أو (بحرِ الروم) كما كانوا يُسمّونه في ذلك الحِين.

ويقف ٱبنُ بطّوطَة مُنبهراً أمامَ ضَخامةِ الأهراماتِ وغيرِها من الآثارِ الفِرْعونيةِ بالقُربِ من القاهرة، ويقولُ إنّها من العجائبِ التي يتحدّثُ الناسُ عنها على مرِّ العُصور. وٱبنُ بطّوطة لا يكتفي بمشاهدةِ

الأهراماتِ وقياسِ أبعادِها ، بل يَمْضي يسألُ عن سرٍّ هذه الأَحْرامِ المرتفعةِ الهائلة ، ويروحُ يَجمعُ الرواياتِ حولَ الحِكْمةِ من إقامتِها ، والهدفِ من تَشْييدِها.

زيــارةُ المَدافـــن..

وفي القاهرة ، ينسى ابنُ بطّوطة نَفْسَه ، وينسَى الرحلةَ التي تنتظرُه الى الحجاز ، ويتعجَّبُ لمظاهرِ العُمرانِ التي تَتميّزُ بها المَدينةُ الكبيرة. يتعجَّبُ لعددِ المَدارسِ في القاهرة ، ذلك العددُ الذي لا يُمكنُ لأحدٍ أن يُحيطَ به لِكَثْرته. كما يَعْجَبُ لحسنِ تنظيمِ المستشفياتِ والمؤسّساتِ العِلاجيّة ، وما يَتوافَرُ فيها من المَرافقِ والأدوية ، ويُدْهِشُه أن يَبْلُغَ إيرادُ هذه المُستشفيات ، وما يدخلُ خزائنَها كُلَّ يوم ، ألفَ دينار.

وأغلبَ أوقاتِ الرَّاحة ، يُمْضيها ابنُ بطّوطة في المساجد ، فيُعْجبُه مِن بينِها ، مسجدُ عَمْرو بنِ العاص. ويذكُرُ كيف إن امراءَ مِصرَ يَتنافسون في بناءِ الزَّوايا ، أو أماكنِ التفرّغ لِلعِبادَة ، وكيف إن هذه الزَّوايا كانت ملجأً لطوائفِ الفُقراءِ من أهلِ مِصرَ وزُوّارِها الأغراب ، لِما كانت تُيَسِّرُه من مطالبِ الحَياة ، مِن غذاءٍ وشَرابٍ وكِساء.

وابنُ بطّوطة يسجّلُ في مُذكّراتِه ، كُلَّ ما يَلفِتُ نظَره من عاداتِ أهلِ القاهرةِ التي يَراها غريبةً عليه. ومن هذا ، عادةُ أهلِ

المَدينةِ في زيارةِ المَدافنِ والقُبور، ليلةَ الجُمعةِ من كلٍّ أُسبوع. ويصفُ مَبيتَ الرجالِ والنّساءِ والأولادِ في المقابرِ في لَيالي الجُمُعة، وفي المناسباتِ الأخرى، مِثْلِ ليلةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبان. ويصفُ ابنُ بطّوطة كيف تَدُبّ الحَياةُ في أرضِ الأموات، فَتتحرَّكُ الجُموعُ ذاهبةً آتية، ويتكاثَرُ الباعةُ الذين يُوفِّرون لزوارِ المقابرِ ما يحتاجونه من صنوفِ المأكَلِ والمَشْرَب. ويقولُ في وصفِ مقابرِ القاهرة: «عظيمةُ الشّأن، وهم يَبْنون بها القِبابَ الحَسَنة، ويَجعلون عليها الحيطانَ فَتكونُ كالدّور، ويَبْنون بها البُيوت، ويُرتِّبون القُرّاءَ يَقرأون ليلاً ونهاراً بالأصواتِ الحِسَان».

الأميرُ حِمَّصٌ أَخْضــــر

ثم يتحدّثُ ابنُ بطّوطة عن حُكّامِ مصر، وكبارِ مَن فيها. فيذكرُ سُلطانَ مصرَ في ذلك الحِين، الملكَ الناصرَ قَلاوون، وكيف إنه كان يُنفقُ المالَ الجَمَّ كلَّ عامٍ لاعانةِ الحُجّاج، ويقدّمُ لهم الجِمالَ التي تَحمِلُ الماءَ والزاد، وتحملُ فوقَ ظُهورِها مَن كان ضعيفاً لا يَقْوَى على المَشْي.

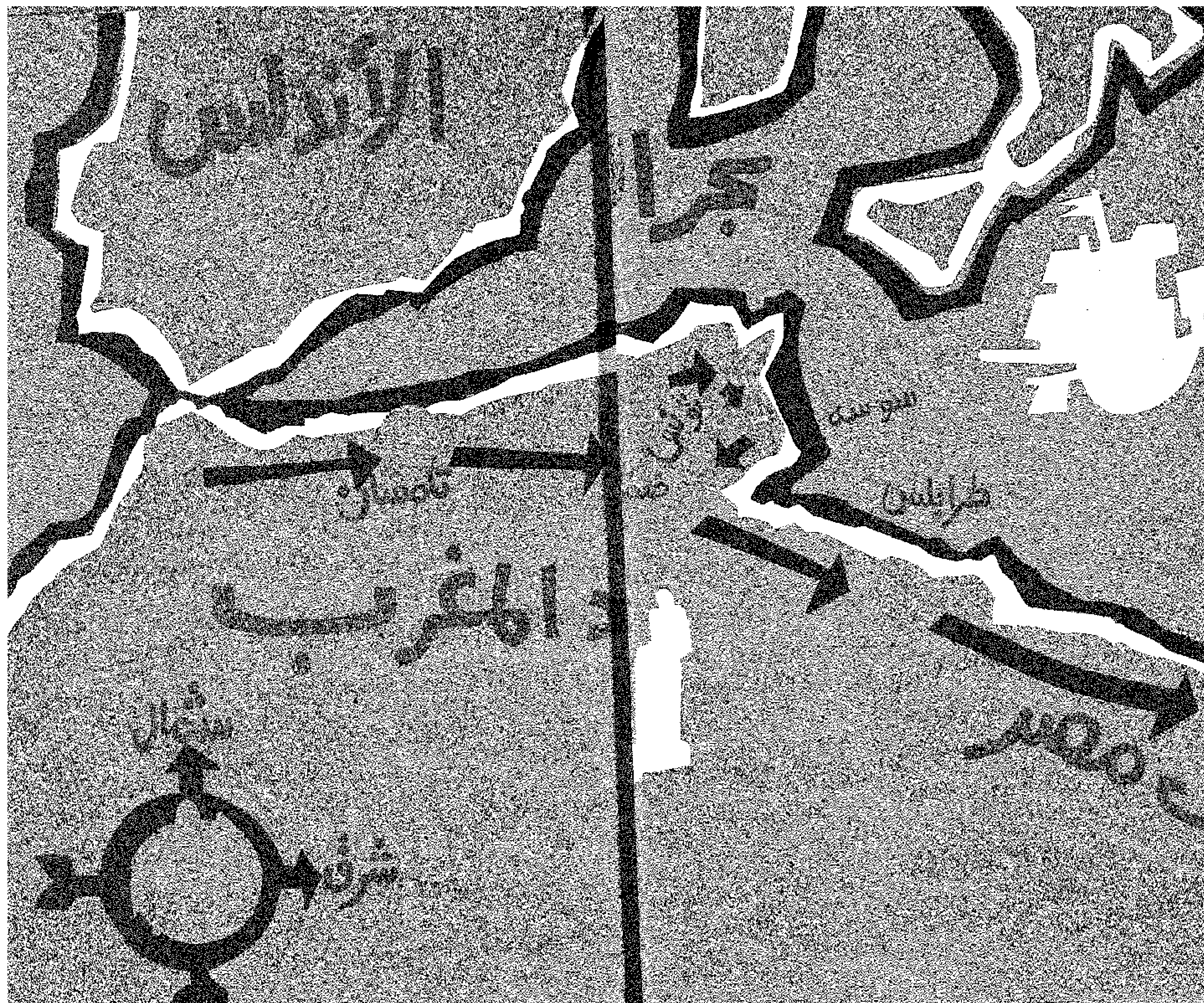
ويسجّلُ ابنُ بطّوطة في مذكّراتِه ما بَلَغَه عن أحدِ أمراءِ مِصر، واسمُه طشط، وإنْ كان الناسُ في مصرَ يُطْلقون عليه اسمَ (حِمّص أخضر).. ويَمتدحُ ابنُ بطّوطة ذلك الأمير، لكرمِه وعَطْفِه على الفُقراء، ولِما يُقدِّمُه اليهم من مالٍ وكِساء، ولما يُيَسّره لهم من تَعليم.

ويَروي كيف ثارَ هؤلاء الفقراء ثورةً كبيرةً يومَ أن سجنَه الملكُ الناصرُ ذاتَ مرّةٍ. كيف تجمّعوا بالآلافِ أسفلَ القلعةِ حيثُ يُقيمُ المَلك، وهتَفوا بصوتٍ واحدٍ يَسُبّون الملكَ الناصرَ قائلين: «يا أعرج النَّحْس.. أخرِجْه؟..». ويحْكي كيف رَضَخَ الملكُ لندائِهم فأفرجَ عنه.

ولا ينسى ابنُ بطّوطة، بحكمِ بيئتِهِ ودراستِه وعَملِه، أن يذكُرَ الكثيرَ عن عُلماءِ مِصرَ وقُضاتِها، ويذكرَ قوّةَ هؤلاء في الحقّ، ومكانتَهم ومهابتَهم. فيقول إن قاضي المذهب الحَنفيّ، الامامَ شمسَ الدينِ الحَريري، كان شديدَ السَّطْوة، لا تأخذُه في الله لومةُ لائم، ولذا فقد كان الملكُ الناصرُ يَخافُه، ويقولُ لجاسائِه، إنّي لا أخافُ أحداً، إلاّ شمسَ الدين الحريريّ.

... وجاءَ يومُ الرَّحيـــــل

يَحِلّ شَهرُ رَجَب... ويشهدُ ابنُ بطّوطة موكبَ المَحمَلِ بالقاهرة، وهو الاحتفالُ الذي يَجري للركبِ المسافرِ الى الحِجاز، يحملُ الكُسوةَ الجَديدةَ للكعبةِ الشَّريفة. ويصفُ ابنُ بطّوطة ذلك الموكبَ المَهيبَ فيقولُ: «يركَبُ فيه القضاةُ الأربعة، ووكيلُ بيتِ المَال، والمُحْتَسِب.. ويركبُ معهم أعلامُ الفُقهاءِ وأربابُ الدَّولة، ويَقصدون جَميعاً بابَ القَلعة، دارَ المَلكِ الناصرِ قَلاوون. فيُخرجُ إليهم المَحْمَلَ على ظهر جَمل، وأمامَه الأميرُ المعيّنُ لسفرِ الحِجازِ في تلك السّنة، ومعه عَسكرُه، والسّقّاؤون على جِمالِهم..». ويجتمعُ في


الأندلس
بحر
تونس
طرابلس
المغرب
مصر
شمال
شرق

هذه المناسبةِ كافّةُ طوائفِ مصرَ رجالاً ونساءً ، وتَطوفُ الكُسوةُ الشريفةُ بموكبِها أنحاءَ القَاهرة ، يتقدّمُ الموكبَ عددٌ من المُنْشِدين ، يُردِّدون المدائحَ النَّبوية . وكان هذا يذكّرُ الناسَ بفريضةِ الحَجّ ، ويدفعُ القادرَ منهم على القِيامِ بها .

بَدأَ ابنُ بطّوطة يُعدُّ العُدّةَ للجولةِ الأخيرة القَصيرة ، التي سيختتمُ بها رِحلتَه الى الأراضي الحِجَازية . وفيها يتّجهُ جَنوباً على امتدادِ النيلِ حتى مدينةِ (أدفو) بصعيدِ مصر ، ثم يخترقُ الصَّحراءَ الى مدينةِ (عيذاب) على شاطئِ البحرِ الاحمر ، وبعدَها يَعْبُرُ البَحرَ الأحمرَ الى غايتِه التي أمضى الشهورَ الطويلةَ يَسعَى اليها ... مكّةَ المُكرّمة ، والمدينةِ المُنوّرة .

أحسَّ ابنُ بطّوطة أنَّ غايتَه قد أصبحت دانية ، وأمنيةَ قلبِه قد أَضْحَتْ قَريبة . أسعَده أنْ يُصبحَ السفرُ دَاخلَ الأراضي المصريةِ مُيسَّراً ، فجوُّها لطيف لا يُشبهُ في شيءٍ ذلك الجوّ الذي عانى منه في بدايةِ رحلته ، لن يواجهَ الحرّ اللافحَ أو العواصفَ المُمطرة ، ولن يُعانيَ منها مرّةً ثانية . كما أنّ طُرقَ مصرَ آمنة ، لا يَتهدّدُها اللّصوصُ وقطّاعُ الطُرُق ، الذين عَمِلَ لهم حِساباً في أولِ رِحلتِه .

بهذا الحَماسِ والتّفاؤُلِ ، خَرجَ ابنُ بطّوطة من القاهرةِ مُتَّجِهاً الى صعيدِ مصر . لكنّه لم يكنْ يَعرفُ ما تُخبّئُه له الأقدار ، مما يَقْلِبُ خِططَه رأساً على عَقِب ... ذلك الذي ينتظرُه عنْدَ شاطئِ البحرِ الأحمر ... أو بحرِ القُلْزُم ، كما كانوا يُسمّونه في ذلك الحِين .

والى الحلــقة القــادمة



مغامرات ابن بطوطة

٢

وادي جهنم

اعداد : راجي عنايت

رسوم : بهجت عثمان



نَبُؤَةُ الرّجلِ الصّالح

مَضت أكثرُ مِن سنةٍ منذ أَن خَرجَ ابنُ بطُّوطَة من دارِه، مُنْتوياً الحجّ إلى بيتِ الله.. سنةٌ كاملةٌ أو أكثرُ صادَف فيها ما تَوقّعه وما لَم يتوقعْه من المَصاعبِ والمَشاقّ.. البحثِ عن رُفقاءِ السَّفر.. تَفادي اللصوصِ وقطّاعِ الطرق على طُول الساحلِ الافريقيّ الشّمالي، مِن طَنْجَة حتى الاسكندرية.. المَرضِ والحمّى، والسّفر مَربوطاً على ظهرِ حِصانِه حتى لا يسقطَ من فَرْطِ الإعْياء.. العواصفِ والأمطار، ثم الشمسِ الحارقة..

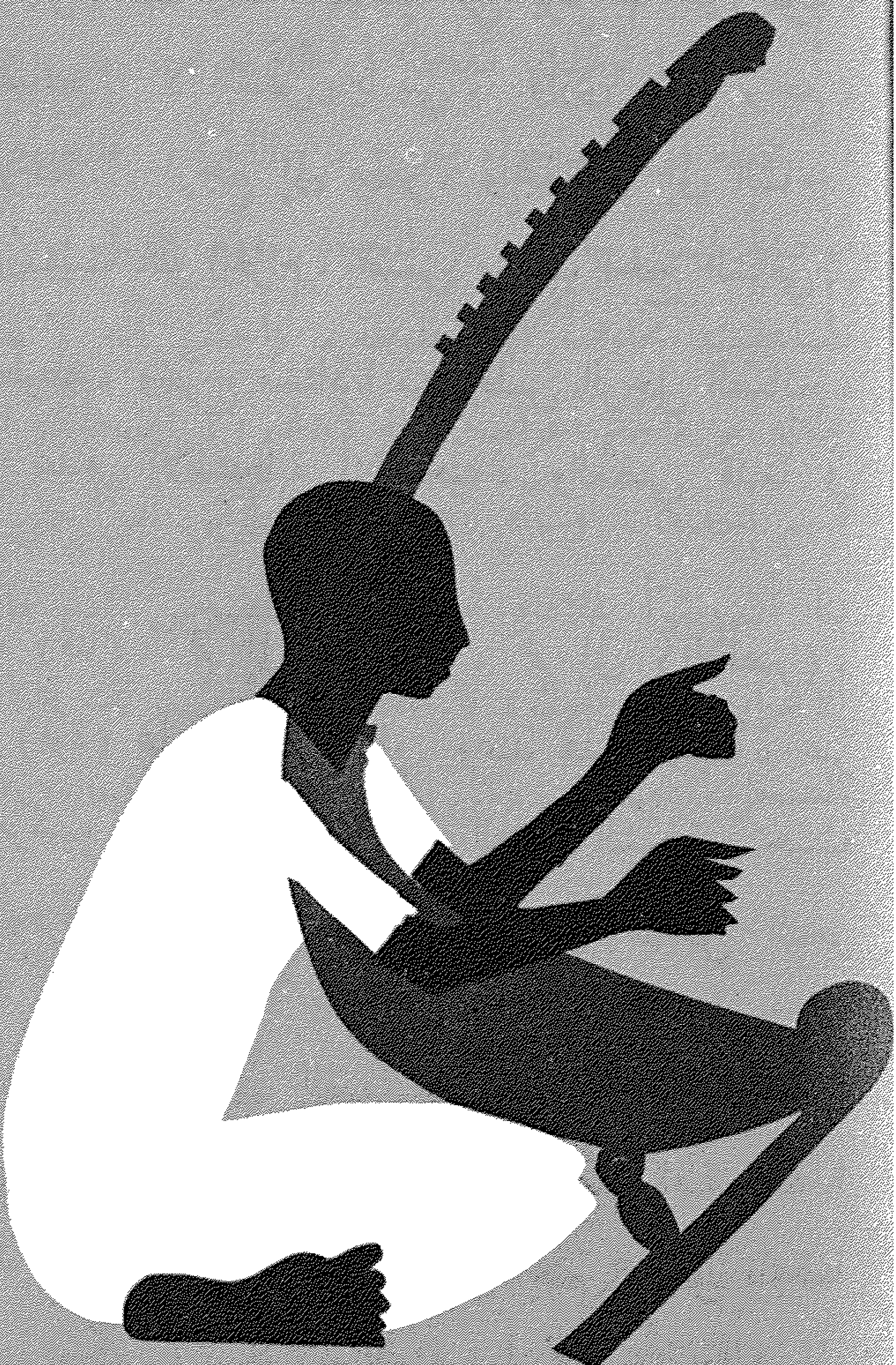
حَقاً، لقد اطمأنَّتْ نَفْسُه بعدَ دُخوله إلى الاسكندرية، وأثناءَ تَجْوالِه بينَ مُدنِ الوَجهِ البحريّ لمِصر.. لكنّ الغايةَ التي سَعَى إليها، والتي استهدفَها منذُ أن غادَرَ دَارَه، وفارقَ أَهلَه، لم تَتحقّقْ بَعدُ. في الحلْقةِ السابقةِ تَركناه في مصرَ (القاهرة)، وقد حَضَرَ احتفالَها بدَوَرَانِ المَحْمَلِ الذي يَحْمِلُ الكُسْوَةَ الشريفَةَ المُسافرةَ إلى أرض الحِجاز، يستعدُّ للسفرِ جَنوباً في صعيدِ مصرَ حتى يَصلَ إلى (عيذاب)، ومنها

يعبرُ البحرَ الأَحمر، أو بحرَ القُلْزُمِ كما كان يُدْعى في ذلك الحين، متّجهاً إلى غايةِ قَلْبه ومُنَى نفسِه.. مكّة المكرّمة، والمدينةِ المنوّرة.

والآن، يخرجُ ابنُ بطّوطَة من القاهرة، لِيَبيتَ ليلتَه الأولى في المخيّم الذي بَنَاه رجلٌ يُدعى الصاحبَ تاجَ الدّينِ بنَ حِنّاء، والذي يجتمعُ فيه الحُجّاج، فيقدّمُ إليهم الطّعامَ والشّراب قبلَ خروجهِم في رحلة الحجّ.. وفي صباح اليومِ التالي تَحرّك الرّكبُ الى النّيل، حيثُ هَبَطَ الحجّاجُ إلى المراكبِ التي في النّيل، والتي ستَمْضي بهم جَنوباً، تَمرُّ على مدنِ الصعيدِ الصَّغيرةِ والكَبيرة. مدينة (بوش) التي تَشتهِرُ بزراعةِ الكتّان وتصنيعِه، ثم (دلاص)، حتى وَصلوا إلى مدينةِ (البَهْنَسا) ذاتِ البَساتينِ الجَميلة، والتي تَشتهِرُ بصناعةِ المَلابسِ الصّوفيّة الجيِّدة، فَيبيتون فيها ليلةً واحدة، ثم يُبَكِّرون في صباحِ اليوم التالي ليواصلوا رِحلتَهم.

تمضي الرحلة على هذا النّظام حتى مِدينةِ (أدْفُو).. السفرُ طَوالَ النّهار، وأغلبَ اللّيل، ثم المبيتُ في أولِ مدينةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ يَمرّ بها المَركَب... ثم مواصلةُ السّفرِ من جديد. يمرّ ابنُ بطّوطةَ بمدينةِ (أخميمِ) فيتوقّفُ عندَها، تُدهشُه الآثارُ الفِرْعونيةَ التي يَرَاها بها.. وتَلْفِتُ نَظرَه بما عليها من نقوشٍ ورسومٍ وكِتابات، فيقولُ في وصفِ أحدِ المعابدِ الفِرْعونيةِ القَديمةِ التي زَارَها: «وهو مبنيٌّ بالحِجَارة، في داخلِه نُقوش وكتاباتُ الأوائل، لا تُفْهَمُ في هذا العَهد، وصورُ الأفلاكِ والكَواكِب.. وبها صورُ الحَيواناتِ وسواها».

بعدَ أخميمَ يصلُ ابنُ بطّوطة إلى مدينةٍ بصعيدِ مصرَ تسمّى (هــو)، فيقيمُ بإحدَى مدارسِها، حيث يلتقي هناك برجل من



الصّالحين. بعدَ الترحيبِ وتبادل التحيّات، سأله الرّجل: إلى أين يا بُنَيّ؟..، أجابَ ابنُ بطّوطةَ بفخرٍ وسَعادة: أَقصِدُ حجَّ البيتِ الحرامِ عن طريقِ مدينةِ (جُدّة). أَطْرقَ الرجلُ الصالحُ بَعْضَ الوَقت، وظَهَرت على وجههِ علاماتُ الأسف، ثم قال: أرى انّك ستصلُ إلى البيتِ الحَرامِ عن طريقِ الشّام، وليس عن طريقِ جُدَّة...

انْقَبَضت نَفْسُ ابنِ بطّوطة لهذه الكَلمات، وبقيَ في مكانهِ صامتاً، ينظرُ إلى الرّجل، ولا يجدُ الكلماتِ التي يَردُّ بها على قوله، فاستدركَ الرجلُ الصّالح: لا تبتئسْ يا بُنيّ، وأرى أن تَرجع، فلاَ فائدةَ من هذه الرِحلة... ارجعْ إلى مِصر، واتجهْ منها إلى الشّام.. فإنني أشعرُ أَنك ستزورُ بيتَ اللهِ الحرام، ضمنَ موكبِ الحجِّ الشامي..

لم يتكلّمْ ابنُ بطّوطة، وخرَج مستأذِناً من مجلسِ الرجلِ الصّالح، وقد عقدَ العَزمَ على عدمِ الاستجابةِ لنصيحتِه، والمُضيِّ قُدماً في رحلتِه.

سافَرَ إلى مدينةِ (قَنَا)، ثم إلى (قوص)، ثم إلى (الأُقْصر)، حتى وصلَ إلى مدينةِ (فُوّة) على شاطئِ النيل. وعندَ هذه المدينة، عبرَ ابنُ بطّوطةَ النيلَ في مركَبٍ شراعي، ليَصلَ إلى الضِفّةِ الشّرقية، حيثُ تبدأُ رحلَتُه عبرَ الصحراءِ المُقفرة، حتى يصلَ إلى ساحلِ البحرِ الأحمر.

عندَما وَصَل ابنُ بطّوطةَ إلى الضِفّةِ الشَّرقية، رأى الحجّاجَ يَتسابقون إلى استئجارِ الجمالِ التي ستنقلُهم عبرَ الصَّحراء، فحذا حَذْوَهم، وإن كان قد شَعَرَ ببعضِ الخَوف، عندما همّ الجَمَلُ ناهضاً وهو جالسٌ على ظَهرِه، يَنكفىءُ تارةً إلى الأمام، ليرتميَ بعدَ ذلك إلى

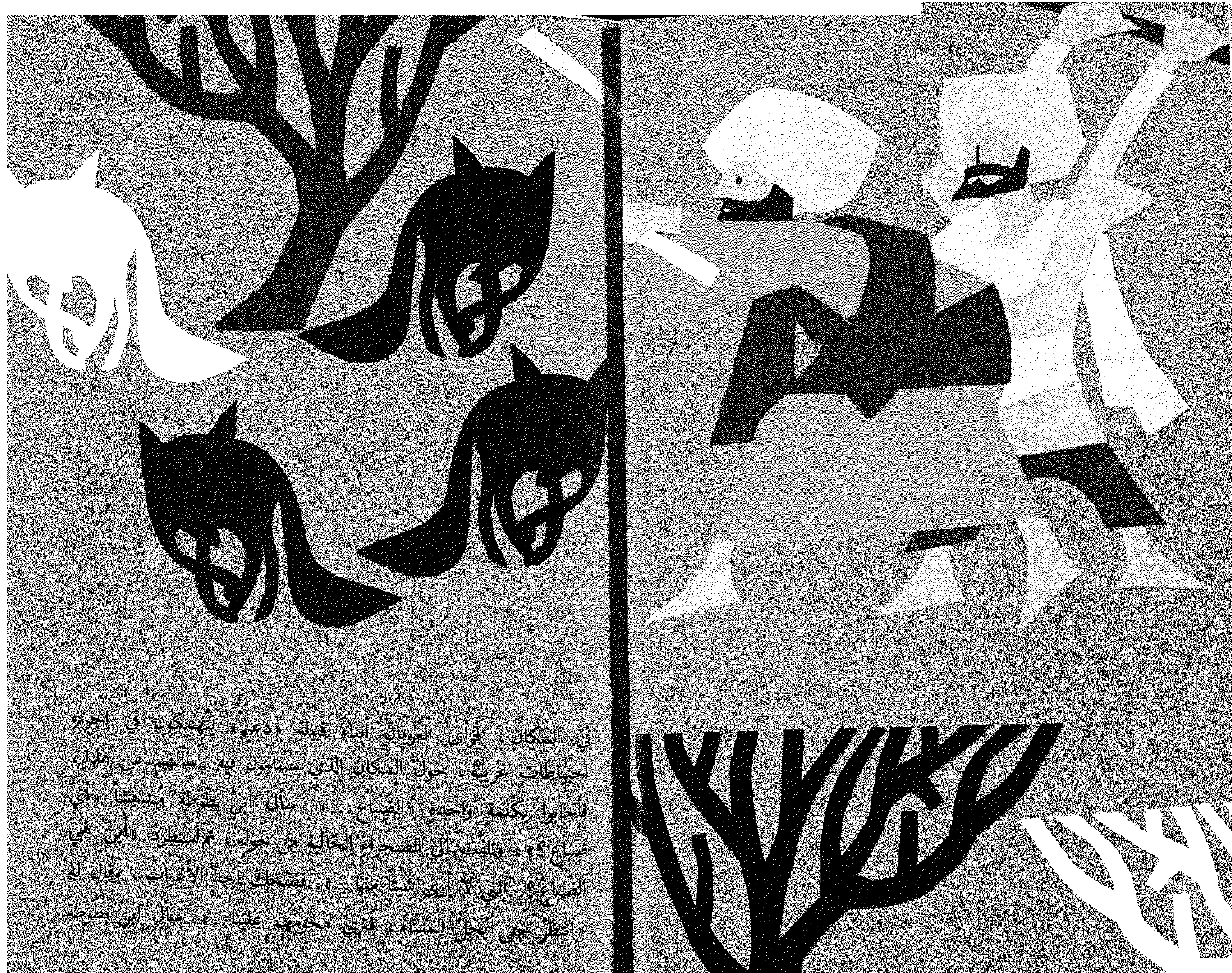
الخَلْف، وقد أمسكَ جيداً بمُقَدِّمةِ السَّرْجِ، حتَّى لا يَسْقُط. لكنْ ما إن بدأت الرِحلة، وأَصبحوا وَسَطَ الصّحراء، حتى نسيَ ابنُ بطّوطةَ مخاوفَه، وشعَرَ بِخَدَرٍ لطيف، بتأثيرِ حَرَكةِ الجمَل، تلك الحركةُ الرَّتيبةُ المُنْتَظَمة.

هجوم الضباع على القافلة

ما إن تَوغّلت القافلةُ في الصّحراء، حتى أخذَ ابنُ بطّوطة يتطلّعُ من حولِه إلى الصحراءِ بشيءٍ من الرَّهْبة.. فالصحراءُ مُترامِيةُ الأَطراف، مُوحشةٌ ليس بها أيُّ أثرٍ للحَياة. ومع المزيدِ من التوغّلِ في الصّحراء، تَضاعفت مخاوفُ ابنِ بَطّوطة، وأحسَّ أنّه لا يُطيقُ كِتْمانَها، فاقتربَ بجملِه من أحدِ أعراب قَبيلةِ «دغيم»، أصحابِ الجمالِ التي قد استأجَرَ منهم أحَدها، وسألَه «هل هذا الطريقُ آمنٌ حتى عيذاب... ألا يَجْدُرُ بنا أن نَتهيّأ لملاقاةِ عصاباتِ اللصوصِ إذا ما هاجَمَتْنا..» ضَحِكَ الأعرابيُّ وهو يَقول» لا تَخَفْ يا أخي.. لقد قلنا لك مِن قبلُ إن هذه الصحراءَ آمِنة... وكلّ مَن بِها من العَرَب، عشيرةٌ مُتآلفة..».

اطمأنَّت نفسُ ابْن بطّوطة، حتى وَصلت القافلةُ إلى موقعٍ يُعرفُ باسمِ (حميثرا) حيث حطّتِ الرِحال، وتهيّأَ العُرْبانُ لترتيبِ إقامتِهم ليلاً في هذا المَكان. ونسيَ ابنُ بطّوطة مخاوفَه تَماماً، وهو ينشغلُ بترتيبِ مكانِ النَّوم، وراحَ يُمنِّي نفسَه بنومٍ عميقٍ وَسَطَ سكونِ الصّحراء، وبعدَ تلك الرِحلةِ الطّويلة.

بعدَ أَنْ انتهى ابنُ بطّوطة من تَرتيبِ مَوضعِ نَومه، مَضَى يتجوّلُ



في المكان، فرأى العويناتي أمامه قبيلة [illegible] وهم يتهيئون في [illegible] احتياطات غريبة حول المكان الذي سينامون فيه، فسألهم عن هذا، فأجابوا بكلمة واحدة «الضباع...» [illegible] سائلاً عن خطورة [illegible] ضباع؟!، والتفت إلى الصحراء الخالية من حوله، ثم استطرد: «لكني لست أرى أي [illegible] منها...» فضحك أحد الأعراب، وقال له: انتظر حتى يحل المساء، فترى بعينيك [illegible]

مُنزعجاً» وما الذي يُبْقينا في هذا المكان؟.. لماذا لا نواصلُ رِحلتَنا حتى نبتعدَ عن هذه المِنطقة؟..». قال له أحدُ الرّجال «اصبرْ يا أخي... خيرٌ لنا أَلفَ مرّةٍ أن نَلقاها هنا، ونحن على أُهْبَةِ الاستعدادِ لها.. هل تريدُ للضِّباعِ أن تُدرِكنا أثناءَ سَيْرِنا، فتَهْجُمَ على الجِمالِ وتُخيفَها، وتضطربَ حركتُها فتُلقي مَن هم فوقَها من الرُّكابِ إلى الأرض.. مما يُعرِّضُنا جميعاً للخَطر؟»..

بقيَ ابنُ بطّوطةَ في مكانِه ساكناً حتى غَرُبت الشمّس.. وما أن حلَّ الظّلام، حتى بدأ هجومُ الضِباعِ على الخِيام. حملَ ابنُ بَطّوطة عصاه، كما رأى باقي الرجالِ يفعلون، واتّجه الجميعُ ناحيةَ الضِباع، لا يقتربون منها، ويكتفون بتطويحِ عُصِيِّهم في الهَواء، حتى تَهرُبَ مُبتعدةً عنهم. كانت الضباعُ تَهجُمُ في جَماعات، فيصيحُ الرجالُ ويُطوّحون بعُصيِّهم، فتهربُ إلى حين، ثم ما تلبثُ أن تعودَ في محاولةٍ تالية.

كانت أصواتُ الرِجال، تختلطُ بعُواءِ الضِّباع، فيرتفعُ صوتُ الجِمالِ وتضطربُ حَركتُها من فَرْطِ الخَوف. هكذا مَضَى بهم أغلبُ اللّيل، لا تنامُ لهم عَين.. ما أن يَنْتهُوا من هَجْمَةٍ للضِّباع، حتى يَبدأُوا الاستعدادَ للهجمةِ التالية. وما أن طَلَعَ عليهم الفَجْر، حتّى تَنفَّسُوا الصُّعَدَاء، وقد انصرفت الضِباعُ الشّرسةُ إلى غيرِ رَجْعَة.

مَضى الرجال، كلٌّ في ناحِية، يتفقّدونَ المَكان، ويَطْمئنّون على الجِمال، وما تحملُه من مَتاع وزَاد. ومضى ابنُ بطّوطة معهم يتفقّدُ جَملَه، وكانت دهشتُه شَديدةً، عندَما وجدَ أنّ الضباعَ قد مَزّقت كيساً به زادُه من التّمْر، وأنّ جميعَ ما بالكيسِ مِن تَمْرٍ قد اختفَى...

حربُ سُلطانِ البجاة

في الصّباح المُبكّر، واصلَ الركبُ مَسيرتَه، مُبتعداً عن ذلك المكانِ بمَا فيه من مَخاطر. كان ابنُ بطوطةَ يجلسُ فوقَ الجَمل، يهتزّ لحركتِه، يتذكّرُ مغامرةَ الليلةِ السّابقة، ويحمَدُ اللهَ على نَجاتِه من ذلك الخطرِ الذي لم يسبقْ له أنْ قابلَ مثلَه في رحلتِه السّابقة، على كَثْرةِ ما كان فيها من أخطار. كان ابنُ بطّوطةَ يجاهدُ طَوالَ ذلك النّهار ألاّ يستجيبَ لرغبتِه الشديدةِ في النّوم، ويبذُلُ مجهوداً كبيراً في مقاومةِ إحساسِه بالنُعاس، فهو لم يَنَمْ طَوالَ ليلتِه المُثيرةِ السّابقة. وحَرَكةُ الجَملِ الرّتيبةُ المُتكررةُ، مع الهدوءِ الشاملِ الذي يَسُودُ الصحراءَ مِن حولِه، يَجْعلانه شديدَ الرّغبةِ في الإغْفاء.. ولقد حدث أكثَرَ من مرّةٍ ذلك اليوم أن أغمض جفنيه، وقد غَرِقَ في إغفاءةٍ قصيرة، لا يلبثُ أن يُفيقَ منها مُنزعجاً.

لقد طالت رحلتُهم في الصَّحراء، يوماً بعدَ يوم. يَستريحون كلَّ يومٍ في مكانٍ جديد.. ورغمَ أَنهم لم يُقابلوا الضِباعَ مرّةً ثانيةً طَوالَ الأيامِ الخمسةَ عَشرَ التي وَصلوا بعدَهَا إلى مدينةِ عيذاب، إلاّ أنَّ ابنَ بطّوطةَ كان يعيشُ دائماً ذِكرَى هَجْمةِ الضِباعِ على خيامِهم، ويتوقّعُها. كان يُحْصي الأيامَ الباقيةَ على وُصولِهم إلى عيذابَ التي سيعبُرون البحرَ عندَها، للوصولِ إلى مدينةِ جُدّة.. وقد شَعَرَ أنّ الأيامَ تمرُّ بطيئةً مُتكاسلة، وساعدَ على هذا الشّعور، أنّ مَشاهدَ الصَّحراءِ لم تكنْ تَتغيّر، ما يَمُرّون به اليوم، يُلاقونه في الغَد.

قبلَ أنْ يصلَ الركبُ إلى مدينةِ عيذاب، الْتَقَوْا لأوّل مرّة

بمجموعةٍ من الرجال، بِشْرَتُهم سَوداء، تَلتفّ أجسادُهم بقطعٍ من القُماشِ الأصفر، وكانوا يَشُدّون على رؤوسِهم، وحولَ شَعرِهم الخَشنِ المُنْتَفِش، عِصَابةً عَرضُها لا يتجاوزُ عرضَ الإصْبَع، ويركبون الخيلَ التي تَجْرِي بهم، تُثيرُ مِن حولِهم رمالَ الصَّحراء.

ظنّ ابنُ بطّوطة أنّهم عصابةٌ من عِصاباتِ اللّصوصِ قد أقبلت لتنقضَّ على الركبِ بمنْ فيه. لكنّه وَجَد باقي الناسِ مِن حولِه، لا يَبدو عليهم أدنى شعورٍ بالخَطَر، أو أيُّ جُهدٍ لمُواجهتِهِ. سأل ابنُ بطوطةَ أقربَ الناسِ إليه، عن هؤلاء السودِ بمنظرِهم الغَريب. أجابَ الرجلُ مُبتسماً «لا تخفْ مِنهم يا أخي.. إنّهم البُجَاة، أهلُ مدينةِ عيذاب، وهم من المُسلمين، سلطانُهم وزعيمُهم يُعرفُ باسم.. الحَدْرَبي..».

اطمأنَّ ابنُ بطّوطة، وقد أصبحَ الركْبُ الآن عندَ مشَارف مدينةِ عيذاب، فراحَ يتعجّلُ الساعاتِ والدقائقَ التي ستُوصلُه إلى الشاطئِ الآخرِ من البَحْر، ليقفَ على الأرضِ التي سَعَى إليها في رحلتهِ، منذ أنْ غادَرَ وطنَه.

لكن ما إن وَصَل الركبُ إلى عيذاب، حتى وَجَدوا في انتظارِهم مفاجأةً لم تكنْ في الحُسْبان... ستتوقفُ الرِحلة.. ولن يَعْبُروا البحرَ الأحمرَ إلى الشاطئِ الآخر.. بل عليهم أنْ يَعُودوا مرّةً ثانيةً من حيثُ أتَوْا، إلى القاهرة!.

وكانت هذه المفاجأةُ المُخيِّبةُ للآمال، نتيجةً للحربِ التي نَشِبَتْ بين سلطانِ البُجاةِ «الحَدْربي»، وبين الأتراكِ والمَماليك، مما دَفَعه إلى خَرْقِ وإغراقِ المَراكبِ التي تنقلُ الناسَ إلى الشاطئِ الحِجَازي. لقد

أعلنَ الحدربي حالةَ الحَرب، فهربَ الأَتراك، واضْطُرّ ابنُ بطّوطة ومن معه إلى العودةِ من حيث أَتَوْا.

توقّف الركب في عيذاب لبعضِ الوقت، حتى انتهى الجميع من بيع ما كانوا قد أعدّوهُ من زادٍ لرحلةِ الحجّ، وعاد الجميع فوق نفس الجمال التي كانوا قد استأجروها لتنقلهم إلى عيذاب، حتى وصل الركب إلى مدينة قوص على شاطئ النيل، عبر الصحراء الواسعة.

من هناك ركبَ ابنُ بطّوطةَ في مركَبٍ نيليّ، قَطَعَ به المسافَة بين قُوصَ والقاهرةِ في ثمانيةِ أيام. ذلك لأنّ النيلَ في ذلك الوقت كان عِندَ أعلى اندفاعٍ له. وعندما وَصَلَ ابنُ بطوطةَ إلى القَاهرة، بقيَ فيها ليلةً واحدة، وتحرّكَ بعدَ ذلك في صباحِ اليومِ التالي، قاصِداً الشامَ ليحجّ إلى الأراضي المقدّسة، ضِمْنَ ركبِ الحِجازِ الشّامي.

وقد تَذكّر ابنُ بطّوطةَ حينذاك، تلك النبوءَة التي سَمِعَها من الرجلِ الصالحِ الذي لَقيَه في مدينةِ (هو).. وقال لنفسِه: إذا كانت نَبوءةُ الرجلِ قد صَدَقت في شِقِّها الأول، فلمْ أتمكنْ من الحجِّ عن طَريقِ عيذاب، فأرجو من اللهِ أن يتحققَ الشّطرُ الثّاني منها.. وأحظَى بالحجِّ عن طريقِ الشّام.

إلى ثالثِ المَسجِدَين الشّريفين

وهكذا، بدأَ ابنُ بطّوطة مغامرةً جديدةً للسّفر إلى الحجازِ عن طريقِ الشّام. وهو في هذا الشّطرِ من رِحلتِه، يقومُ كعادتِه، بالتمعّنِ في

كلِّ ما يَلقاه من مدنٍ أو عمائر، والاحتكاكِ بكلِّ من يقابلُهم من بَشَر، متأمّلاً مفكّراً، حريصاً على تدوينِ مُذكّراتِه بِرُوحِ العالِمِ الأصيل.

يتّجهُ ابنُ بطّوطةَ إلى الشَّرق، صاعداً إلى الشّمال، فيمرُّ على مَدينةِ (بُلْبيس)، ومنها يواصلُ رحلتَه حتى يَصلَ إلى مدينةِ (الصّالحية) ليبيتَ بها. وقد لَفَتَ نظرَ ابنِ بطّوطة في هذه المدينةِ كَثرةُ الفَنادقِ التي بها، أو ما كان يُسمَّى في ذلك الحين بالخَانات. ما إن يصل ابنُ بطوطةَ إلى الخَان، حتى يقابلَه مَن يتسلّمُ مِنه دابَّتَه، ويتّجهُ بها إلى مكانٍ خاصٍّ خارجَ الخَان، حيث يَجْري إطعامُها وإعدادُها للرِحلةِ التالية، كما يُلاحظُ ابنُ بطوطة قبلَ دُخولِه إلى الخان، ذلك الحانوتَ الموجودَ عند مَدْخلِ الخان، والذي يبيعُ للمسافرِ ما يَحتاجُه، وما تَحتاجُ إليه دابّتُه من زَاد.

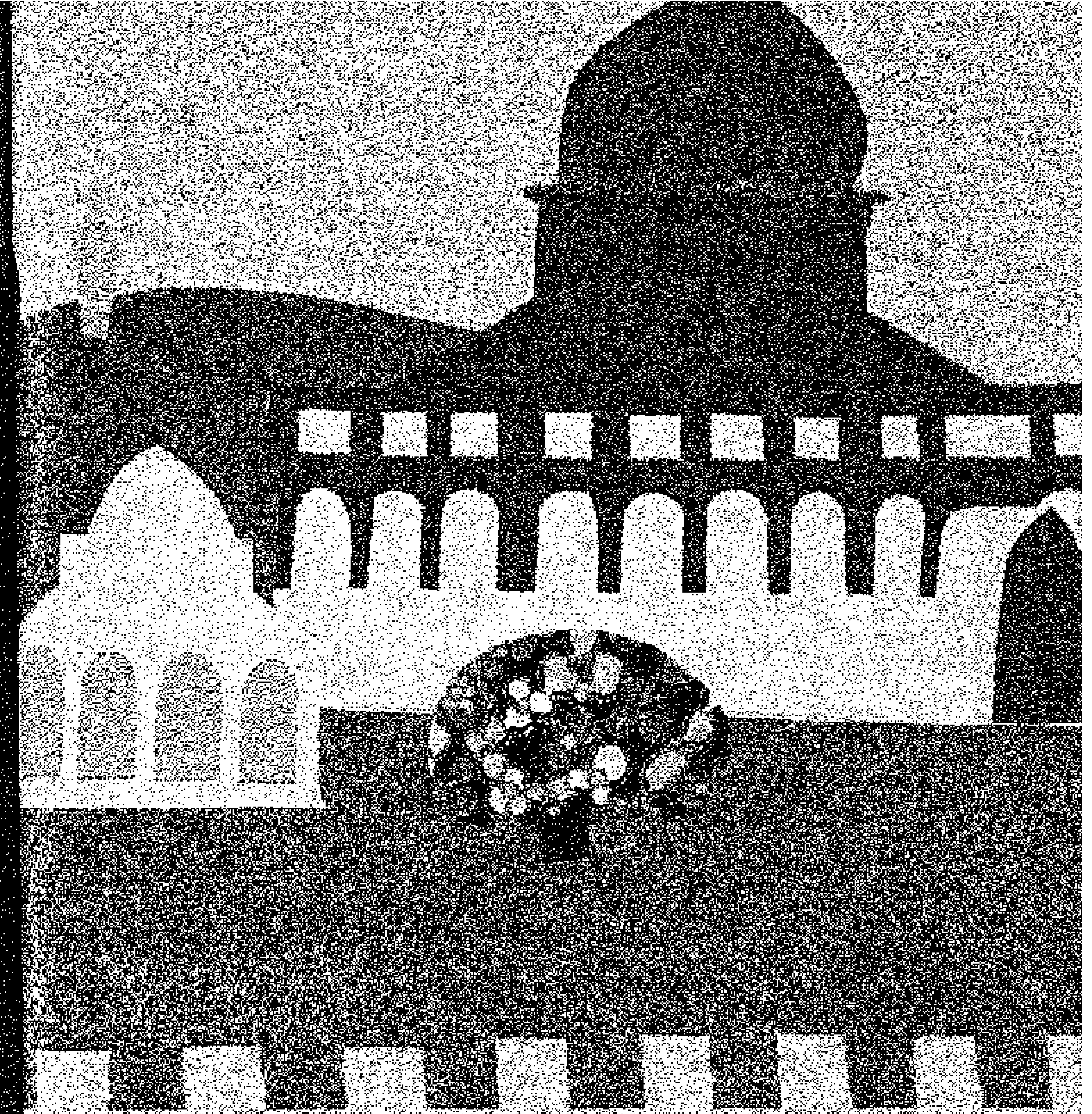
كانت الصالحيةُ في ذلك الوقت، هي الحدودَ الجُمركيةَ لمصر، بها المَبنى الخاصُّ الذي يتقاضى من التجّار الرسوم الجمركية المُقرَّرةَ على بضائِعهم، بعدَ أن يتمّ تفتيشُ هذه البضائعِ تَفتيشاً دقيقاً. وكان الجمرك المِصريّ يَضُمُّ العديدَ من المكاتبِ والموظّفين والعمّالِ والكَتَبة. ويقول ابنُ بطوطة إن ايرادَ هذا الجمرك في اليومِ الواحِدِ بلغَ ألفَ دينار من الذَهب. فلا بدَّ لكلِّ مسافرٍ إلى الشام من أن يمرّ على ذلك الجمرك، وهو لا يدخلُ إلى الشّام إلاّ بشهادةٍ من سُلُطات مصر، كما لا يَجيءُ أحدٌ من الشامِ إلى مصرَ إلاّ بشهادةٍ من سُلُطاتِ الشام، حِفظاً للأمنِ في البلاد.

كان حاكمُ الصالحيةِ في ذلك الوقتِ يُسمّى عزَّ الدِين أستاذَ الدّار أقماري، وقد أكرمَ ابنَ بطّوطةَ واستضافَه. أثناءَ هذه الضّيافة، شَرحَ

لابنِ بطوطَة الطريقةَ التي يَتْبَعُها لضبطِ المُتسلِّلين ببضائعِهم لَيلاً، هَرباً من دفعِ الرسومِ الجمركية عليها. قال حاكمُ الصّالحية «عندما يَحِلُّ الليلُ أرسلُ رِجالي فيمسحون الرمالَ خارجَ أبوابِ المَدينة، بحيث لا يَبقَى عليها أيُّ أثرٍ لقَدم... وفي الصّباح، عندَما تَفتحُ المدينةُ أبوابَها، أخرجُ وأنظرُ إلى الرّمال، فإذا وجدت أثراً لإنسانٍ أو دابّةٍ على الرّمال... أرسلُ العَربَ الذين يَعرفون اقتفاءَ الأثر، ليتعقّبوا هذه الآثار، وهم غالباً ما يَعُودون بالمخالفِ المُتهرّب، لأُوقِعَ به العِقابَ المُناسب».

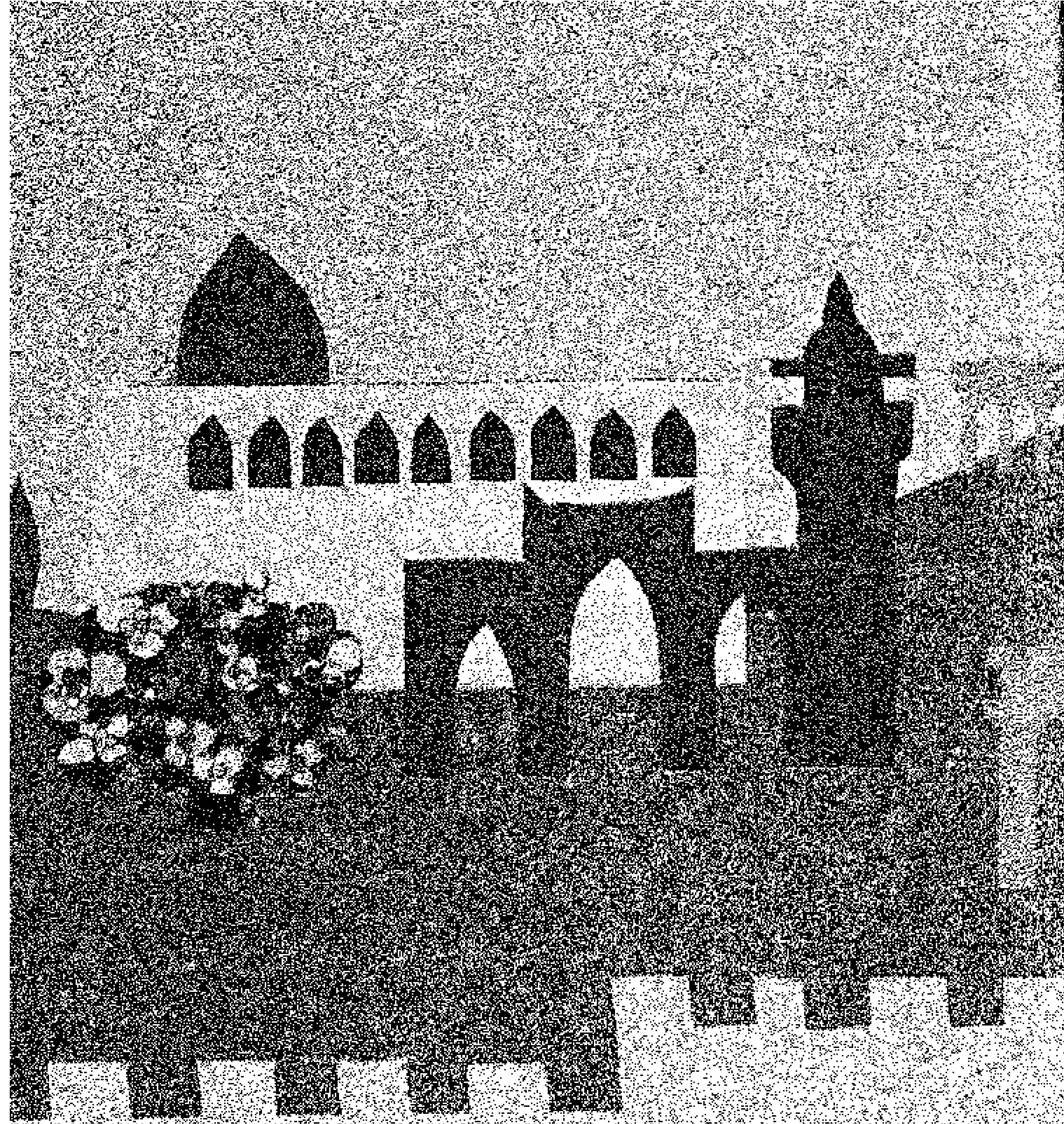
يغادر ابنُ بطّوطةَ مدينةَ الصّالحية مُتّجهاً إلى (غزّة)، فيصفُ مبانِيَها الكَثيرة، وأسواقَها العَامرة، ومساجدَها المُتعدّدة. ثم يسافرُ منها إلى مَدينةِ (الخَليل) التي تَبْهَرُه بوفرةِ آثارِها الدّينية، وهو يصفُ هذه المَدينة، فيقولُ إنّها مدينةٌ حَسَنةُ المنظر، تقعُ في بَطْنِ واد، لها مسجدٌ أنيقٌ جميلٌ مرتفعٌ مبنيٌّ من الصَّخرِ المَنحوتِ في أحدِ أركانِه صخرةٌ كَبيرة. ويُروح ابنُ بطوطةَ يجمعُ الرّواياتِ حولَ هذه المدينةِ مُعْتمداً على أهلِها، فيقولون له إن النبيّ سُليمانَ هو الذي أمرَ ببناءِ هذا المَسجد، وإن في داخلِ المسجدِ غاراً يَضمُّ قبورَ الأنبياءِ إبراهيمَ واسحقَ ويعقوب. ثم يتجهُ ابنُ بطوطةَ إلى شَرقِ المدينةِ حيث قَبْرُ سيدنا لُوط، وبحيرتُه المالحة (التي تُعرفُ حاليّاً باسمِ البَحْرِ الميّت).

وفي الطريق إلى (بيتِ المقدس)، يَزورُ ابنُ بطوطة قَبرَ النبي يُونس، ثم مدينةَ السيّد المسيح (بيتَ لحم) حيث وُلدَ سيدُنا عيسى عليه السلام. ويقولُ إن أهلَ المدينةِ قادُوه إلى جِذعِ النَّخلة، التي كانت تجلسُ إليها السيدةُ مَريم، فتهزُّه ليتساقَطَ منه رُطَباً جَنيّاً، كما ورَدَ في القرآنِ الكريم. ويقولُ ابن بطوطة إن هذا الجِذعَ كان باقياً، تقومُ حولَه



المباني الكثيرة التي شيّدها المسيحيون.

وأخيراً يصل ابنُ بطوطة إلى مدينة (بيتِ المقدس)، التي نعرفُها اليوم باسمِ (القُدْس). ويفرحُ ابنُ بطوطة لوصولِه إلى هذه المدينة المقدّسة، فيقولُ في هذا: «ثم وَصلنا إلى بيتِ المقدس شرّفه اللهُ، ثالث المسجدين الشّريفين في رُتبة الفضل، ومَصْعَد الرسولِ صلّى الله



عليه وسلّم تسليماً، ومَعْرَجِهِ إلى السّماء. والبلدةُ كبيرة مُنيفة، مبنيّةٌ من الصّخرِ المَنْحوت. وكان الملكُ الصالحُ الفاضلُ صلاحُ الدينِ بن أيوب لَمّا فتحَ هذه المدينة، هَدَمَ بعضَ أسوارِها، ثم أتمَّ الملكُ الظاهرُ هَدْمَها، خَوفاً أن يَقْصِدَها الرومُ، فيتمنّعوا بها.»

ويُعطي ابنُ بطوطةَ اهتماماً خاصاً للمسجدِ المقدّس فيقولُ في

وصفِه «هو من المساجدِ العجيبةِ الرائقةِ الفائقةِ الحُسْن ، ويقال إنّه ليس على وجهِ الأرضِ مسجدٌ أكبرُ منه ، وإنّ طولَه من الشرق إلى الغَرب سبعُمائة واثنتان ذِراعاً... والمسجدُ كُلُّه فضاءٌ غيرُ مَسْقوف ، إلاّ المسجدَ الأقصى فهو مَسقوف ، في النهايةِ مِن إحكامِ العَملِ وإتقانِ الصَّنعة ، مُمَوّهٌ بالذَهبِ والأصبغةِ الرّائقة».

ثم يصفُ بعدَ ذلك قبّةَ الصّخرة داخلَ المَسجد ، ويتعجّبُ لطريقةِ بنائِها ، ويذكرُ كيف إنّها ترتفعُ وَسَط المسجد ، يَصعَدُ المرءُ إليها عن طريقِ أربعةِ أبواب ، وهي مزخرفةٌ من الدّاخلِ والخارجِ بماء الذَهب ، تلمعُ وتتلألأ كالبَرْق. وتحت هذه القُبّة ، الصخرةُ التي عَرَجَ منها النبيُّ صلّى الله عليه وسلم إلى السّماء. وتحتَ الصّخرةِ مغارةٌ في حَجْم البيتِ الصغير ، يَهْبِطُ إليها المرءُ بدَرَج.

وفي القُدس ، يزورُ ابنُ بطوطةَ الكثيرَ من الآثارِ المَسيحيّة ، ففيها قبرُ مريَمَ عليها السلام ، والكنيسةُ التي يَحِجُّ إليها المسيحيون من أنحاءِ العالَم ، ومهدُ سيّدِنا عيسى عليه السلام ، كما أن بها كنيسةً أخرى يقول المسيحيون إنّ بها قَبْرَه.

بعدَ أنْ ينتهي ابنُ بطوطة من زيارةِ هذه الآثار ، يغادرُ القُدس ، مُتّجهاً إلى مدينةِ (عَسْقلان) ، وهي ميناءٌ على شاطئِ البحرِ الأبيضِ المتوّسط ، الذي كان يُعرفُ في ذلك الحين باسم (بَحر الروم). ومنها يَصعَدُ شمالاً إلى مدينةِ (الرّملة) ، ثم يتجّهُ إلى (نابلس) ، فَيراها مدينةً عظيمةً كثيرةَ الأشجَار ، عديدةَ الأنهار ، تكثُرُ بها زراعةُ الزّيتون ، وهي التي كانت تُصدّرُ زيتَ الزيتون إلى مصرَ والشّام. ويَحْرِصُ ابنُ بطّوطة

على تسجيلِ معلوماتٍ أخرى عن مَدينةِ نابلس، وهي أنّها تصنعُ حَلواءَ الخَرّوب وتصدّره إلى دِمشق، بل هو يصفُ طريقةَ صُنع حَلواءِ الخرّوب فيقول: «يطبخُ الخَرّوبُ ثم يُعْصَر، ويُؤْخذُ ما يَخْرُجُ منه من الـرُّبّ (العَسَل)، فتُصنعُ منه الحَلواء، ويُجْلَبُ ذلك الـرُّب أيضاً إلى مِصرَ والشام».

ويمضي ابن بطوطةَ بعدَ ذلك متجوّلاً في مُدُنِ الشامِ الكُبرى دونَ حدٍّ أو قَيدٍ أو عائق، وقد كانت الشامُ الكُبرى في ذلك الحينِ تَتضمَّنُ ما يُعرفُ حالياً باسمِ فِلسطين وسوريّا والأردنّ ولبنان. من نابلس، يتجهُ إلى (عَجْلون) شمالَ البحرِ الميّت، ثم يمضي صاعداً على امتدادِ شاطىءِ البَحر، حتى يصلَ إلى مدينةِ (عكّا)، ولا يجدُ في حاضرِها ما يستوجبُ الوَصف، سوى أنها خَراب... هذا هو كلُّ ما يراه ابنُ بطوطةَ في هذه المدينةِ الشهيرة في تاريخِنا العَربيّ، والتي كانت قاعدةَ الغزاةِ الصَّليبيين حين أقاموا في بلادِ الشام. ويقولُ ابنُ بطوطةَ إنّ جامعَ عَكّا ومسجدَها لم يَبْقَ منه سوى محرابِه.

والدٌ نَشيطٌ لابْنٍ هَرِمٍ!!.

كان مِنَ الممكنِ أنْ يَتوجّهَ ابنُ بطوطةَ في ذلك الوقتِ إلى (دمشق) مباشرة.. لكنّه بروحِ العالِمِ الجغرافيّ المُدقّق، راحَ ينتهزُ الفُرصةَ ليزورَ أكبرَ عددٍ من مدنِ الشام، يسجِّلُ عنها ملاحظاتِه، ويلتقي بأهمِّ مَن فيها من العُلَماءِ والشيوخ.. وكان يُدْرِكُ إلى جانب ذلِك، أنّهُ

لو سافَرَ إلى دمشقَ مباشرة، فلن يُدْرِكَ رَكْبَ الحِجازِ الشّامي، الذي كان قد تحرّك منها، بينما كان هو في طريقِهِ إلى عيذاب.

يَمْضي ابنُ بطوطة في جولتِه هذه، آمناً مطمئناً، سعيداً بزيارةِ كلِّ هذه المدنِ والأقطار، متذكّراً حُلْمَه القَديم، وهو جالسٌ فوقَ صَخرتِه المُفَضّلةِ على شاطىءِ طَنْجة. يصلُ ابنُ بطُّوطة إلى مدينةِ (صوُر) التي يُحيط بها البحرُ من ثلاثِ جهات، فيقول: «إنَّ الناسَ تَضربُ بها المثلَ في الحَصانة، والامتناعِ على العدوّ. فللمدينةِ بابان، أحدُهما للبرّ والثاني للبحر. وبابُ البحرِ يقومُ بين بُرْجَيْن عَظيمَين، كانت تمتدّ بينهما سلسلةٌ من الحَديد، لا تسمحُ للمراكبِ الداخلةِ والخارجةِ بالحرَكة، إلاّ بعدَ موافقَةِ أصحابِ الأمرِ بالمدينةِ».

من صور، يصعد ابنُ بطّوطةَ شمالاً إلى (صيدا)، حتى يصلَ إلى (بيروت). وكانت العاصمةَ اللبنانيةَ في ذلك الوقت، وهي مدينةٌ بسيطةٌ ليست باتّساعِ أو أهميّةِ مُدُنِ الشامِ الأخرى، فيقول ابنُ بطّوطة في وصفِها: «وهي مدينةٌ صغيرةٌ حَسنةُ الأسواق، جامعُها بديعُ الحُسْن، وتُجْلَبُ منها إلى ديارِ مصرَ الفَواكهُ والحَديد».

ثم يواصلُ ابن بطوطةَ مَسيرتَه شمالاً، على امتدادِ شاطىءِ البَحْر، حتّى يصلَ إلى مدينةِ (طرابُلْس)، فيجدَها من مدنِ الشامِ الكَبيرة، تخترقُها الأنهارُ وتَحِفُّ بها البساتينُ والأشجار، ويُفيضُ عليها البحرُ بخيراتِه، ويقدّم إليها البرُّ خيرَ ثمارِه. ثم يمضي من هناك إلى مدينة (حِمْص) حيث يزورُ قبرَ سيفِ الله، خالدِ بنِ الوليد، القائدِ الاسلاميّ الشجاعِ الذي قادَ الجيوشَ الإسلاميةَ في فتوحِ فارسَ والشام. وفي مدينةِ

(حَماه)، تَلفِتُ نظره السواقي الشاميّةُ العاليةُ الشّهيرة، والتي يُطْلقون عليها اسم «النواعير»، ويرى نَهرَ العاصي الذي يَشُقّ المَدينة، فيبعثُ الحياةَ في حدائقِها وبساتينِها. بعدَ هذا، يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ (المَعَرّة) التي ينتسبُ إليها الشاعرُ والعالِمُ الفيلسوفُ أبو العلاءِ المَعرّي، ويقولُ عنها: «مدينةٌ كبيرةٌ حَسَنة، أكثرُ شجرِها التينُ والفُستُق، ومنه يُحْمَلُ إلى مصرَ والشّام، وبخارجِها على مسافةٍ منها قبرُ أميرِ المؤمنين عُمرَ بنِ عبدِ العزيز، الخليفةِ الأمويّ الشّهير».

وعندما يصلُ ابنُ بطّوطة إلى مدينةِ (حَلَب)، يقيمُ بها بعضَ الوقت، وهو يصفُها بالمدينةِ الكَبيرةِ والقاعدةِ العُظمى. وفيها يتذكّرُ قولَ الرحّالةِ الشهيرِ ابنِ جُبيرٍ عن هذه المدينةِ كما قرأه في المراجعِ التي يحتفظُ بها أبوه: قَدْرُها خَطير، وذِكْرُها في كلِّ زمانٍ يَطير، خطّابها من الملوكِ كَثير، ومحلّها في النفوسِ أثير، فكم هاجَت من كفاح، وسُلَّ عليها بِيضُ الصِّفاح. لها قلعةٌ شهيرةُ الامتناع، بائنةُ الارتفاع.. ويقولُ ابنُ بطوطة إنّ مسجدَ حَلَبَ من أجملِ المَساجد، ومِنْبرَ هذا المسجدِ مُرصَّعٌ بالعاجِ والأبنوس، وبالقربِ من الجامعِ مَدْرسة، غيرَ ثَلاثِ مدارسَ أخرى بالمدينة، وبها أيضاً مُستشفى.

مِن حَلَبَ يتّجهُ ابنُ بطّوطة إلى (أنطاكية)، المدينةِ العَظيمةِ ذاتِ الأسواقِ التي لا يوجدُ لها مثيلٌ في مُدنِ الشام. يتجوّلُ في المدينة، وتُعجبُه مبانيها وأشجارُها الجَميلة، فَيَمْضي خارجَ المدينةِ حيثُ يَجْري نَهرُ العاصي، ويصلُ إلى قبرٍ مُنعزلٍ، فيلتقي هناك بشيخٍ مُعمّر يُدعى محمداً بنَ عليّ، يزيدُ عمرهُ عن المائةِ سنة... وقد اندهشَ ابنُ بطّوطةَ عندمَا رأى ذلك الشيخَ الكبيرَ يَسيرُ بكلِّ هِمّةٍ ونَشاطٍ يَجمعُ الحَطَبَ مِنَ

البُستان ، ثـم يَحمِلُه عَلى ظهرِه دونَ أن يظهرَ عليه الإرهاق ، ويَمضي به إلى مَنزله . يتعرّفُ ابنُ بطوطة على محمد بن علي ، فيقومُ محمد بدعوةِ ابنِ بطوطة إلى منزِله ، خاصةً عندمَا يَعرفُ أنه قادمٌ من بلادِ المَغربِ البَعيدة . عندمَا يصلانِ إلى البيت ، يَرى ابنُ بطّوطة شيخاً هرماً محنيّ الظَّهر ، لا يستطيعُ النّهوضَ من مكانِه ، فيسأَل ابنُ بطّوطة محمداً بنَ علي عمّن يكونُ هذا الشّيخ ، فيجيبُه : هذا هو ابني ! !. وهو لا يكاد يبلغُ الثّمـانين من عمره . فيتعجّب ابنُ بطّوطة لهذه المُفارقة ، وكيف إنّ من يَراهمـا ، يظنّ الوالدَ مِنهُمـا ابناً ، والابنَ والداً ..

مؤامرة عــلى أمير حَلَب

بعد أن انتهت زيارةُ ابنُ بطّوطةَ لأنطاكية ، بدأَ يفكِّرُ في السَّفَرِ إلى دِمَشْق ، خاصّةً وأَنه كان قد وصَلَ إلى أقصى الحدودِ الشمالية ، لكنّه عَرَفَ أنّ موكبَ الحجّ الذي يَتَحرّكُ من دِمشق ، لم يَحِنْ مَوعدُه بَعد ، فقررَ أن يزورَ الحُصونَ المَنيعةَ التي تَحمي دَولةَ المَلِكِ الناصرِ شمالاً . زارَ حُصونَ (بغراس) و (القصير) ، و (الشغربكاس) ، ثـم مَرَّ على حُصونِ (القَدْموس) و (المينقة) و (العليقة) و (الكهف) . وكان سُلطانُ هذه الحُصونِ من طائفةِ الإسماعيليةِ الذين يُطْلِقُ عليهم ابنُ بطوطة اسم «الفدّاوية». وكان الملكُ الناصرُ يَعتمدُ عليهم في حمايةِ الحدودِ الشّمـاليّةِ لدولتِه ، ويوكل إليهم مهمّة تعقّب وقتل أعدائه . وفي مقابلِ هذا ، كان يُجْري عليهم المرتّباتِ السَّخيّة . وكانت شُهرةُ هؤلاءِ الإسماعيليين ، أنّ

لديهم خناجرَ مَسْمومة، يَضربون بها مَن يكلّفهم الناصرُ باغتيالِه، فيموتُ لساعتِه.

زارَ ابنُ بطّوطة هذه الحصون، وأقامَ بها، وتعرَّفَ على سكّانِها منَ (الفداويّة)، وراحَ يسجّلُ حكاياتِها الغَريبة، وقصصَهم العَجيبةَ التي كـان يَستمعُ إليها مُنبهراً. ومِن بين هذه الحِكايات، قصّةُ أميرٍ كبيرٍ يُدعى، قراسنقور.

كان قراسنقور قد حَضَرَ مقْتلَ المَلكِ الأَشرف، شقيقِ الملكِ النّاصر، وشاركَ فيه. فَلمّا تولّى الملكُ الناصرُ خَلَفاً لأخيه، واستقرّ في الحُكم، وتدعّمَ سلطانُه، قرّرَ أنْ يتعقّبَ قَتَلَةَ أخيه واحداً واحداً، حتى يَثْأرَ له، وحتّى لا يتجاسروا على اغتيالِه كما حَدَث مع أخيه. في ذلك الوقتِ كان أميرُ أمراءِ حَلَبَ هو قراسنقور، فكَتَبَ الملكُ الناصرُ إلى جميعِ أمراءِ المُدن المحيطةِ به، أن يُجهِّزوا جُنودَهم، ويَهْجُموا على حَلَبَ في وقتٍ حدّدَه لهم، ويَقْبِضوا على أميرِها قراسنقور.

وصلت إلى أميرِ حَلَبَ أخبارُ هذه المُؤامرة، فخافَ على نفسِه. جَمعَ ثمانيَ مائةِ مملوك من خِيرَةِ مَماليكِه، وهَجَمَ بهم صباحاً، مُخترقاً الحِصَارَ الذي أقامَه باقي الأُمراءِ حولَ حلَب، ثم فرّ مبتعداً قبلَ أنْ يُدْركوه. ظلَّ قراسنقور يَعْدو بجوادِه مع مماليكِه مدّةَ يومين مُبتعداً عن حلَب، حتّى وَصَلَ إلى مكانِ الأميرِ العَربي المُهَابِ مُهَنّا بْنِ عيسى، فنَزلَ عن فَرسِه ونادى: «الجوارَ يا أمير العَرب..». لم يكنْ الأميرُ مهنّا في بيتِه، فقد كان في رِحلةِ صيد، غيرَ أنّ زوجةَ الأمير العَربيِّ قالت بشهامة «قد أجرْناك، وأجرنا مَن معك..». هدأت نَفسُ أميرِ حلب، فقال لها «إنّما أطلبُ أهلي ومالي..». فقالت له «لك ما تُحبّ، فانزل في جوارنا..».

عندما عادَ الأميرُ مهنّا من رِحلةِ الصّيد، طَمْأَنَ أميرَ حَلب، وأكرمَه، وعَرَضَ عليه ما يبغي من مال، فقال قراسنقور «إنّما أُحِبُّ أهلي ومالي الذي تَركته في حَلَب..» فكَّرَ الأميرُ مُهنّا طويلاً فيما طَلَبَه أميرُ حَلب قبلَ أنْ يَستجيبَ له، ورأى أن يستشيرَ أوّلاً إخْوتَه وبني عَمِّه في هذا الأمر.

اجتمعت العَشيرةُ عندَ الأميرِ مهنّا، وتَضاربت الآراء.. وافقَه البَعض، بينما قال البعضُ الآخر «كيف نحاربُ الملكَ النّاصر، ونحن في بلادِه بالشّام؟!». في آخرِ الأمر، قال الأميرُ مهنّا لبني عشيرتِه «لقد استجارَ بي ذلك الرجل، ولا بدّ لي كعربيّ أصيلٍ أنْ أجيره.. ولا بدّ أنْ أستردَّ له أولادَه ومالَه، وأذهَب به إلى سُلطانِ العِراقِ الذي سيَحْميه من المَلِكِ الناصر..».

في هذه الأثناء، عَرَفوا أنّ الناصرَ بعدَ فِرَارِ قراسنقور نَقَلَ أولادَ الرجلِ إلى مصرَ حتّى لا يَصِلَ إليهم، فقال له مهنّا: «أمّا أولادُك فلا حيلةَ فيهم وقد سافَروا إلى مصر.. لكنّي سأساعدُك على استردادِ مالِك..». جَمَعَ الأميرُ مهنّا جيشاً من أهلِه، ودَعا القبائلَ العَربيةَ لمساعدتِه، فتهيّأ له جيشٌ من خمسةٍ وعشرين ألفاً، هَجَمَ به على حَلب، فأحرقَ بابَ قَلْعتِها، وانتصر على جندِها، واستردّ للأميرِ قراسنقور كُلّ أموالِه التي بها، ثم سافَرَ به إلى العراق مُحتمياً بمَلِكِها.

أحسنَ مَلِكُ العراقِ استقبالَهم، وأعطى الأميرَ مهنّا إمارةَ عِراقِ العرب، كما أعطى قراسنقور إِمارةَ مدينةٍ تُدعى (مَرَاغة) من عراقِ العَجَم.. وتَمرُّ السنوات، فتتوسّطُ عشيرةُ الأميرِ مهنّا لدى الملكِ الناصرِ

فَيعفو عنه، ويعودُ إلى عَشيرته. أمّا الأميرُ قراسنقور فلمْ يَحْظَ بعفوِ الملكِ الناصر، بل كانَ يُلاقي الأخطارَ كُلَّ يوم، على يدِ القَتَلة الذين كان الملكُ الناصرُ يُرسلُهم لاغتيالِه.

مرّةً يقتحمُ عليه القاتلُ منزلَه، ومرّةً أُخرى يَرمي القاتلُ نفسَه عليه وهو فوقَ حِصانِه... وفي كلِّ مرّةٍ كان قراسنقور يقتلُهم واحداً بعد الآخر، حتى قَتلَ عدداً كبيراً منهم. وفي هذه الأثناء، ماتَ سلطانُ العِراقِ وخَلَفَه ابنُه أبو سعيد، وتَمّت المراسلةُ بين أبي سعيدٍ والملكِ الناصر.. واتّفقا على أن يَبعثَ الملكُ الناصرُ بعدوّ لأبي سعيدٍ كان تحتَ يدِه، في مقابلِ أن يرسلَ له أبو سعيد بأميرِ حلبَ السابقِ قراسنقور.

أدْرك قراسنقور أنّ الحَلَقاتَ بَدأت تَضيقُ عليه، وأَنّ نهايتَه قد حَلّت، وخشيَ الانتقامَ الوَحشيَّ من الملكِ الناصر، فأخذَ خاتَماً مجوّفاً كان في داخلِه سُمٌّ قاتِل، ونَزَعَ الفُصّ، وامتصّ السُّم، فماتَ لساعتِه..

ابنةُ المَلك، ونِصْفُ التُفّاحة

ولم تكن جميعُ القصصِ التي سَمعَها ابنُ بطّوطةَ في تلك الحصونِ المَنيعةِ تَتّسِمُ بهذا العُنفِ الذي تكْشِفُ عنه قصةُ الأمير قراسنقور. فقد سَمعَ في مدينة (جبْلة) بينَ حُصونِ الاسماعيلية قصّةً أُخرى عن وليٍّ صالحٍ من أولياءِ الله يُدعى ابراهيم بنَ أَدْهَمَ، تنازلَ عن مُلكِه وانقطعَ إلى الله تعالى.

إلى جانبِ نهرٍ من الأنهارِ الرّائقةِ التي تَجْري وَسَطَ مدينةِ جَبْلة، وفي ظلِّ شجرةٍ من أشجارِها الوَارفةِ استمعَ ابنُ بطّوطةَ من أهلِ المدينةِ إلى قصةِ وليِّ الله إبراهيم، الذي كان ابنَ رجلٍ فقيرٍ من الصّالحين الذين يَسيرون في أرضِ الله، يَزْهَدون في خيْراتِ الدنيا.

كان أدهمُ والدُ ابراهيم يَسيرُ يوماً بأحدِ البَساتين في مدينةِ بُخارَى فَرأى ماءاً جارياً. توقف ليتوضّأ، فاذا بتفّاحةٍ يَحملُها ماءُ النهر، فقال لنفسِه: هذه ليست مُلكاً لأحد.. فلآكلْها. لكنّه بعدَ أنْ أكلَها عادَ فَندم على فِعلتِه، فهذه التفّاحةُ لا بدّ أن تكونَ قد سَقَطت من شَجرةٍ بالبُستانِ القريب، ولا بدَّ أن يستسمحَ صاحبَ البُستانِ على فِعلتِه هذه، وحتّى تكونَ التفّاحةُ التي أكلَها حلالاً. قَرعَ أدهمُ بابَ البُستان القريب، فخَرَجت له جاريةٌ سألَها «هل يمكنُ أنْ أتحدّثَ إلى صاحبِ البُستان؟». فقالت له «صاحبتُه امرأة»، فقال «استأْذِني لي حتّى أدخلَ عليها». وعندَما التقَى بصاحبةِ البُستانِ قَصَّ عليها قصّةَ التفّاحة، فقالت له: «هذا البستانُ نِصفُه فقط لي، ونصفُه الثاني للسُّلطان، وأنا أُسامحُك في نصفِ التفّاحةِ الذي أَمْلِكُه، ولكنّي لا أملكُ أنْ أسامحَك في النصفِ الذي يَخُصُّ السّلطان..».

سارَ أدهمُ في أرض اللهِ حتّى وصَلَ إلى قَصْرِ السلطان، وسألَ عنه، فقيل له إن السلطانَ قد سافرَ إلى مدينةٍ تُدعى (بَلْخ)، وهي على مسيرةِ عَشَرةِ أيامٍ من بُخارَى. بدأَ أدهمُ رحلتَه الطويلةَ بكلِّ نَشاطٍ حتى يُدركَ السلطانَ في مدينةِ بَلْخ، فلمّا وصَلَها، صادفَ موكبَ السّلطان. فحكَى له قصّةَ التفّاحة، وطلبَ منه أن يَحُلَّه من وِزْرِ أَكْلِ نصفِ التفّاحةِ الذي يَخُصُّه... تَعَجّبَ السلطانُ مِن قولِ ذلك الرجلِ

الفَقيرِ الأَمين، وَقال له «لن أحُلَّك من ذَنْبِك، حتى تأتيَ إلى قَصْرِي غداً..».

كانت لهذا السلطان ابنةٌ بارعةُ الجَمال، خَطَبَها من أبيها الملوك والأمراءُ فكانت ترفُضُهم جَميعاً، وتَشْغَلُ وقتَها بالصلاةِ والعبادةِ ومصاحبةِ الصالحين، ثم تقولُ لوالدِها المَلك «لن أتزوّجَ يا والدي إلاّ مِن رجلٍ وَرِعٍ صالحٍ زاهدٍ في هذه الدنيا..». عندَما عادَ السلطانُ إلى قَصْره، قَصّ على ابنتِه حكايةَ أدهم، وقال لها «لم أرَ في حياتي مَن هو أكثرُ وَرَعاً من هذا الرجل.. يأتي من بُخارى إلى هنا حتّى أسامحَه في نصفِ تفّاحةٍ أكلَها..».

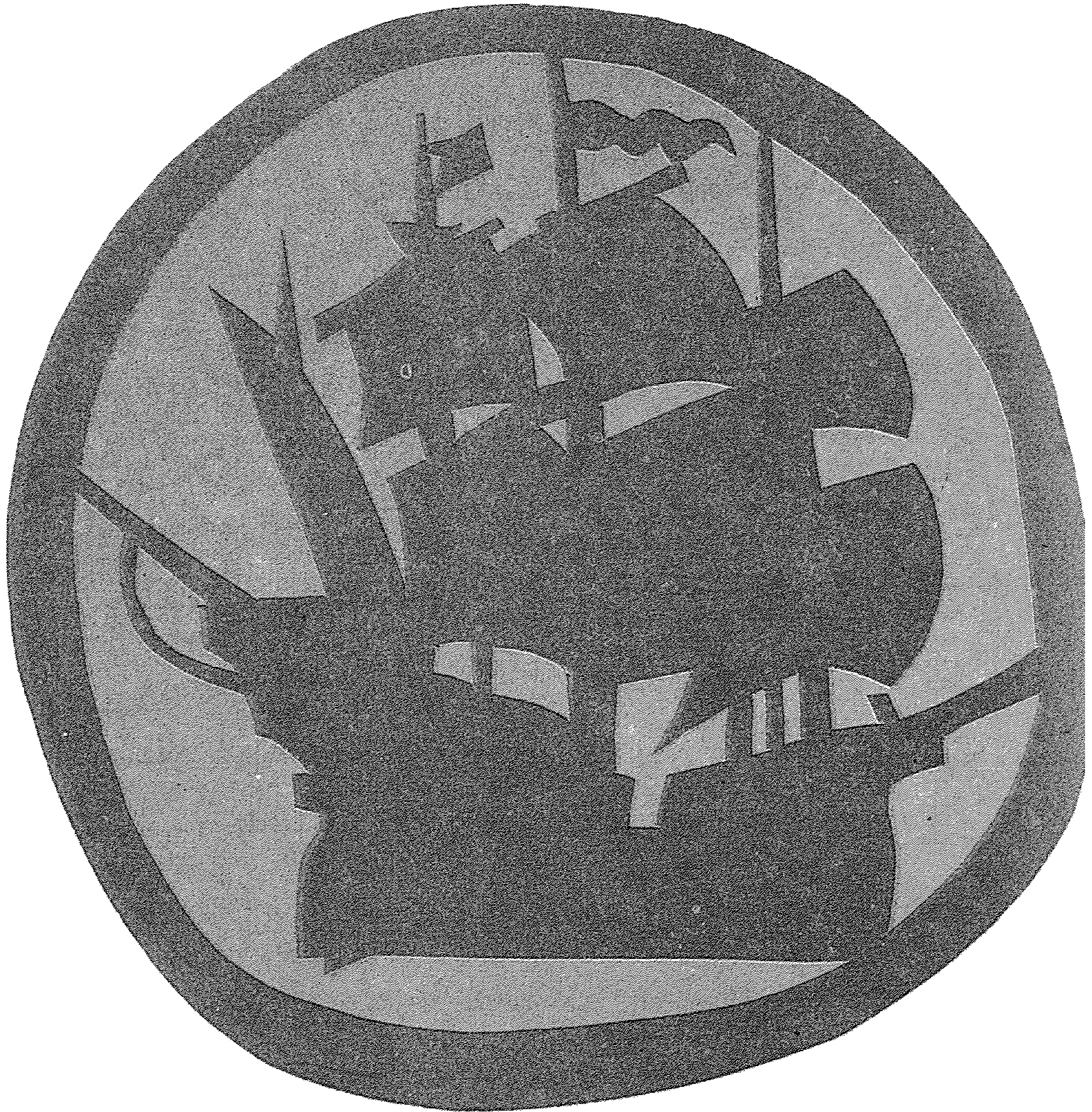
أُعْجبت ابنةُ السُلطانِ بأَدْهمَ، وقرّرت أن تتزوّجه، وعندما حَضَرَ أدهمُ إلى قصرِ السلطانِ في اليوم التالي، قال له «لا أَحُلُّك من أكلِ نصفِ التفاحة، إلاّ إذا تزَوّجت ابنتي». حاوَلَ أدهمُ أن يعتذرَ عن هذا العَرْض، لكنَّ السلطانَ أصرَّ على رأيه، وفي النهايةِ تَزَوّجَ أدهمُ من بنتِ السّلطان، فوَلدت له إبراهيم.. ولمّا لَمْ يكن لذلك السلطانِ مِن ابْنٍ يَرِثُ المُلْك، فقد أَسْنَدَ المُلْك بعدَ وفاتِه إلى ابراهيم. غيرَ أنّ ابراهيمَ بعدَ أن تولّى المُلك، زَهِدَ فيه واعتذَرَ عنه، ومَضى يعيشُ حياةَ التعبّدِ والتقشّف والزّهدِ حتى مات، فاعتبرَه الناسُ من أولياءِ اللهِ الصالحين، وبَنَوْا له ذلك القَبر.

قفصُ الماءِ في دِمشق

بعدَ إقامةِ ابنِ بطّوطة في حُصونِ الشمال، عادَ ليتّجهَ جَنوباً على امتدادِ شاطئِ البَحر، حتى وَصَلَ إلى اللاّذقية الميناءِ الرئيسيِّ لسوريا هذه الأيام، فيقولُ عنها «مدينةٌ عتيقةٌ على ساحِلِ البحر.. وميناءُ هذه المدينة عليه سلسلةٌ بين بُرْجَين، لا يدخلُ أحدٌ ولا يخرجُ حتى تُحَطّ له السلسلة، وهو من أحسن المَراسي بالشام..». وأكثَرُ ما يَلْفِتُ نظرَه، ديرُ الفاروص القائمُ خارجَها وكان من أعظمِ الأديرةِ بالشّام، يسكنُه عددٌ كبيرٌ من الرُّهْبان. ثم ارتحلَ منها إلى جبلِ لُبنان، واتّجهَ شَرقاً حتى وَصَلَ إلى مدينةِ (بَعْلَبَكّ). وهو يصفُ المدينةَ فيقول «مدينةٌ حسنةٌ قديمةٌ من أطيب مدنِ الشام، تُحْدِقُ بها البساتينُ الشَّريفة، والجنّاتُ المُنيفة، وتخترقُ أرضها الأنهارُ الجارية، وتُضاهي دمشقَ في خيَراتِها المُتناهية».

في آخرِ الأمر، يصلُ ابنُ بطّوطة إلى (دمشق) في التاسعِ من رَمضان عام ٧٢٦ هجرية، فيقولُ عنها «هي التي تَفْضُلُ جميعَ البلادِ حُسْناً وتتقدّمُ جمالاً، وكلُّ وصفٍ وإن طالَ قاصرٌ عن محاسنِها». ويتذكّرُ قولَ الرحّالةِ ابنِ جُبَيرٍ عنها، عندما قال «وأمّا دمشقُ فهي جَنّةُ المَشْرق، ومَطْلَعُ نُورِها المُشْرِق.. تَحلّت بأزاهيرِ الرَّياحين، وتَجلّتْ في حُلل سُنْدُسيّةٍ من البساتين... وتشرّفت بأنْ أوَى المسيحُ عليه السلامُ وأمّهُ منها إلى رَبْوة ذاتِ قَرارٍ ومَعِين.. وقد أَحْدَقَت بها البساتينُ إحْداقةَ الهَالة بالقَمَر، والأكمامِ بالثَّمَر، وامتدّت بِشرْقِيِّها غُوطتُها الخضراءُ امتدادَ البَصَر».

ينزلُ ابنُ بطّوطة في دِمشقَ بمدرسةِ المَالكيّة، وكانت أولَ زيارةٍ



له في دمشقَ إلى جامعِ دمشقَ المَعروفِ بجامعِ بَني أُميّة ، وهو على حدٍّ قولِه : «أعظمُ مساجدِ الدّنيا احتفالاً ، وأتقنُها صِناعة ، وأبدَعُها حُسناً وجَمالاً ، ولا يُعلمُ له نَظِير ، ولا يوجدُ له شَبيه . وكان الذي تولّى بِناءَه واتِقانَه أميرُ المُؤمنين الوليدُ بنُ عبدِ الملك بنِ مَرْوان» ، وهو يقول إن أميرَ المُؤمنين طَلَبَ من مَلِكِ الرومِ بالقُسْطَنْطِينيَّةِ أن يرسلَ إليهِ العُمّالَ والصنّاعَ المَهَرَةَ للمُساهمةِ في بناءِ الجامع ، فبعَثَ إليه إثْنَيْ عَشَرَ ألفَ صانِع ..

بعد هذا ، يَروح ابنُ بطّوطةَ يَقِيسُ أبعادَ الجامعِ الكبير ، فيجدُ أنّه من الشّرق إلى الغربِ يصلُ إلى مئتي خُطوة ، أمّا المَسافةُ بين القِبلةِ ونهايةِ الجَامع فتبلغُ ثلاثين خُطْوة. ثم يَمْضي ابنُ بَطّوطةَ في وصفِ أَجزاءِ الجامع ، و(شَمْساتِه) أو مَصادر إضاءتِه ، والتي يصلُ عددُها إلى أربعٍ وسبعين (شمسة) من الزّجاجِ المُلوَّن ، ثم يصف أعمدتَه الرُّخامية المُرصَّعةَ بالرُّخام المُلوّن ، والتي تحملُ قُبّةَ الرّصاصِ التي أمامَ المِحراب ، والمُسمّاةَ «قُبّةَ النّسْر» ، لأنّ المسجدَ يُشبهُ نَسراً طائراً ، تقعُ منه القُبّةُ مَوْقِعَ الرّأس.

ثم يصفُ ابنُ بطوطة بعدَ ذلك اجتماعَ أهلِ المَدينةِ في آخرِ النهار بصحْنِ الجامعِ الجميلِ المُتّسعِ ، واستماعَهم إلى تِلاوةِ القرآنِ الكريم ، وإلى الأَحاديثِ الدّينية التي يُقدمُها الفُقَهاء. ثم تَلْفتُ نَظرَه رُوحُ الأُخوّةِ بين رُوّادِ الجامع ، فما يَرى أحدَهم صاحباً له ، حتى يُسرِعَ نحوَه يُعانقُه . وهو يتحدّثُ أيضاً عن القبّةِ التي في وَسَطِ الصَّحن ، وهي قبّةٌ صَغِيرةٌ مُثمّنةُ الشَّكلِ من الرُّخامِ العَجيب ، في أسفلِها يوجدُ ما يُشبهُ الشُّباكَ من الحَديد ، في وَسَطِه أنبوبةٌ من النّحاس ، تدفعُ الماءَ إلى أعلى ،

فيرتفعُ ثم يَنْثَني ، كأنّه قضيبٌ من الفِضّة ، وهم يُطْلقون عليه اسمَ «قَفَص الماء» . ويَلَذُّ لروّادِ الجامعِ أن يَضعوا أفواهَهم على هذا الماءِ فَيشربوا منه .

أسواقُ دِمشق

يَحكي ابنُ بطّوطةَ بعدَ ذلك عن الركنِ الشّرقيّ من المِحْراب ، حيث توجدُ خِزانةٌ كبيرةٌ فيها المُصْحفُ الكريمُ الذي وَجّهه أميرُ المؤمنين عُثمانُ بنُ عفّانَ رضيَ اللهُ عنه إلى الشّام . وهذه الخِزانةُ تفتحُ كُلَّ يومِ جُمعة بعد الصّلاة ، فيتجمّعُ الناسُ ويتزاحمون لتقبيلِ المُصحفِ الأثريِّ الكريم . وهناك بعضُ الناسِ ممّن تقعُ بينَهم الخِلافات ، يُقْبِلون إلى مُصحفِ عُثمانَ حتى يُقْسِمَ عليه كلٌّ منهم بما يُطْمئِنُ الآخرين .
ويقولُ ابنُ بطّوطة إن عددَ المُؤذّنين في جامعِ بَني أميَّةَ يبلغُ سبعين مؤذّناً . ويقول «من فضائلِ هذا المسجدِ أنّه لا يَخلو من قِراءةِ القُرآنِ والصّلاة ، إلاّ قليلاً من الزّمان . والناسُ يَجتمعون به كلَّ يومٍ إثْرَ صَلاة الصُبحِ لقراءةِ القُرآن ، والذين يَقرؤن القُرآنَ في هذا الجامعِ يَزيدُ عددُهم على ستِّمائة قارِئ ، تُدفعُ لهم المرتّباتُ عن أيامِ حضورِهم ، فاذا غابَ الواحدُ مِنهم يوماً ، لا يتقاضَى أجراً عنه ، ويُخْصَمُ من راتبِه» .

ويذكرُ ابنُ بطّوطة جماعةً كبيرةً من المُجاورين الذين يُقيمون في الجامع لا يَخرجون منه ، يُقْبِلون على الصلاةِ وقراءةِ القُرآن الكريمِ وذِكْرِ الله . ونَتيجةً لانقطاع هؤلاءِ للتعبّد ، يقومُ أهلُ دمشقَ بتزويدِهم

بكلٍّ ما يحتاجونه من طَعامٍ وشَرابٍ وملابِسَ ، من غيرِ أنْ يُسألَ هؤلاء شيئاً .

ثم يتطرقُ ابنُ بطوطةَ إلى وصفِ أبوابِ الجامع الأربعةِ المؤديةِ إلى الأسواق . البابُ القِبليُّ المعروفُ ببابِ الزِّيادَة ، ويقولُ إن بأعلى هذا الباب قِطعةً من الرمحِ الذي كانت فيه رايةُ خـالد بن الوليد ، ويؤدِّي هذا البابُ إلى مَتاجر الأشياء المُستعملةِ الرّخيصةِ من ملابسَ وأدواتٍ وأثاث ، والتي يَحتاجُ إليها أصحابُ الدّخولِ الضّعيفة ، كما يُؤدِّي إلى صُنّاعِ النُّحَاسِ الذين يُطْلَقُ عليهم اسمُ « الصفَّارين » ، ويقال إن بموضعٍ من هذا السوقِ كانت تقامُ دارُ معاويةَ بن أبي سفيان التي تُسمّى « الخَضْراء » ، والتي هَدَمَها العَبّاسيون بعدَ ذلك ، وأقاموا مكانَها سُوقاً .

أمّا البابُ الشّرقي ، فيُعرفُ باسمِ (باب جَيْرون) ، ويمتدّ أمامَه دِهْليزٌ ضَخْمٌ يؤدِّي إلى سوقِ تجار الأقمشة والملابسِ وغيرِهم من باعة الجواهر والكُتبِ وصنّاعِ الأواني الزجاجيةِ الخَلاّبة ، تعترضُه نافورةٌ جميلة . والبابُ الغَربيُّ ، أو بابُ البريد ، فيؤدِّي إلى مدرسةٍ لأبناءِ المَذهبِ الشافعي ، وإلى متاجرَ أخرى يباعُ فيها الشّمعُ والفَاكهة ، كما يؤدِّي إلى دَارٍ يقالُ إنّها دارُ أمير المؤمنين عُمَرَ بنِ عبد العزيز .

وجامعُ دمشق ، أو جامعُ بَني أميّة ، كان يقومُ بِدَوْرِ الجامعةِ العِلميةِ إلى جانبِ وظيفتِه الأساسيةِ كمكانٍ للعبادة . وكانت حَلَقاتُ التدريسِ تُعْقَدُ في هذا الجَامع ، فكنت تجدُ الجالسين على الكراسيِّ المُرتفعةِ يَتْلون القرآنَ الكريمَ بالأصواتِ الحَسَنةِ صباحاً ومساء ، وغيرُهم يَستندون إلى أعمدةِ الجامعِ ويجتمعُ حولَهم الدّارسون ، يَتلون دُروسَهم

عليهم، من حديثٍ ولغةٍ وشِعْر. وفي جانبٍ آخرَ يجلسُ مُدرّسو الخطّ العَربي. ولم يكنْ جامعُ بني أميّةَ هو المركزَ العِلميَّ الوَحيد، فقد كانت للمذهبِ الشافعيِّ مَدارسُ كَثيرة، أهمُّها مَدرسةٌ تسمَّى (العادلية)، وفيها يقومُ قاضِي القضاةِ بالبتِّ في القَضايا. وكذلك مَدرسةُ (الظاهريّة)، وبها قبرٌ للملكِ الظاهرِ بِيبَرْس.

وَبَــاءُ الطاعونِ الأعظم

وفي دمشق، يشهدُ ابنُ بطّوطة أيّامَ وَباءِ الطاعونِ الأعظم، ورأى كيفَ طَلَبَ أميرُها نائبُ السلطانِ أرغون شاه، ان يُنادِيَ المنادِي في دِمشق أن يصومَ الناسُ ثلاثةَ أيام، وألا تقومَ الأسواقُ بِطَهْوِ الطَعام، فقد كان من عادةِ أهلِ دِمشقَ أن يأكلوا من طَعامِ الأسواق. صامَ الناسُ ثلاثَةَ أيامٍ مُتوالية، وفي اليومِ الأخيرِ اجتمعَ الأُمراء والشُرَفاءُ والقُضاةُ والفُقهاء، وسائرُ طبقاتِ الناس في جامعِ دِمشق، حتى شَغَلوا كُلَّ فَراغٍ فيه. وباتَ الناسُ ليلتَهم بالجامعِ بين صلاةٍ وذِكْرٍ للهِ ودُعاءٍ له، ثم صَلّوا الصّبح، وخَرجوا جميعاً على أقدامِهم وبأيديهم المَصاحف، والأمراءُ حُفاةٌ في مُقدِّمةِ المَوكِب.

خرجَ جميعُ أهلِ البَلدِ ذُكوراً وإناثاً، صِغاراً وكِباراً.. خَرجَ اليهودُ بتوراتِهم والنصارَى بإنجيلِهم، والجميعُ يَبكي ويتضرّعُ مُتوسِّلاً إلى اللهِ بكتبِهِ وأنبيائه... قَصَدَ الجميعُ مَسجِدَ «الأقدام»، وأقاموا به يَتضرّعون ويَدْعون حتى جاء وقتُ الزَّوال، ثم عادُوا إلى المدينة، فَصلُّوا صلاةَ

الجُمُعة. ويقول ابنُ بطّوطة: «وخفّفَ اللهُ تعالَى عنهم بعدَ ما انتهَى عددُ الموتَى إلى ألفين في اليومِ الوَاحد، وقد انتهى عددُهم بالقَاهرةِ ومصرَ إلى أربعةٍ وعشرين ألفاً في يومٍ واحد...

لم تكن مواجهةُ الوَباءِ الشكلَ الوحيدَ من أشكالِ تكافلِ أبناءِ دِمشق، فقد لَفَتَ نظرَ ابنِ بطّوطة في دِمشق، كثرةُ الأوقافِ التي لا تُحْصَرُ أنواعُها وأوجهُ الإنفاقِ المَرصودةُ لها. منها الأموالُ التي يَقفُها الناسُ لحسابِ العاجزين عن الحَجّ، فكان الواحدُ من الحجّاج يُعطَى النَفقاتِ التي يِحتاجُها في زيارةِ بيتِ الله. ومنها أوقافٌ لتجهيزِ البَنات الفقيراتِ للزّواج، وأوقافٌ لأبناءِ السبيلِ من المُحتاجين، تُقدِّمُ إليهم المَلْبَسَ والمَأكل. كما كانت هناك الأوقاف المخصصةُ لتعبيدِ الطرقِ ورَصْفِها.

في مَعْرِضِ الحديثِ عن هذه الأوقَاف، يَروي ابنُ بطوطة أنّه كان يمُرُّ يوماً ببعضِ أزقّةِ دِمشق، فرأى بها مَملوكاً صغيراً وقد سَقَطَ من يدَه الطَبَقُ المصنوعُ من الفَخّارِ الصّينيّ، فتكسّرَ إلى قِطعٍ صغيرة. اجتمعَ الناسُ حولَ الصبيّ الذي كان يَبكي حُزناً لِكسرِ الطَّبقِ، وخَوفاً من العِقابِ الذي يُمكنُ أن يحِلَّ به. قال له أحدُ الوَاقفين: «اجمعْ قِطعَ الطَبَقِ المكسور، واحمِلْها لصاحبِ أوقافِ الأواني». فَجمَعها الصبيّ، وذَهبَ مع الرجل إلى ما يسمّى أوقافَ الأواني، فَدفعوا للصبيّ ما اشترى به طَبَقاً آخر عِوَضاً عن الطبقِ المَكسور.

ويُعقِّبُ ابنُ بطّوطةَ على هذه الواقعةِ قائلاً: «وهذا من أحسنِ الأعمال، فانّ سيدَ الغلام لا بدّ له أن يَضربَه على كَسْرِ الصّحن

أو يَنْهرَه ، وهو أيضاً ينكسرُ قلبُه ويتغيرُ لأجلِ ذلك . فكان هذا الوقفُ خيراً للقُلوب ، جَزَى اللهُ خَيراً مَن تَسامتْ همتُه في الخيرِ إلى مثلِ هذا .

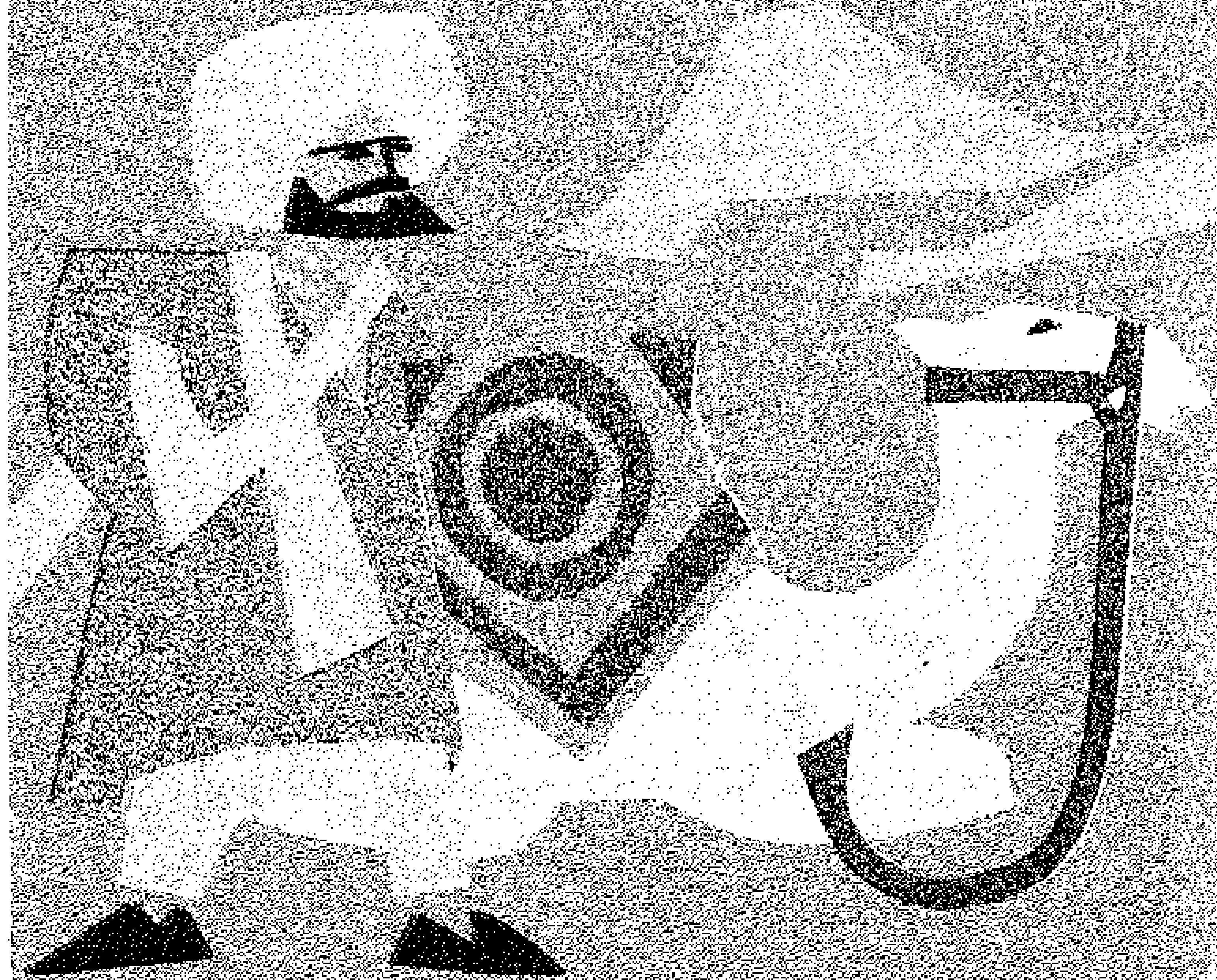
ويعودُ ابنُ بطّوطة ليتحدّث عن شكلٍ آخرَ من أشكالِ التّعاطفِ والتآخي بينَ أهلِ دمشق ، فيقول : «ومنَ الفضائلِ بين أهلِ دمشقَ أنّه لا يُفطرُ أحدٌ منهم في ليالي رمضانَ وحدَه . فَمن كانَ من الأمراءِ والقُضاةِ والكُبرَاء ، فانّه يَدعو أصحابَه والفُقراء يُفْطِرون عندَه ، ومن كان من التُجّارِ وكبارِ السُّوق صنع مِثلَ ذلك ، ومن كان من الضُعفاءِ والبادية ، فإنّهم يَجتمعون كُلَّ ليلةٍ في دارِ أحدِهم ، أو في مَسجد ، ويأتي كُلُّ واحدٍ بما عنده ، فَيُفْطِرون جَميعاً» .

وهو يَحكي عن واقعةٍ جرَت له في رَمضان ، عندَما كان بدمشقَ مُترقّباً تحرُّك موكبِ الحجِّ إلى بيت الله ، فيقولُ في ذلك : «لَمّا وَرَدتُ دِمشق ، وَقَعتْ بيني وبين نورِ الدينِ السّخاوي مُدرّسِ المَالكيةِ صُحْبَة ، فرغبَ منّي أنْ أُفطرَ عندَه في لَيالي رمضان ، فَحضرت عندَه أربعَ ليال ، ثم أصابتني الحُمَّى فَغِبت عنه ، فبعثَ في طَلبي فاعتذرت بالمَرَض ، فلمْ يَسَعْني عُذراً ، فَرجَعت إليه وبتُّ عندَه ، فلمّا أردت الانصرافَ بالغَد ، مَنعَني من ذلك وقال لي : أَحْسُب دَاري كأنّها دارُك أودارُأبيك أوأخيك . وأَمرَ بإحضارِ طبيب ، وأنْ يُصنعَ لي بدارِه كُلُّ ما يَشتهيه الطبيبُ من دَواءٍ أو غِذَاء . وأقمت عندَه إلى يوم العِيد ، وحضرت المُصَلّى وشَفاني اللهُ مما أصابني . وقد كان ما عِندي من النَفَقةِ نَفِد ، فَعَلِمَ بذلك ، فاكْترى لي جِمالاً ، وأعطاني الزادَ وسواه ، وزادَني دَرَاهم» .

ماذا في وادي جهنّم

حلَّ شهرُ شوّال ، ويسمعُ ابنُ بطوطة أن الركبَ المسافرَ إلى الحجاز موجودٌ خارجَ دمشق ، بقريةٍ معروفة باسم (الكُسْوة) ، فيلحقُ به . ينضمُّ ابنُ بطوطة إلى طائفة من العرب تُدعى «العجارمة» ، ويبدأُ معها رحلتَه الثانيةَ إلى الأراضي الحجازية ، وهو يدعو الله أن تُكلَّلَ هذه المرّة بالتوفيق ، ولا يكونَ حالُها كحالِ الرحلة الأولى التي توقّفت عند عيذاب .

تحرّكَ الركبُ حتّى وصلَ إلى مدينة (بُصْرى) فتوقّفوا أربعة أيام ، في انتظار أنْ يلحقَ بهم من تخلّف في دمشق لبعض أعماله وشؤونه .





مرَّت هذه الأيامُ الأربعةُ على ابنِ بطّوطة طويلةً بَطيئة، يتمنّى أن تَمْضي سريعاً، حتى يتحركَ الركْبُ نحوَ غايتِه التي غادَرَ من أجلِها بلادَه، وفارقَ أهلَه وأحبابَه. فكان يَقْطعُ الوقتَ مُتجوّلاً في المَدينة، يزورُ مَسجدَها الكبير، ويسألُ عن تاريخِه، ويعرفُ أنّه مُقامٌ على البُقعةِ التي بَركت فيها ناقةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، عندَما وَصَلَ إلى بُصْرى قبلَ البَعْث، في تجارةِ السيدةِ خَديجة.

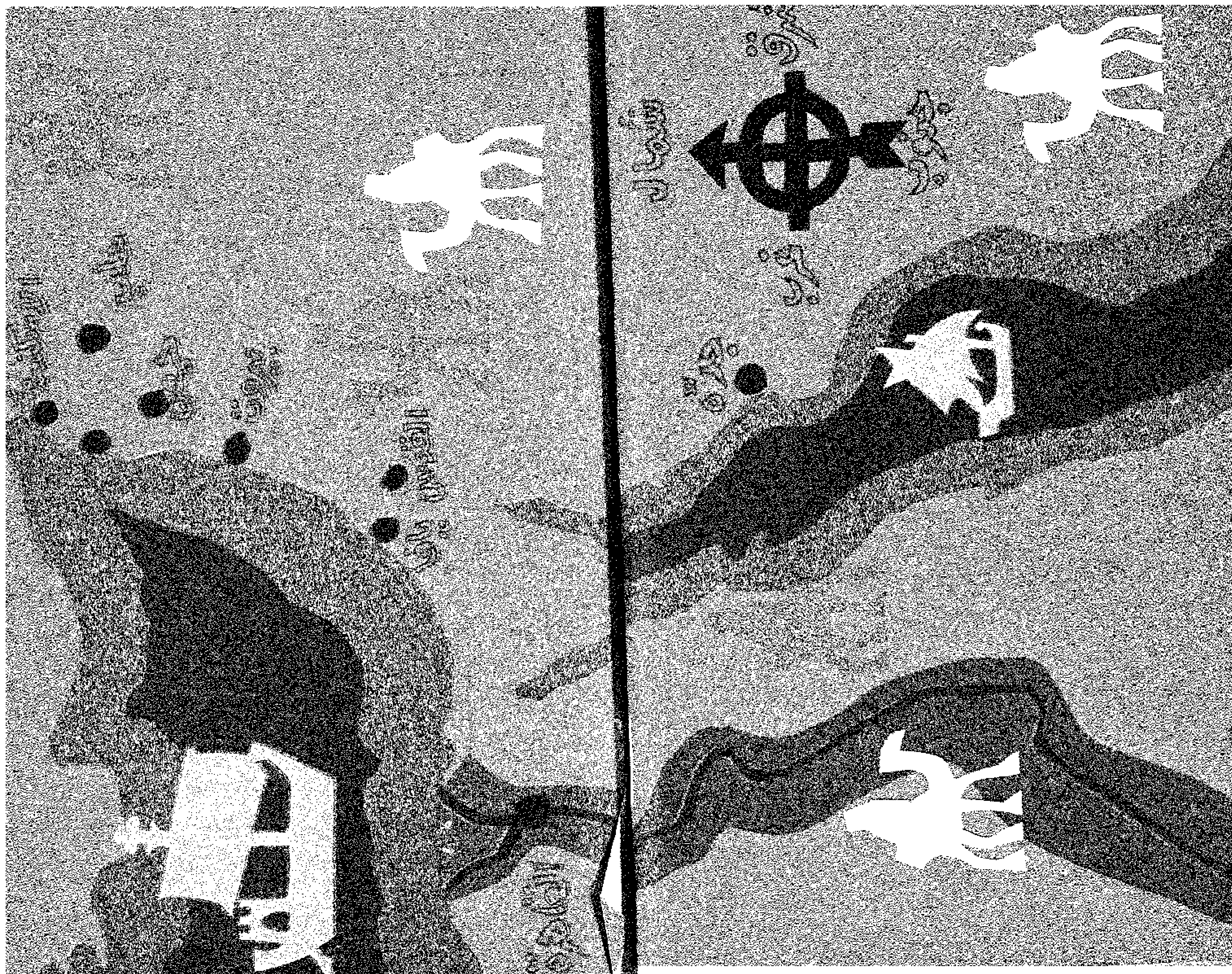
في آخرِ هذه الأيام، يَتحرّكُ الرّكبُ حتى يصلَ إلى حِصْنِ الكَرَك، وهو الذي يطلقُ عليه اسمُ (حِصن الغُراب)، فَيَحُطّون الرِحالَ، ويُقَرِّرون البَقاءَ أربعةَ أيّامٍ أخرى في موقعٍ يقالُ له (الثّنيّة) استعداداً لعبورِ الصّحراء. فيعودُ إلى ابنِ بطّوطة قَلقُه ثانية، ويتساءلُ «كيف سيتحمّلُ انتظارَ أربعةِ أيّامٍ أخرى؟!»، ويَرى رفاقُه ما يُبْديه من قَلَق، فَيُطَيِّبون خاطره، ويَشْرحون له حِكمَةَ هذا الانتظارِ استعداداً لعبورِ الصّحراء بكلِّ مَخاطرِها. فهناك بعضُ المناطقِ في هذه الصحراءِ لا بدّ لهم أنْ يقطعوها مُسْرعين ليلَ نَهارَ بلا توقّف، خَوفاً من رياحِها القاتلةِ المعروفةِ باسمِ «السَّمُوم».

يحاولُ ابنُ بطّوطةَ أن يَشْغَلَ نفسَه بشيء طَوالَ تلك الأيام، فيقومُ بزياراتِ لحصنِ الكَرَك، فَيراه حَصيناً مَنيعاً، ويسمعُ مِن بعضِ أهلِ تلك الناحية، أنّ الملوكَ والأمراءَ يَتحصَّنون بهذا الحِصْن، ويَلجأون إليه في النوائبِ والمُلِمّات، وحَكى له واحدٌ من أهلِ ذلك المكان، أنّ المَلِكَ الناصرَ عندَما تَوَلّى المُلْك، كان صَغيرَ السّن، فاستولَى نائبُه سلاّر على مُلْكِه، وتَركَه بلا سُلطان.

أخذَ الملكُ الناصرُ يُفكّرُ في طريقةٍ للانتقام، فادّعى أنّه يُريدُ الحجَّ، ووافقَه سلاّر على ذلك حتّى يَتخلّص منه. خرَجَ الملكُ الناصرُ من القاهرةِ حتى وَصَل إلى حِصنِ الكرَك هذا، فأقامَ به عِدّةَ أعوام، واتّصلَ أثناءَ ذلك بأمراءِ الشامِ يَستنجد بِهم، فتجمّعَ لديه في الحصنِ عددٌ ضَخْمٌ من المماليك. وفي تلك الأثناء، كان قد تَولّى المُلْكَ في مِصرَ أميرُ الطعامِ الذي يُدْعى بِيبَرْس الشنكير، والذي أطلقَ على نفسِه اسمَ المَلك المظفّر. عادَ الملكُ الناصرُ بعساكره إلى مِصر، وعندَما عَرَفَ بيبرس بذلك فَرّ إلى الصّحراء، ولكنَّ جنودَ الملكِ الناصرِ لَحِقوا به، وقَتلوه. أمّا سلاّر فقد قَبَضوا عليه، وحُبِسَ في مكانٍ حتّى ماتَ جُوعاً.. وهكذا عادَ الملكُ الناصرُ إلى سُلطانِه، بفضلِ حِصْنِ الكرَك.

انشغلَ ابنُ بطّوطةَ بمثلِ هذه الحكاياتِ التي كان يَستمعُ إليها، ثم يُدوّنُها في أوراقِه، حتى حانَ موعدُ التّحرّكِ إلى (مَعَان) آخرِ بلادِ الشام. بَدأت الرحلةُ عَبْرَ الصّحراء. وتطلّعَ ابنُ بطّوطةَ أمامَه فلم يجدْ سوَى صحراءَ قاحِلة، لا زَرعَ فيها ولا نبَات، تَمتدُّ في كُلٍّ اتجاه. سأل أحدَ الشيوخِ الذين كانوا ضِمْنَ الركب: «هذه الصّحراء.. أليس لها آخِر؟!..». ضَحِك الشيخُ وقال «تَجلّدْ يا بُني.. وادْعُ اللهَ أن يكتبَ لنا السّلامة، فهذه هي الصّحراءُ التي يُقالُ عنها... دَاخِلُها مَفقود وخارجُها مَولود!..»

لكنَّ مخاوفَ ابنِ بطّوطة تبدَّدتْ كلُّها، عندَما وصَلَ الرّكبُ الى مَدينة (تَبُوك)، المدينةِ التي غزاها رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم، والتي تَوَضأ من عَينِ الماءِ التي بها. ما إنْ توقّفَ الرّكْبُ حتَّى هَبَط حجّاجُ



الشامِ من فَوقِ دَوابِّهم. وجرّدوا أسلحتَهم وسيوفَهم، وهَجَموا على النخيلِ الموجودِ حولَ العَينِ يَضْربونه بالسّيوف.. دبَّ الفزَعُ في نَفْسِ ابنِ بطّوطة، وظنّ أنّ الرَّكْبَ قد اكتشفَ عَدواً رابضاً بين النّخيل، وهَمّ بالبحثِ عن شيء يدافعُ به عن نَفْسِه، لكنّ رفيقَ سَفرِه طَمْأنَه وقال له: «لا تجزعْ يا بُني... فهذه هي عادةُ حُجّاجِ الشام كُلّما نَزَلوا إلى هذا المكان... استمعْ إليهم وهم يَصيحون.. هكذا دَخَلَها رسول الله... إنّهم بهذا يحاولون اقتفاءَ أثرِ ما فَعلَه الرّسول، عندما وصَلَ إلى هنا..».

اطمأنَّ ابنُ بطوطة، ومضَى مع باقي الحجّاج إلى العَيْن، يَرتوي من مائِها. وبعدَ أنْ شَربَ كفايتَه من المَاء، أخذَ يتطلّع حولَه، فَرأى حولَ هذه العَين، أحواضاً مصنوعةً من جِلْدِ الجَاموس، ضخمةً كالصهاريجِ الكَبيرة، يتوجّهُ اليها الجمّالون بجِمالهم لِيَسقوها، ويمْلأوا ما مَعهم من قِربِ الماء والأوعية، استعداداً للشَّطرِ التالي من الرِحْلة.

وفي (تبوك) بقي الركبُ أيضاً مدّة أربعةِ أيّام... وقَبْلَ أن يتململَ ابنُ بطّوطة، قال لَه رفيقُ سَفرِه «اصْبرْ يا بني.. لا بدّ من الراحةِ الكاملةِ قبلَ أنْ نَعْبُرَ.. واديَ جَهنّم...». ظهرَ الفَزَعُ على ابنِ بطّوطة وهو يستمعُ إلى كَلماتِ الشّيخ، فاستطردَ الشيخُ قائلاً: «هذا الوادي يا بُني، هو أخطرُ مَراحلِ سَفرِنا... وسَترى أنَنا هذه المرّة لن نتوقفَ عن السيرِ السريعِ لحظةً واحدة... أَذكُرُ منذ سنواتٍ ما أصابَ الحجّاجَ في هذا الوادي... عندَما هبّت عليهم ريحُ السَّموم، فأَنْشَفَت المِياه.... أصبحَ ثَمنُ شُربةِ الماءِ ألفَ دِينار... ومع هذا فقد ماتَ بائعُ المَاءِ وشاريه..».

جلسَ ابنُ بطّوطةَ وحيداً في مساءِ اليومِ الرّابع .. وأخذَ يُناجِي نفسَه ...
غداً نتحرّك لنغوصَ في هذه الصّحراءِ القَاتلة.. فهل تُكتبُ لنا النَّجاة؟! . وهل أَحْظَى بأمنيّةِ حياتي ، وأزورُ الأرض المُقدّسة؟. أم أفقِدُ حياتِي قبلَ أنْ يَتحقّقَ هذا؟!.

وبقيَ طَوَالَ اللّيلِ ، ساهراً لا تَغْتَمِضُ له عَيْن ، لا يعرفُ إجابةً عن تَساؤلاتِه هذه...

والى الحلقة القادمة



مغـامـرات
ابـن بطـوطـة

٣

عندما تحققت الاحلام

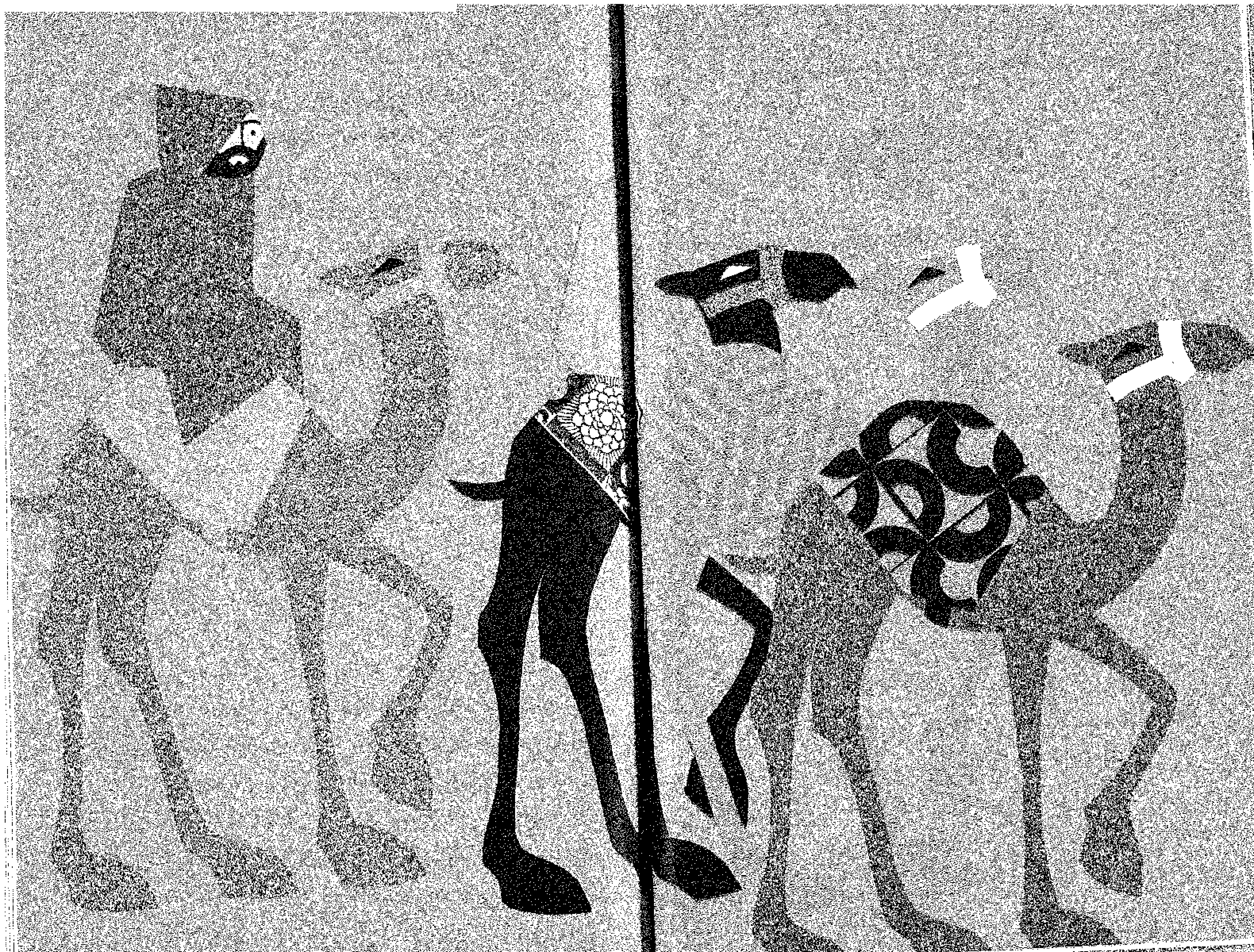
اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان



وادي العطـــــاس

كان ابنُ بَطّوطَة يُناجي نَفْسَه، عندَما كان ركْبُ الحجِّ الشاميُّ يَتهيَّأ لمبارحةِ تبُوك «هل يا تُرى سأنجحُ في عُبورِ هذه الصَّحراءِ التي يُطْلقون عليها اسمَ وادِي جهنم؟.. وأصلُ إلى المدينةِ المنوّرةِ التي هاجَرَ إليها رسولُ الله، صلّى الله عليه وسلّم.. وأحققُ الغايةَ التي مِن أجلِها غادرتُ بلادِي وفارقتُ أهلي، ولاقيتُ المَصاعبَ والمَشَاقَّ.. أم يَحدُثُ لي ما جرَى عندَ شاطىء بحرِ القُلْزُم، عندَما حالت قبائلُ البجاةِ بينَنا وبين عُبورِ البَحْر، وكنّا على مَدَى قريبٍ من الغايةِ المُقدّسةِ التي تَتعلّقُ بها نُفوسُنا؟!».

بَدأَ الركْبُ مَسيرتَه، وعلى مَدَى خَمسةِ أيامٍ، كانت الجمالُ تَسيرُ مسرعةً فيما يُشْبهُ الرَّكْض.. والجميعُ يتوقّعون بينَ لحظةٍ وأُخرى، أنْ تَهُبَّ عليهم رياحُ السَّمومِ القاتلة، فتقضِي على الركْبِ بمَنْ فيه... حتّى لاحتْ لهم عن بُعدٍ مشارفُ (العلا). والعلا قريةٌ كبيرةٌ جميلةُ المَنْظَر، بها البَساتينُ والنَّخيلُ، وتتفجّرُ من أرضِها المِياهُ الرَّائقة.



عندَما وَصلَ الركبُ إلى العلا ، قال ابنُ بطّوطة للشيخ الذي كان قد عقَدَ معه صَداقةً في الطّريق «الحمدُ لله على سلامتِنا جميعاً.. لقد أكرمَنا اللهُ فلم تَهبَّ علينا ريحُ السَّموم ، ووصلْنا إلى هذه القريةِ الجميلةِ بما فيها من زرعٍ وماء..». قال الشيخُ في صوتٍ خَفيض «هانَتْ يا بُنيّ !». فسأل ابنُ بطّوطةَ «عرفت أننا سنصلُ إلى المدينةِ المُنوّرةِ بعدَ ثَلاثةِ أيام». ابتسمَ الشيخ وهو يقول «لا تَتعجّلْ الأمورَ يا بُنيّ..». فظهرَ الانزعاجُ على ابنِ بطّوطة ، وسألَ «أتعجّل؟!، ألمْ يَصْدُقوا عندَما قالوا إن المسافةَ بينَ العلا والمدينةِ مسيرةُ ثلاثةِ أيّام؟..». ضَحِكَ الشيخُ وقال «بل صَدَقوا !. لكنّنا سنبقَى في العلا أربعةَ أيام.. ثم عَلينا بعدَ ذلك أنْ نَجتازَ وادِي (العُطَاس).. وهو شديدُ الحرِّ تَهُبُّ عليه السَّمومُ المُهلكة !..».

صَمَتَ ابنُ بطّوطة طَويلاً ، وقد بَدَا مَهموماً ، ثم قالَ للشيخ «وهل تصلُ خُطورةُ وادِي العُطاس هذا ، إلى خطورةِ وادِي الأُخيضر الذي تُطلقون عليه وادي جَهنّم؟». قال الشّيخ «لا تنزعجْ يا بُنيّ.. عَسى اللهُ أن يُكرِمَنا كما أكرمَنا مِن قَبلُ وأَخْرجَنا سالمين من وادِي الأخيضر..». فعادَ ابنُ بطّوطةَ ليسألَ من جديد «لكنّك يا سيدي الشّيخ لم تُجبْ عن سُؤالي.. ماذا عن وادِي العُطاس هذا؟..». قال الشّيخ «الذين هُمْ مثلي..ممّن أدَّوْا الفريضةَ أكثرَ من مرّة.. يتناقلون ما جَرى في هذا الوادِي ، في السنةِ التي يُطلَقُ عليها سنةُ الأمير الحالِقِي..»، فسأل ابنُ بطّوطة في لَهفة «وماذا حدَثَ في ذلك العام؟»، أجاب «هبّت رياحُ السّمومِ على ركْبِ الحجِّ ، فَقضت عليه ، ولم يَنجُ منهم سوى اليَسير!..».

غيرَ أنّ حياةَ الحجّاجِ في العلا أنست ابنَ بطّوطةَ بعدَ ذلك مخاوفَه. رأى الحجّاجَ يَنْهمكون في غَسْلِ ثيابِهم، تُغْريهم وَفرةُ الماء، ففعلَ مثلَهم.. ثم رآهم يَتصدّقون بأغلبِ ما بقيَ لديهم من طعامٍ على فُقراءِ القَرية، وكانوا لا يَحْتفظون إلاّ بما يَكْفيهم إلى حينِ الوصولِ إلى المدينةِ المُنوّرة.. فحذا حَذْوَهم.

وعندما انْقَضت الأيامُ الأربعة، استعدَّ الجميعُ لقطْعِ وادِي العُطاس، وقد أَشرقت الوجوهُ بأملِ الوصولِ إلى الأراضِي المقدّسةِ التي سَعَوْا إليها. أمّا ابنُ بطّوطة فقد بقيَ طَوالَ الرِحلةِ يُردّدُ الأدعية، طالباً من اللهِ أن يُحقّقَ له حُلمَه القَديم. وفي اليومِ الثالثِ من هذه الرّحلة، ظَهرت لهم عَن بعدٍ مَعالمُ المدينةِ المنوّرة. فانطلقت من فَمِ ابنِ بطّوطة رَغماً عنه صَيْحاتٌ عاليةٌ يُرَدِّدُ فيها «الحمدُ لله.. الشكرُ لله!..».

العُرْسُ الالٰهيُّ الكَبيـــر

عندَ نهايةِ ذلك النّهار، دخلَ الركْبُ إلى الحَرَمِ الشّريف، حتى وَصَلَ إلى المسجدِ الكَريم... فوقفَ الجميعُ ببابِ السّلامِ مُسَلِّمين، ثم صَلُّوا بالرَّوضةِ الكريمةِ بين القَبرِ والمِنْبَرِ الكَريم. وراحَ ابنُ بطّوطةَ يَتحسّسُ جذْعَ النَّخْلةِ الذي كان الرسولُ عليه الصّلاة والسلامُ يَستندُ اليه، قبلَ أَنْ يُصْنَعَ له المِنْبَر. ثم انصرفَ الجميعُ بعدَ ذلك إلى جِمالِهم ودَوابِّهم، يَنقُلون أمتعتَهم، ويُدبِّرون أمرَ طَعامِها وشَرابِها.

بَقِيَ ابْنُ بطّوطة في المدينةِ المُنوّرةِ أربعةَ أيام ، وكان يَبيتُ مع باقِي الركبِ في المسجدِ الكَريمِ . انبهرَ ابْنُ بطّوطةَ بما يجري داخلَ المَسجد ، وملأت الغِبْطةُ قَلْبَه ، وهو يشعرُ أنّه وَسَطَ عُرسٍ إلٰهيٍّ كبير! ..بعضُ الحجّاجِ يَجتمعون في حَلَقاتٍ بصَحْنِ المَسجد ، وقد أوقدوا الشّموعَ.. بينهم مَن يَتناوبون تِلاوةَ القرآن الكَريم.. والبعضُ الآخرُ يَتجمّعُ في أماكنَ أُخرى مُنشغلاً بذكرِ الله.. بينما انصرفَ البَعضُ إلى مشاهدةِ المَدْفَنِ الطّاهر ، حيث يَثوي جَسدُ الرّسول ، وهم يتأمّلون ما يَكسوهُ من رُخامٍ بديعٍ له أَلوانٌ رائقة ، تفوحُ منه رائحةٌ طيّبة ، مِن طولِ ما وُضِعَ عليه من مِسْكٍ وطِيب.. وفي جانبٍ من صَحنِ المسجدِ يتجمّعُ الحُدَاةُ ، يَترنّمون بِمَدحِ رسولِ الله عليه الصلاةُ والسّلام .

وكانت الفَرحةُ تَملأُ قلوبَ الجَميعِ في تلك الليالِي المُباركة ، فكانوا يَجُودون بالكثير من الصَدقاتِ على المُجاورِين والمُحتاجين. وكان الحُجّاجُ الذين قَدِمُوا من مُختلِفِ البلادِ الاسلامية ، يَتعارفون ، فَتنشأ بينَهم الصَّداقاتُ التي قد تَمتدُّ بعدَ ذلك سنواتٍ طَويلة . وفي اليومِ الأولِ لإقامةِ ابنِ بطّوطةَ بالمسجدِ الكَريم ، تعرّف على أحدِ الفُقراءِ الصالحينَ من أهلِ غَرْنَاطة ، يسمَّى عليَ بنَ حِجْرٍ الأمويّ .

في صباحِ اليومِ التالي ، قال عليّ لابنِ بطّوطة إنّه سمع في المَنامِ تلك الليلةِ قائلاً يقول له ، اسمعْ منّي وأحفظْ عنّي :

هنيئاً لَكُم يا زائرين ضَرِيحَهُ أَمِنْتُم بهِ يومَ المَعادِ من الرِّجْسِ
وصَلْتُم إلى قَبْرِ الحَبيبِ بطيبة فَطُوبَى لِمَنْ يُضْحِي بطَيْبَةَ أو يُمْسِي

وعلاقةُ ٱبنِ بطّوطة بهذا الرجلِ لا تَنتهِي عندَ هذا اللّقاء، بل تشاءُ الظروفُ أنْ يلتقِيَ به مرّةً ثانيةً في عاصمةِ الهندِ (دِلْهي) التي يُطلِقُ عليها ٱبنُ بطّوطة اسمَ (دِهْلي). فيقول ٱبنُ بطّوطة إنّ عليّ بنَ حجر بقِيَ بعدَ اللقاءِ الأولِ في المدينةِ المُنوّرة، مُجاوراً سنواتٍ طويلة، ثم رَحَلَ إلى مدينةِ دلهي بالهند، وأقامَ بها، وكان ذلك في عامِ ١٣٤٢م (٧٤٣هـ). في ذلك الوقتِ كان ٱبنُ بطّوطةَ قد وَصَلَ إلى الهِند، وأقامَ بدلهي، وأصبحتْ له مكانةٌ كبيرةٌ عندَ ملكِ الهندِ السّلطانِ مُحمد شاه، فنزلَ عليٌّ بنُ حِجر ضيفاً على ٱبنِ بطّوطة.

وعندَما كان ٱبنُ بطّوطة في حضرةِ السّلطان، حَكَى له الرُؤيا التي رآها أيامَ كانا في المدينةِ المنوّرة، فأمرَ السّلطان بإحضار عليّ بنِ حجر، فجاؤوا به، وطلبَ منه السلطانُ أن يَقصَّ عليه الحكايةَ بتفاصيلِها. وعندَما انتهَى عليٌّ من ذلك، أظهرَ السلطانُ إعجابَه واستحسانَه للقصّة، فمنَحه ثروةً من النقودِ الذهبية، ووهَبه فَرساً مُزخرفَ اللِّجامِ والسَّرج، كما خَلعَ عليه أجملَ الملابسِ وأثمنَها.. وبالإضافةِ إلى هذا كلِّه، حدّدَ مُرتَّباً يُصَرفُ له في كلِّ يوم.

في ذلك الوقتِ كان يعيشُ بدلهي فقيهٌ طيّبٌ من أهلِ غَرْناطة، عَقَدَ صداقةً مع عليّ بن حجر، ووعدَه أنْ يُزوّجه ابنتَه، وأسكنَه بدارٍ صغيرةٍ بالقربِ من دارِه، كما اشترَى له جاريةً وغُلاماً يَكُونان في خدمتِه. وكان يخشَى على مالِه من اللّصوص، فكانَ يَضعُ القِطَعَ الذَهبيَة التي أخذَها من السلطانِ في جيوبٍ سِحريةٍ بثيابِه، لا يصلُ إليها أحد. لكنّ الغُلامَ والجاريةَ عَرفا طريقَ المَال، واستطاعا بحيلةٍ أنْ يَسرِقاه ويَهرُبا به.

عندَما عادَ عليّ بنُ حجر إلى دارِه ، واكتشفَ فِرارَ الغُلامِ والجارية ، أسرعَ يَطْمئنُّ على ثَروتِه ، فاكتشفَ أنْها اختفت ، فأصابَه حُزنٌ شديد ، وامتنعَ عن الطعام والشّراب ، فاشتدَّ به المرضُ نَتيجةً لذلك . عندَما عَرفَ ابنُ بطّوطةَ بما جَرى لصديقِه القَديم ، ذَهَبَ إلى السّلطان ، ونَقلَ إليه القصّةَ بكامِلها . تأثّرَ السلطانُ لحالِ عليّ ، وأمرَ بتعويضِه عن كلٍّ ما فَقَده ، وبعثَ إليه برسولٍ ينقُلُ إليه ذلك . لكنَّ الرسولَ عندما وَصل إلى دارِ علي ، وجده قد فارقَ الحَياة ! !.

مسجدُ الرَّســـول

وينتهزُ ابنُ بطّوطةَ فُرصةَ وجودِه بالمدينةِ المُنوّرة ، فيبحثُ في تاريخِ المَسجدِ الكَريم ، ويَعلمُ أنّ رسولَ اللهِ عليه الصلاةُ والسّلام ، عندَما توجّهَ إلى المدينةِ المُنوّرة ، دَارِ الهجرة ، نَزلَ على بَني النجّارِ وأقامَ عندَهم سبعةَ أشهرٍ حتّى تَمّ بناءُ مساكنِ المُهاجرين ومَسْجدِهم . وقد قَامَ رسولُ اللهِ مع أصحابِه ببناءِ المَسجد.

كان المسجدُ في ذلك الوقتِ عبارَةً عن حيّزٍ مُربَّع ، أُقيمَ حولَه حائطٌ يرتفعُ بمقدارِ قامةِ الإنسان ، وليس به أعمدةٌ أو دَعائم ، كما لَم يكنْ له سقف. فلمّا اشتدَّ الحَرُّ تكلّم إليه أصحابُه في صُنعِ سقفٍ للمسجد ، فأقامَ له الدَّعائمَ من جُذوعِ النّخل ، وجعلَ سقفَه من الجَريد. وعندَما أمطرت السّماء ، وسال الماءُ داخلَ المَسجد ، تكلّمَ

أصحابُ الرّسولِ معه على جَعْلِ السقفِ من الطِّين، فقال «كَلاّ.. عريشٌ كعريشِ مُوسى، أو ظِلّةٌ كظِلّةِ مُوسى، والأمرُ أقربُ من ذلك». قيل «وما ظِلّةُ مُوسى؟». قال «كان إذا قامَ أصابَ السَّقفُ رأسَه».

وبقيَ المسجدُ على ذَلك في حياةِ الرّسولِ عليه الصلاةُ والسّلام، وأيضاً في حياةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه. فَلمّا كانت أيامُ عُمَرَ بنِ الخطّاب رضيَ اللهُ عنه، توسّعَ في بناءِ المسجدِ بَعضَ الشيئ. وعندمَا تولَّى عُثمانُ رضيَ اللهُ عنه خلافةَ المُسلمين، توسّعَ في المسجدِ توسّعاً مَلحوظاً، وكان يباشرُ البناءَ بنفسِه، فيبقَى في مكانِ البناءِ طَوالَ النّهار. ثم طَلاهُ بالدّهانِ، وحلاّه بالأحجارِ المنقوشة، بعدَ أنْ وسّعه من جهاتِه، ما عدا جهةَ الشَّرق.

وقد جَرَتْ على المسجدِ بعدَ ذلك عِدّةُ تَعديلاتٍ وتَحسيناتٍ في عَهدِ الخلفاءِ الأمويين. وعَرّفَ ابنُ بطّوطةَ أنه في خِلافةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملك، قامَ عُمرُ بنُ عبد العزيز ببناءِ المِحْراب. ويقال إن الوليدَ بَعثَ إلى مَلِكِ الرومِ يقول «إنّي أريد أن أبني مسجدَ نَبيِّنا فأعنّي به»، فبعثَ إليه العُمّالَ المَهَرة، ومعهم ثَمانون ألفَ مثقالٍ منَ الذهب. وهكذا تَمّ التوسّعُ في مِساحةِ المسجدِ من الجهاتِ الثّلاث.

ويقول ابنُ بطّوطة إنه وَجدَ خُدّامَ المسجدِ الشّريف ورُعاتَه، فِتْياناً من مختلفِ الأجناس، مُعظمُهم من الأحباش. ويَصفُهم قائلاً «وهم على هَيئاتٍ حِسَان، وصُورٍ نِظَاف، وملابسَ ظِرَاف. وكبيرُهم يُعرفُ بشيخِ الخُدّام. وهو في هيئةِ كِبارِ الأمراء، ولَهم المُرتّباتُ بديارِ مِصرَ والشّام، ويؤتَى إليهم بها في كلِّ سَنة».

الكعبــةُ الشّريفــة

عندَما انتهت زيارةُ الركْبِ للمدينةِ المُنوّرة ، بدأَ الجَميعُ يستعدُّ للسفرِ إلى مكّةَ المكّرمةِ لاستكمالِ شَعائرِ الحَجِّ. وعندَما أصبحَ الركْبُ بالقربِ من مسجدِ ذِي الحليفة الذي أَحرمَ مِنه رسولُ اللهِ صَلّى الله عليه وسلّم ، والذي يبعدُ عن المدينةِ المُنوّرة حَوالَى خمسةِ أميال ، تجرّد ابْنُ بطّوطةَ من المَلابسِ المَخيطة ، واستَحَمّ ولبسَ ثوبَ الإحرام ، ثم صلّى ركعتين ، وقررَ أنْ يقومَ بمناسكِ الحجِّ مُنفرداً. وذلك حتّى لا يَشْغَلَه شاغِلٍ ، أو حديثُ صاحب ، عن الخُلوصِ إلى الله ، وهو يؤدِّي فريضةَ الحجِّ التي سَعَى إليها طويلاً ، ولاقَى في سبيلِها المخاطرَ والمصاعبَ والمَشاقّ.

في الطريقِ إلى مكّةَ المُكرّمةِ يقطعُ ابْنُ بطّوطة السّهول ، ويصعدُ التِلال ، وفي هذا يَقول «لمْ أزلْ مُلَبِّياً في كلِّ سَهلٍ وجَبَل ، وصعودٍ وحدور ، إلى أنْ أتيتُ شِعْبَ عليٍّ عليه السلام ، وبه نَزَلت تلك الليلة». ثم يواصلُ ابْنُ بطوطة مَسِيرتَه بعدَ ذلك ، فيمرُّ على (الصَّفراء) وهو وادٍ مَعمورٌ فيه ماءٌ ونخيلٌ وبُنْيان. ويصلُ بعدَها إلى (بَدْر) حيث نَصَرَ اللهُ رسولَه في الواقعةِ المعروفةِ بغزوةِ بَدْر. ويصفُها ابنُ بطّوطة قائلاً «وهي قريةٌ فيها حدائقُ نخلٍ مُتّصلة ، وبها حِصنٌ مَنيع ، يُدْخَلُ إليه مِن بطنِ وادٍ بينَ الجِبال. وببدرٍ عينٌ فوّارةٌ يَجرِي ماؤُها».

يصلُ ابْنُ بطّوطة بعدَ ذلك إلى الصحراءِ المَعروفةِ باسمِ (قاعِ البزواء) وهي صحراءُ قاحِلة ، قَطعَها في ثلاثةِ أيامٍ حتى وَصلَ إلى

(وادِي رَابغ)، ومنها يصلُ إلى (مُرِّ الظّهران)، وهو وادٍ خَصيبٌ كثيرُ النّخل، به عددٌ من العُيونِ الفوّارةِ التي تَسْقِي تلك النّاحية، ومن هذا الوادِي تُجلَبُ الفواكهُ والخُضَرُ إلى مكّةَ المكرّمة. وهناك يستريحُ ابنُ بطوطة بَعْضَ الوقت، ثم يُواصلُ مَسيرَتَه ليلاً، حتى يصلَ إلى مكّة المكرّمةِ في الصَّباح.

تبلغُ سعادةُ ابنِ بطّوطة غايتَها عندَما يصلُ إلى مكّة المكرّمة، فيقول في ذلك «.. ووصلْنا البيتَ الحَرامَ الشريفَ الذي مَن دَخَلَه كان آمناً.. وشاهدْنا الكعبةَ الشريفةَ زَادَها اللهُ تَعظيماً، وهي كالعروسِ تُجْلَى على مِنصّةِ الجلاَل، وتَرْفُــلُ في برودِ الجَمَال، محفوفةً بوفودِ الرَّحمٰن، مُوصِّلَةً الى جنةِ الرِّضْوان. وطُفنا بها طَوافَ القَدوم، واستلمنا الحَجَرَ الكَريم، وصَليّنا ركْعتين بمقامِ إبراهيم، وتعلّقنا بأستار الكَعبةِ عندَ المُلتزم، بينَ البابِ والحَجَرِ الأسود، حيث يُستجابُ الدعاء. وشَربنا من ماءِ زَمْزم.. ثم سَعينا بينَ الصَّفا والمَرْوة، ونزلنا هنالك بدارٍ بمقربةٍ من بابِ إبراهيم..».

ويسجِّلُ ابنُ بطوطة وصفَه لمكّةَ المكرّمة، فيقولُ إنّها مدينةٌ كبيرةٌ متّصلةُ البُنيان، تمتدُّ في قاعِ وادٍ تَحِفُّ به الجِبال، بحيث إنّ القاصدَ إليها لا يَراها حتَّى يصلَها. ويُعجبُ ابنُ بطوطَةَ للخَيرات المُتوافرةِ بالمَدينة، والتي تُجْلب إليها من كلِّ مكان، فيقولُ في ذلك «فكلُّ طُرْفةٍ تُجلبُ إليها، وثَمراتُ كلِّ شيءٍ تُجْبَى إليها. ولقد أكلت من الفَواكه، العنبَ والتّينَ والخَوْخَ والرُّطَبَ ما لا نظيرَ له في الدّنيا، وكذلك البطيخُ المجلوبُ إليها لا يُماثلُه سِواه طيباً وحَلاوة. واللّحومُ بها سِمانٌ لذيذاتُ الطّعوم».

وعندَما يتّجه ابنُ بطّوطة إلى المسجدِ الحَرام ، يَهتمّ بوصفِ كلّ صَغيرةٍ وكبيرةٍ فيه وصفاً دقيقاً ، فيرى المسجدَ مُتسِعَ المِساحةِ تتوسّطُه الكعبةُ العُظمى ، وترتفعُ جُدرانُه نحوَ عِشرين ذراعاً . أمّا الكعبةُ الشّريفةُ فارتفاعُها ثمانٍ وعشرون ذِراعاً ، وبابُ الكعبةِ في الجِهةِ التي بينَ الحَجَرِ الأسودِ وما يسمّى بالرُكْنِ العِراقي ، وهو مُغطّىً بصفائحَ من الفضّةِ البديعةِ الصّنع ، وبابُ الكعبةِ يُفتحُ في كلِّ جمعةٍ بعدَ الصّلاة ، كما يفتحُ في يومِ مولدِ رسولِ الله عليه الصلاةُ والسلام .

ولمّا كان البابُ مُرتفعاً عن الأرض ، فانّه عندَ فَتْحِه ، يُقرّبون منه كرسيًّا شبيهاً بالمِنْبرِ ، له دَرجٌ وقوائمُ خَشبية ، ويَجْري على أربعِ عَجَلات ، حتّى يُلصقونه بجِدارِ الكَعبة ، فتكونَ الدرجةُ العُليا في مستَوى عَتَبةِ الباب . ويَصعدُ الذين بيدِهم مِفتاحُ الكَعبة ، فيُمسكون السِّتْرَ المُسدَلةَ على بابِ الكَعبة ، ريثما يَفتحُ رئيسُهم البَاب . وما أن يَنتهي من فَتْحِ الباب ، حتّى يُقَبِّلَ العَتبةَ الشّريفة ، ويدخلَ وحدَه البيت ، فيُغلق خلْفَه الباب . ويغيبُ بالداخلِ إلى أن ينتهيَ من صلاةِ ركعتين ، فيدخُل الباقون ويَفْعلون مثلَ ما فَعلَ رئيسُهم ، ثم يَفْتحون البابَ ويَسمحون للناسِ بالدّخول . فإذا فُتحَ الباب ، كبّرَ الناسُ وصاحوا : اللهمّ افتحْ لَنا أبوابَ رَحمتِك ومَغفرتِك يا أرحمَ الرّاحمين .

التِّيهُ عندَ غـارِ حِـرَاء

بعدَ أن ينتهيَ ابنُ بطّوطةَ من مَراسمِ الحجّ وطقوسِه ، يقومُ بجولةٍ

خارجَ مكّةَ المكرّمة، يزورُ الأماكنَ العَديدة، بما تَحمِلُه من ذِكرياتٍ مقدّسة. المكانُ الذي دخَلَ منه الرسولُ في حِجّةِ الوَداعِ إلى مكّةَ ويُدعى (ثَنِيَّةَ كدى)، ثم (ثَنِيّة كداء) التي خَرجَ منها عامَ الوَداع. ويزورُ طريقَ التَّنعيم، وهو طريقٌ فَسيح، يتسابقُ الناسُ إلى كَنْسِه كُلَّ يَوم، رغبةً في الأجر والثّواب، لأنّ بعضَ الحجاجِ يَمْشي فيه حافي القَدَمين. ويَرى ابنُ بطّوطةَ في جولتِه جبلَ حِرَاء، شماليَّ مَكّة، وفيه الغارُ الذي أوَى إليه الرسولُ عليه الصلاةُ والسّلامُ حين خَرجَ مهاجراً من مكةَ ومعه أبو بكرٍ الصدّيقْ رضيَ اللهُ عنه. وحدَثَ عندما دخَلَ الرسولُ مع صاحبهِ الصِدّيق، وأختفى بداخلِ الغارِ مُتخفّياً عن المُشركين الذين أرادُوا به شَراً، أن نَسَجَ العنكبوتُ نسيجَه على باب الغَار، كما صَنعت حمامةٌ عُشّاً لها عندَ مَدْخلِ الغَار، وفَقَسَ فيه بيضُها. وعندَما وصلَ المُشركون إلى المَكان، يَقْتفون آثارَ الأقدام. وَجَدوا أنّ الآثارَ تنتهي عندَ مَدخلِ الغَار، لكنّهم رَأوا نسيجَ العَنكبوت، والحمامةَ بأفراخِها، فقالوا: ما دَخَلَ أحدٌ هنا!!. وانْصرفوا.

وعن هذا الجَبلِ يَحكي اَبنُ بطّوطة حكايةً حدَثت لاثنين من أصحابِه هما أبو محمدٍ بنُ فَرْحان، وأبو العبّاسِ الأندلسي. فقد اعتزَما زيارةَ غارِ حِراء، وذَهبا إليه دونَ دَليل، فَتاها، وضلاّ الطريقَ إلى الغار، وراحا يَتخبّطان في مختلِفِ الطّرق. كان الجوُّ حارًّا للغاية، وقد نَفِدَ ما كان مَعهما مِن ماء، ففكّرا في الرجوعِ إلى مكّةَ بعدَ أن فَشِلا في الوصولِ إلى الغار، وأبصرا طريقاً فظنّا أنّه المؤدّي إلى مكّة، فأفضَى بهما إلى جبلٍ آخَر. اشتدّ الحرّ وأجهدَهما العَطَش، وأوشكا على الهَلاك، فألقَى أبُو محمد بنُ فَرحان بنفسِه على الأرضِ عاجزاً عن مواصلةِ السيْر.

أمّا الأندلسي ، الذي كان أقوى من زَميله ، فقد قرّر مواصلة السير.

ظلَّ الأندلسيُّ يَسيرُ مُقاوِماً السقوطَ من فَرْطِ الإعياء ، حتّى نَجح أخيراً في الوصولِ إلى مَكّة ، وتوجّه مباشرةً إلى ابنِ بطّوطة ، فروَى له ما جَرى ... وكيف يستلقي صاحبُها عاجزاً وَسَطَ الصّحراء. كانَ النهارُ قد أوشكَ أن ينتهي ، فأسرَع ابنُ بطّوطة إلى ابنِ عمٍّ لأبي محمدٍ بنِ فَرْحان كان بمكّةَ في ذلك الوَقت ، وتوجّها معاً إلى إمامِ المالكيين يَستنجدان به ، فبعثَ بجماعةٍ من أهلِ مَكّة العارفين بتلكَ الجبال والشعابِ للبحثِ عنه. ومع ما بَذَلوه من جُهدٍ في هذا السبيل ، لم تُكلَّلْ جهودُهم بالنّجاح. وفَشِلوا في العثورِ على أبي محمد في المكان الذي حَدّده صاحبُه.



أما ما جرَى لأبي محمد، فَقد رَواه للجميعِ عندَما عادَ إلى مكّةَ في عصرِ اليومِ التالي. حَكى أنه بعدَ انصرافِ صاحبه، لجأَ إلى حَجرٍ كبيرٍ يستظلُّ بظِلِّه، واستلقَى هناك يعاني من الإجهادِ والعَطَش. وكان يَرى الغِرْبانَ تُحلّقُ فوقَ رأسِهِ، منتظرةً لحظةَ موتِه حتّى تنقضَّ على جُثْمانهِ!.. فلمّا اختفت الشمسُ وحلَّ الليلُ، أحسّ أنَّ قِوَاه قد تجدّدت، وأن برْدَ الليلِ قد أنعشَه، فقامَ قبلَ أن تُشرقَ شمسُ اليومِ التالي، وهَبطَ من الجبلِ إلى الوَادي.

ظلَّ يسيرُ حتّى أبصرَ دابةً فسعَى نَحوَها بكلِّ حَماس، فأبصرَ بعدَ قليلٍ خيمةً مِن خيامِ العَرب!. ساعتَها اطمأنّت نفسُه، فارتَمَى على الأرضِ لا يَقوَى على النّهوض. رأته صاحبةُ الخَيمة، وكان زَوجُها قد غادَرَ الخيمةَ ليجلِبَ الماء، فسقته ما كان عندَها من الماء، فلمْ يَرْتو!. وعندَما جاءَ زوجُها سَقاه قِربةَ ماءٍ كاملة، فلم يَرتوِ أيضاً!. أَركبوه حِماراً، وقَدِموا به إلى مكّة فَوصلَها عندَ صَلاةِ العَصر..

رَفْعُ القَناديلِ بعدَ السّحــور

اطمأنت نفسُ ابنِ بطّوطة بعدَ أنْ انتهى من أَداءِ فَريضةِ الحجِّ التي سَعَى إليها مُخلصاً، وبعدَ أنْ زَارَ جميعَ الأماكنِ المُقدّسةِ التي ما زَالت تحملُ عِطرَ الدَّعوة المُقدّس.. فأخذَ يتطلّعُ حولَه إلى أهلِ مكّةَ المُكرّمة، وبعينِ الباحثِ العالم، أخذَ يَدْرُسُ طِباعَهم وعاداتِهم

ويسجّلُها في أوراقِه، فيقولُ عنهم «ولأهل مكّةَ الأفعالُ الجَميلة، والمكارمُ التّامة، والأخلاقُ الحَسنة، والإيثارُ للضّعفاء والمُنْقَطِعين، وحُسْنُ الجوارِ للغُرباء. ومن مكارمِهم أنهم متى صَنَعَ أحدُهم وَليمة، يبدأ فيها بإطعام الفُقراء المُنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطّفٍ ورفقٍ وحُسنِ خلُق، ثم يُطعمُهم... وأهلُ مكّةَ لهم ظَرْفٌ ونَظافةٌ في المَلابس، وأكثرُ لباسِهم أبيض، فَترى ثيابَهم أبداً ناصعةً ساطعة، ويستعملون الطِيبَ كَثيراً، ويَكْتَحِلون...».

ويَلفِتُ نظرَ ابنِ بطّوطة ما تتحلّى به نساءُ مكّةَ من حُسنٍ وعَفافٍ وخُلق، فيقول فيهن «.. ونساءُ مكّة فائقاتُ الحُسن، بارعاتُ الجَمال، ذواتُ صَلاحٍ وعَفاف». وهو يقولُ إنّهن يَعشقن التطيّبَ بالعُطور، وقد يُفضِلّن أنْ يَشترين عِطراً بآخرِ ما لديهن من نُقود، على شِراءِ عَشاءٍ لهن. كما يقولُ إنَ طَوافَهن بالبيتِ الحَرامِ يَجري في ليلةِ الجُمعة، فيُقْبِلن في أحسنِ مَلْبَسٍ ورِداء، فتفوحُ في الحَرمِ رائحتُهن الطيّبة.. وتبقَى الروائح في المكانِ حتّى بعدَ انصرافِهن.

واذا ظَهرَ هلالُ رَجَب، أمرَ أميرُ مكّةَ بضربِ الطّبول، والنفخِ في الأبواق، حتّى يَعْلَمَ الناسُ جَميعاً بحلولِ الشّهر. ثم يخرجُ في أولِ يومٍ منه راكباً، ومعه أهلُ مكّةَ فُرساناً ورجالاً في تَرتيبٍ جَميل، وهم يَلْعبونَ بالأسلحةِ أمامَه، والفُرسانُ مِن حولِه يَدُورون ويَعْدُون، والمُشاةُ يَتواثبون ويَرْمون بحرابِهم إلى الهَواءِ ثم يَلْقَفُونها.

يتقدّمُ الأميرُ وصحبُه من الشُّرفاء، وقد رَفَعَ الناسُ مِن حولِهم الرايات، ودقّوا الطّبول. يتقدّمون في سكينةٍ ووَقار، فيطوفُ الأميرُ





بالبيتِ الحرام، والمؤذن باعلى قبةِ زمزم، يدعو له عند كل دورة.

وفي ليلةِ السّابع والعِشرين من رَجَب، خرجَ ابنُ بطّوطةَ إلى شَوارعِ مكّة، فوجدَها قد غُصَّتْ بالهَوادج، وعليها ضُروبُ النّسيجِ من الحريرِ والكتّان، والجِمالُ مُزينةٌ بشرائطَ من الحريرِ المُلوّن، والستائرُ مِن حولِ الهَوادجِ تَمتدُّ حتّى لَتكادُ تُلامسُ الارض... ورأى النِّيرانَ مُشتعلةً على جانِبَيْ الطريقِ، والشَّمعُ والمشاعلُ تَتقدمُ الهَوادج. وسألَ ابنُ بطّوطة، فَعَرَفَ أنّ هذا الاحتفالَ يَجرِي كلَّ عامٍ بمناسبةِ عُمْرةِ رَجب. فسارَ مع السّائرين، وهلّلَ مع المُهلّلين، الذين رَقّت نفوسُهم وانْهالَتْ دموعُهم من فَرْطِ التأثّرِ بالمناسبةِ الكَريمة. وتستمرُّ مراسمُ العُمْرة، فيطوفُ الركبُ بالبيت، ويسعَى بينَ الصَّفا والمَرْوة، بينما الليلُ قد حَلّ، والمسجدُ الحَرامُ يَتلألأُ نوراً، واضواءُ المَشاعلِ والشُّموعِ في أيدِي الناسِ تَتلألأُ كالنجومِ وَسَطَ سوادِ اللّيل.

أمّا عندَما يحلُّ شهرُ رَمضان، وتَثْبُتُ رؤيةُ الهِلال، فيسمعُ الجَميعُ ضَرْبَ الطبولِ عندَ أميرِ مَكّة، فيجرِي احتفالٌ خاصٌّ بالمسجدِ الحَرام، تتجدّدُ حُصُرُه، وتُضَاعفُ مَشاعلُه وشُموعُه، حتّى يَسطَعَ بَهجةً وإشراقا، وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «.. ولا تبقَى في الحَرَمِ زاويةٌ ولا ناحيةٌ إلاّ وفيها قارئٌ يُصلِّي بجماعتِه، فيرتجُّ المسجدُ لأصواتِ القُرّاء، وتَرقُّ النفوس، وتَخْضُرُ القلوب، وتَهْمُلُ الأعْيُن...».

فاذَا حلَّ وقتُ السّحور، يقومُ المُؤذّنُ دَاعياً إلى السّحور. ومن عاداتِهم أن يُعلِّقوا في كلِّ صومعةٍ خشبيةٍ قِنْدِيلين، يُوقَدان وقتَ السّحور، فيراهما أهلُ مكّةَ من فَوقِ أسْطحِ منازِلهم البَعيدة، والتي قد لا يَصلُها صوتُ الأذان. فاذا قَرُبَ الفَجر، رُفِعَ القِنديلان، وأذّنَ

المؤذّنون، فيمتنعُ سكانُ الدّورِ البعيدةِ عن الطّعامِ والشّرابِ إذا ما اختفَى القِنديلان عن انظارِهم.

يبقَى ابنُ بطّوطة في مكّة المكرّمةِ حتّى يَحِلَّ عيدُ الأضحى، فَيشهدُ كِسْوَةَ الكعبةِ الشّريفةِ القادمةَ مع الركبِ المِصريّ، وهي تُرفعُ فوقَ الكَعبة، ثم يُجْرَى إسدالُها. وهي كِسْوةٌ سوداءُ حالكةٌ من الحريرِ المُبطّنِ بالكتّانِ وفي أعلاها نَقْشٌ مكتوبٌ فيه باللّون الأبيضِ الآيَةَ الكَريمة «وجَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحَرامَ قِيَاماً». مع آياتٍ أخرى مُطرّزةٍ في سائرِ أطرافِها.

وبعدَ أنْ أُسدِلت الكِسوةُ الشّريفة، رُفِعت أذيالُها لمسافةٍ بعيداً عن الأرض، صَونا لَها من أيدِي النّاس. ويقولُ ابنُ بطوطة «والملكُ الناصرُ هو الذي يَتولّى كِسوةَ الكعبةِ الكَريمة، ويبعثُ مُرتَّباتِ القاضِي والخَطيبِ والأئمّةِ والمؤذِّنين والفرّاشين والقَومَة، وما يَحتاجُ إليه الحَرَمُ الشريفُ من الشمْعِ والزيتِ في كلٍّ سَنة».

مع الركْبِ العِراقـي

قبلَ أنْ يَبرحَ ابنُ بطّوطة مكّةَ المكرّمةَ، يرفعُ ذراعيه إلى السماءِ طالباً من اللهِ أن يَمُنّ عليه بحِجّةٍ تالية... ثم يتأهّبُ للرحيل.

•

ولكنْ... إلى أين؟...

لقد سافر الركبُ المِصريُّ، والركبُ الشاميُّ منذ أيام، وها

هو الركْبُ العراقيّ يتأهّبُ للسّفر، فهو قد رأى أهلَ العِراقِ يَطُوفون طَوافَهم الأخيرَ بالحَرَمِ ليلاً، يُوزّعون الفِضّةَ والثيابَ على مَن يصادفونهم من المُجاورين في الحَرَم.

هنا... تَتحرّكُ في آبنِ بطّوطة روحُ الرَّحّالة المُغامر، فيقررُ أن ينضمَّ إلى الركْبِ العراقيّ، بعدَ أن يستأذنَ في ذلك من قائدِ الركبِ الأميرِ البَهْلوان محمدٍ الحُوَيج. فيصفُ آبنُ بطّوطة لَحَظاتِ خروجِه من مكّةَ المكرّمةِ قائلاً: «وخَرجت من مكّةَ شرّفها اللهُ تعالَى في صُحبةِ الأميرِ البَهلوان بعدَ طَوافِ الوَدَاعِ إلى (بَطنِ مرّ)، في جَمْعٍ من العِراقيّين والخُراسانِيّين والفَارسيين والأعاجمِ لا يُحصَى عديدُهم، تَمُوجُ بهم الأرضُ مَوْجاً، ويَسيرون سيرَ السَّحابِ المتراكم، فَمن خرجَ عن الركْبِ لحاجةٍ ولم تكن له عَلامةٌ يَستدلُّ بها على مَوضِعهِ ضلَّ عنه لكثرةِ النّاس..».

ويَلفِتُ نظرَ آبنِ بطّوطة، النظامُ الدقيقُ الذي يَلتزمُ به الركْبُ العراقيُّ، بما يَحملُه من أوعيةٍ للماءِ يَسقِي منها أبناءَ السّبيل، وما تحملُه الجِمالُ من زادٍ وأدويةٍ وسُكّر، لمن يصيبُه المَرَض. وعندَما كان الركبُ يتوقّفُ للراحةِ في مكان ما، يقومُ الرجالُ بطبخِ الطعام في قدورٍ عظيمةٍ من النُّحاس، تسمّى «الدُّسوت»، ويُطْعِمون منها أبناءَ السّبيل، ومن لا طعامَ معه من المشاركين في الركْب. كما أنّ الركبَ كان يَضمُّ عدداً من الجِمال، قد خُصّصت لأولئك الذين لا يَستطيعون المَشْيَ الطويلَ بحُكمِ السنِّ أو المَرَض، ويصفُ آبنُ بطوطةَ هذا الركْب، وكأنه مدينةٌ مُتحرّكـــة، فيقول: «وفي هذا الركبِ الأسواقُ الحَافلةُ والمَرافقُ

العَظيمة، وأنواعُ الأطعمةِ والفَواكِه. وهم يسيرون بالليلِ ويُوقِدون المَشاعل، فَترى الأرضَ تَتلألأُ أنواراً، والليل قد عادَ نهاراً ساطِعاً..».

يتّجهُ الركبُ من مكّةَ المكرّمةِ شَمالاً، حتى يصلَ إلى المدينةِ المنوّرة، فيبقَى بها ستةَ أيام، يتزوّدُ بالماء، ثم يُواصلُ سيرَه شَمالاً. فيمرُّ على (وادِي العَروس)، ويدخلُ أرضَ (نَجْد)، حتّى يصلَ إلى (الجَبلِ المَخْروق)، وهو جبلٌ يتوسّطُ الصَّحراء، في أعلاه ثَقْبٌ تَمرّ منه الرّياح. وعندَ الاقترابِ من (حِصن فِيد)، وهو في منتصفِ المسافةِ بين مكّةَ المُكرّمةِ ومدينةِ (بَغداد).. عندَ الاقترابِ من ذلك المكانِ توقَّفَ الركْب، وطلبَ أميرُ الركبِ مِن رجالِه أنّ يتّخذوا وضْعَ التأهبِ للحَرْب...

يميلُ ابنُ بطوطةَ على واحدٍ من أهلِ العِراق، كان قد عَقَدَ معه صَداقةً منذ أن تَحرَّكَ الركْب، ويسألُه مُتعجّباً عن سرِّ هذا التأهب للحَرب، وعن العدوِّ الذي سيلاقونه، فيُطَمْئنُه الرجل، ويقول له إن هذه هي عادةُ الركبِ العِراقيّ كلّما وصَلَ إلى هذه الناحية، إرهاباً للأعرابِ الذينَ يَتَجمَّعون حولَها، والذين يتربَّصون بالركْبِ في كلِّ مَرّة، طامِعين في أن يَنقضُّوا عليه، لسلبِ مَن به من الحجّاج. لكنّ الأمرَ جَرى على عكسِ ما تَوقَّعَ أميرُ الركب، فقد كان في استقبالِهم قبلَ الوصولِ إلى الحِصن، كبارُ رجالِ الحِصن، على خيولِهم، لحمايةِ الركبِ وضَمانِ سلامتـهِ.

وحِصنُ فيد، حصنٌ كبيرٌ مُقامٌ فوقَ أرضٍ مُنبسطة، يتعيّشُ سكانُه العربُ من الاتّجارِ مع الحجّاج. وقد كان من عادةِ الحُجّاجِ

عندَ قُدومِهم إلى هذا الموقعِ من العراق ، أن يتركوا ما يزيدُ عن حاجتِهم من الزادِ أمانةً في الحِصن ، حتّى يَجدوه في طريقِ العودةِ إلى العراق. ما أن استقرّ الركبُ في الحِصن ، حتّى أقبلَ العَربُ من سكّانِه بالجِمالِ والغَنَم ، فاشتَرَى منهم أهلُ العراقِ ما احتاجوا اليه.

واصلَ الركبُ مَسِيرتَه بعدَ ذلك حتّى وصلَ إلى مدينةِ (القادسية) حيث جَرَت الموقعةُ الحربيةُ الشّهيرةُ بين العَربِ والفُرْس ، والتي نَصرَ اللهُ فيها جيشَ المسلمين على المجوسِ الذين يَعبُدون النار ، على يدِ القائدِ الإسلاميّ الكبيرِ سعد بنِ أبي وَقّاص. لكنّ القادسيةَ التي رَآها ابنُ بطّوطة لم تعدْ تلك المدينةَ العظيمةَ التي كانت على أيامِ الرسول ، فقد وَجدها خَرِبَة ، لم يبقَ منها إلاّ ما يشبهُ القَريةَ الكَبيرة ، تَشُقُّها قَنَواتٌ من نهرِ الفُرات ، وتَشْغَلُها أشجارُ النّخيل.

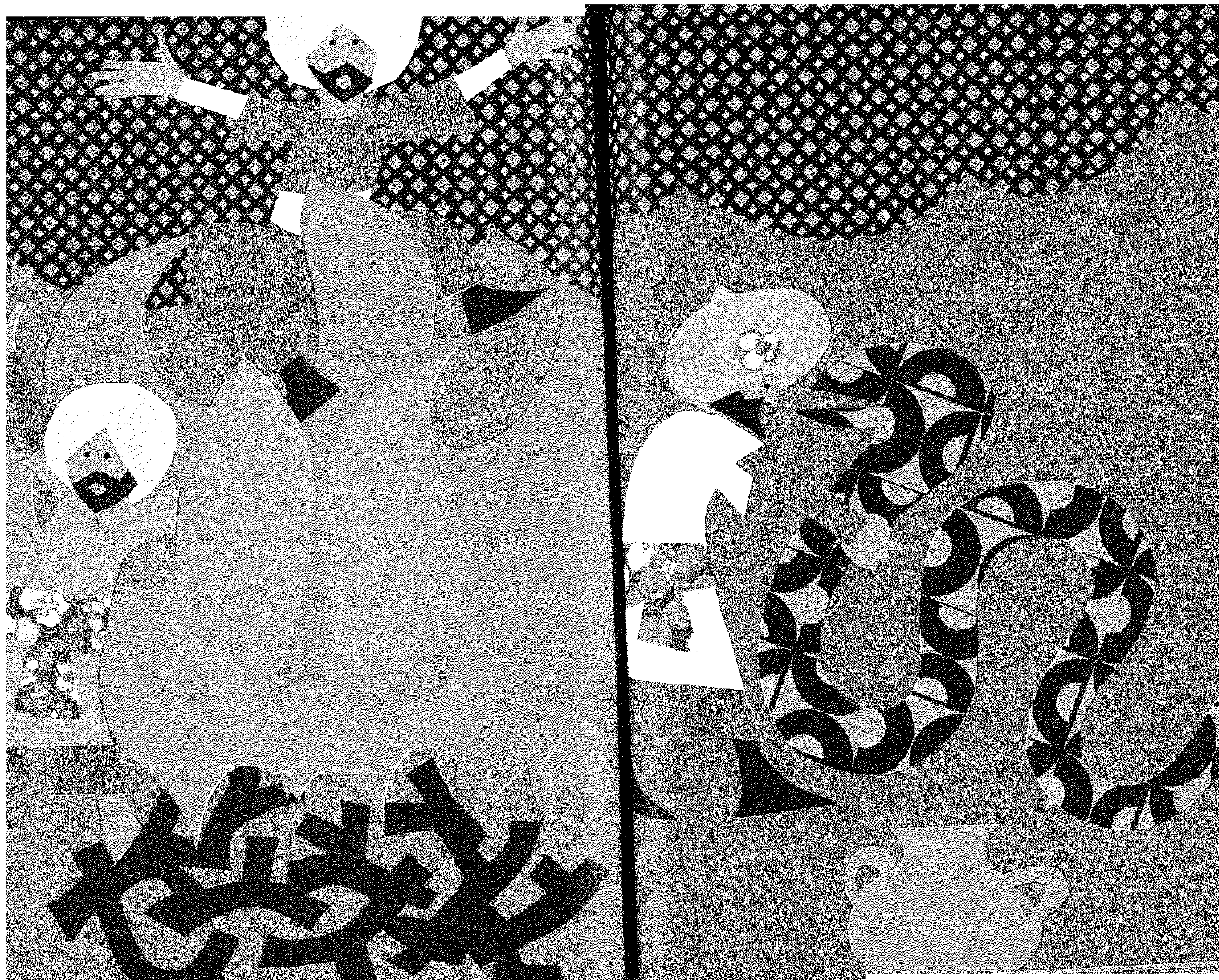
وبعد القادسيةِ يصلُ الركبُ إلى مدينةِ (النَّجَف) ، مدينةِ مَشهدِ عليّ بنِ أبي طالبِ رَضيَ الله عنه ، ويصفُها ابنُ بطوطةَ قائلاً «وهي مدينةٌ حَسَنَةٌ في أرضٍ فسيحةٍ صُلْبَة ، و مِن أحسنِ مُدنِ العِراق ، وأكثرِها ناساً وأتقنِها بناءً ، ولها أسواقٌ حَسنةٌ نَظيفة. دَخلناها من بابِ الحَضْرة ، فاستقبلَنا سوقُ البَقّالين والطَّبّاخين والخَبّازين ثم سوقُ العَطّارين ، ثم بابُ الحَضرة ، حيث القَبرُ الذي يَزعمون أنه قبرُ عليٍّ عليه السلام».

يأكلون النّار...

استعدَّ الركبُ بعدَ ذلك للسفرِ إلى بغدادَ شمالاً. وكان ابنُ بَطّوطةَ قد تعرَّف خلالَ الرحْلةِ على جَماعةٍ من عَربِ خُفَاجةَ الذين يَسكُنون البَصْرة، فَعرضوا عليه أن يُسافرَ معهم ليزورَ بلادَهم، مُغتنماً فُرصة سفرِهم إليها، معتمداً على صُحبَتِهم التي بدونها يَصعُبُ السفرُ إلى تلك النواحي. ترددَ ابنُ بطّوطة قليلاً بين مواصلةِ الرّحلةِ مع الركبِ إلى بَغداد، وبين مصاحبةِ أصدقائِه من عَربِ خَفَاجة، وأخيراً استقرّ رأيُه على السفرِ الى البَصْرة، ثم المُضيّ إلى ما بعدَها من مَناطق، وهو يقولُ لنفسِه «بغدادُ باقيةٌ في مكانِها!. ستسهلُ زيارتُها بعدَ أنْ أرى هذه البلادَ التي قد لا تُتاحُ لي فرصةُ زيارتِها مرةً ثانية...».

استَأجَرَ ابنُ بطّوطَة جَمَلاً، وسارَ به في صُحبةِ أميرِ القَافلةِ المُسافرةِ الى البَصْرة، شامر بنِ درّاجٍ الخَفَاجي. غادروا النّجف، وساروا على امتدادِ الفُرات، حتى وَصَلوا الى موضعٍ يُعرفُ باسمِ (العذار) يَسكُنُه أعرابٌ من الخوارجِ يُعرفون بالمعادى، ويَنتمون الى المَذْهبِ الرّافضيّ، ويَشتغلون بِقَطْعِ الطّريق على المُسافرين وَنهْبهم. وبرغم أنَّ الركبَ قد مر بينهم بسَلام، احتراماً لمكانةِ الأميرِ شامر، غيرَ أن بعضَ الفُقراءِ الذين كانوا يَتْبَعون الركبَ في مُؤخّرته، وَقَعوا بين أيدِي المعادى، فسلبوهم حتّى النعالَ التي في أقدامِهم!.

يَطمئنُّ قلبُ ابنِ بطّوطَة عندما يصلُ الركبُ الى مَدينةِ (واسط). تَحطُّ القافلةُ رحالَها خارجَ المَدينة، وتبقَى في مكانِها ثلاثةَ أيامٍ



للتّجارة. أمّا ابنُ بطّوطَة فينشغلُ بزيارةِ المَدينةِ التي يَصفُها قائلاً «وهي حَسنةُ الأقطار، كثيرةُ البساتينِ والأشجار. وأهلُها من خِيارِ أهلِ العِراق، بل هُم خيّرُهم على الإطلاق، أكثرُهم يَحفظون القرآنَ الكريمَ ويُجيدون تجويدَه بالقِراءةِ الصَّحيحة، والِيهم يأتي أهلُ بلادِ العِراقِ لِتعَلُّمِه».

ويسمعُ ابنُ بطوطة أنّ قبرَ وليِّ اللهِ أبي العبّاسِ أحمدَ الرفاعيّ يوجُد بقريةٍ تُسمّى (أمّ عُبَيدة) على مَسيرةِ يومٍ مِن واسِط، فيطلبُ من أحدِ كبارِ فُقهاءِ واسِط، الشيخِ تقيِّ الدينِ الوَاسطيّ أنْ يَبعثَ معه مَن يوصلُه إلى المَدينة، حتّى تُتاحَ له زيارةُ قبرِ وليِّ الله. فيبعثُ معَه بثلاثةٍ من عَربِ بني أسد، بعدَ أن يُركبَه فَرساً يَمْلكُه. عندَما يَقتربُ ابنُ بَطوطَة من الرِّواقِ الذي يَقصِدُه بعدَ سفرٍ استغرقَ يوماً كامِلاً، يجدُ آلافَ الفُقراءِ يُحيطون بالمَكان، ويعرفُ أنّ الشّيخَ أحمد، حفيدَ وليِّ اللهِ الرِّفاعي، قد حَضَرَ مِن مكانِ اقامتِه ببلادِ الرومِ لزيارةِ قبرِ جَدِّه.

يدخلُ ابنُ بطّوطةَ وَسْطَ ذلك الحَشْد، ويؤدِّي مع الآخرين صَلاةَ العَصْر، وما أنْ ينتهيَ منها حتّى يسمعَ ضَرْبَ الطّبولِ والدُّفوف، ويرى آلافَ الفُقراءِ قد قاموا من مكانِهم يَرقُصون، فَيتسلّى بمراقبتِهم، وهو يَتعجّبُ لعاداتِهم هذه. وبعدَ صلاةِ المَغرِب، جَرى تقديمُ الطّعامِ للجَميع، واشتملَ على خُبزٍ مصنوعٍ من الأرزّ وسَمكٍ ولبنٍ وتَمْر. وعَقِبَ صَلاةِ العِشاء، اندهشَ ابنُ بطوطةَ عندما رأى الرجالَ يَحمِلون أحمالاً من الحَطَب، يُكوّمونها وَسَطَ المكان، ويُوقِدون فيها النارَ... وزادَت دَهشتُه عندما رآهم يَدخلون وَسَطَ النار ويرقصون!. وبلغت دَهشتُه غايَتَها عندَما رأى بعضَهم يتمرّغُ وَسَطَ النار، ويقتربُ منها بفمِه

كأنّه يريدُ أن يأكلَها!.. وظلّوا في هذا حتى انطفأت النارُ تماماً.

سألَ ابنُ بطّوطةَ واحداً من عَربِ بني أسد الذين صَحِبوه في رِحلتهِ من واسِط، عن سببِ ومعنَى هذا الاحتفالِ الغَريبِ الذي لم يرَ مَثيلاً له مِن قَبْل، فقال له «هذه عادةُ الطائفةِ الأحمدية... بل هم يَفْعلون غيرَ ذلك من الغَرائب... يُمْسكون بالثُعبان الضّخْم، فيَعَضّونه بأسنانِهم، حتّى يَفْصِلوا رأسَه عن جَسَدِه!!».

عندما عادَ ابنُ بطوطة من زيارتهِ هذه الى واسط، وجدَ أنّ القافلةَ التى جاءَ مَعها قد رَحَلت!.. فأسرع بحصانِه في الطريقِ الذي سَلَكته القافلةُ حتّى أدركَها، وواصلَ سيرَه معها حتّى وصلت القافلةُ قَريباً من (البَصْرة).. كانت الشمسُ قد غابت، فحطّت القافلةُ رِحالَها، ونامَ الجميعُ ليلتَهم خارجَ البَصرة، وفي صباحِ اليومِ التالي عَبَرت القافلةُ أبوابَ البَصرة.

فوقَ قممِ الجبالِ الشّاهقة

يتجوّلُ ابنُ بطّوطةَ في مدينةِ البَصرة، فيصفُها قائلاً «إحدَى أمّهاتِ العراق، الشّهيرةُ الذِكرِ في الآفاق، الفسيحةُ الأرجاء، المُونقةُ الأَفْناء، ذاتُ البَساتينِ الكَثيرة، والفواكهِ الأثيرة، توافرَ قسمها من النّضارةِ والخِصْب، لمّا كانت مَجْمعَ البَحرين الأجاجِ والعَذْبِ»، وهو هنا يشيرُ الى حظّها الذي جَمَعَ فيها بين الماءِ العَذْبِ والمَالح.

ويَحْكِي ابنُ بطّوطة عن الظاهرةِ التي أثارت عَجَبَه، فيقول «.. والبصرةُ على ساحلِ الفُراتِ ودِجْلة، وبها المدُّ والجَزْرُ كَمِثْلِ ما هو بوادِي سَلاَ في بلادِ المغربِ وسِواه. والخليجُ المِلْحُ الخارجُ من بَحرِ فارسَ على عَشْرةِ أميالٍ منها، فاذا كان المدّ غلبَ الماءُ المالحُ على الماءِ العَذْب، واذا كان الجَزرُ غلبَ الماءُ الحُلوُ على المِلْح، فيستقي أهلُ البَصرةِ الماءَ لدُورِهم».

في قارِبٍ صَغير، يركبُ ابنُ بطوطَة من ساحلِ البَصرة مُتّجها إلى (الأُبُلَّة)، وبينها وبينَ البَصرةِ عَشَرةُ أميال. وكانت الأبلّةُ مدينةً عظيمةً يَفِدُها تُجّارُ الهندِ وفارس، وعندَما زارَها ابنُ بطوطَة وجَدها قد خَرِبت وتَحوّلت إلى قريةٍ بها آثارُ القُصورِ الفَخْمة، وما يكشفُ عن تاريخِها العظيم. ومن الأبلّةِ يركبُ مَركَباً، فيتّجهُ إلى (عَبّدانَ) على الخَليج. ومن عبدانَ يصعدُ شَمالاً حتّى يصَلَ الى مدينةٍ كبيرةٍ تُدعى (تسْتر). وكان قد فَتحها خالدُ بنُ الوَليد.

في تستر ينزل ابنُ بطّوطة في مدرسةِ الشّيخِ الإمامِ شَرفِ الدينِ موسى، ويقولُ عنه «... وهذا الشيخُ ذو مكارمَ وفَضائل، جامعٌ بين العِلمِ والدّينِ والصلاحِ والإيثار، وله مدرسةٌ وزاوية». أقامَ ابنُ بطوطَة عندَ الشيخِ شَرفِ الدينِ ستّةَ عشرَ يوماً. وقد حَضرَ مجلسَ وعظِه بعد صَلاةِ الجُمُعة، وفي هذا يقولُ «.. ولمّا شاهدت مجالسَه في الوعْظ، صَغُرَ لدَيّ كلُّ واعظٍ رأيته قَبلُ بالحِجاز والشام ومصر، ولم ألقَ فيمن لَقِيتهم مثلَه»، ويحكي كيفَ حَضَرَ يوماً عندَه ببستانٍ له على شاطئِ النَّهر.

يصفُ ابنُ بطوطَة ذلك اللقاء، حيث اجتمعَ في البُستانِ الفُقهاءُ والكُبَراء، وأتى الفقراءُ من كلٍّ ناحية، فأطعمَ الجميعَ، ثم صَلَّى بهم صلاةَ الظّهر، وقامَ خطيباً وواعظاً، فَخطب بسكينةٍ وَوقار، وبعدَها تَرامت عليه قِطعُ الوَرَقِ من كلٍّ ناحية، فمن عادةِ الفُرسِ أن يَكتُبوا المسائلَ التي يسألون فيها في أوراق، ويرمونها إلى الواعظِ فيُجيبُ عنها. جَمَعَ الشيخُ شرفُ الدّينِ هذه الأوراق، وأخذَ يجيبُ عنها واحدةً بعدَ الأخرى، أبدعَ إجابة، مما أثارَ إعجابَ ابنِ بطّوطة.

من تستر يسافرُ ابنُ بطّوطةَ ثَلاثةَ أيام صاعداً وهابطاً في الجبالِ العالية، حتى يصلَ إلى (أيذج)، وهي مقرُّ سُلطانِ تلك الناحية. عندما وصلَ ابنُ بطّوطةَ إلى هذه المدينة، اجتمعَ بشيخٍ شيوخِها العالمِ نورِ الدّينِ الكَرَماني، صاحبِ المكانةِ الكبيرةِ عندَ سُلطانِ أيذج، فاستضافَه وأكرمَه وأنزلَه بزاويةٍ تُعرفُ باسمِ الدِّينوري. وحاكمُ أيذج هو السلطانُ أتَابَكْ أفراسياب، وابنُ السلطانِ أتابك أحمد. ولَقَبُ «أتابك» يضافُ إلى اسمِ كلِّ حاكمٍ في تلك المنطقةِ التي تُعرفُ ببلادِ (اللُّور).

وفي جلسةٍ اختلَى فيها الشيخُ نورُ الدينِ بابنِ بطّوطة، حكى له جانباً من تاريخِ السلطانِ أحمد. فقال له: «كانَ السلطانُ أحمدُ صالحاً، يميلُ إلى فِعلِ الخير. أنشأ في البلادِ خلالَ حياتِه أربعَمائةٍ وستّين زَاوية، منها في أيذجَ عاصمةِ البلادِ أربعٌ وأربعون زَاوية.. يُقْبلُ عليها ابناءُ البلادِ فيُتاحُ لهم التمكّنُ من الدينِ والعِلم. وقسّم خَراجَ البلادِ أو مواردَها، إلى ثَلاثةِ أقسام، قسمٍ لمصاريفِ الزّوايا والمدارس، وقسمٍ للإنفاقِ على الجيشِ وصَرْفِ مرتّباتِ العساكر، أما الثلثُ الأخيرُ فكان لنفقتِه ونفقةِ عيالِه

وعبيدِهِ وخُدّامِهِ. ومن هذا الثلثِ كان يبعثُ هديتَه إلى حاكمِ العِراق..).

ويقول ابنُ بطّوطة إنه عايَنَ بنفسِه الآثارَ الصالحةَ لذلك السلطانِ الراحلِ، فرغْمَ أنّ أكثَرَ البلادِ مِن الجبالِ الشاهخةِ الوَعْرة، استطاعَ أنْ ينحتَ الطرقَ المُمَهَّدةَ في الصّخورِ والحِجارة، طُرقاً مستويةً واسعة، بحيث يمكنُ للدّوابِّ التي تَسْلُكُها أنْ تصعَدَ فيها بأحمالِها. ويقولُ ابنُ بطّوطةَ إن جبالَ هذه المِنطقة، بلغَ مِن ضخامتِها، أنها تحتاجُ من الإنسانِ إلى السيرِ سبعةَ عَشَرَ يوماً حتى يصلَ إلى قمّتِها، أمّا عَرْضُها في أسفل، فيقتضِي من المرءِ السيرَ مدّةَ عَشَرةِ أيام... ويقولُ في وصفِها: «وهي شاهقةٌ متّصلٌ بعضُها ببعض، تَشُقُّها الأنهار، وشَجرُها البَلّوطُ وهم يَصْنعون من دقيقِهِ الخُبز. وفي كلِّ منزلٍ من منازلِها زاويةٌ يُسمّونَها المَدْرسة. فاذا وصلَ المسافرُ إلى مدرسة منها، أتَوْا إليه بما يَكفيه من الطّعام، والعَلَفِ لدابّتِه، سواءٌ طَلبَ ذلك أمْ لم يَطلُبْه».

وقد لَمَس ابنُ بطّوطةَ آثارَ النظامِ الذي استَنَّه السلطانُ الراحلُ واستمرّت البلادُ في تطبيقِهِ. ففي كلِّ يومٍ يمرّ خادمُ المدرسةِ على مَن بها، ويُحصِي مَن ينزلون ضيوفاً من الأعْراب، ثم يَغيبُ عنهم قليلاً، ويعودُ فيُعطِي كلَّ واحدٍ منهم رَغيفين من الخُبزِ وبعضَ اللّحمِ والحَلْوَى. وعندَما سألَ الخادمَ عن مصدرِ هذا الطعامِ الذي يجيءُ به كُلَّ يوم، قال إنّ ذلك من أوقافِ السلطانِ على المدرسة.

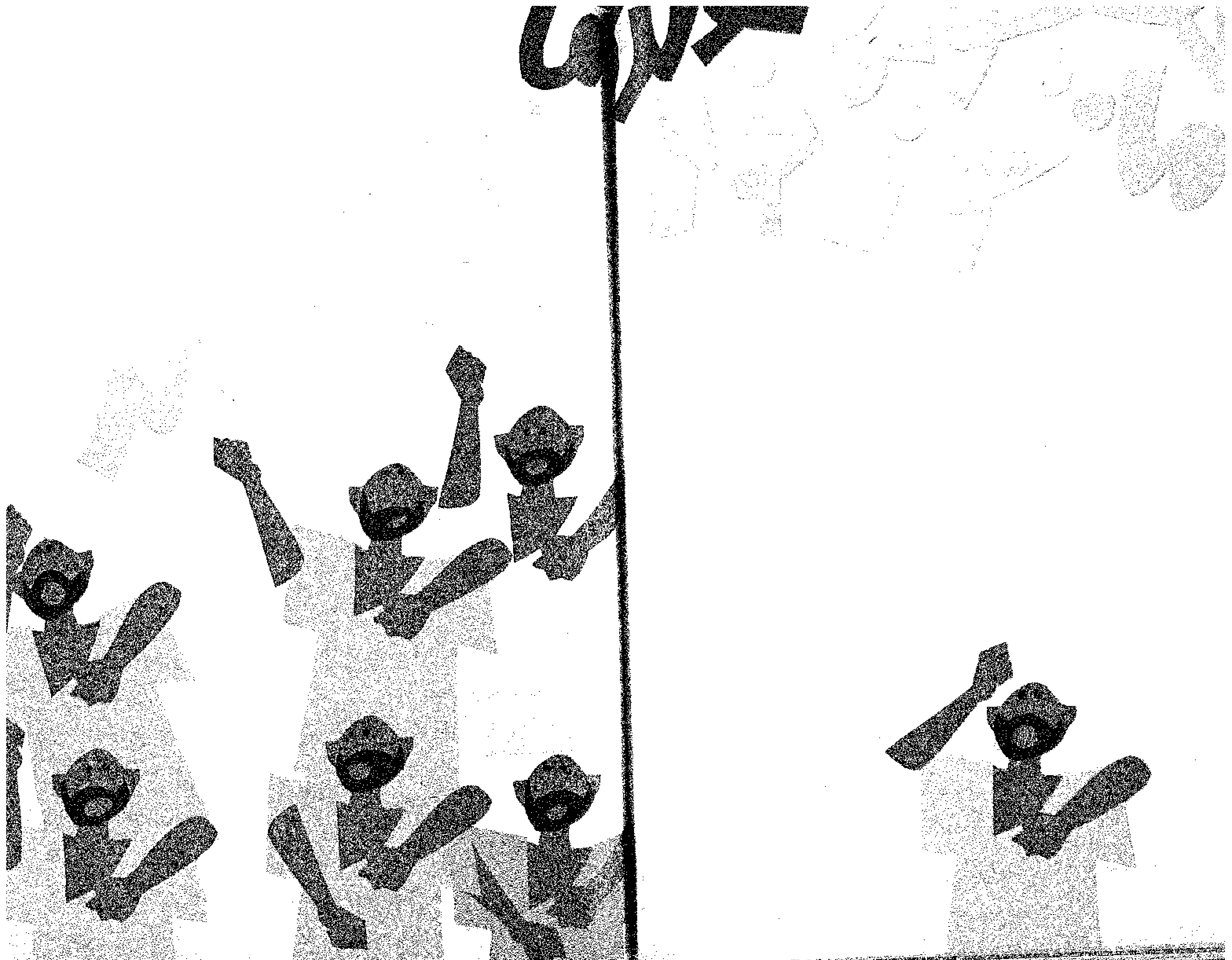
سِرُّ ثوبِ الشَّعْــر

كان السلطانُ أتابك أحمد من فَرطِ زُهدِه وصلاحِه، يلبسُ على جَسدِه تحتَ ثيابهِ العاديةِ ثوباً خَشِناً من الشَّعرِ على سبيلِ التقشّف. وكادت هذه العادةُ أن تتسببَ له في مشكلةٍ مع مَلكِ العراقِ الذي كان يَتسلمُّ هديتَه السّنويةَ من السلطان أحمد. وكانت هذه الهدية، أقرَب إلى الجزيةِ التي تَضمنُ لبلادِه أيذج حمايةً من مَلكِ العِراق.

قَدِمَ السلطانُ أحمدُ ذاتَ مرّةٍ على مَلكِ العراقِ أبي سَعيد، فقال بعضِ الخواصِّ للملك، على سبيلِ الوَقيعة: «إن أَتابَك يدخُلُ عليك وعليه الدِّرْع!!». وقد ظَنّوا ثوبَ الشَّعْرِ الخَشِنِ الذي يَرْتديه على جَسدِه دِرْعاً. وكان لِبْسُ الدِّرْعِ في حضرةِ مَلكِ العِراق، وعندَ الدخولِ عليه يُثيرُ الرِّيبة، ويَحمِلُ مظَنَّةَ الغَدْرِ والخِيانة.

احتارَ ملكُ العراقِ فيما يفعلُه مع السلطانِ أحمد، فأمرَ أصحابَه وخواصَّه أن يَعْمَدوا عندَ وصولِه إلى مداعبتِه، فتُتيحَ لهم هذه المُداعباتُ أنْ يتحسَّسوا جَسَدَه جيداً، ويَعرفوا حقيقَةَ الامرِ دونَ أن يُثيروا رِيبَتَه أو يَكْشِفوا عن ظنونِهم. وتَمَّ ما أوصَى به مَلكُ العراق. عندَما دخَل السلطانُ أحمدُ على مجلسِ الملكِ أبي سعيد، وجلَس بَعْضَ الوَقت، افتعلَ الأميرُ الجوبان عظيمُ أُمراءِ العراقِ مع بعضِ الامراءِ شكلاً من أشكالِ المُزاح، وأَمسكوا بثيابِه كأنَّهم يمازحونه، ويُضاحكونه، فَوجَدوا ثوبَ الشَّعر تحتَ ثيابِه...

وخلالَ هذه المُمازحة، لَمَحَ أبو سعيدٍ ثوبَ الشَّعر تحتَ ثيابِ



أتابك أحمد، فقامَ على الفور وعانقَه، وأجلسَه إلى جانبِه على سبيلِ التّكريم، ومداراةً لخَجلِه من ظُنونِه التي لم تكن في محلِّها. وقال له: «سن آلى!». وهي كلماتٌ تركيةٌ تَعني «أنت أبي!»، وعوّضه بهدايا تُعادلُ في قيمتِها أضعافَ قيمةِ الهديةِ التي جاءَ بها من بلدِه. بل إنه أصدرَ قَراراً أعلمَ به الجَميع، يقضِي باعفاءِ الملكِ أتابك أحمد، ومن يَخلفُه من سُلالتِه، من تلك الهديةِ أو الجزْيةِ التي كانت مفروضةً على بلادِ أيذج. وقد تُوفّيَ السلطانُ أحمد في ذلك العام، فخلفَه ابنُه أتابك يوسفُ وحكم مدّةَ عَشَرةِ أعوام، ثمّ وَليَ أخوه السلطانُ الحالي أتابك أفراسياب.

رَغبَ ابنُ بطّوطة في لقاءِ السلطانِ أتابك أفراسياب. وأفصحَ عن رغبتِه هذه إلى مُضيفِه وصديقِه الشَيخِ نورِ الدين الكرماني.. فلمْ يُبْدِ استجابةً لذلك. وعندما ألحّ عليه ابنُ بطّوطة في الاستفسار، قال الشيخُ بعدَ تَردّدٍ طويل: «هذا أمرٌ صَعْبٌ يا صديقي.. فسلطانُنا افراسياب ليس كجدِّهِ السلطانِ أحمدَ رحمةُ الله عليه.. انّه لا يَخْرُجْ من قصرِه، ويلتقي بأحدٍ إلاّ يومَ الجُمعةِ من كلِّ اسبوع.. فهو يُدمنُ الخَمْرَ طَوالَ الاسبوعِ!». فصرف ابنُ بطّوطةَ النظرَ عن رغبتِه هذه، وخاصةً بعد أن استمعَ من بعضِ أهلِ البلدِ إلى أحوالِ السّلطانِ المُتقلّبة، والتي لا تجعلُ الاتصالُ به مَصْدَرَ خيرٍ وأمان.

في ذلك الوقتِ مَرِضَ ابنُ السّلطان الوحيد، ووليُّ عَهدِه. وتَناقلت البلادُ أخبارَ اشتدادِ المرضِ عليه. وذاتَ مساءٍ بينما كان ابنُ بطّوطةَ في حُجرتِه يُدوّنُ مُذكّراتِه، دَخلَ عليه أحدُ خُدّامِ السلطان،

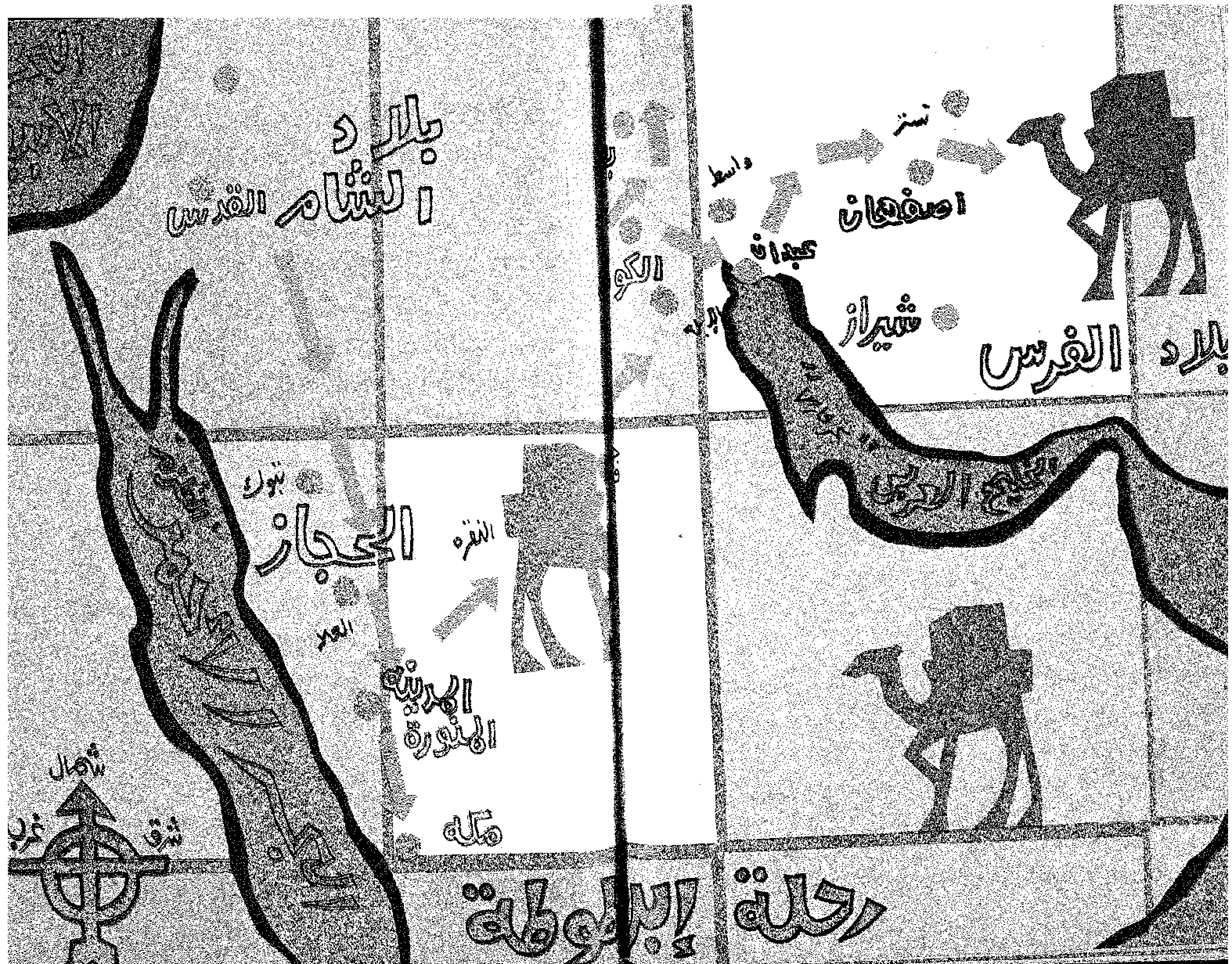
وسألَه عن حالِه ، فذكَرَ له ابنُ بطّوطة كُلَّ ما أرادَ مَعرفتَه . وعندَما انصرفَ خادمُ السّلطان ، تسلّلَ القَلَقُ إلى نفسِ ابنِ بطّوطة ، وأخذَ يتَساءلُ عن سرٍّ هذه الزّيارة ، وعن سببِ سؤالِ السلطانِ عنه ، وخافَ أن يكونَ قد وَصَلَ إلى السلطانِ عنه ما يُسيء .

غيرَ أنّ قلقَ ابنِ بطوطة تبدّدَ نهائياً ، عندَما عادَ الخادمُ بعدَ صلاةِ المغربِ يحملُ إناءَيْن على شكلِ الطائر ، في أحدِهما طعام ، وفي الآخرِ فاكهة ، ويحملُ معه كِيساً فيه بعضُ النّقود ، ومن خَلْفِهِ دخلت مجموعةٌ من الرجالِ يَحملون الآلاتِ الموسيقية ، فلمْ يَستطعْ ابنُ بطوطة أنْ يُخفيَ دَهشتَه ، وسألَ الخادمَ عن معنَى هذا كلِّه ، فأجابَ الخادم : « هؤلاء للقيامِ بالعَزف ، حتّى يرقُصَ أصحابُك ، ويَدْعوا لابنِ السلطانِ بالشّفاء ! ». فقال ابنُ بطّوطة : « أصحابِي وزملائي لا يهتمّون بسَماعِ الموسيقى ، ولا يَعرِفون الرّقص » ، وجَمَعَ ابنُ بطوطة مَن يُقيمون معه وَدَعَوْا لابنِ السلطانِ بالشّفاء ، فانصرفَ الخادم ، وانصرفَ معه العازِفون بآلاتِهم . أمّا ابنُ بطّوطة فقدْ وزّعَ النقودَ على الفُقراء .

الاكتشافُ المُرعِب

في منتصفِ الليلِ أفاقَ ابنُ بطوطة على أصواتِ صُراخٍ ونُواحٍ عالية ، فأدْرك أن وليَّ العهدِ المريضَ قد مات ! .

وفي صباحِ اليومِ التالي دَخَلَ عليه شيخُ الزّاوية وبعضُ أهلِ


بلاد الشام
القدس
تبوك
الحجاز
العلا
المدينة المنورة
مكة
واسط
تستر
أصفهان
بغداد
شيراز
بلاد الفرس
رحلة
شمال
شرق
غرب

البَلد، فقال الشيخ: «إن كُبَراءَ المدينةِ من القُضاةِ والفُقهاءِ والأشرافِ والأمراءِ قد ذهبوا إلى دارِ السُلطانِ للعَزَاء، وأَعتقدُ أَنّه من الواجبِ أن تذهبَ معَنا إلى قصره..». تردّدَ ابنُ بطّوطة طويلاً، ثم قال مُتملّصاً: «ربمّا لا يكونُ منَ الضروريِّ أن أذهبَ أنا اليوم.. أفضّلُ أنْ انتظرَ إلى الغَد..». كان ابنُ بطّوطة في محاولتِه التملّص، يتذكّرُ ما سَمِعَه عن أحوالِ السّلطان وتصرفاتِه الغَريبة، التي قد تحملُ في طيّاتِها شراً.. خاصةً في هذا الظّرفِ المُحزن.

طالَ الجَدَلُ بين شيخِ الزّاويةِ وابن بطّوطة، وألحَّ الشّيخ، فَرَضَخَ ابنُ بطوطةَ في آخر الأمر، وسارَ معَهم إلى قصرِ السلطان، وهو يقولُ لنفسِه، لماذا أنا مُتشائمٌ اليوم؟!.

وعندَما وَصَلوا إلى قاعةِ الاستقبالِ في القصرِ التي تُدعى «المشور»، وجدَها ابنُ بطوطة مُمتلئةً بالرجالِ من الوُزراءِ والجُندِ والصِّبْيانِ من أمراءِ العائلةِ والمَماليك، وقد ارْتَدَوْا جميعاً ملابسَ الفُقراءِ الخَشِنة، ووضعوا التِّبْنَ والتُرابَ فوقَ رؤوسِهم، كما حَلَقَ البعضُ مَقدِّمةَ شَعْرِ رأسِه، وكانوا قد انقسموا إلى فَريقين، فريقٍ في أولِ القاعةِ وفريقٍ آخرَ في نهايتِها. وكلُّ فريقٍ يزحفُ نحوَ الفَريقِ الآخر، وهم يَضْرِبون بأيديهم على صُدورِهم، ويقولون: «خوند كارما!». ومعناها «مولاي أنا!». فَتَصْدُرُ أصواتُهم مُختلطةً كالعويل.

يَجْمَدُ ابنُ بطّوطة في مكانِه من فَرْطِ الدَّهشة، فهو لم يَرَ في حياتِه كُلِّها مَشهداً كهذا، غيرَ أنّ شيخَ الزّاويةِ الذي أتَى معه لكَزَه، طالباً منه أن يتحرَّك إلى دَاخلِ القاعة. تقدَّمَ ابنُ بطّوطةَ إلى داخلِ القاعة، فرأى القُضاةَ والخُطباءَ والشُرفاء، وقد استندوا إلى الحائطِ فلمْ

يَعُدْ يظهرُ منه شَيءٌ من فرطِ تَزاحمِهم ، بعضُهم يَبْكي والبعضُ الآخرُ يَتباكى ، والبعضُ يُطْرِقُ حُزْنا . ولَفَتَ نظرَ ابنِ بطوطة أنهم جميعاً يَرتدون فوقَ ثيابِهم الثّمينة ، ثياباً غليظةً من القطنِ غيْرَ مُحْكَمةِ الخِياطة ، يَلْبَسونها مقلوبة ، بحيث تكونُ بطانتُها إلى الخارج ، وقد وَضعَ كلٌّ واحدٍ منهم على رأسِه قطعةً سوداءَ من القُماش .

تحرّكَ ابنُ بطوطة قليْلاً ، ومن خلفِهِ شيخُ الزّاوية ، ومَن جاؤوا بصحبتِه . لكنّه عادَ وتوقّفَ حائراً بعد أن رأى ازدحامَ القاعةِ بمن فيها . وراحَ يتطلّعُ يَميناً ويساراً يبحثُ عن موضوعٍ يجلسُ فيه ، فرأى في جانبِ من القاعة ، مكاناً خالياً يجلسُ مُتكوِّماً في جانبٍ منه ، رجلٌ عليه ثَوبٌ من الصوفِ يُشبهُ اللُّبّاد ، وهو ما كان قد رأى الفقراءَ يَلْبسونه أيامَ المَطرِ والثّلوج ، وأثناءَ السفرِ في هذه البلاد .

تقدّم ابنُ بطوطَة إلى حيثُ يجلسُ الرّجل ، وقبلَ أن يجلسَ نظرَ إلى شيخِ الزاوية ، وأصحابِه ، يَدعوهم إلى المكانِ الخَالي ، لكنّهم لم يَستجيبوا له ، وكانوا يرشقونه بنظرات غريبة . واصَلَ ابنُ بطوطةَ تقدّمَه وقبلَ أن يجلسَ حَيَّا الرجل ، فردّ التحيةَ وهو يَنهضُ قليلاً كأنه يَهمُّ بالوقوف ، وجلَس ابن بطوطةَ في الطَرَفِ الآخرِ من المكان .

بعد أنْ استراحَ في جَلْستِه ، راحَ يتطلّعُ حولَه ، فوجدَ الجميعَ ينظرون إليه نَظراتٍ غريبة ، والفقهاءُ والقُضاةُ المستندون إلى الحائِط يُشيرون إليه اشاراتٍ غيرَ مفهومة .. أخذَ يفكرُ في معنَى هذا حائراً ..

وفجأة ! ! خَطرت له فكرةٌ بَعثت الرُعبَ إلى قلبهِ .. ألا يجوزُ أن يكون هذا الرجلُ الذي اقتحمَ عليه جَلستَه ، هو السُّلْطان ؟ ! ! .

وإلى الحلقة القادمـــة

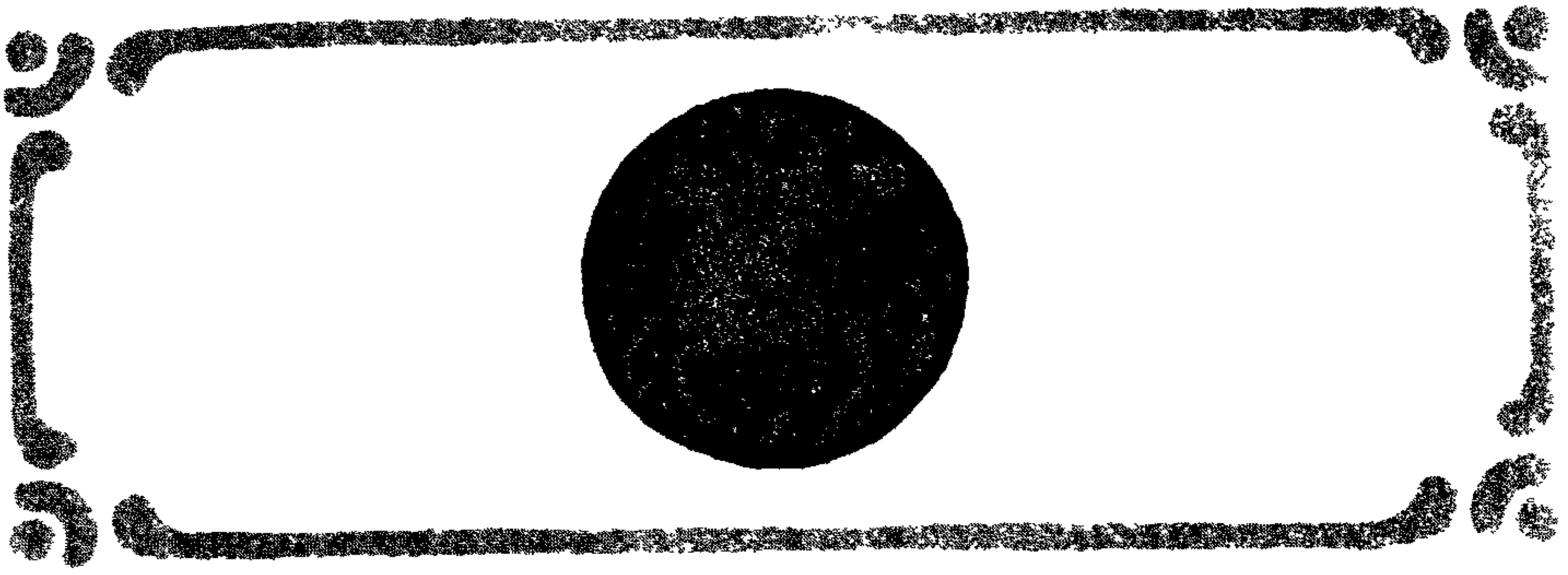


مغامرات
ابن بطوطة

٤

مغامرة في بحر القلزم

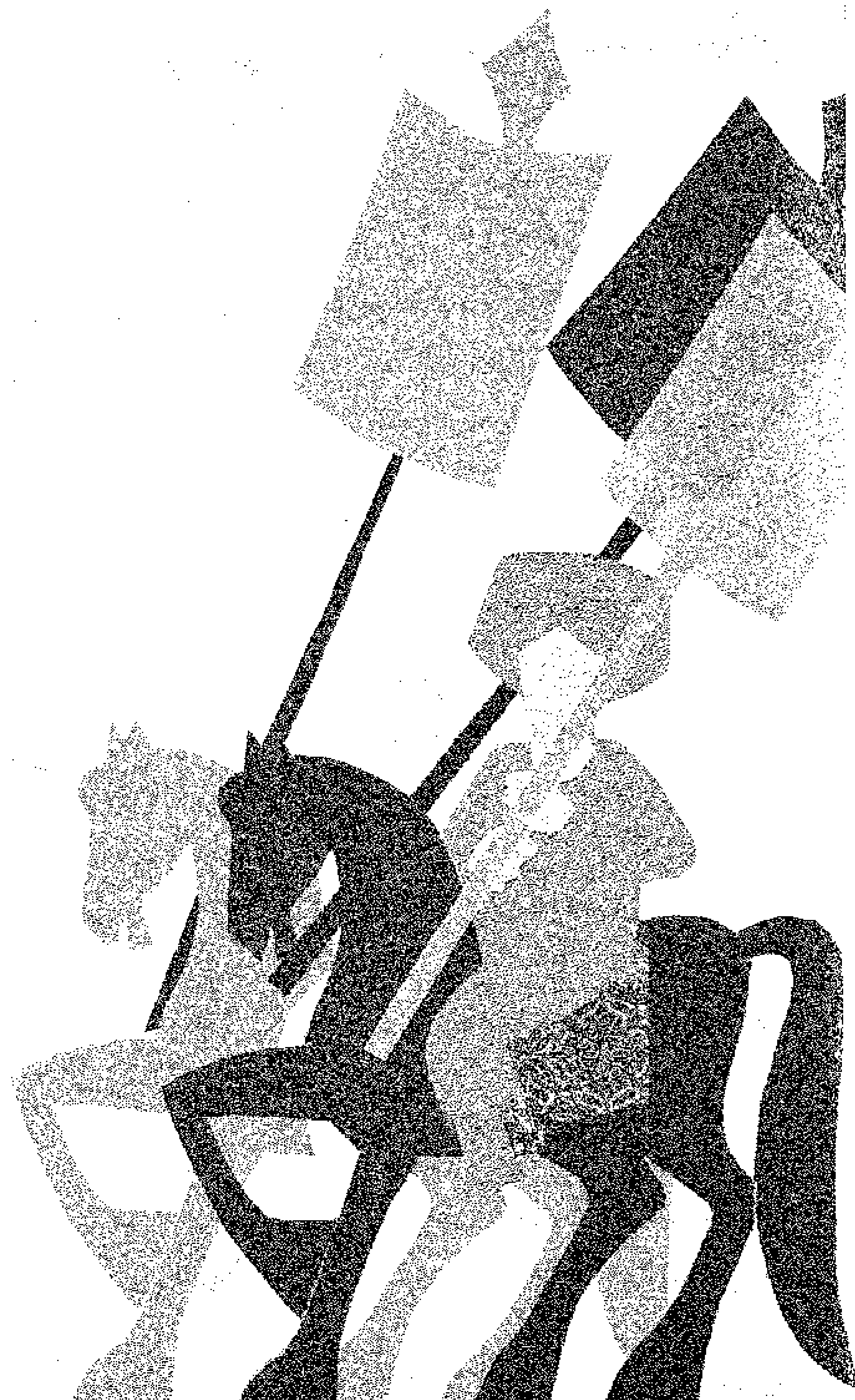
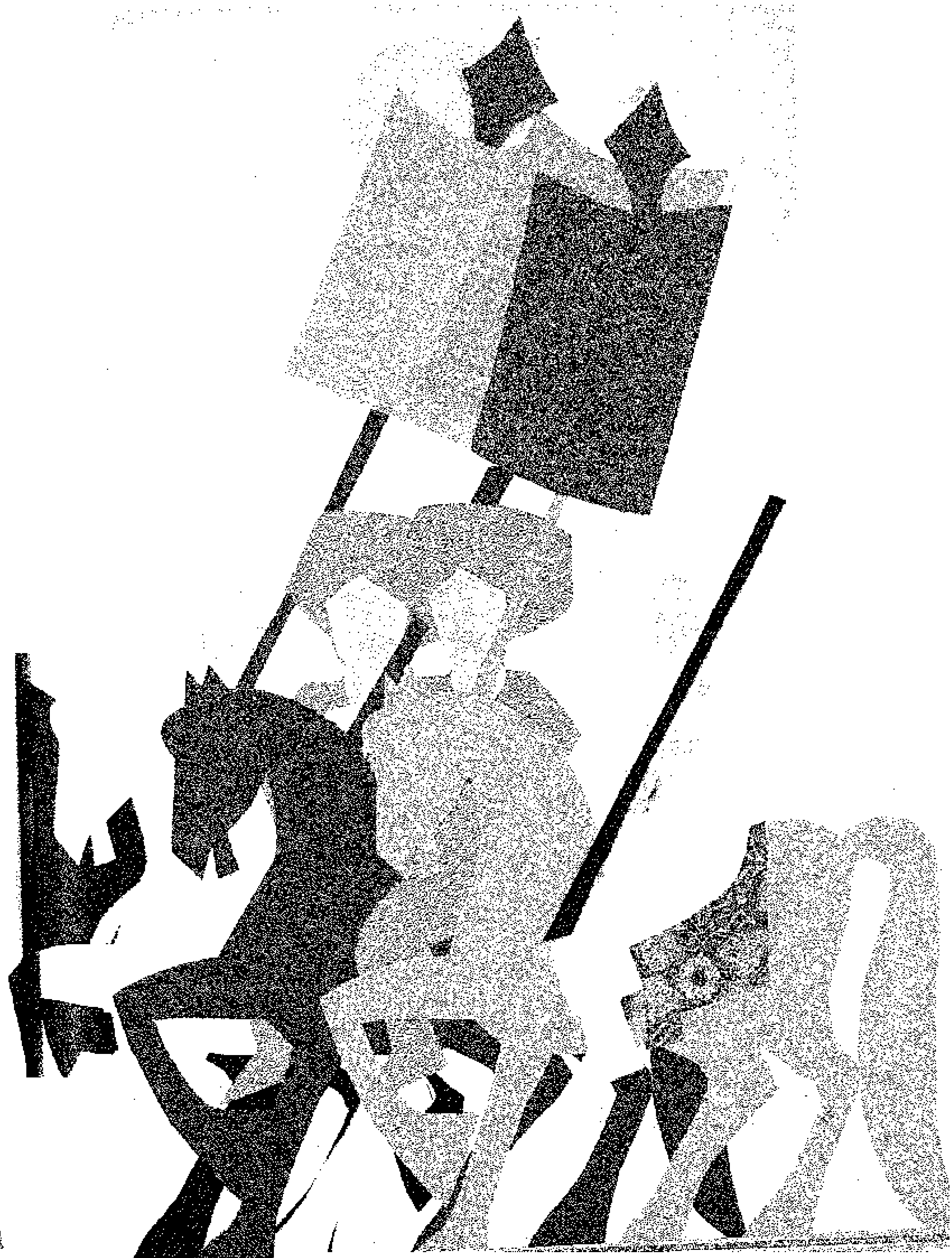
اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان



في حضرةِ السُّلطان

عندَما وَصلَ ابنُ بطوطةَ إلى قاعةِ عَرشِ السّلطان أَتَابَك أفراسياب، مَلكِ أيذج وتُستُر، لتقديمِ العَزاءِ في وفاةِ ابنِه الوحيدِ وليِّ عَهدِه، لم يَعرفْ إلى أينَ يتّجِه. فالأمراءُ والوُزراء والجندُ ارتَدَوْا ملابسَ الفُقراءِ الخَشِنة، وَوَضَعُوا التِّبنَ والترابَ فوقَ رُؤوسِهم، وقد انْقسَمُوا إلى فَريقين، فريقٍ في أولِ القَاعة، وآخرَ في نهايتِها، وكلُّ فريقٍ يَزحفُ نحوَ الفريقِ الآخر، وهم يَضْرِبون بأيدِيهم على صُدورِهم.

يتقدّمُ ابنُ بطّوطة، فيَرَى في جانبِ القاعةِ مكاناً خالياً يَجلسُ متكوِّماً في جانبٍ منه رجلٌ عليه ثوبٌ من الصوفِ يُشبهُ اللُّبّاد، وهو ماكان قَد رأى فقراءَ تلك البلادِ يَلبسونَه أيامَ المَطرِ والثّلوج. يتّجهُ ابنُ بطوطةَ ناحيةَ الرّجل، ويهمُّ بالجُلوس، فيَرى رفاقَه يَرشُقونه بنظراتٍ غَريبة، لم يفهَمْ مَعناها، فجلسَ إلى جوارِ الرّجل. ثم رأى الفقهاءَ والقُضاةَ يُشيرون إليه إشاراتٍ غيرَ مَفهومة، فَتزايدَتْ حَيْرتُه. وفَجْأة.. خَطَرت على بالِه فِكرة، بَعثتِ الرعبَ في قلبِه.. ألا يَجوزُ أن

يكونَ هذا الرجلُ الذي اقتحمَ عليه جلستَه ، هو السّلطان الذي سمعَ عنه القصصَ الغَريبة !..

بقيَ ابنُ بطوطَة في مكانِه ، يغالبُه القَلَقُ وتَسُودُه الحَيْرة ، حتَّى تقدّمَ صديقُه الشيخُ نورُ الدين الكَرَماني ، الذي يَحظَى منَ السلطانِ بكلِّ احترامٍ وتَبْجيل ، وسلّم على الرّجل ، ثم جلسَ بينَه وبين ابنِ بطّوطة ، ساعتَها تأكّدَ أنّ الرجلَ هو السّلطان ، وحَمِدَ اللهَ على وجودِ الشّيخِ الكَرَماني ، الذي يمكنُ أن يَدفعَ عنه ما يشعُرُ به من حَرَج .

اطمأنّت نفسُ ابنِ بطوطة ، وعادَ يتابعُ طُقوسَ الجَنَازة ، بكلِّ ما فيها مِن غَرائب. دَخَلوا بجُثمانِ الأميرِ المتوفَّى مَحْمولاً ، تَحِفُّ به أشجارُ الليمونِ والنَّارَنْج التي حَمَلَها الرّجال ، وقد تَدَلّت منها الثّمار ، وكأنّ الجُثمانَ يَسيرُ وسَطَ بستانٍ كاملٍ مُتحرِّك. وخلْفَ هذا الموكِب ، سارَ الرجالُ يَحمِلون المشاعلَ والشموعَ والرِماحَ الطّويلة .

تحرّكَ الجميعُ خلفَ هذا الموكِب ، حتّى بَلَغوا المكانَ المخصَّصَ للصلاةِ على المتوفّى ، ثم وَاصَلوا السيرَ بعدَ ذلك إلى مَدفنِ المُلوك الذي يبعدُ عنِ القصرِ أربعةَ أميال .. انتهَزَ ابنُ بطوطةَ فُرصة انشغالِ الجميعِ بتنظيمِ موكبِ الجَنازة ، فانسحبَ في هدوءٍ عائداً إلى المدرسةِ التي يُقيمُ بها ، خَشْيَةَ أنْ يقعَ في تصرّفٍ خاطئٍ آخر ، يثيرُ عليه غَضَبَ السلطان .

لكنْ ما إن مرّت عدةُ أيام ، حتَّى استقبَلَ ابنُ بطوطةَ في المدرسةِ رسولاً منَ السّلطان ، يَدعوه إلى القَصْر. استجابَ ابنُ بطوطةَ للدَّعوة ، وسارَ برفقةِ الرّسول ، حتّى وَصَلا إلى بابِ القصرِ المعروفِ باسم (باب السرّ) . صَعِدَ خلفَ الرسولِ دَرَجاتِ السُّلمِ التي لا تَنتهي ، حتّى وَصلا

إلى مكانٍ ليس فيه أثاثٌ أو رِياش، في رُكنٍ منه يجلسُ السلطانُ على وسادةٍ مُلقاةٍ على الأرض، وكانَ ذلك نَوعاً من التقشّفِ عَمَدَ إليه السلطانُ تعبيراً عن حُزنه على ابنِه. وكان أمامَ السلطانِ آنيتان عَليهما غِطَاء، إحداهما من الذَهبِ والأُخرى من الفِضّة.

عندَما دَخلَ ابنُ بطوطةَ القاعة، أسرعَ بعضُ الموجودين فتناولَ سجّادةً خَضراءَ كانَت في ركنٍ مِن أركانِ الحُجرة، بَسَطَها على الأرضِ إلى جِوارِ السلطان، ليجلسَ عليها ابنُ بطّوطة. رحّبَ به السلطان، وراحَ يسألُه عن أحوالِه، وعن البلادِ التي جاء منها، وأخبارِ البلادِ التي زَارَها في رِحلتِه. استجابَ ابنُ بطّوطةَ لأسئلةِ السلطانِ في حَمَاس، وراحَ يحكي ويتكلّم، لكنّه لاحظَ عدمَ اهتمامِ السلطانِ بتتبّعِ ما يُقال.

دخلَ علَيهما شيخُ فُقهاءِ تِلك البلاد، فقالَ السلطانُ لابنِ بطوطةَ «هذا مَولانا فَضيل..»، وراحَ السلطانُ يَمتدحُ ذلك الفقيهَ ويُثني على علمِه.. وانتبهَ ابنُ بطوطة إلى أنّ السلطانَ يتكلّمُ بصعوبةٍ من فرطِ السكرِ الشّديد، وكان قد سمِعَ مِن قبلُ بقصةِ إدمانِه للخَمر. لهذا، عندَما التفتَ السلطانُ إلى ابنِ بطّوطةَ وقال له «تكلّم...»، أجاب «إذا أَصغيتَ إلى قَولي تكلّمت.. أنت من أولادِ السّلطان أَتابك أحمدِ المشهورِ بالصّلاحِ والزّهد، وليس فيك ما يستوجبُ اللّومَ، وينتقصُ مِن مكانتِك، سوَى هذا!!.»، وأشارَ إلى آنِيَتي الخَمر.

أطرقَ السلطانُ طَويلاً لا يَتكلّم، وشَعَر ابن بطوطة انّه تَجاوزَ الحدَّ في حديثِه مع السّلطان، ونَدِمَ على اندفاعِه، لكنّه ما لَبِث أن قال

لنفسِه : إذا لم يَصدُرْ مثلُ هذا القولِ مِنّي أَنا ، الغريبِ عن هَذه البلاد ، فَمَن الذي سيجْرُؤ عليه من أهلِها ، لقد قُلت ما في ضميري والأمرُ لله مِن قبلُ ومِن بَعد. نَظر ابنُ بطوطَة إلى السّلطان ، فوجدَه ما زالَ مُطرِقاً ، وقد ظَهَرَ عليه الخَجَل. همَّ ابنُ بطوطةَ بالانصرافِ حتّى لا يسببَ حَرَجاً للسلطان. لكنّ هذا أمرَه بالبَقاء ، قائلاً له «الاجتماعُ مع أمثالِك رَحْمة...».

بقيَ ابنُ بطوطةَ في مكانِه ، لكنّه لاحظَ بعدَ قَليل ، أنّ السلطانَ يتمايلُ ويتثاءَب ، وقد غَلَبَه النومُ من فَرْطِ السّكر ، فانصرفَ في هدوءٍ ومِن خلفِه الفقيهُ فَضِيل. عندَما خَرجَ ابنُ بطوطةَ مِن القاعة ، لم يجدْ نَعلَه التي كان قد خَلَعَها عندَ الدّخول ، فَمضَى حافياً يريدُ أن يبتعدَ عن السلطانِ المخمورِ بأسرعِ ما يُمكن. لكنّ الفقيهَ فَضيل طلبَ منه أن ينتظرَ قَليلاً ، وظلَّ يبحثُ عن النّعل ، حتّى وجدَها في طاقَةٍ بحائطِ القَاعة ، وعادَ بها إلى ابنِ بطّوطة ، الذي شَعَرَ بخجلٍ شديدٍ مِن كرمِ أخلاقِ ذلك الفَقيه ، وراحَ يعتذرُ له وهو يضعُ قَدَميه في النّعلين ، ففوجِئَ بالفقيهِ يَميلُ على قَدَميه ، ويقبّلُ النّعلين ثم يَضعَهُما على رأسِه وهو يَقول «باركَ اللهُ فيك... هذا الذي قُلته لسلطانِنا لا يقدرُ أحدٌ أن يقولَه غَيرُك !. وإنِّي أرجو أنْ يؤثّرَ ذلك فيه...».

النّانُ والْمَاس...

بعدَ أيامٍ من هذا اللّقاء، تلقّى ابنُ بطوطة قبلَ رَحيلِه هديّةً ماليةً من السّلطان، فَسعِدَ بها ليس لقيمتِها، ولكنْ لأنّها تُشيرُ إلى أنّ السلطانَ لم يَغضبْ لقولِه.

استمرّت رحلةُ ابنِ بطوطة بعدَ ذلك مدّة عَشَرةِ أيام، بين مسالِكِ الجبالِ الشّامخة، حتّى وَصَلَ إلى حدودِ السلطانِ أفراسياب.. حَيثُ تنبسطُ الأرض، وتنتهِي مشقّةُ صعودِ وهبوطِ الطرقِ الجَبلية، بكلِّ ما فِيها مِن مَخاطر.

مَضَى ابنُ بطوطَة في رِحْلَتِه، مُتّجهاً هذه المرّةَ إلى مدينةِ (أصفهان). وفي الطريقِ إليها، بالقُربِ من مدينةٍ صغيرةٍ ذاتِ أشجارٍ وبساتينَ تُدعى (فيروزان)، وجدَ أهلَ المدينةِ وقد خرَجوا يُشيّعون جَنازةَ واحدٍ منهم. كانَ الوقتُ عَصْراً، وقد أوشَكَ الظلامُ على الهُبوط. كانت المشاعلُ التي أوقدَها أهلُ المدينةِ أمامَ الجنازةِ وخلْفَها تُبدّدُ الظلام.

وَصلت إلى أُذنِ ابنِ بطوطة أصواتُ عَزفِ موسيقَى وغناءٍ وطَرَب فاستنكرَ ذلك، كيف يتحمّلُ أهلُ المُتوفَى وهُم في حُزنِهم هذا التصرّفَ الممجوجَ من الآخرين، وكيف لا يُراعي أصحابُ ذلك الفرحِ مشاعرَ أصحابِ هذه الجَنَازة؟!.. لكنّ دهشتَه بَلَغت مَداها، عندَما اكتَشَفَ أنَّ العزفَ والغناءَ مَصدَرُهما الجنازةُ نفسها.. وعندما اقتربَتْ منه الجَنَازة، اكتشفَ وسطَ موكبِها مجموعةً منَ العازِفين على

الآلات الموسيقية، هذا بالإضافةِ إلى مجموعةٍ أُخرى من المُغنّين. وعَرَفَ بعدَ ذلك أنّ هذه هي عادةُ أهلِ البلادِ في توديعِ مَوتاهم.

سارَ ابنُ بطوطةَ بعدَ ذلك مدّةَ يومين، وَسْطَ البَساتين الجَميلة، والمياهِ التي تَترقرقُ في الجَداولِ والأَنهار، وأبراجِ الحَمَام المنتشرةِ على طولِ الطريق، حتى وَصَلَ إلى مدينةِ أَصْفهان. ويقولُ ابنُ بطوطةَ في وصفِ هذه المَدينة «من كبارِ المُدنِ وحِسانِها، إلاّ أنّها قد خَرِبَ أكثرُها، بسببِ الفتنةِ التي بها بين أهلِ السنّةِ والرّوافِض، وهي متّصلةٌ بينَهم حتّى الآن، فلا يَزالون في قِتال».

بهذا يشيرُ ابنُ بطوطةَ إلى مَظهرٍ لَمَسَه في العِراق، ولم يَلْمَسْه في البلادِ التي زارَها قبلَ ذلك، في مصرَ أو الشامِ أو الحِجاز، أَلاَ وهو تلك الخِلافاتُ الحادّةُ بينَ المذاهبِ الإسلامية، بينَ أهلِ السنّةِ والشّيعةِ والرّافِضة. وكانَت تَقومُ بينَهم الفِتَنُ والخُصوماتُ، حتّى خَرِبَ أكثرُ المُدُن.

في أصفهان، ينزلُ ابنُ بطوطةَ في زاويةٍ تُنسبُ للشيخِ عليِّ بنِ سَهْل، تتكفّلُ بإقامةِ ضُيوفِها وَطعامِهم، وبها حَمّامٌ عجيبٌ، أرضُه مكسوّةٌ بالرُّخامِ وحوائطُه من القِيشاني. وتلك الزاويةُ تَستضيفُ كلَّ مَن ينزلُ بِها دون مقابِل، معتمدةً على الأوقافِ التي رُصِدَ ريعُها لهذا الغَرَض. في هذه الزاويةِ بقيَ ابنُ بطوطةَ مدّةَ أسبوعين، وتعرّفَ أثناءَ ذلك على شيخِ الزاويةِ قُطبِ الدّين حُسين، وهو يقولُ عنه «رأيت من اجتهادِهِ في العِبَادة، وحبِّه للفُقراءِ والمَساكين، وتواضِعه لهم، ما قَضَيت مِنه العَجَب، وبالَغَ في إكرامي، وأحسنَ ضِيافَتي، وكَسَاني

كسوةً حَسنة ...».

ما ان وصلَ ابنُ بطوطة إلى هذه الزّاوية ، حتّى أَرسلَ إليه الشيخُ قطبُ الدينِ بالطعام ، ومَعه ثَلاثُ بطّيخات . لم يكن ابنُ بطوطة قَدْ رأَى البِطّيخ من قبل أو تَذوَّقه . أَعجبته حلاوةُ البِطّيخ ، فأكثَرَ مِن أكله ، مما أَربَكَ أَمعاءَه ، وهو يقول «البطيخُ العجِيبُ الشأنِ الذي لَيس له في الدّنيا مَثِيل !.. وقشرُه أخضرُ وداخلُه أحمر ، وله حلاوةٌ شَديدة ، ومَن لم يكن أَلِفَ أَكْلَه ، فإنّه في أوّلِ أمرِه يُسْهِلهُ ، وكذلك اتّفقَ لِي لَمّا أكلته بأَصفهان». وهو لا يقتصرُ في إعجابِه على بِطّيخِ أصفهان ، بل يتحدّثُ بإعجابٍ عن الفواكِه العديدةِ المتوافِرة في المَدينة ، كالمشمشِ الذي لا نَظيرَ له ، والذي يجفّفُ ليُصنعَ منه قمرُ الدّين ، ثم السّفرجل الضَّخم ، والأعنابِ المُمتازة .

ويصفُ ابنُ بطوطةَ أهلَ أصفهان ، فيقولُ إنّهم يَتميّزون بحُسنِ الطَّلعة ، وبِلونِهم الأبيضِ المَشُوبِ بالحُمْرة . وهو يتحدّثُ عن شجاعتِهم ، ونَخْوَتِهم ، وكرمِهم الذي يَتنافَسُون فيه تنافساً عَظيماً ، أدهشَه أنْ يَدعوهمْ أحدُهم إلى بيتِه قائلاً «فَلتتفضّلْ معي إلى بيتي... حتّى نأكلَ النانَ والْماس..». والنانُ بلغةِ أهلِ أصفهان تعني الخُبْز ، والْماس تَعني اللّبن.. ومعنَى هذا في إجمالِه أَنّه يَدعوه إلى طَعامٍ بَسيط . وعندَما ذَهبَ ابن بطوطةَ إلى بيتِ الرجل ، وجدَه قد أعَدّ وليمةً حافلةً بكلِ أنواعِ الطّعام .

بعد أن تَنتهيَ زيارةُ ابنِ بطوطةَ لمدينةِ أَصفهان ، يواصلُ رحلتَه ، فيمرُّ على بعضِ المدنِ الصّغيرة ، حتّى يصلَ إلى طريقِ دَشْت الرّوم ،

وهي صحراءُ يَسكنُها الأَتراك، فيقطعُها مُسرِعاً ليصلَ إلى مدينةِ (شيراز).

الاحترامُ.. بإمساك الأُذُن!.

يقولُ ابنُ بطوطةَ في وصفِ شِيراز «وهي مدينةٌ أصيلةُ البِنَاء، فسيحةُ الأَرجاء، شهيرةُ الذِّكر، مُنيفةُ القَدْر، لَها البساتينُ المُونِقَة، والأنهارُ المُتدفِّقة، والأسواقُ البَدِيعة، والشوارعُ الرَّفيعة، وهي كثيرةُ العِمارَة، مُتقنَةُ المَباني، عجيبةُ التَّركيب، وأهلُ كلِّ صناعةٍ في سُوقِها لا يُخالِطُهم غيرُهم، وأهلُها حسانُ الصورةِ نِظافُ المَلابس. وليس في المَشرقِ بلدةٌ تُداني مدينةَ دِمشقَ في حُسنِ أسواقِها وبساتينِها وأنهارِها وحسنِ صُورِ سَاكنِيها إلاَّ شِيراز».

ويتحدّثُ بعدَ ذلك عَن المدينةِ فيقولُ إنّها تمتدُ على أرضٍ مُنبسِطة، تحفُّ بها البساتينُ مِن جميعِ الجِهاتِ وتَشقُّها خَمسةُ أنهار. ويصفُ أحدَ هذه الأنهارِ الذي يَنبعُ من عَينٍ في سفحِ جَبلٍ قَريب، ويقولُ إنّ ذلك النهرَ يكونُ عذبَ الماءِ شديدَ البُرودةِ في الصّيف، ساخناً في الشّتاء.

ويقول ابنُ بطوطة إنّ أهلَ شيرازَ يَتّصِفون بالصّلاح والتَّقوَى والعَفَاف. ويشيرُ بصفةٍ خاصةٍ إلى تَحشّمِ نِساءِ هذه المَدينة، وكيف يَخرُجْن متحجّباتٍ لسَماعِ الوعْظِ في الجامعِ الأعظمِ كلَّ يومِ اثنين

وخَميس وجُمُعة، فيجتمعُ مِنهن بالجامعِ ما يَصلُ إلى الألفين.

عندَما وصلَ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ شِيراز، لم يكنْ لَه من همٍّ سوَى الوُصولِ إلى الشيخِ مجدِ الدّين إسماعيل بنِ خَدّاد، الذي كان قَد سمِعَ عنه، وعن علمِه وفضلِه وتَقْواه.

عندَما عَثَرَ ابنُ بطوطةَ على بُغْيتِه، في المدرسةِ «الْمَجْدِيّة» المنسوبةِ إليه، والتي يَسكنُ بها، كان وقتُ صلاةِ العصرِ قد حلّ، وقد تجمّعَ الناسُ في انتظارِ مَقْدَمِ الشيخِ مَجدِ الدّين حتّى يَؤمَّ الصّلاة. ظهرَ الشيخُ مجدُ الدّين، ومعه ابنَا أخيه مُحبُّ الدّين وعلاءُ الدين، أحدُهما عَن يمينِهِ والآخرُ عن شِمالِه، يَسندانه ويَسيِران به، لضُعفِ بصرِه وكِبَرِ سِنِّه.

تقدّمَ منه ابنُ بطّوطة، وعرَّفَه بنفسِه، فعانقَه الشيخُ وأخذَ بيدِه إلى أنْ وصلَ به إلى المكانِ الذي سيُصلِّي فيه، ثم تَركَ يدَ ابنِ بطوطة، بعدَ أنْ أشارَ إليه أن يُصلّيَ إلى جوارِه.

بعدَ أنْ أنهَى الشيخُ الصّلاة، وتلقَّى سَلامَ كبارِ أهلِ المدينة، انفردَ بابنِ بطوطة، وأخذَ يسألُه عن المغربِ ومصرَ والشّام والحِجاز، وابنُ بطوطةَ يُجيبُ عن أسئلته، سعيداً باهتمامِه. ثم أمرَ الشّيخ بانزالِ ابنِ بطوطةَ في دارٍ صغيرةٍ داخلَ المدرسة «المَجْدية» التي يُقيمُ بها. واهتمَّ رجالُ الشيخِ بابنِ بطوطةَ أكبرَ اهْتمام، ثُم قادُوه في اليومِ التالي إلى مجلسِ الشيخِ مَجْدِ الدين.

بَينما كان ابنُ بطوطةَ يَتجاذَبُ أطرافَ الحديثِ مع الشّيخ،

وصلَ أحدُ كُبراءِ الأمراء، ورسولُ مَلكِ العِراقِ السّلطان أبِي سَعيد. وقد دُهشَ ابنُ بطوطةَ دَهشةً كبيرة، عندَما وجدَ الأميرَ الرسولَ بمجرّدِ دُخولِه، يَنزِعُ عمامةَ رأسِه، ويقبّلُ قَدَمَ الشيخِ القَاضِي مجدِ الدّين، ويَقعُدُ بَين يَديه، مُمْسِكاً أُذنَه بيدِه!. وقد سألَ ابنُ بطوطةَ عَن معنًى إمساكِ الشّخصِ بأُذنِه في حَضرةِ شَخصٍ آخر، فقالوا له إنّ هذا هو دليلُ الاحترامِ الكبيرِ عندَ مُلوكِ التّتارِ وأُمرائِهم.

وسألَ ابنُ بطوطَة أحدَ رجالِ الشّيخِ القاضي، عن سرِّ هذا الاحترامِ الكبيرِ الذي يَلقاهُ مِن جانبِ رسولِ سُلطانِ بَغداد، ذلك السّلطان الذي يَدينُ له بالطّاعة والولاءِ مُلوكُ هذه المِنطَقة. فقالَ الرّجل، هذه قصّةٌ طويلة...

أَمام الكلابِ المُفْترسة

جَرَى ذلك عندَما كانَ ملكُ العِراقِ هو السلطان التّتري مُحمد خدابنده، ولم يكنْ قد أسلمَ بَعد. وكان مِن بين حاشيتِه فَقيهٌ لطائفةٍ من الخَوارجِ تُدْعى «الروافض الإماميّة»، ويسمّى جَمالَ الدّين ابنَ مطهر.

عندَما أسلمَ السّلطان، وأسلمَ التّتار مِن بعدِ اسلامِ سُلطانِهم، حرّضَ الفقيهُ ابنُ مَطهر سلطانَ العراقِ على اتّباعِ مَذهبِ الرّافضةِ هذا، فاقتنعَ السّلطان، وأمرَ بحملِ المُسلمين على اتّباعِ مذهبِ الرّافضة.

وكتبَ بذلك إلى كافةِ ملوكِ الممالِك الإسلاميةِ في العِراقِ وفارسَ وأذربيجان وأصْفهان وكَرمان وخُراسان. يُوصي بأنْ تتغيّرَ صِيغةُ الدّعاءِ الذي يقالُ في خُطبةِ الجُمعة، بما يتّفقُ والقَبولَ بمذهبِ الرّافضة.

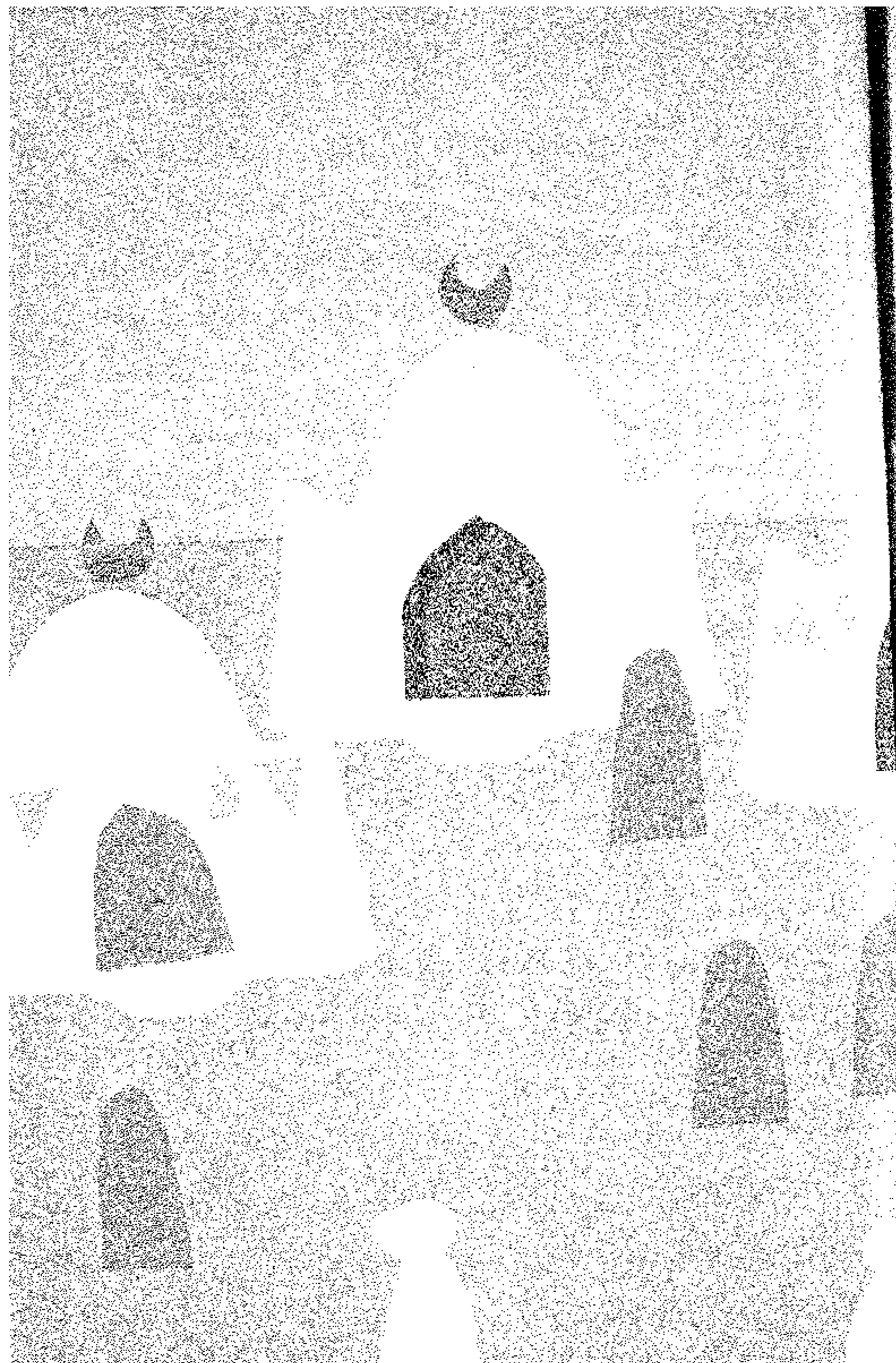
أوّلُ بلادٍ وصلَ إليها رسلُ السلطانِ كانت بغدادَ وشِيرازَ وأصفهان. وكان التمرّدُ الأولُ على أوامرِ السلطانِ من جانبِ أهلِ بَغداد، الذين قالوا جميعاً: لا سَمْعَ ولا طَاعة!..

ثم ذهبوا إلى المسجدِ الجامعِ يومَ الجُمعةِ وهم يَحْمِلون السّلاح. وكان رسولُ السّلطان مَوجوداً في الجَامع، ينتظرُ تَحقيقَ الرَّغبةِ التي حَمَلَها. فلمَّا قامَ الخَطيبُ إلى المِنْبَر، نَهض اثنا عَشرَ ألفًا مِن أهلِ بغداد بسلاحِهم، وأَقْسموا إنّ هو استجابَ لرَغبةِ السلطان، وغيّرَ الخطبةَ المُعْتادة، أو زادَ عَليها، أو أَنقصَ فيها، فإنّهم سيَقتلونه ويَقْتلون رسولَ السّلطان، فخافَ الخَطيب، وخَطبَ الخُطبةَ المُعتادة.

نَفسُ ما حدَث في بغدادَ جَرَى في شيرازَ وأصفهان. وعندَما وصلَ خَبرُ هذا إلى السلطانِ استشاطَ غَضباً، وطلبَ إحضارَ قُضاةِ المدنِ الثلاثِ العاصِية.

كانَ أوّلَ مَن أُتِيَ به منهم الشيخُ مَجدُ الدّين قاضِي شِيراز. وكان السلطانُ في ذلك الوقتِ في مَصيفِه المعروفِ باسمِ (قراباغ). عندَما نَقَلوا إليه خبرَ وُصولِ القاضي، أمرَ أنْ يلقَى إلى الكلابِ المتوحّشة التي عندَه. وهي كلابٌ ضَخمةٌ شَرِسة، في أعناقِها السلاسلُ الغَليظة، جَرى تدريبُها على افتراسِ الآدميين.

جيىء بالشيخِ مجدِ الدّين، وأُغلقت عليه ساحةٌ كبيرة، ثم فُتحَ





بابٌ جانبيٌّ فيها، وأُطلقت منه الكلابُ المُفترسة. تقدّمت الكلابُ مندفعةً ناحيةَ الشّيخ، الذي بقيَ في مكانِه صامداً، لم يتحرّكْ لدخولِها. وما أن اقتربَت منه الكِلاب، حتّى توقّفَ اندفاعُها، ثم أخذت تتحرّكُ حولَه في هُدوء، وهي تهزُّ أذنابَها، لتنصرفَ عَنه بعدَ ذلك، دونَ أن تَلْمَسَه !!.

عندَما نَقلوا خبرَ ما جَرَى إلى السّلطان، أصابَه الذّهول، ثم انطلقَ من قصرِه حافي القَدَمين. حتّى بلغَ مكانَ القاضِي مجدِ الدّين، فقبَّل قَدميه، وأخذَ بيدِه، وخَلعَ عليه جميعَ ماكانَ يَرتديه هو مِن ثِياب، وهي أَعلى إشاراتِ التكريمِ عندَ السّلطان، ثُم اصْطحبَه إلى قصرِه، وأمرَ جميعَ مَن بالقصرِ بالتبرّكِ به.

وهكذا، رَجَعَ السلطانُ عَن مَذهب الرّافضة. وكتبَ إلى البلادِ كلِّها، أن يبقَى الناسُ على مَذهبِ السّنّة، وأجزَل العَطاء للقاضِي مجدِ الدّين، وأرسلَه إلى بلدِه مَعزّزاً مُكرّماً.. ويقال إنّه وهبَه مِن بين الهباتِ العَديدة، مائةَ قريةٍ من قُرى (جمكان)، وهي من أحسنِ مَواقعِ شيراز.

وأيًّا كانت حقيقةُ هذه القِصّة، فالذي لا شَكّ فيه، أنّ القاضِي مجدَ الدين كان يحظَى باحترامٍ وتقديرٍ لا يُنكران، من أكبرِ السّلاطينِ قوّةً ونُفوذاً.

أموالٌ منَ الهندِ والصّين

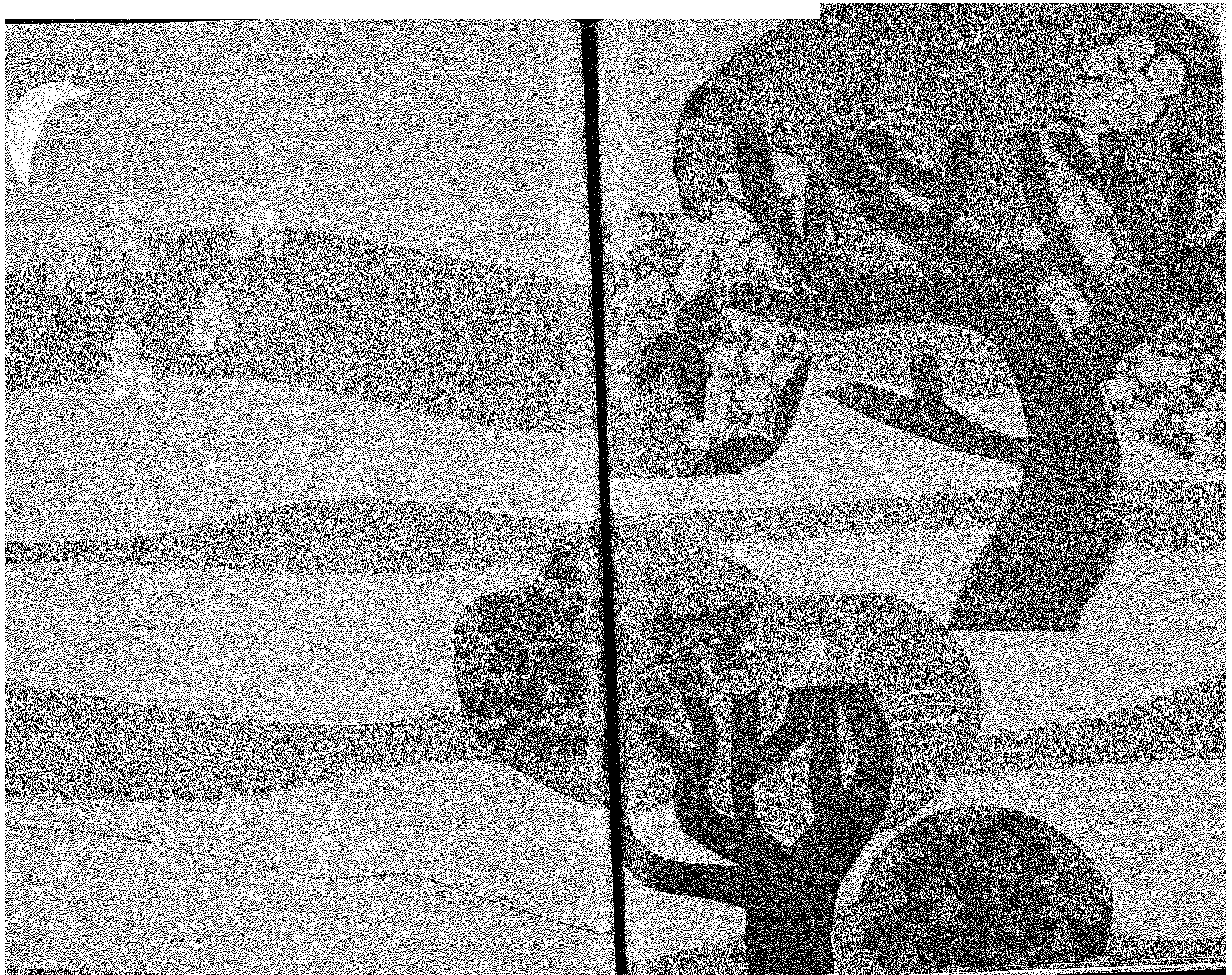
مِن شيراز، يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ (كازرون)، ويهبطُ أوّلَ وصولِه المدينةَ على زاويةِ الشيخ أبي اسحقَ فيقيمُ بها. ويَلْفِتُ نظرَه تعدّدُ الأجناسِ التي تَضُمُّها هذه الزّاوية... أهلُ البلادِ بمختلفِ طبقاتِهم، وروّادٌ منَ الهندِ والصّين.

بعدَ أنْ أمضَى ابنُ بطوطَة ليلتَه الأُولى في هذه الزّاوية، مُشاركاً في قراءةِ القرآنِ الكريم، وفي حَلَقاتِ الذكرِ التي لا تَنقطعُ في هذه الزّاوية، حاولَ أنْ يَمضيَ في طريقِه مواصلاً رِحلتَه، لكنَّ رجال شيخِ الزاويةِ أفهموه أنّ الضيافةَ في هذه الزاويةِ لا تَقلُّ عن ثَلاثةِ أيامٍ كاملة.

رَضَخَ ابنُ بطوطةَ لطلبِهم، وتعجَّبَ مِن غَرابةِ هذه التّقاليد، فسألَ بعضَ المَوجودين عن سرّ هذه الزّاوية. قيلَ له إنّ كُلّ مَن يُقبلُ على الزاويةِ تستضيفُه مدّة ثلاثةِ أيام، ثم يَعرضُ القادمُ على شيخِ الزاويةِ حاجتَه، فيذكرُها الشيخُ للفُقراءِ الذين يُقيمون ويَتعبّدون في الزاوية، وهم يَزيدون على مائةِ فقير، فيَقومون بالدّعاءِ عندَ ضريحِ الشيخِ أبِي أسحق.. وغالباً ما تُقضَى حاجةُ السائلِ بعدَ هذه الدّعوَات.

وقيلَ ان الشيخَ أبا اسحق يتجمّعُ في ضَريحِه أصحابُ التجارةِ الذين يَفِدون من الهندِ والصين. يتوقفون وسطَ رحلاتِهم التجاريةِ البَحريةِ عندَ هذه الزاويةِ لزيارةِ ضَريحِ الشيخِ وتقديمِ الهدايا والنّذور.

والسببُ في هذه الزِيارة، أَنهم عندَما تَهُبُّ عليهم العواصفُ في رِحلاتِهم البَحرية، ويُحْدقُ بهم الخَطر، أو تتعرّضُ تجارتُهم لهجومِ



قراصنةِ البحرِ ولُصوصِه، يُنْذِرون النّذور. فيقولون: سندفعُ كذا ونقدّمُ كذا لزاويةِ الشيخِ أبِي اسحق، فإذا ماكَتبَ اللهُ لَهم السّلامة، أَقبلوا على الزّاوية، يَدْفعون ما وَعَدوا به، مما يصلُ إلى آلافِ الدَّنانير، يتسلّمُها خَدَمُ الزاوية، ويُوزِّعونها على الفُقَراء.

وقد أثارَ دَهشةَ ابنِ بطوطة وإعجابَه في آنٍ واحد، ذلِك النظامُ الذي يَتبعُه شيخُ الزّاوية، عندَما يطلبُ الصدقَة فقيرٌ غيرُ مُقيم، أو عندَما لا يكونُ بالزّاويةِ المالُ الكافي لسدِّ حاجةِ جميعِ المُحتاجين. يأتِي الفقيرُ الغَريب طالباً الصّدَقة، فيكتبُ له الشيخُ أمراً بمبلغٍ من المال.. مائةِ دينارٍ أو ألفِ دِينار، ثم يختمُ الأمرَ بخاتَمِه المتميِّز. وبهذا، يصبحُ بإمكانِ الفقيرِ أن يتقدّمَ بهذه الوَرقةِ الى كلٍّ مَن يصادفُه، ممّن نَذَرُوا لزاويةِ الشيخِ أبِي إسحق... فيُعطيه بعضَ المال، ويدوّنُ ذلك على ظَهرِ الوَرَقة، وهكذا.. حتّى يستنفد الفقيرُ ما تُتيحُه له الورقةُ مِن مال.

وقد شاعَ صيتُ هذه المؤسسةِ الخَيريةِ التي أَنشأها شيخُ زاويةِ أبِي اسحق في كلِّ البلاد، ولهذا كانت تتوجهُ إليه الهِباتُ والنذورُ الكبيرةُ من مُختلِفِ الأنحاء. ويقالُ إن مَلك الهندِ نَذر مرّةً للشيخِ عشرةَ آلافِ دينار للإنفاقِ مِنها على أعمالِ الخيرِ التي تَتكفّلُ بها.

بعدَ أنْ تَنتهيَ أيامُ الضِّيافةِ الثّلاثة، يَمضِي ابنُ بطوطةَ مُواصلاً رِحلتَه، فيرحلُ مِن مدينةِ كازرون إلى مَدينة (الزَّيْدَيْن)، وقد سُمِّيَتْ كذلك، لأنَّ فيها قبرَ زيدِ بنِ ثابت وقبرَ زيدِ بن الأرقم، صاحِبي رسولِ الله عليه الصلاةُ والسّلام. ويصفُ ابنُ بطوطةَ المدينةَ فيقولُ «وهي

مدينةٌ حَسَنة، كثيرةُ البَساتينِ والمِياه، مَليحةُ الأسواقِ عجيبةُ المَساجد، ولأهلِها صَلاح وأمانةٌ ودِيانَة...».

ثم يسافرُ مِن هذه المدينةِ إلى مدينةٍ صَغيرةٍ تُسمَّى (الحويزاء) يسكنُها العَجَم، وبَينها وبينَ الكوفةِ مَسيرةُ خَمسةِ أيام. ومِنها يسافرُ مواصِلاً رِحلتَه، في أرضٍ قفرٍ لَيس بها ماء، لعدّةِ أيامٍ حتّى يصلَ إلى الكوفة.

يصلُ إلى الكوفةِ التي طالَما سَمِعَ عنها، فيجدُها قد خَرِبت بسببِ العُدوانِ المتكرّرِ عليها، وبسببِ الفسادِ الذي أشاعَه عَربُ خُفَاجةَ المجاورون لها، والذين يَقْطعون الطريقَ على كلِّ خارجٍ منها، وداخلٍ إليها. ومع هذا، وجدَ ابنُ بطوطةَ مدينةَ الكوفةِ زاخرةً بالآثارِ الكَريمة.. بها مِحرابُ عليّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه، تَحميه أعوادٌ مرتفعةٌ حولَه، وهو المكانُ الذي يقالُ إن ابنَ مُلْجِمَ اغتالَ فيه عليًّا.

ويزورُ ابنُ بطوطةَ مدافنَ المَدينة، فيرَى من بينِها مَدْفناً مطليًّا باللونِ الأسود، وقد جَمعَ أهلُ الكوفةِ الحطبَ الكثيرَ حولَ ذلك القَبر، وأشعلُوا النيرانَ في ذلك الحَطب. ويسأل، فَيعرفُ أنّه قبرُ ابنِ مُلجم، وأن أهلَ الكوفةِ يُوقِدون حولَه النارَ سبعةَ أيامٍ متواصلةٍ في كلِّ عام، يَستنزلون عليه اللّعنة، لفعلتِه النّكراء.

منَ الكوفة، يسافرُ ابنُ بَطّوطة إلى (كَرْبلاء)، المدينةِ التي استُشْهِدَ فيها الحسينُ بنُ عليٍّ عليه السلام. فيقولُ في وصفِها «وهي مدينةٌ صَغيرة، تحِفُّ بها حَدائقُ النّخيل، ويَسْقِيها ماءُ الفُرات...».

ومِنها يسافرُ إلى مدينةِ دارِ السّلام... أو (بَغداد).

حمّاماتُ بَغْداد

انبهرَ ابنُ بطوطةَ بمدينةِ بَغداد... اتّساعِها، جسورِها، رَفاهيةِ أهلِها، مدارسِها، وجوامِعِها الكَثيرة. وقد لَفَتَ نَظَرَه بصفةٍ خاصة، الفخامةُ التي تَتميّزُ بها حمّاماتُ بغداد، فيقولُ إنّها من أبدعِ الحمّاماتِ التي شاهَدها في رِحلاتِه الطّويلة.

ويَحرِصُ ابنُ بطوطةَ على وصفِ هذه الحَمّامات. فيقولِ إنّ حوائطَها مَطليةٌ حتّى منتصفِها بالقارِ الذي يَبدُو كالرُّخامِ الأسود، أمّا النِّصفُ الأعلَى فطليٌّ بالجِصِّ الأبيضِ النّاصع، الذي يَزدادُ تألقاً عندَ مُجاورتِه للّونِ الأسود. والقارُ الذي يَتحدّثُ عنه ابنُ بطوطةَ هو أحدُ مُستخرجَاتِ البترول. ويُحكَى أنه يُجلبُ مِن عَينٍ بَين الكوفةِ والبَصْرة، ينبعُ مِنها، ويسيلُ حولَها، فيأخذونه من هناك يابساً كالصَّلْصال، ويَضَعونه فوقَ النارِ حتّى يَسِيل، ثم يَطْلُون به الجُدْران والأرض.

ويواصلُ ابنُ بطوطةَ وصفَه لِهذه الحمّاماتِ التي أَعجبَتْه، فيقول إنّ كلَّ حمّامٍ من هذه الحمّاماتِ مُقسّمٌ إلى خَلَواتٍ أو أماكنَ خاصّة. وفي داخلِ كلِّ خَلوةٍ حَوضٌ منَ الرُّخامِ فيه أُنبوبان، أحدُهما يَجرِي فيه الماءُ الحارُّ والآخرُ يجري فيه الماءُ البَارد. فيدخلُ الانسانُ الخَلوةَ مُنفرداً، لا يُشاركُه في ذلك أحد، فيجدُ في زاويةِ كلِّ خَلوةٍ حَوضاً آخر للاغتسال، فيه أيضاً أنبوبان للماءِ البارِدِ والساخن. وكلُّ مَن يدخلُ الحَمّامَ يتسلّمُ ثَلاثَ فُوَطَ، إحداها يلفُّها حولَ جَسَده حينَ

يَدخلُ الحَمّام، والأُخرى عندَ خروجِه، والثالثةُ يُجفِّفُ بها الماءَ عن جَسَدِهِ بعدَ أنْ يَنتَهِيَ من الاستحمام.

واهتمامُ ابنِ بطوطةَ بحمّاماتِ بَغداد، يكشِفُ عن الوجهِ الحَضاريّ لبغداد، الذي يَبهرُ زُوّارَها. رغمَ أنّ بغدادَ ساعةَ زيارةِ ابنِ بطوطة لها، كانت قد فَقَدتْ الكثيرَ مِن جَمالِها وفَخامتِها التي عَرَفتها أيامَ الدولةِ العبّاسية، يومَ أنْ كانت عاصمةَ الدولةِ الإسلاميةِ الواسعةِ المُتَّحِدة، التي تَمتدُّ من الشَّرقِ إلى الغرب.

يتجوّلُ ابنُ بطوطةَ في بَغداد، فيبدأُ بالجانبِ الغربيّ منها، وهو الذي بَدأتْ به بغدادُ كَمدينة، فيجدُه مُهْملاً امتدّت إليه يدُ الخَراب، ولم يَعدْ على صُورتِه القديمةِ مِن فَخامةٍ وعَظَمة. ومع هَذا، فهو مِن حيثُ الضَّخامة، ما زالَ يتكوّنُ مِن ثَلاثةَ عَشرَ حَيّاً، كلُّ حيٍّ مِنها أقربُ في اتّساعِه إلى مدينةٍ قائمةٍ بذاتِها. وفي كلِّ حيٍّ مِنْ هذه الأحياءِ معالمُ الحياةِ مِن مساجدَ ومَدارسَ وحمّاماتٍ وأسواقٍ. وأهمُّ ما في الجانبِ الغَربيّ مِن بغداد، جامعُ الخليفةِ العبّاسيّ الشهيرِ أبي جعفر المَنْصور. والمستشفَى الكبيرُ الذي كانَ قد أُقيمَ بِتلك الناحية، ثم أُهمِلَ أمرُه على مدَى السّنين، وخَرِبَ لتبقَى مِنه آثارُه فَقط.

ينتقلُ ابنُ بطوطةَ بعدَ ذلك إلى الجانبِ الشرقيّ مِن بغداد، فيجدُه عامراً مأهولاً، يَضجُّ بالحياةِ الاجتماعية والدينيةِ والعِلميةِ والتّجارية. ويزورُ سوقَ الثّلاثاء، وهي سوقٌ كبيرة، يتجمّع أصحابُ كلِّ حِرفةٍ أو سلعةٍ في جانبٍ منها بنظامٍ بَديع. وتقوم وسطَ هذه السّوقِ المدرسةُ النِّظامية، وفي آخرِها المدرسةُ المُستنصريّة، حيث يَجرِي

تدريسُ المذاهبِ الإسلاميةِ الأربعة.

ويقولُ ابنُ بطوطةَ في وصفِ هذه المدرسة «وبِها المذاهبُ الأربعة، لكلٍّ مذهبٍ إيوانٌ فيه المسجدُ وموضعُ التّدريس. وجلوسُ المدرّسِ في قُبّةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ على كرسيّ عليه البُسُط. ويقعدُ المدرّسُ وعليه السكينةُ والوَقَار، لابساً ثيابَ السّوادِ مُعْتَماً، وعَلى يمينِه ويسارِهِ مُعِيدان يُعيدان كُلّ ما يُمْليه... وداخلَ هذه المدرسةِ الحمّامُ للطلبةِ ودارُ الوضوء..».

وأثناءَ تفقّدِ ابنِ بطوطةَ لمعالِمِ بغدادَ القديمةِ والحَديثة، يصلُ إلى عِلمِهِ أن السلطانَ أبا سعيد، مَلكَ العِراق، سيخرجُ في رحلةٍ مِن رحلاتِه. فيقررُ أنْ يُشاركَ في هذه الرِحلة، ضِمنَ مَوكبِ السّلطان، حتّى يعرفَ النظامَ الذي يتبعُه في خروجِه منَ المدينة، وفي دخوله إليها، ساعياً إلى تسجيلِ ذلك في مُذكّراتِه. ويعلمُ أنّ موكبَ السلطانِ سيتجمّعُ في صَباحِ اليومِ التّالي، فيبقَى ليلتَه قَلِقاً، حتّى يتّجهَ في الوقتِ المناسبِ إلى قصرِ السلطان.

في مَوكبِ السُّلطان

في الصباحِ البَاكر، كانَ كلُّ أميرٍ منَ الأمراءِ قد وَصلَ إلى ساحةِ القصرِ بعساكرِه وطبولِه وأعلامِه، ووقفَ في المكان المخصّص له. وعندَما تكاملَ عددُ الأمراء، وانتظمت صفوفُ جندِهم، ظَهَر السلطانُ فارتفعَ صوتُ الأبواق، وتَصاعدت دقّاتُ الطّبول. ثم وَقَفَ السلطانُ

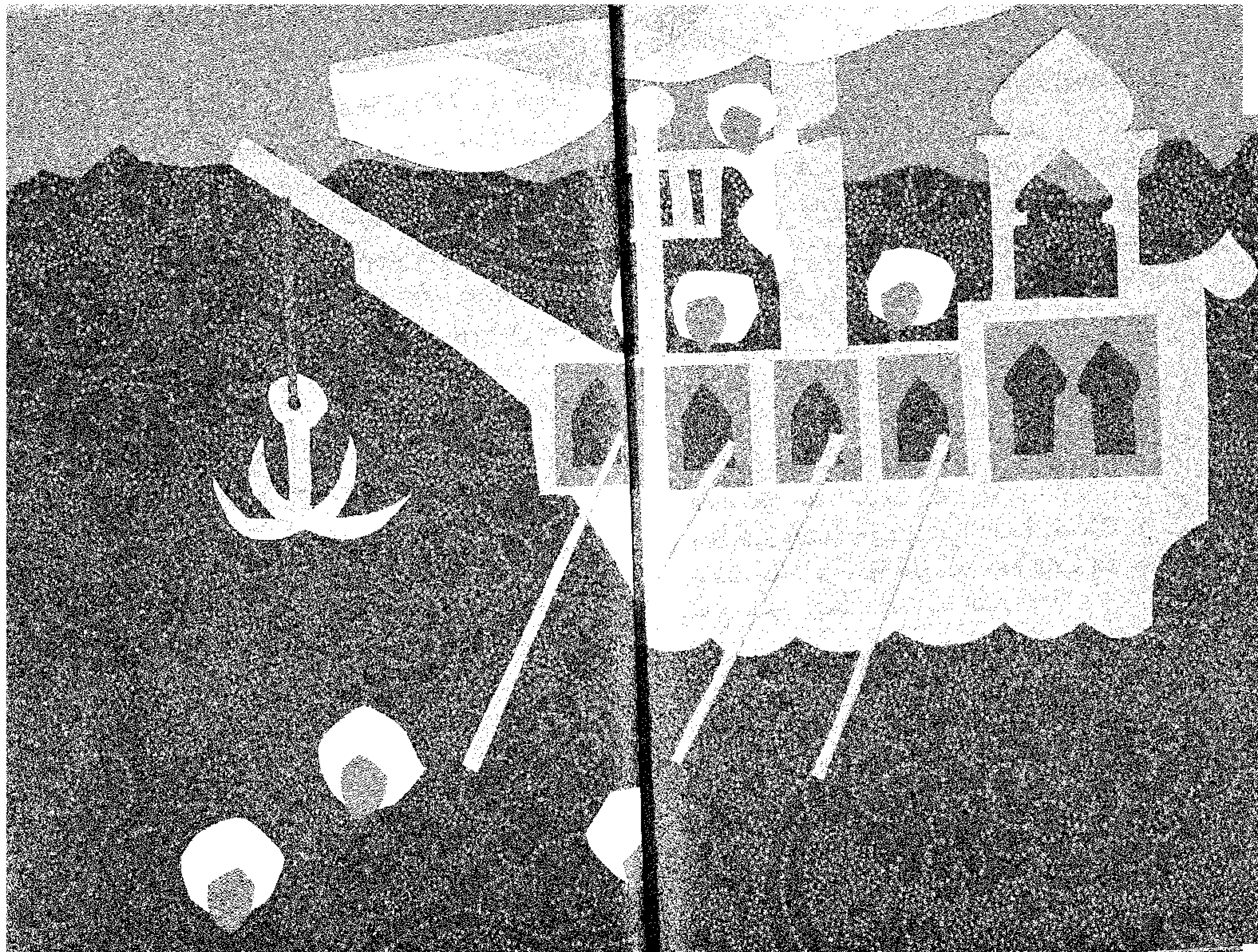
في مكانِه ، وتقدّمَ كلُّ أمير، فسلّمَ على السّلطان ، ثم عادَ إلى موقعِه ، ليتبعَه أميرٌ آخَر.

يبدأُ بَعد ذلك سَيرُ الموكِب ، فيسبقُ موقعَ السّلطانِ مِنَ الرَّكب ، الحجّابُ وكبارُ الجُند ، ثم يَلِيهم نَحوُ مائةِ رجلٍ يَرتدون أجملَ الثيابِ يسبقُهم عَشرةُ فُرسانٍ من حَمَلةِ الطّبول ، وخمسةٌ منَ الفرسانِ يَعزِفون على آلاتِ النّفخِ . عندَما يَنتهِي الفُرسانُ من عَزفِهم ، يبدأ عَشرةٌ من المائةِ الذين خَلفَهم في الغِناء. وعقِبَ انتهاءِ الغِناء ، يَعودُ الفرسانَ إلى العَزفِ ويتوقّفون ، ليبدأَ عَشرةٌ آخَرون في الغِناء... وهكذا ، حتّى ينتهِي المائةُ رجلٍ جميعاً من الغِناء ، عندَها فَقط يبدأُ الموكِبُ في التّحرّك .

تقدّمَ السلطانُ فوقَ فرسِه ، وعَلى جانِبيه نحوُ خَمسين من كِبارِ الأُمراء ، ومِن خلفِه أصحابُ الطّبولِ والأبواقِ والأَعلام ، ثم يَجيء مكانُ مماليكِ السّلطان ، وبعدَهم باقِي الأُمراء ، وَفْقاً لمكانةِ كلٍّ منهم . تَواصلت الرحلةُ على مَدَى عَشرةِ أيام . وكان الموكبُ يَبدأُ حَركتَه قبلَ طُلوعِ الفَجر ، ويَحُطُّ الرحالَ عندَ الضُّحَى .

يعلمُ ابنُ بطوطةَ أنَ الأميرَ علاءَ الدّين محمداً سينسلخُ عَن الركبِ متّجهاً إلى مدينةِ (تبريز) ، فيطمعُ في زيارتِها ، ويلتحقُ بموكبِ الأمير ، فتستمرُّ الرحلةُ إلى تبريزَ عَشَرةَ أيامٍ أُخرى . عندَما يَقتربون من تبريز ، يتوقّفُ الركبُ خارجَها ، عندَ زاويةٍ تُدعى زاويةَ المَلِك قازان ، تحِفُّ بها الجَداولُ الرائقةُ والأشجارُ المُورِقة .

في صباحِ اليومِ التالي ، يدخلُ ابنُ بطوطةَ مدينةَ تبريز من بابٍ يعرفُ باسمِ بابِ بَغداد ، فينبهرُ غايةَ الانبهارِ بما يَراهُ في هذه المدينةِ من



أسواقٍ وسِلَع، ويقول «وَصلنا إلى سوقٍ عظيمةٍ تُعرفُ بسوقِ قازان، أحسنِ سوقٍ رأيتها في بلادِ الدّنيا، كلٌّ صناعةٍ فيها على حِدَة لا تُخالطُها أخرى. واجْتَزتُ بسوقِ الجَوْهريّين، فحارَ بَصرِي ممّا رأيته مِن أنواعِ الجَواهر، وهي بأيدِي مَماليكَ حسانِ الصُّور، عَليهم الثيابُ الفَاخِرة، وأوساطُهم مَشدودةٌ بمناديلِ الحَرير، وهُم بَين أيدِي التجّارِ يَعْرِضُون الجَواهر...».

يَبيتُ ابنُ بطّوطةَ ليلتَه في تبريز، وفي صباحِ اليومِ التالي يصلُ الأمرُ مِن السلطانِ أبِي سعيد إلى الأميرِ عَلاءِ الدين بالتوجهِ إليه، فيعودُ ابنُ بطوطةَ مُلْتحقاً بموكبِ الأمير، حتّى يُدركَ المكانَ الذي يُقيمُ فيه السّلطان.

عندمَا يلتقي الأميرُ بالسّلطان، يقدّمُ إليه ابنُ بطوطة، وكانَ قد تعرَّف عليه خلالَ الرحلةِ إلى تبريز. فيرحبُ السلطانُ بابن بطّوطةَ ويتجاذبُ معه أطرافَ الحَديث، ويسألُه عن البلادِ التي زَارَها خلالَ رحلتِه الطّويلة. ثم يَهَبُه العديدَ من الهَدايا الثّمينة، ويسألُه في آخرِ اللقاءِ عن الأُمْنيَةِ التي يَودُّ تحقُّقَها.

يُطرقُ ابنُ بطوطةَ خَجلاً من كَرمِ السّلطان، ثم يقولُ له إنّه خَرجَ من بلدِهِ طَنْجةَ في أقصَى المغربِ العربي، قاصداً الحجّ إلى بيتِ الله. وقد أكرمَه الله بتحققِ حُلمِه هذا.. واليومَ، لا يَرى له مِن أمنيةٍ أعزَّ مِن أن يعودَ مرّةً ثانيةً إلى زيارةِ بيتِ الله، والقيامِ بفريضةِ الحجّ. فيأمرُ السلطانُ بأنْ يَنزلَ ابنُ بطوطة ضَيفاً على الركبِ العِراقيّ المسافرِ إلى بلادِ الحِجاز. ويكتبُ السلطانُ بذلك إلى أميرِ بَغداد، يبلغُه بتنفيذِ ذلك القَرار.

عُيونُ القَار

عادَ ابنُ بطوطةَ مع الركبِ إلى بغداد، وعندَما اطمأنَّ على تنفيذِ أمرِ السّلطان، عَرَف أنّ موعدَ تحرّكِ ركبِ الحجِّ العراقيّ بَقِيَ عليه أزيدُ مِن شَهرين، فراحَ يفكّرُ في أن يستثمرَ هذا الوقتَ في زيارةِ بلادٍ لم يَزُرْها مِن قَبل. وكانَ أن استقرَّ عَلى السفرِ إلى (المَوْصِل)، و(ديارِ بَكْر) في شَمالِ العِراق.

بدأَ ابنُ بطوطةَ رحلتَه القصيرةَ هَذه، فمرَّ بمدينةِ (سُرَّ مَن رَأى) والتي يطلقُ عليها أيضاً اسم (سامرا)، فَوجدَها قد خَرِبت تماماً ولم يبقَ مِنها غيرُ القليلِ منَ الآثارِ التي تكشفُ عن مَجدِها القَديم. ومنها يصلُ إلى مدينةِ (تَكْرِيت)، ويقولُ عَنها «وهي مدينةٌ كبيرةٌ فسيحةُ الأرجاء، مَليحةُ الأسواق، كثيرةُ المَساجد، وأهلُها مَعروفون بحُسنِ الأخلاق..». وبعدَها يصلُ إلى موقعٍ يُعرفُ باسمِ (القَيَّارة) بالقربِ من نَهرِ دِجْلة، وهذا المكانُ أرضُه سَوداء، فِيها الينابيعُ التي يَندفعُ مِنها خامُ زيتِ البترول، أو ما يُسمّيه ابنُ بطوطةَ بالقار. ويقولُ إن حولَ كلِّ عينٍ من العُيون، بِركةً كبيرةً سوداءَ يتكوّنُ القارُ على جوانِبها، وهم يَضَعونه في أحواضٍ كبيرة، ثم يَستخلصونَه لِيَنْتفعوا به.

عندَما يصلُ ابنُ بطوطةَ إلى المَوْصل، ينشغلُ بمشاهدةِ قَلعتِها المعروفةِ بالحَدْباء، والتي اشتُهرت بمناعتِها، وبسورِها المُحْكمِ وبروجِها العَديدة، المؤدّيةِ إلى بيتِ السّلطان. ويجدُ ابنُ بطوطة بينَ القلعةِ والمَدينة، شارعاً يمتدّ من أعلَى البلدِ إلى أسفلِها. وقد وصفَ

ابنُ بطوطةَ المدينةَ بأنّها مدينةٌ عَتيقة ، كثيرةُ الخصْب ، فِيها المساجدُ والحمّامات والفنادقُ والأسواقُ والمُسْتشفيات .

وبالقربِ من المَوْصل ، يزورُ الجهةَ المعروفةَ باسمِ (تلّ يُونس) ، وهي عَلى بُعدِ نَحوِ ميلين ، من العينِ المَعروفةِ باسمِ عينِ يونس ، ويقال إنّ يونسَ عليه السلامُ أمرَ قَومَه بالتطهُّر فيها ، ثم صَعِدَ بهم إلى التلّ ، وتوجّهَ بالدّعاءِ إلى الله ، فَدَعَوْا معه ، فكشفَ اللهُ عَنهم العَذَاب . وزارَ بالقربِ من هذا الموقعِ آثارَ مدينةِ (نِينَوَى) القَديمة .

وفوقَ تلّ يونس ، يوجدُ بناءٌ عَظيمٌ فيه بيوتٌ كَثيرة ، وَسَطَها بيتٌ تُسدلُ عليه سَتائرُ الحَرير ، وله بابٌ مُرصّعٌ بالمُجَوهرات ، يقالُ إنّه الموقعُ الذي وَقَفَ فيه سيدُنا يُونس . وأهلُ المَوصِلِ يَخرُجون في كلّ ليلةِ جمعةٍ إلى ذلك المكانِ يَتعبّدون فيه .

وفي طريقِ العَودةِ إلى بَغداد ، مرَّ ابنُ بطوطة بعدّةِ مُدنٍ جَديدة ، منها مَدينةُ (نِصّيبين) الشّهيرةُ بصناعةِ ماءِ الوردِ الذي لا نَظيرَ له . ثم مدينةُ (سنجار) المبنيةُ على سَفْحِ الجَبل ، والتي تُشبهُ دمشقَ في كثرةِ انهارِها وبساتينِها . ومدينةُ (ماردين) المشهورةُ بنسيجِها الصوفيِّ الذي يُصنَعُ من الزَّغبِ الذي تَحت شعرِ المَاعز . وكان مَلكُها في ذلك الوقتِ هو الملكَ الصالحَ ابنَ الملكِ المَنصور الذي اشتهرَ بكرمِه ، ويقالُ إنّ شاعراً كَفيفاً قَصدَه مادِحاً ، فأَعطاه عشرين ألفَ دِرهم . وكما يشتهرُ ملكُ ماردين بالكَرم ، يشتهرُ قاضِيها بالزُّهدِ والوَرَع . ويقولُ ابنُ بطوطة عَنه « ... وكثيراً ما يجلسُ للأَحكامِ بصَحْنِ مسجدِ خارجَ المَدرسة ، كانَ يتعبّدُ فيه ، فإذا رآه مَن لا يعرفُه ظنّه بعضَ خُدّامِ

القاضِي وأعوانِه...»..

ينقضِي شَهران منذُ بدايةِ الرِحلة، فيسرعُ ابنُ بطوطة عائداً إلى بَغداد، حيث يجدُ موكبَ الحجِّ على وَشْكِ الرحيل. ويكتشفُ أنّ أميرَ الركبِ ذلك العام، هو البَهلوان محمد الحويج الذِي كان قد سَافرَ في ركبِه من الحجازِ إلى العِراق، فتتوطدُ بَينهما الصَّداقة.

عندَ خروجِ الركبِ من الكوفة، مرضَ ابنُ بطوطة، فاهتمَّ به أميرُ الركبِ البَهلوان خيرَ اهتمام، فكان يتفقّدُ حالَه بينَ الحينِ والآخر، ويُوقفُ الركبَ عندَما يَشعُرُ أنّ ابنَ بَطّوطة يحتاجُ إلى الرّاحة.. وظلّ يُراعيه حتّى وصلَ الركبُ إلى مكّةَ المُكرّمة.

اشتعالُ الفِتْنة...

مع كلِّ ما عانَاه ابنُ بطوطةَ مِن مَرضٍ وإعياءٍ خلالَ رحلتِه إلى الأراضِي المقدّسة، فإنّه ما كادَ يَصلُ إلى مكّةَ المكرّمة، حتّى تُنْسيه فرحتُه بهذا كُلَّ ما يشعُرُ بِه من آلام، فيطوفُ بالبيتِ الحَرامِ طَوافَ القُدوم، لكنّ ضعفَه من أثرِ المَرضِ يَغلبُه، فيُضطرُّ إلى أن يؤديَ بعضَ المناسكِ قاعداً، ويسعَى بينَ الصفَا والمَروةِ راكباً على فَرسِ الأميرِ البَهْلوان. وبعدَ وقفةِ عَرَفات، رَكنَ ابنُ بطوطةَ إلى الراحةِ حتّى شُفيَ ممّا به.

في ذلك العام، أقامَ ابنُ بطوطةَ في المدرسةِ المُظَفّرية، وأثناءَ أدائِه لشعائرِ الحجّ، التقَى بوفودِ الحجاجِ القادمةِ من جميعِ أنحاءِ

العالمِ الإسلاميّ، وعَرفَ منهم أخبارَ البلادِ التي قَدِموا منها. كَما التقَى بالأميرِ سيفِ الدين يلملك وفي صُحبتِه جماعةٌ مِن أهلِ بلدةِ طَنجة.. أخذَ يستفسرُ مِنهم عن أحوالِ أهلِه، وأخبارِ أصحابه، وقد بلغَ به الحنينُ إلى مسقطِ رأسِه مَداه!. وشَعَرَ برغبةٍ شديدةٍ في أنْ يَمضيَ معهم بعدَ انتهاءِ شعائرِ الحج، عائداً إلى وطنِه، مُلاقياً أهلَه.

لكنْ ما أن حانَ موعدُ تحرّكِهم، حتّى غَلَبت عليه رَغبتُه في رؤيةِ المزيدِ منَ الأقطار، فتركَهم يَمْضُون، وبقيَ حيث يُقيمُ بالمدرسةِ المظفّريةِ ما يقربُ من العام. وفي أثناءِ إقامتِه، وَقعت الفتنةُ بين أميرِ مكّةَ المسمّى عطيفة، وآيدمور أمير جندار الناصري، المُوفدِ من قِبَلِ الملكِ النّاصر، الذي كان له حُكم مُصرَ والشامِ في ذلك الوَقت.

وذاتَ يَوم، رأى ابنُ بطوطةَ الأميرَ آيدمور يخرجُ بصُحبةِ ابنِه من حضرةِ أميرِ مَكّة، يسرعُ بجوادِه إلى حيثُ يتجمّعُ الجندُ الذين أتى بهم مِن مصر. ثم رأى الأميرَ مُبارك ابنَ الأميرِ عطيفة يخرجُ خلفَه مُسْرعاً ومعه عَبيدُه. وعندما بلغَ آيدمور، انقضَّ عليه، وصَرعَه هو وابنَه.

بعدَها شاعَت الفتنةُ بالحَرَم، ورَمى الجندُ الأتراكُ على امرأةً من أهلِ مكّةَ فَقتلوها، فثارَ أهلُ مكّة، وقرَرَ أميرُ الأتراكِ أن يَهجمَ على أميرِ مكّةَ مستعيناً بجندِه. وشَعرَ الجميعُ أنّ مذبحةً توشكُ أن تَقع، وأنَّ الفتنةَ ستحِلُّ بالأرضِ المُباركة. فخرجَ قاضِي مكّةَ ومعه الأئمةُ والمُجاورون، وقد وَضَعوا المصاحفَ فوقَ رُؤوسِهم، يَسْعَوْن إلى الصلحِ بينَ المُتخاصِمين. وأحسَّ الحجّاجُ القادِمين مِن مصرَ بخطورةِ الوضْع، فَدخلوا مكّةَ وأخذوا ما لَهم بها، وسافَرُوا إلى بلادِهم.

وراحَ ابنُ بطوطة يسأل الناسَ مِن حولِه عن سرِّ هذه الفتنةِ، فقالوا له أن تجّاراً من أهلِ اليمنِ سُرِقَ بعضُ مَتاعِهم ومالِهم، فَشكَوْا ذلك إلى الأميرِ آيدمور، الذي أسرعَ إلى مُبارك ابنِ الأمير عطيفة وطالَبه بالقبضِ على السّارقين. لم يسترحْ الأميرُ مبارك لتدخّلِ آيدمور في هذا الأمر، وقال له «إنّنا لا نَعرفُ الذين سرَقوا، فكيفَ نأتي بهم؟! ثم إنّ أهلَ اليمنِ تحت حُكمِنا، وإذا كانت لَديهم شكوَى فَعليهم أنْ يَتقدّموا بها إلينا.. أمّا إذا وَقعت السرقةُ على أحدٍ من أهلِ مصرَ أو الشام، فمِنْ حقِّك أنْ تُطالبَني بالبحثِ عن اللّصوص..».

اغتاظَ آيدمور من كَلماتِ مُبارَك، فَشتمَه وضَربَه على صَدرِه، فسقطَ على الأرض، ووقَعت عمامتُه من فوقِ رأسِه. وعندَما انصرفَ آيدمور، غضبَ عَبيدُ مُبارك وطَلبوا مِنه أن يتوجّهَ بِهم للانتقامِ مِن آيدمور... فسارَ بِهم حتّى قَتلوا آيدمور وابنَه، وحَدثت الفِتْنة.


غيرَ أنّ الأمرَ لم يقفْ عندَ ذلك الحدّ. فَما أن بَلغت هذه الأخبارُ الملكَ الناصرَ في مِصر، حتّى اغْتاظ، وجهّزَ بعضَ عساكِره وأمَرهم بالتوجّهِ إلى مكةَ ليَنتقموا مما حدَث لأميرِه ومُمثلِه. بلغَ الأميرَ عطيفة وابنَه خبرُ هذه الحَملة، فأسرعوا بالفِرار. وكان لعطيفة شَقيقٌ يُدعى رميثة، فَما أنْ وصلَ عَسكرُ مصرَ إلى مكّةِ، حتّى بَعث بأحدِ أولادِه يطلبُ من قائدِهم الأمان. فأُعطيَ الأمان، ودَخلَ رميثة على قائدِ الجندِ وهو يحملُ كَفَنه بين يَديه، واستطاعَ بالتفاهمِ أنْ يُنْهيَ الخلافَ بالحُسنى، فسلّمَ إليه القائد أمرَ مَكّة، وعادَ بجندِهِ إلى مِصر.

عاصفةٌ على بَحرِ القُلْزُم

بعدَ الاقامةِ في مَكّة، يقررُ ابنُ بَطوطةَ أنْ يسافرَ إلى اليمنِ التي لم يكن قد زارَها مِن قبل. ويعرفُ أنّ الرحلةَ إلى اليمنِ تبدأُ مِن (جدّة) بحراً إلى الجَنوب. فيسافرُ إلى جُدّة، التي تُطلُّ على بَحرِ القُلْزم (البحر الأحمر حالياً). وفي جُدّة عانَى ابنُ بطوطةَ من قلّةِ الماء، فقد كان الماءُ يُجلبُ إليها من مَسيرةِ يَوم، وكانت تلك السنةُ قليلةَ الأمطار، فشاهدَ الحجّاجَ يَدورون على أصحابِ البيوتِ يَسألونهم قليلاً منَ الماء..

في جُدّةَ يتعرّف ابنُ بطوطة على الشريفِ منصورِ بنِ أبِي نمي الذي كان ينتوِي السفرَ إلى اليَمن، فيقررُ السفرَ معه. وعندَما يتّجهان إلى الشاطئِ لركوبِ المركبِ التي يُسمّونها «الجلبة»، يَعرضُ الشريفُ منصورُ على ابنِ بطوطة أن يركبَ مَعه في جلبته، لكنّ ابنَ بطوطةَ يعتذرُ عن ذلك، بعدَ أنْ رأى جلبة الشريفِ تنقلُ إليها الجِمَال. لقد خافَ أن يبقَى مع الجِمَال في مركبٍ واحد، فتثورَ وسَطَ الرِّحلة، وتقلبَ المَرْكَب، وكانت هذه هي المرّةَ الأولى التي يَركبُ فيها ابنُ بطوطةَ البَحر.

بَدأت رحلةُ المراكبِ مِن جُدّة، وكانَ البحرُ هادِئاً، والرياحُ لَطيفة. وبقي الأمرُ على ذلك الحالِ مدّةَ يَومين، فَتبدّدت مخاوفُ ابن بطوطة، وبَدأ يستعذبُ السفرَ بَحراً، ويلومُ نفسَه على ما أبداه من خوفٍ في بدايةِ الأمر. وفَجْأة!.. تَغيّرت الأحوال، وتَبدّلَ اتجاهُ



الرِيح ، فتوقّفَتْ حَرَكةُ المَراكب ، ولمْ تَستطعْ التقدّمَ ناحيةَ اليَمن .

ثم هاجَ البَحر، وارتفعت الأمواج.. كانَت تصعَدُ في الهَواءِ عالِية ، ثم تنقضُّ على المراكبِ فَتملأُها بالماء. اضطربت أحوالُ مَن كانوا داخلَ المَراكب ، وتعالَت صَيحاتُهم. وكانَ ربابنةُ المراكبِ يَبذُلون غايةَ الجهدِ حتّى لا تَنقلِب ، وتَغرقَ في قاعِ البحر. وطالَ بهم ما عانُوه من أَهوال ، وخُيِّلَ إلى الجَميعِ أنْ لا نَجاةَ لَهم ممّا هُم فيه . . .

أخيراً... وبعدَ أنْ سادَ اليأسُ مِن الوصولِ إلى اليابِسة ، حطَّت المراكبُ عندَ الشاطئِ الآخرِ من بحرِ القُلْزم ، عندَ مدينةٍ تُدعى (دوائر) .

قَفَزوا جميعاً منَ المراكبِ إلى الأرض ، وهم لا يُصدِّقون نَجاتَهم ، وقد ابتلّت ملابسُهم مِن مياهِ الأمواج ، وملأت أفواهَهم ملوحةُ البَحر، وارتَموْا على الأرض ، وقد فَقَدوا توازنَهم من فَرطِ تقلّبِ المراكِب بِهم وسطَ العاصفة. وعندَما اشتدّت حرارةُ الشّمس ، لَسَعتهم أشعّتُها من أثرِ الأملاحِ التي تَرسَّبت على وجوهِهم وأجسادِهم ، فَلجأوا إلى ما يشبهُ الخَيْمة ، مظلّةٍ مُسوّرةٍ من البُوصِ والقَشْ ، يتّخذُها ابناءُ هذه المدينةِ مَسْجِداً لهم .

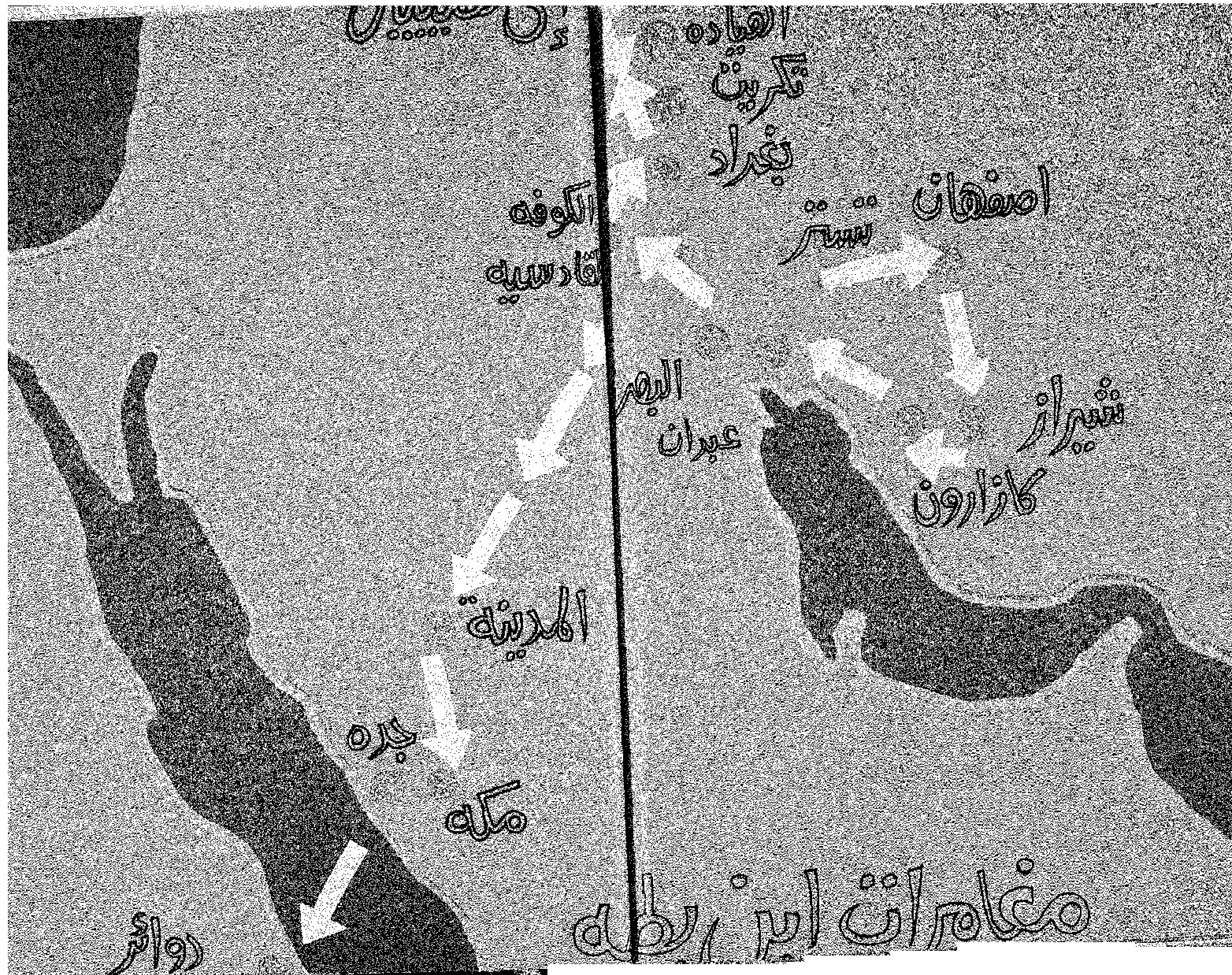
عندَما هَدَأت نفوسُهم ، شَعَروا بالعَطشِ الشّديد ، فتحرَّكوا يَبحثون عن مكانٍ فيه ماء ، فصادَفهم بعضُ أهلِ هذه المدينة ، وعادُوا بِهم إلى حيث كانوا في المسجدِ البَسيط ، وأشارُوا إلى أجزاءٍ منْ بيضِ النّعَامِ مَرصوصةٍ إلى جِوارِ جِدارِ البُوص ، وكانت مملوءةً بالماءِ العَذْب .

فَشربَ منها الجَميع ، وَرَوَوْا عَطَشَهم .

كان مِن الطبيعيّ بعدَ هذا أن يشعرَ الجميعُ بالجُوع ، فَهم لم يَأكُلوا شيئاً طَوالَ معاناتِهم مِن العاصفة. نَقَلُوا رغبتَهم هذه إلى أهلِ الميناءِ الصّغير ، فأسرعوا يَجيئون لَهم بالطّعام. ورغمَ الإجْهادِ الذي كان يَشعرُ به ابن بطوطة ، تحاملَ على نفسِه ، ولحقَ بهم ، يريدُ أنْ يَرى من أين يأتُون بطَعامِهم. وجدَهم يَتّجهون إلى الشّاطئ ، ثم يخلعُ أحدُهم رِداءَه ، ويمسكُ كلٌّ واحدٍ بطرفٍ منه ، ويُغَطِّسونه في الماء ، ثم يَجْذِبونه إلى الشّاطئْ ، وقد امتلأ سَمكاً كَبيراً من نَوعِ البوري.

اجتمعَ الكلُّ حولَ أهلِ المَدينة ، يُتابِعون عَملَهم وهُم يَنْهمكون في اشعالِ النّار ، ووضعِ السَمك عليها .. وعندَما نَضَجَ السّمك ، جَرَى تقديمُه إلى الجياع ، فأكلُوا منه بَنَهَم ، حتّى شَبِعوا. وبعدَ أن استراحُوا جَميعاً ، جلسَ ابنُ بطوطةَ مع بعضِ أهلِ المَدينة ، يَحكي لهم قصّةَ العاصفةِ التي اعْترضَتْ طريقَهم أثناءَ السفرِ إلى اليَمن ، ويسألُهم عن سبيلٍ آمِنٍ للوصولِ إلى اليَمنِ ، فقالُوا له : «انتظرْ حتّى يصلَ البُجاة .. » .

وتذكّرَ ابنُ بطوطةَ ابناءَ قبائلِ البُجَاة ، الذين لَقِيَهم في طريقِ عيذاب ، عندَ أولِ رِحلةٍ للحجّ. وما أنْ مرَّ بعضَ الوَقت ، حتّى رَآهم يُقْبلون ، فعرفَهم بلونِهم الأسود ، وبملابسِهم الصَّفراء ، وتذكّرَهم بالعِصاباتِ الرقيقةِ التي يَشُدونها على رُؤوسِهم.



تكريت
بغداد
اصفهان
تستر
الكوفه
القادسيه
البصره
عبدان
شيراز
كازرون
المدينه
جده
مكه
مغامرات ابن بطوطه

إلى البحرِ مرّةً أخرى..

أسرعَ البجاةُ بَجيئون بجمالِهم التي يُسمُّونها «الصُّهب»، وهي جمالٌ سريعةٌ يُسْرِجونها كالْجِياد. استأجرَ المُسافرون ما يَكْفيهم من هذه الجِمال، وصاحَبَهم بعضُ البُجاةِ لارشادِهم إلى طريقِ (سواكن). سارَ الركبُ في صَحراءَ مُمتدّة، تسعَى فِيها الغِزْلانُ الأليفة، وقد عَرَفَ ابنُ بطوطةَ مِن أحدِ البُجاةِ أَنّهم لا يأكلونها. وبعدَ عدّةِ أيامٍ وصلت القافلةُ إلى سواكن.

وسواكنُ التي يتحدَّثُ عنها ابنُ بطوطة، جزيرةٌ على بُعْدِ ستّةِ أميالٍ من الشاطئ، لا ماءَ بها ولا زَرعَ ولا شَجَر، يُجلبُ إليها الماءُ في قَوارِب، بالإضافةِ إلى اعتمادِها على مياهِ الأَمطار التي تتجمّعُ في صَهاريجَ خاصة. وكان سُلطانُ سَواكن الشريفَ زَيدَ، شقيقَ عُطيفة ورميثة أميري مكّة. وقد ساعدَهم على تَجهيزِ المراكبِ التي سيُبْحرون بها مرّة ثانيةً إلى اليمن.

عاودت ابنَ بطوطة مخاوفُه من ركوبِ البَحر، وراحَ يَتحدّثُ إلى الربابنةِ والبَحّارة، يستفسرُ مِنهم عن حالةِ الجوّ، واحتمالاتِ العواصِف. فقالُوا له إنّ الرياحَ هادِئة، ولا خوفَ من عواصفَ قادِمة، لكنّ الخوفَ كلَّ الخَوفِ مِمّا سَمّاه الرُّبّان «نَباتَ البَحر». تعجّبَ لقولِهم هذا، وكيف يسببُ لَهم نَباتُ البحرِ المَخاطر. لكنّ عَجبَه تبدّدَ عندَما علمَ أنهم يَقصِدون به الشُّعَبِ المرجانيةِ التي تَرتفعُ كالأشجار من قَاعِ البَحر، فإذا احتك بها مَركبٌ من المراكب، شَطَرَتها إلى شَطْرين!..

فزِعَ ابنُ بطوطةَ من هذا الخَطَرِ الجديد، وفكّرَ في البحثِ عن وسيلةٍ أخرى يسافرُ بها إلى اليَمن، دونَ أن يعرّضَ نفسَه لأخطارِ هذا البحرِ التي لا تَنتهِي، لكنّ الربانَ طَمْأَنه، وأفهمَه أنّهم خُبراءُ في مسالِكِ هذا البَحر، هذا بالإضافةِ إلى أنّهم لا يُبحِرون إلاَّ نَهاراً... وقبلَ أن تَغيبَ الشّمس، يَلجأون إلى الشَّاطئ، حتّى تطلّعَ شمسُ اليومِ التالي.

وهكذا كان. بدأَ المركبُ رحلتَه، وقد وقفَ الربّانُ عندَ مقدّمةِ المركَب، يُركّزُ نظرَه على البحرِ أمامَ المَركَب، ويُلقي بتعليماتِه بصوتٍ مرتفع، إلى الرجلِ الذي يُمسك بالدَّفّةِ في مُؤخّرةِ المَركَب... يطلبُ منه الانحرافَ يَميناً، ثم يطلبُ منه الانحرافَ يَساراً، وفي كلِّ مرّةٍ يميلُ المركبُ على جانبٍ من جانبيه، وتتعالَى صيحاتُ الركّاب، والربّانُ غيرُ مُلتفتٍ اليهم، يرفعَ صوتَه حتَّى يَعلُو على صياحِهم، يبلِّغ الرجلَ الجالسَ عندَ الدفّةِ تَعليماتِه لحظةً بِلَحظة.

وما أن تبدأُ الشمسُ في الميلِ ناحيةَ الأُفق، حتّى يكونَ المركبُ قد رَسَا قريباً منَ الشّاطئ، انتظاراً لشمسِ اليومِ التالِي، ولم يكنْ بامكانِ أحدٍ أنْ يهبِط منَ المركبِ إلى الأرض، فقد كانَ وقوفُهم أمامَ شواطئَ مَهجورة، لا يعلمُ أحدٌ ما قَد تُخْفيه من مَخاطر.

بعدَ أنْ مَرّت عليهم ستّةُ أَيامٍ على ذلك الحال، وصل المركَبُ إلى مدينةٍ تسمّى (حلي)، كانت قَديماً مقراً لسلاطينِ اليَمن. وحلي مدينةٌ كَبيرة، بِها المباني العَديدة، ويسكنُها من العربِ طائفتان هُما بنو حَرام وبنو كِنَانة.

عندَ وصولِ ابنِ بطوطة إلى هذه المَدينة، كانَ أولَ ما سألَ عنه

جامعُ المَدينة ، حتّى يقدّمَ فيه صَلواتِ الشكرِ إلى الله الذي نَجّاه منَ الأخطارِ العَديدةِ التي تَعرّضَ لها. قادُوه إلى جامعِ المدينة ، فوجدَ به جماعةً من الفُقراءِ المُنْقطعين للعِبَادة. وبعدَ أنْ انتهَى من صَلواتِه ، نَشأ التعارفُ بينَه وبين الشيخِ الزّاهد قبوله الهِندي ، وكان مِن كبارِ الصَّالحين، يَرتـدِي أبسطَ الثيابِ وأخشنَها ، ولَه خَلوةٌ متّصلةٌ بالمَسْجد ، فَرَشَها بالرَّمل ، لا حصيرَ بِها ولا بِسَاط .

يقولُ ابنُ بطوطةَ في وصفِه لتلك الخَلْوة «لم أرَ بِها حين لقائِي له شيئاً إلاّ ابريقَ الوَضُوء ، وسُفرةً من خُوصِ النخيلِ فِيها كِسَرُ شَعيرٍ يابسة ، وصحيفةٌ فيها مِلحٌ وسَعْتَر ، فإذا جاءَه أحدٌ قدّمَ بين يَدَيه ذلك ، من غيرِ تكلّفِ شَيْئٍ ...» .

وقد تأثرَ ابنُ بطوطةَ بزهدِ ذلك الشيخِ وصَحْبِه ، وانقطاعِهم الدائمِ للعِبادة ، فَرَاوَدَتْه نفسُه أن يقيمَ مَعهم ، يشاركُهم حياةَ الزهدِ هذه ، لكنْ ما يلبثُ رفاقُ سَفرِه أنْ يَصِلُوا ، ويَطلُبوا منه الاسراع إلى المركَب ، فإنه سيَتحرّكُ بعدَ قليل ، والربّانُ حَريصٌ على الإبحارِ عندَ أولِ شُعاعِ شمس ، فالرحلةُ القادمةُ أكثرُ خُطورةً مِن سابقتِها . والشِعَبُ المَرجانيةُ التي تَعترضُها ، حادّةٌ كالسَّيف ، قادرةٌ على الغَوصِ في جسمِ المركَبِ وتحطيمِه في لَحَظات .

فيقول ابنُ بطوطةَ في مُذكّراتِه «لقد كنت أَردت الإقامَة مَعهم باقِي عُمرِي ، فلمْ أوفّقْ إلى ذلك ... واللهُ تَعالَى يَتدارَكُنا بلطفِه وتوفيقِه ...» .

وفي الصباحِ المبكّر، بَدأت المراكِبُ رِحلتَها الخَطِيرَة ...



مغامرات
ابن بطوطة

٥

الصحراء المهجورة

اعداد : راجي عنايت

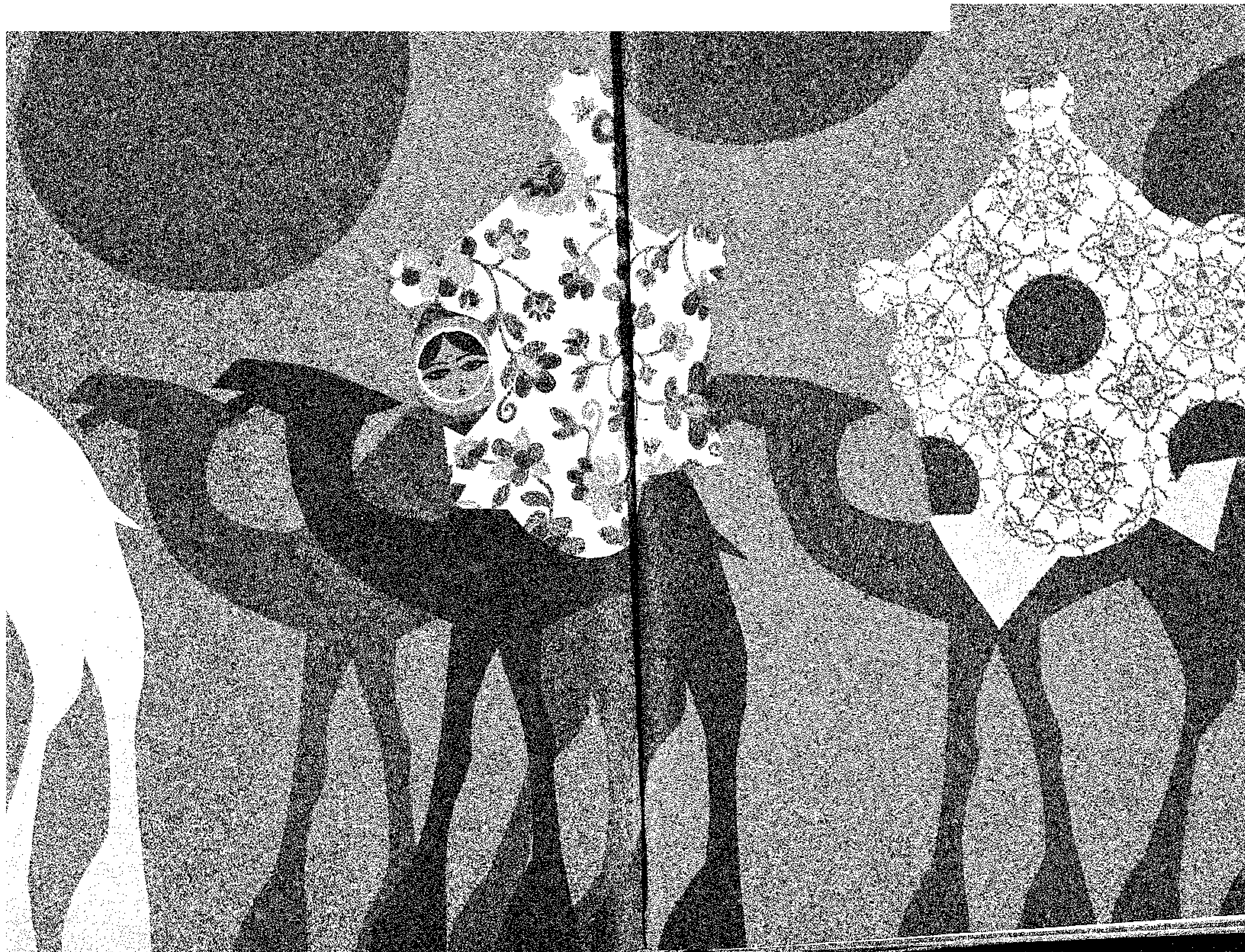
رسوم : بهجت عثمان



في موسم النخيل

في الصَّباحِ المُبكِّرِ، بَدأت المَراكبُ رِحلَتَها مُتَّجهةً مِن الشَّاطىءِ الْغربيِّ لبحرِ القُلْزُم إلى الشّاطئِ الشّرقيّ، قاصدةً اليَمَن.. وَعلى عَكْس مَا توقَّعَ الجَميع، كانت الرِحلةُ هيِّنَة، لمْ تُصادِفْهم فيها الْمخاطِرُ الّتي لاَقَوْها عِندما أبْحرُوا مِن جُدَّة. سألَ ابنُ بَطُّوطةَ رُبّانَ المَرْكَبِ عَن أولِ بَلدٍ يقْصِدُونَها في اليَمَن. قالَ الرُّبّان «إنّها مَدينةُ زُبَيد.. بينَها وبينَ صَنْعاءَ أَربعون فَرْسَخاً.. وليس باليمنِ بعدَ صَنْعاءَ أكبرُ مِنْها ولا أغنَى مِنْ أهلِها.. وَاسعةُ الْبَساتِين، كَثيرةُ المِياهِ والفَواكهِ... ألمْ تَسمعْ مِنْ قَبلُ عَنْ وادِي الخَصِيب؟». أجابَ ابنُ بطّوطة «أليس ذلكَ الذي يُذكرُ في بعضِ الآثارِ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم قال لِمَعَاذَ في وصيَّتِه: يا مَعَاذ، إذا جئتَ وادِي الخَصيبِ فَهَرْولْ..»، ابتسَمَ الرُّبّانُ وهو يَقول «بِالضَّبْط!. زُبيدُ هِي وادِي الخصيبِ الّذي حَكَيْت عنه».

عِندَما هَبَطُوا إلى المدينة، وَجدوها خاليةً منَ النّاس، وكأنّها مَدينةٌ مَهْجورة، فأثارَ هذا دَهشةَ ابْنِ بطُّوطة. غيرَ أَنَّ دَهشتَه تَبدَّدت



عندَما قال له أحدُ رِفاقِ سَفرِه «هذه هيَ عادةُ أهلِ زُبيد في كلِّ يومِ سَبْتٍ منْ موسِمِ النَّخيل ! يَخرُجون إلى حَدَائقِ النَّخيل ، فلاَ يَبقَى مِن أهلِ المَدينةِ أَحَد .. وَلاَ مِنَ الغُرَباء ، هَيّا بنَا نُسرعْ إلى حَداثقِ النّخيل حتّى نَشْهدَ احْتفالَهم بهذه المُنَاسَبَة .. » .

بِالقُرب مِن حدائقِ النّخيل وَصَلت إلى سَمْعِ ابنِ بَطّوطة أصواتُ مُوسيقَى وَغِناء ، فأسرعَ يَلْحقُ بالرّكْبِ قبلَ أنْ يَصلَ إلى حدائقِ النَّخيل . شاهدَ أهلَ الطربِ يَتقدّمون المَوْكب ، ومِن خلفِهم التُجّارُ والبَاعةُ الّذين يَحْمِلونَ بَضائعَهم منَ الفَواكهِ والحَلْوَى ، وفي مُؤخّرةِ الرّكبِ رَأى قافلةً منَ الجِمَال ، فوقَها المَحاملُ التي تَجلسُ فيها النّسَاء . وعندَما يُطلُّ بَعْضُهنَّ برؤُوسِهِنَّ من بينِ ستائرِ المَحْمَل ، ينبهرُ ابنُ بطّوطة بِجَمالِهِنّ .

عندَما يَنْتهي احتفالُ أهلِ المَدينةِ بموسمِ جَمْعِ التَّمْر ، يعودُ ابنُ بَطُّوطةَ مع الركبِ إلى المَدينة ، ويتجوّلُ في أَنحائِها ، فَيجدُها واسعةَ الْبساتينِ كثيرةَ المِيَاه ، قَريبةً مِنَ البَحْر ، وانْ كانت لا تُطلُّ عليه ، فِيها الْمباني الكثيرةُ الجَميلة . ويبقَى ابنُ بَطّوطة في مدينةِ زُبيدَ ساعياً إلى التّعرُّفِ على عُلمائِها وَفُقهائِها . فَيَعْقِدُ الصّدَاقاتِ مع العديدِ مِنهم ، ويصفُهم قائلاً «أهلُ صَلاحٍ ودينٍ وأَمانةٍ ومَكارمَ وَحُسْنِ خُلُق .. » .

يَلْفِتُ نَظَرَ ابنِ بَطّوطة في زُبيد عاداتُ نِسائِها ، فيقول إنّهنّ رَغمَ ما يَتميَّزْنَ به من جَمالٍ فائقٍ وأخلاقٍ حَسَنة ، فهنّ لا يَمْتَنِعْن عن الزواجِ مِنَ الغُرَباءِ الوَافدِين على المَدينة ، كما تَفعلُ النِساءُ في باقِي المدنِ العَربية . وإذا أرادَ الغَريبُ السَفرَ إلى بلدِه الأصليّ ، خَرَجت مَعه

زَوجتُه إلى حدودِ زُبيدَ تُودِعُه، لكنّها تأبَى السَّفَرَ مَعَه ومغادرةَ مَدينتِها، حتّى لو كانت قدْ أنْجبت منه أَبْنَاء. وهيَ مع هذا لا تُطالبُ الزَّوجَ بمالٍ تُنفقُ مِنه على نَفسِها وَعلى أولادِها منه، حتّى يعودَ مرّةً ثانيةً إلى زُبَيد، بل تعتمدُ على عَملِها في تَدبيرِ النَفَقات. وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة عن نساءِ زُبيدَ «.. واذا كان مقيماً فهيَ تَقْنعُ منه بقليلِ النفقةِ والْكُسْوة، لكنّهن لا يَخْرُجْن عن بَلدِهِن أبداً، ولو أُعْطِيت إحداهُنّ ما عسى أنْ تُعطاهُ على أنْ تَخرجَ مِن بلدِها، لَمْ تَفْعل».

بعد أنْ تَنتهيَ زِيارةُ ابنِ بطّوطة لمدينةِ زُبَيد، يرحلُ إلى مَدينةِ (تَعزّ)، وهيَ مقرُّ سُلطانِ اليَمَن في ذلك الحِين. ويقولُ ابنُ بطّوطة إنّها أَحسنُ مُدنِ اليَمَنِ وأَعظمُها «.. أهلُها ذَوُو تَجبّرٍ وتَكبُّرٍ وفَظَاظة، وكذلك الغالبُ على البلادِ التي يَسكنُها المُلوك». وتنقسمُ تَعزّ في ذلك الوقتِ إلى ثَلاثةِ أحْياء، حيّ يَسكنُه السّلطانُ ومَماليكُه وحاشيتُه ورجالُ دولتِه، والحيُّ الثاني يَسكنُه الأُمراءُ والجُنود، أمّا الحيّ الثالثُ فيسكنُه عامّة الشَّعبِ وفيه سوقُ المدينةِ الكبير.

عِندما وَصَل ابنُ بَطّوطةَ إلى مدينةِ تَعزّ، تَوَجّه إلى بيتِ قاضِي قُضاتِها الإمام صَفيّ الدينِ الطَّبَري، فَلقيَ منَ القاضِي كُلَّ تَرْحيب، وبقيَ ضَيفاً عليه. وبعدَ أنْ مرّت ثَلاثةُ أيامٍ استراحَ فِيها ابنُ بُطّوطة مِن عَناءِ رِحلتِه، قال له الإمامُ الطَّبَري «اليومَ سنَمْضِي لِلقاءِ السُّلطانِ نُورِ الدِّين بنِ رَسُول». وعندَما استفسرَ مِنه ابنُ بطّوطة عن سِرّ هذا اللّقبِ الغريبِ الذي يَتلقّبُ بهِ السلطانُ أجابَ القاضِي إنّ لَقَبَ رسولٍ هذا، يعودُ إلى أنّ أحدَ خُلفاء بَني العبّاسِ أرسلَ جَدّ هذَا السّلطانِ رسولاً له

إلى اليَمَن ، وَلِيكونَ والياً عَليها ، فاستقلّ أولادُه بِمُلكِ اليَمَن ، فَعُرِفت عائلتُهم بعائلةِ رَسُول .

عندمَا دَخلَ ابنُ بَطّوطةَ برفقةِ القَاضِي على السلطانِ نُورِ الدين ، وَجدَه يجلسُ فوقَ أريكةٍ مفروشةٍ ومزيّنةٍ بنَسيجٍ حَريريّ ، عن يمينِه ويسارِه رجالُ جيشِهِ وفقاً لرتبهم ، يليهم رجال الدولة والأمراء . وَكُلّما قامَ السّلطانُ أو قَعَد ، صاحَ المَوجودون جَميعاً صَيْحةً وَاحِدة : باسم الله . حتّى يَعْلَم مَنْ بِالقصرِ أنّ السّلطانَ قد قَعَد أو قامَ مُنْصَرِفاً .

قادَ القَاضِي ابنَ بطّوطةَ إلى مكانِ السّلطانِ فيقول «وكيفيةُ السّلامِ عليه ، أنْ يَمَسّ الانسانُ الأرضَ بِسبّابَتِه ، ثم يَرْفعَها إلى رأسِه ويَقول : أدامَ اللهُ عِزّكَ . ففَعلت مثلَما فَعلَ القَاضِي . وقعَد القاضِي عَن يَمينِ المَلِك ، وأمرَنِي فَقَعدت بَين يَدَيه ، فسألَني عن بِلادِي وعَنْ مَولاَنا أميرِ المُسْلمِين أبِي سَعيد ، وَعَن مَلِك مصرَ وَمَلكِ العِراقِ وَملِك اللُّور ، فأجبتُه عَمّا سأَلَ عَنْ أحوالِهم . وكان وزيرُه بَين يَديه فأمرَه بإكْرامِي وإنْزالِي» .

جلس ابنُ بَطّوطَة فِي حَضرةِ السُّلطانِ يتطلّعُ مِنْ حَوْله يريدُ أنْ يتعرَّفَ على عاداتِ وتقاليدِ هذا السُّلْطان ، فرَأى القَادِمين إلى مجلسِ السلطان يُسَلّمون بنفسِ الطريقةِ التي سَلّمَ بها القَاضِي ، ثم يَقِفون فِي المكانِ الذي يُحدَّدُ لَهم لا يتعَدّوْن مَوضعَهم . ولاحظَ أنّهم لاَ يَقْعُدون إلاّ إذا أمرَ السُّلطانُ بِقُعودِهِم . فيقولُ السلطان لأميرِ جندِه ، مُر بِفلانٍ يَقْعد ، فيتقدّمُ ذلك الشخصُ إلى حَيثُ أشارُوا له ، ويقعدُ ساكناً عَلَى البِسَاط .

بعدَ قليلٍ بَدَأ تقديمُ الطَّعَام ، ولاحظَ ابنُ بَطّوطةَ أنَّ هناك نَوْعينِ منَ الطَّعام ، طَعامٌ للخَاصّةِ وآخرُ للعَامّة . أمَّا الطعامُ الخَاصّ ، فيأكلُ منه السُّلْطانُ وقاضِي القُضاةِ والكِبارُ منَ الشُرَفاءِ والفُقهاءِ والضُّيوف والطعامُ العامّ يأكلُ منه سائرُ المَوجودِينَ من المَشايخِ والجُنْد .

صراع على تجّار السفينة

تنتهي زيارةُ ابنِ بطّوطة لمدينةِ تَعز ، فينتقلُ منها إلى العاصمةِ (صَنْعاء) . فيصفُها قائلاً « .. هي قاعدةُ بلادِ اليمنِ الأُولى ، مَدينةٌ كبيرةَ حَسنةُ العِمَارة ، بناؤها بالآجرِّ والجِصّ ، كثيرةُ الأشجارِ والفَواكِهِ والزَّرْع ، معتدلةُ الهَواءِ طيّبةُ الْماء » . ويَلفِتُ نَظرَه أنَّ الشوارعَ كلَّها مُبلّطة ، فاذا نَزَلَ المطرُ غَسَلَ هذه الطرقَ فَبدَت في أجملِ صُورَة . ومِن صنعاءَ يسافرُ ابنُ بطّوطةَ إلى (عَدَن) ، وهي ميناءُ اليَمنِ على سَاحلِ البَحْرِ الهنديّ ، فَيجدُها «مدينةً كبيرةً ، ولا زَرْعَ بِها ولا شَجَر ولا مَاء ، وبِها صهاريجُ يَجتمعُ فِيها الماءُ أيامَ المَطَر» . ويصف ابنُ بطّوطة مدينةَ عَدَن باعتبارِها مركزاً تِجاريًّا نَشيطاً ، تأتِي إليه السُفنُ العَظيمةُ منَ الهندِ ومِصْر .

يسافرُ ابنُ بطّوطةَ بعدَ ذلك بالبحرِ لمدّةِ أَربعةِ أيّام ، حتّى يَصلَ إلى مدينةِ (زَيْلَع) على الشاطئِ الافريقي المُقابِل ، معتزماً القِيَامَ برحلةٍ خاصةٍ للشاطئِ الشرقيّ لأفريقيا . ويصفُ ابنُ بطّوطةَ مدينةَ زيلعَ بأنّها

مدينةُ البَرابِرَة ، مُشيراً بذلك إلى سَوادِ بَشرةِ أهلِها. ورغمَ أنَّها مدينةٌ كَبيرةٌ ذات أسواقٍ عَظيمة «إلاَّ أنّها أقذر مدينةٍ في المَعْمورةِ وأوحشُها وأكثرُها نَتَناً. وسببُ نَتَنِها كثرةُ سَمَكِها ودماءُ الإبلِ التي يَنْحرونها في الأَزِقّة ، ولمّا وَصَلنا إليها اخترْنا المبيتَ بالبَحْرِ على شدّةِ هَوْلِه ، ولم نَبِتْ بها لِقَذَرِها».

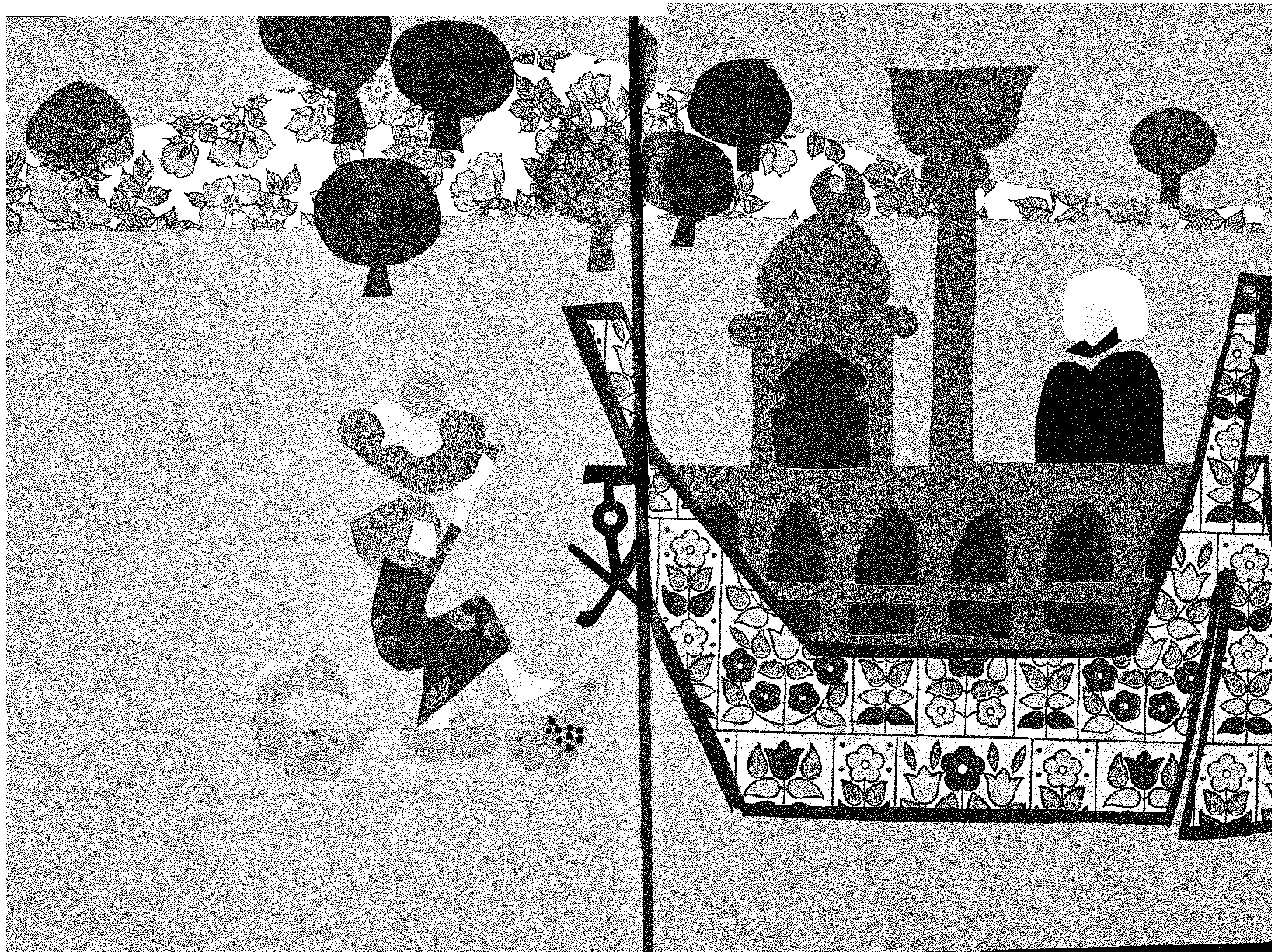
لا تطولُ إقامةُ ابنِ بَطّوطة في ميناءِ زَيلع بعدَ ما لَمَسه من قَذَارة ، فَبَدأَ رحلةً طويلةً امتدَّت إلى خَمسةَ عَشرَ يوماً ، حتَّى وصَلَ إلى مَدينةِ (مَقْديشُو) ، وقبلَ أنّ تَرْسُوَ السَّفينة ، شاهدَ عَشَراتِ القواربِ الصَّغيرةِ تُقْبِلُ مِن ناحيةِ المِينَاء ، متّجهةً بِمَن فِيها من الشبابِ إلى السَّفَينة ، ورَأى كُلَّ شابٍّ منِ أهلِ المدينةِ يَحملُ بين يَدَيه طَبَقاً من الطعامِ عَليه غِطَاء.

سأَلَ ابنُ بَطّوطَة أحدَ رِفاقِ سَفَرِه «هل هُمْ مِنَ البَاعة؟. وما الّذِي يَبيعونه في هذه الأطباق؟.» ، أجابَ الرجلُ الذي كان قَد زارَ المدينةَ من قبلُ أكثرَ مِنّ مرّة «إنّهم ليْسُوا منَ البَاعة ، والذي يَحْمِلونه في أيدِيهم طَعام ، وهم يَتقدّمون به إلى التُجّارِ القادِمين على ظَهْرِ السّفينةِ ، والتاجرُ الذي يَقبلُ طبقَ الطّعامِ يُصبحُ ضَيفاً على أهلِ الشّابّ». تَعجّب ابنُ بطّوطةَ لقولِ الرّجل ، وسأَلَه «ولكنْ ما سرُّ هذا الكرمِ البَالغ ، وما سببُ هذا التقاتلِ عَلَى الضُّيوف؟». ضَحكَ التاجرُ وهو يَقول «ليس الأمرُ مُجرَّد كَرمٍ وسَخَاء!. فالمعروفُ أنَّ التاجرَ الذي يَنزلُ ضَيفاً على أحدِ البُيوت ، لا يبيعُ بضاعتَه إلاّ لأهلِ هذا البَيْت ، أو مِنْ خِلالِهم.. وهم يَسْعَوْن مِن وراءِ هذا إلى أنْ يَكُونُوا وُكلاءَ التّاجرِ

في كلٍّ ما يَبيعُ أو يَشْتري..».

عندمَا وصَلَ الشبابُ إلى السَّفينة، صَعِدُوا إليها يَحْمِلونَ أطباقَ الطَّعام، واقتربَ أحدُ هؤلاءِ الشَّبَاب من ابنِ بَطُّوطة، وقَدّم إليه طَبَق الطعام وهو يَقُول «هذا نَزيلي!.». فَتصدّى له التّاجرُ رَفيقُ سفرِ ابنِ بَطُّوطةَ وقال «ليس هذا بِتَاجِرٍ.. إنّما هو فَقِيه..». فصاحَ الشابُّ قائلاً لأصحابِه «إذا فَهو ضيفُ القَاضِي!.». وكانت السفينةُ قَد رَسَتْ في الميناء، فَصعدَ إليها بعضُ الرّجال، ومِن بينِهم السُّلْطان، الذي اتّجه إلى رُبَّان السفينة، وأخذَ يستفسرُ مِنه عن السَّفينة، مِن أين قَدِمت؟. ومَنْ هو صاحبُها؟. وعن نوعِ البَضائعِ التي تَحملُها، وعن أسماءِ التُجّارِ الذين قَدِمُوا على مَتْنِها... وراحَ الربّانُ يُجيب عنْ أسئلةِ مندوبِ السُّلْطَان.

وكان مِنَ بينِ الذين صَعِدُوا إلى السّفينة، أحدُ رجالِ قاضِي المَدينةِ المصريّ الأصْل، والمعروفِ باسمِ ابنِ البُرْهَان. وعندَما عَرفَ بوجودِ ابنِ بطّوطةَ صَحبَه إلى قاضِي المدينةِ الذي كان يَقفُ في الميناء، فرحّبَ بابنِ بطّوطةَ ترحيباً حارًّا، وقال له بعدَ ذلك «باسمِ اللهِ نَتوجَّهُ للسَّلامِ على الشّيخ..»، سأل ابنُ بطّوطة «ومَنِ الشّيخ؟.». أجابَ القاضِي «أعني السُّلْطان، فَمن عادتِنا هُنا في هذه المدينةِ أنْ نَدعوَ السّلطانَ بالشَّيْخ...». أرادَ ابنُ بطوطةَ أنْ يتوجّهَ أولاً إلى حيثُ سيُقيمُ في ضيافةِ القَاضي، حتّى يَرتديَ الملابسَ اللائقةَ بمُقابلةِ السُّلْطان، لكنّ القاضِيَ قال له «إنّ عادَتَنا أنّه إذا جاءَ الفَقيهُ أو الشّريفُ أو الرجلُ الصّالح، ألاّ ينزل حتّى يرى السلطان أوّلاً...



عندَما وَصلَ الرّكبُ إلى مقرِّ السُّلطانِ، خَرجَ بعضُ فِتْيانِ السُّلْطانِ، فقال لَهم القَاضي «بَلِّغُوا الأمانَة... وعَرِّفوا مَولانا الشيخَ أنَّ هذا الرجلَ قَد وصل من أرضِ الحِجَاز..». جلسَ ابنُ بطُّوطةَ مع القاضِي في القاعةِ التي وَصلوا إليها انتظاراً لِلقاءِ السُّلْطان. وبعدَ قَليل، عادَ أحدُ الفِتيانِ وأفادَ أنَّه قد أبلغَ السُّلطان، وأتى مَعه بِطبقٍ فيه بَعضُ أوراقِ النَّباتِ الخَضْراء، فأعطَى ابنَ بطّوطةَ عَشْرَ وَرَقات ومَعها شَيْئاً آخر، وكذلك أعطى القَاضِي نَفْسَ الشَّيْئ. ثم جاء بإبريقٍ فيه ماءٌ مُعطَّرٌ بِخلاَصةِ الوَرْد، فسكَبَ مِنه على ابنِ بطّوطةَ والقَاضي.

سألَ ابنُ بطّوطةَ القَاضي عن هذه الأوراقِ الخَضْراء، وماذا سَيَفْعَلون بها. أجاب القاضي «هذه الأوراقُ الخَضراءُ هي أوراقُ نَبَاتِ التَّانْبُول.. وهيَ مِن شجرٍ يُغرسُ كما تُغرسُ شُجَيراتُ العِنَب، وَتُصنعُ له مُعرّشاتٌ يتسلّقُ عَليها، لكنّه نَباتٌ لا ثِمَارَ له، إنّما يُزرعُ ليؤخذ منه وَرقُه هذا، الذي يُجنَى كُلَّ يوم.. أمّا هذا الذي يُشْبهُ التّمْرَ المكبوسَ فَهو الفَوْفَل، مِن شَجَرةٍ تشبهُ نَخيلَ جَوْزِ الهِند..». سأل ابنُ بطّوطة حائراً «وما المفروضُ أنْ نَفعلَ بهذا وذاك؟..». ابتسمَ القاضِي وهو يُشيرُ إلى الفوفل«نبدأ بمَضْغِ الفَوفلِ الذي يُشبهُ في مَذاقِه جوزَ الطِّيب، حتّى يَتفتّتَ بينَ الأَسْنان، ثم نَمضَغُ بعد ذلك أوراقَ التّانْبول مع الفوفل». سأل ابنُ بَطّوطة «وما فائدةُ ذلك كُلّه؟.». أجابَ القاضِي «إنّه يُطيّبُ رائحةَ الفَمَ، ويساعدُ على هَضْم الطّعام، ويبعثُ في النّفسِ نَشْوةً وَفرَحاً!..».

الطَّائِرُ الذَّهَبيُّ فَوْقَ المِظَلَّة

بعدَ قَليل، قال الفَتَى المُوفَدُ مِن قَبلِ السُّلْطان «إنّ مَولانا أَمرَ أن ينزلَ الضّيفُ بِدَارِ الطَّلَبَة..»، فَنهضَ القَاضي، ونهضَ مَعه ابنُ بَطُّوطة، وَتَوجّها معاً إلى تلك الدّارِ التي كانَت مُعدّةً لضِيافةِ طَلَبةِ العِلمِ والدّارِسين بالقُربِ مِن بَيْتِ السُّلْطانِ. وهي مُجهّزةٌ بِفِراشٍ وأثاثٍ لَطِيف. وما أنْ استقرّا في دارِ الضِّيافَة، حتّى أَقبلَ عَليهما أحدُ وُزَراءِ السُّلْطانِ ومِن خَلْفِهِ الطَّعَام. قالَ الوزيرُ «مَولانا يسلّمُ عَليكُما، ويقولُ لَكما: قَدِمْتُما خَيْرَ مَقْدَم..»، ثم وَضَعَ الطَّعَام أَمامَهما، فأَكلاَ منه.

لا يَفُوتُ ابنَ بطّوطةَ أنْ يُسجّلَ ضِمنَ ما يُسجّل، أنواعَ الطّعام التي يَتنَاولُها أهلُ مَقْدِيشُو، فيقول «وَطعامُهم الأرزُّ المَطْبوخُ بالسَّمْن يَجْعلونَه في صَفحةِ خَشَبٍ كَبيرة، وَيَجْعلون فوقَه صِحَافَ (الْكُوشَان)، وهو الإدَامُ مِن الدّجاجِ واللَّحمِ والسَمَكِ والبُقُول. وَيَطْبُخُون الموزَ قبلَ نَضْجِهِ في اللّبنِ الحَلِيب، وَيَجْعَلُونَه في صَفْحة. وَيَجْعلون اللّبنَ الرَّائبَ في صَفْحَة، وَيَجْعلونَ عليه اللَّيْمُون، وَعَناقيدَ الفُلْفلِ المُخَلّلِ والْمَمْلُوح، والزَّنْجبيلَ الأخْضر، والعَنْبا..». وَيشرحُ ابنُ بطّوطة نَبات الْعَنْبَا هذا، وهو ما نَعرفُه اليومَ باسم (الْمَانْجُو)، فَيقول «وهي مثلُ التُّفّاح ولكنّ لها نَوَاة، وهي إذا نَضَجتْ شَديدةُ الحَلاَوَة، وَتُؤكلُ كالْفَاكِهَة، وقبلَ نُضْجِها تكون حامضةً كاللّيْمُون، يُصَبّرُونَها في الخلّ». ثم يتكلّمُ عَن تَقالِيدِهم في الطّعام فَيقول «إذا أَكلوا لُقمةً منَ الأرزّ، أَكَلوا بعدَها من هذه المَوالحِ والمُخَلّلات. والواحدُ مِن أهلِ مَقْديشو

يأكلُ قَدْرَ ما تأكلُه الجَماعةُ مِنّا عادة، وهم في نهايةٍ مِنْ ضَخَامَةِ الجُسُوم وَسِمَنِها...».

بعدَ أن انْتهيَا مِن تَناولِ الطَّعام، انصرفَ القاضِي إلى دَارِه، وبقي ابنُ بطّوطةَ مع ضُيوفِ الدّار، تُقدَّمُ إليهم في كلّ يوم وَجَباتٌ ثَلاثٌ لِمدّةِ ثَلاثةِ أيّام. وفي يومِ الجُمُعة، وهو اليومُ الرّابعُ لإقامتِه في دَارِ الضّيافة، جاءَ القاضِي مَع طَلَبتِه وأحدِ الوُزَراء، وقد جاؤوا مَعهم ببعض الملابِسِ الوطنيةِ التي سَيَرْتَديها ابنُ بَطُّوطة.

ويصفُ ابنُ بطّوطَة مَلابسَهم فيقولُ إنّها تتكوّنُ من قطعةِ قُماشٍ حَريريةٍ يَشُدُّها الشخصُ فَوقَ وَسَطِه، بدلاً منَ السَّراويلِ الّتي لم يكونوا يَعْرفُونها، وقميصٍ مِنَ القُماشِ المِصريّ المَنْقُوش، ورداءٍ مُبطّنٍ طويلٍ يُلْبَسُ فوقَ ذلك، من القُماشِ الذي اشْتُهِرت القُدْسُ بصناعتِه، ثمّ عمامةٍ مِصريةٍ مُتميِّزَة.

عندما انتهَى ابنُ بَطُّوطةَ مِنَ ارْتداءِ ذلك الزّيّ الوَطنيّ، تَوجَّه الجميعُ إلى الجَامع، فَأَدَّوْا الصّلاةَ خلفَ المَقصورةِ التي يُصلّي فيها السُلْطانِ. وبعدَ انتهاءِ الصّلاة، خَرجَ السُلطانُ مِن بابِ المَقْصورةِ، فَسلّمَ على القاضِي وَعلى ابنِ بطّوطة، ورحّبَ بهما، ثم تكلّمَ مَع القاضِي بلهجةِ أهلِ البِلاد، وقال لابنِ بطوطَة باللُّغة العَربيةِ «قَدِمت خيرَ مَقْدَم، وَشَرَّفت بلادَنا وآنَسْتَنا». وخرجَ مَعهما إلى صَحْنِ المَسجِد، فوقفَ عندَ قَبْر والدهِ المدفونِ هُناك، وقَرأ وَدَعا، ثم جلسَ فَجَلَسا معه. وبدأ تَوافُدُ الوُزراءِ والأُمراءِ ورجالِ الجَيْشِ فَسلّموا على طريقةِ أهلِ البِلادِ التي تُشبهُ طريقةَ أهلِ اليَمَن، بأنْ يَلْمَسَ الشخصُ الأرضَ

بِسَبَّابَتِه ثم يَرْفَعُها إلى رأسِه وهو يَقول «أدامَ اللهُ عِزَّك..».

بعدَ هذا، خَرَجَ السُلْطانُ مِنَ المسجدِ ومَعه القاضِي وابنُ بَطُّوطة، وتوجَّه إلى منزِلِه سَيْراً على الأَقدام وقد رُفِعَت فوقَ رأسِه أربعُ مِظلاّتٍ من الحريرِ المُلَوّن، وفي أعلَى كُلٍّ مظلّةٍ صُورةُ طائرٍ منَ الذَّهب، وقد تَواصَلَ قَرْعُ الطبولِ والنّفخُ في الأبواق، يُحيطُ بالموكبِ جمعٌ منَ الأُمراءِ والجنودِ والفُقهاءِ والشُرَفاء.

عندَما انْتَهَت زيارةُ ابنِ بطَّوطة لِمَقْدِيشو، قررَ أن يُواصلَ رِحلتَه جنوباً على امتدادِ الشاطئِ الافريقيّ، قاصداً مدِينةَ (كلوا).

السُلطان يَخلعُ مَلابِسَه!.

في الطريقِ إلى مَدينةِ كلوا، يَمرّ ابنُ بطّوطةَ على جَزيرةِ (مِنْبَسَّة)، وهي كَما يقولُ «جزيرةٌ كبيرةٌ بَينها وبين أرضِ السّواحِلِ مَسِيرةُ يَومينِ في البحر.. وأشجارُها الموزُ واللَّيمونُ والأُتْرُجّ، ولَها فاكهةٌ يُسمُّونَها الجمون، وهي شبهُ الزَّيتون ولَها نَوىً كنَواه، إلاّ انّها شَديدةُ الحَلاوة». ويقول ابنُ بطوطةَ إنّ الجزيرةَ تُجلبُ لَها المَحاصيلُ منَ الشاطئِ الافريقي، ويعتمدُ أهلُها في طعامِهم على الموزِ والسّمَك، وهم من أتباعِ المَذهب الشافعيّ، يَتّسِمُون بالصَّلاَحِ والتّديّنِ والعَفَاف.

يقيمُ ابنُ بطوطَة في هذه الجزيرةِ ليلةً واحِدة، ثم يُواصِلُ رِحلتَه بحراً حتى يَصلَ إلى مَدينةِ كلوا التي يَقْصِدُها. يجدُها مدينةً كبيرةً، ويجد

أكثرَ أهلِها من الزُّنوج الذين يَتميَّزون بِبَشَرةٍ شديدةِ السَّواد ، وَلَهم في وُجوهِهم عَلاَماتٌ مُمْتدَّةٌ كالجُروح . كَمَا يَجدُ مَبانِيَ الْمَدينةِ كُلَّها منَ الْخَشَب ، حتّى لو كانت مُتعدّدةَ الطَّوابِق ، وهي مَنازلُ جَميلةُ الشّكلِ مُتْقَنَةُ الصُّنْع ، تتحمّلُ سيولَ الأمطارِ الّتي تَنصبُّ عَلى الْمَدينة .

وسُلطانُ مدينةِ كلوا أَبُو المُظفّرِ حَسَن كانَ منَ المُسلِمين المؤْمنين ، يَشُنُّ الحُروبَ على القَبائلِ الهَمَجيةِ المُحيطةِ بمدينتهِ ويُخضعُها لنفوذِه ، ثم يستثمرُ الغَنائمَ التي يَحصُلُ عَليها في الإِنْفاقِ على نَشْرِ الدينِ الإسلامي . وَيَقُصُّ ابنُ بطّوطَة تَفاصيلَ واقعةٍ شَهِدَها في كلوا ، تَكشِفُ عَن جانبٍ من خُلُقِ ذلك السلطانِ الذي كان يُطلِقُ عَليه أهلُ المَدينةِ اسمَ : أَبُو المَواهِب ..

في يومِ الجُمُعة ، وبعدَ انتهاءِ الصّلاة ، خَرَج ابنُ بطُّوطةَ في أعقابِ موكبِ السلطانِ الذي كان يَتّجهُ إلى دَارِه ، فتعرّضَ أحدُ الفُقراءِ اليَمنيّين لموكبِ السلطانِ وهو يَصِيح « يا أبا الْمَواهِب ! . » .. قال السّلطان « لبيك يا فَقير .. ما حاجتُك ؟ . » . قالَ الرجل « أعطِني هذه الثيابَ التي عَليك ! » . فقال السّلطان « سأُعطِيها لك ! ! » . لكنَّ الرجلَ عادَ ليقولَ بتَصْمِيم « الآن ! .. » ، فقال له السلطانُ وهو يَرجعُ إلى المَسْجد « نَعم الآن .. » . توجّهَ السُّلطانُ إلى بيت خَطيبِ المَسجد ، ثم خَلعَ ملابسَه ولبسَ غيرَها ، وخَرجَ ليقولَ للفقير « أدخلْ فَخُذِ الملابسَ التي طَلَبتها » . وبعدَ قليلٍ خرجَ الفقيرُ وهو يَحملُ ملابسَ السّلطان ، وقد رَبَطَها في قطعةٍ من القُماش ، ووضَعها فوقَ رأسِه ، ثم انصرفَ مُبْتَعِداً .

يقول ابنُ بطوطَة إنّ ابنَ السّلْطانِ وليَّ عَهدِه أسرعَ يَتبْع الفَقير ،

وعرضَ عليه أنْ يَستردّ منه ملابسَ والدِه، مقابلَ قَدْرٍ كبيرٍ من المالِ والهدايا. بالإضافة إلى هذه الواقعةِ التي جرَت في حضور ابنِ بطّوطة، سمعَ العَديدَ من الحكاياتِ التي تَصفُ كرمَ ذَلك السلطانِ وعَطْفَه على الفُقَراء.

بعدَ أن يصلَ ابنُ بطّوطة إلى مَدينةِ كلوا، يَكتفِي بهذا القَدْرِ من زيارتِه لمدنِ الساحلِ الافريقي، ويقررُ الإبحارَ إلى الشّاطئِ الجنوبيِّ لشبهِ الجزيرةِ العَربية.. وتكونُ وجهتُه الأولى مدينةَ (ظَفَار).

السَّمك طَعامُ الدَّوابِّ والْغَنَم..

يَتَحدّثُ ابنُ بَطّوطةَ عن مَدينةِ ظفارِ فَيقول «.. وهي آخرُ بِلادِ اليَمَن على سَاحلِ البَحرِ الهِنديّ، ومنها تُحمَلُ الْخَيلُ العِتَاقُ إلى الهِنْد. وَيُقطعُ البحرُ فيما بَينها وبينَ بلادِ الْهِند، مَع مساعدةِ الرّيح، في شهرٍ كامل.. وبين ظفار وَعَدَن في البرِّ مَسيرةُ شَهرٍ في الصّحْراء، ومدينةُ ظفار في صَحْراءَ مُنقطعةٍ لا قَرْيةَ بها ولا عمالةَ لَها. والسوقُ خارجَ المَدِينةِ بِرَبَضٍ يُعْرَفُ بالْحَرْجَاء، وهي مِن أقذرِ الأسواقِ وأشدِّها نَتَناً، وأكثرِها ذُباباً، لكثرةِ ما يُباعُ بِها مِنَ الثَّمراتِ والسّمك وأكثرُ سَمَكِها النوعُ المعروفُ بالسَّرْدِين، وهو بها في نهاية السِّمَن».

وَتَلْفِتُ نَظَر ابنِ بَطّوطةَ ظاهرةٌ غَريبةٌ لَمْ يَرَ لَها مَثِيلاً في البلادِ العديدةِ الّتي زَارَها مِن قبل، فأهلُ ظَفارِ يُطْعِمون دَوابَّهم وَغَنَمَهم



سَمَكَ السَّردينِ هذا، لعدمِ توافرِ طعامٍ آخر يُقدِّمونَه إليها. وهو يَصِفُ الحَياةَ التجاريةَ التي يَعيشُها أهلُ ظفار، فيقولُ إنّ مِن عاداتِهم، إذا ما وَصل مَركَبٌ مِن بلادِ الهندِ أو غيرِها، خرج عَبيدُ السّلْطانِ إلى السَّاحل، وَأبْحَروا في زَوارِقهم الصّغيرةِ إلى حيثُ يَرْسُو المَركَب، ومَعهم الكُسْوةُ الكَاملةُ لصاحبِ المركبِ أو وكيلِه، ولقائدِ المركبِ أو رُبَّانِها، ولكاتبِ المركبِ الّذي يتولّى حِساباته. بعدَ تَقديمِ الهديّة، يَتوجّهُ الثلاثةُ إلى البرّ حَيثُ يَجدون في انتظارِهم ثَلاثةَ جِيَاد، تَمضي بِهم إلى المَدينة، وقد تَقدَّمتْهم فِرقةٌ منَ العَازفين، يَنفُخُون الأبواقَ وَيَقْرَعُون الطُّبول، حتّى يصلَ الركْبُ إلى دار السُّلطَان.

عند دارِ السُّلطانِ يَكونُ في انتظارِهم الوزيرُ وكبيرُ الجُنْد. ثم تَبدأُ بعدَ ذلك ضيافةُ هؤلاءِ لمدّةِ ثَلاثةِ أيّام، يُقدّمُ فيها الطعامُ لكلّ مَنْ عَلى المركَبِ الرّاسي أمامَ المَدينة. ويقولُ ابنُ بَطّوطةَ إنّ هذا التكريمَ وهذه الضيافةَ هَدفُها تَشجيعُ أصحابِ المراكبِ على المُرورِ بتجارتِهم على مدينةِ ظَفَار.

يبقَى ابنُ بَطّوطة في المدينةِ بَعْضَ الوَقت، ويتعرّفُ عَلى أهلِها، فيقولُ عنهم «وهم أهلُ تَواضعٍ وحُسْنِ أخلاقٍ وفضيلةٍ ومحبّة للغُرَباء... ولِباسُهم القُطنُ وهو يُجلبُ إليهم من بلادِ الهند، ويَشُدّون الفُوَطَ في أوساطِهم عِوَضَ السّرَاويل، وأكثرُهم يَشُدُّ فوطةً في وَسَطِه، ويجعلُ فوقَ ظَهْرِه أخرَى مِن شِدّةِ الحَر، وَيَغْتسِلون مرّاتٍ في اليوم».

وفي ظَفار يَزُور ابنُ بطّوطةَ زاويةَ الشّيخ أَبِي مُحمّد بنِ عِيسى، بعدَ أنْ لَمَسَ تَعظيمَ أهلِ ظَفارِ لَها وإقبالَهُمْ عَليها. وقيل له إنّه إذا

استجارَ بها أحدٌ منَ النّاس، لا يتعرّضُ له السُّلْطان. وتأكّدَ مِنْ هذا عندَما التقَى فِيها بواحدٍ ذُكِرَ له أنّه قد مَضَى عليه عدّةَ سِنينَ مُقيماً في الزّاوية، هَرَباً من انتقامِ السُّلطان. بل إن كاتبَ السُّلطانِ استجارَ بهذه الزّاويةِ أثناءَ وُجودِ ابنِ بَطّوطَة بِها، فأقامَ فيها، حتّى تَمّ الصُّلح بَينَه وبينَ السُّلْطان.

بالقُربِ مِن هذه الزّاوية، شاهَدَ ابنُ بَطُّوطة مَقْبرةَ جَدٍّ مِن جُدودِ السُّلطان، تكتسبُ احتراماً وَتَقْديراً شَديدين عندَ أهلِ ظَفَار. وقيلَ له إنّه عندَ تَمامِ الشّهر، إذا لَم يَتسلّمْ الجندُ رَواتبَهم، استجارُوا بهذه المَقْبَرَة، وأقامُوا في جِوارِها، حتّى يَصْرِفَ لهم السُلطانُ مُرتّباتِهم المتأخرة.

وفي تَسجيلهِ لِمَعالمِ الحياةِ في ظَفَار، لا يَنْسى ابنُ بَطّوطةَ أن يَذكرَ أنواعَ الفَاكهةِ المُتوافِرةِ فِيها، فيقول «وَلهذه المدينةِ بَساتينُ فيها مَوزٌ كبيرُ الْجرْم. وُزِنَت بِمَحْضَري حبَّة مِنه فكانَ وزنُها اثْنَتي عَشْرَة أوقيّة، وهو طيّبُ الطعمِ شديدُ الحَلاَوة». ومِن بينِ ما يَذكرُ ابنُ بَطّوطةَ مِن فَواكهِ ظَفَار وَمزروعاتِها، التّانبول الذي تَحدّثْنا عنه، والنّارَجيلُ الذي نَعرفُه باسمِ جَوْزِ الهند. وهو يَتحدّثُ عن ثَمرةِ جَوزِ الهندِ فيَقول «تُشبهُ رأسَ ابنِ آدَم، لأنّ فِيها شِبْهَ العَيْنَين والفَم، وداخلَها شِبْهَ الدِّماغِ إذا كانت خَضْراء، وَعَليها لِيفٌ يُشْبِهُ الشّعَر، وَهم يَصْنعون منه حِبَالاً يَخيطون بِها المراكبَ عِوَضاً عَن مَساميرِ الحَديد، وَيَصْنَعُون مِنه الحِبالَ لِلْمَرَاكِب».

ويتحدّثُ ابنُ بطّوطةَ بَعدَ ذلك عن أُسطورةٍ خُرَافيةٍ تَرتبطُ بِثَمرِ

جَوْزِ الهندِ كانَ قد سَمِعَها من أهلِ ظَفَار. تقول الأسطورةُ إنّ حَكيماً من حكماءِ الهندِ في غَابرِ الزّمانِ كان مُتّصلاً بملكٍ مِنَ المُلوكِ وَكانَ عزيزاً لَديه، وكان للملكِ وزيرٌ بَينه وبينَ الحكيمِ خُصومةٌ، فقال الحكيمُ لِلْمَلِك: إنّ رأسَ هذا الوزيرِ إذا قُطعَ وَدُفِنَ تَخرُجُ مِنه نَخلةٌ تثمرُ تَمَراً عظيماً يَعودُ نَفعُه على أهلِ الهندِ وغيرِهم من أهلِ الدنيا. فقال له الملك: فإنْ لَمْ يَظهرْ من رأسِ الوزيرِ ما ذَكرته؟.، قال: إنْ لَم يظهرْ فاصنعْ برأسي كما صَنَعت برأسِه!.فأمرَ الملكُ بقطعِ رأسِ الوَزير، فأخذَ الحكيمُ الرّأس وغَرس نَواة تَمْرٍ فيه، وَرَعاها حتّى صارت شَجَرة، أثمرت ما نَعرفُه الآن بجوزِ الهند. ويحرصُ ابنُ بطّوطَة على تأكيدِ صِفةِ الخُرافةِ على هذه القصّةِ فيقول «وهذه الحكايةُ مِن الأكاذيب، ولكنْ ذَكَرْنَاهَا لشُهْرتِها عِندَهم».

سِرّ الشّيخِ الغَرِيب

في ظَفارٍ يَتعرّف ابنُ بَطّوطةَ على شَخصٍ يُدْعى عليٌّ بنَ إدريس الْمِصريّ، يَمتلكُ مَركَباً صَغيراً. وعَرَض عليه الرَجلُ أنْ يَنقلَه بهذا المركَبِ الصّغيرِ إلى الميناءِ الصغيرِ المعروفِ باسمِ (مَرْسَى حاسِك). لمْ تَستغرِقِ الرّحلةُ أكثرَ مِن يَومين، وعندمَا هَبَط ابنُ بطّوطةَ إلى ذلك الميناءِ الصّغير، وجدَ سكّانَه من العَرَب الذين يَعتَمدون في حياتِهم على صَيدِ السّمك. والسّمكُ المتوافرُ لَدَيهم من النواعِ الكبيرِ الذي يُشبهُ كَلْبَ البَحْر، وَيُعرفُ باسمِ اللّخْم، وهم يُقَطِّعونَه ويَتركونَه في الشمسِ

لِيَجِفّ، ثم يَحْفَظونه يابساً لاستخدامِه عندَ الحَاجة.

وأغربُ ما يَلْفِتُ نَظرَ ابنِ بَطُّوطة في هذه المَدينة، بيوتُها التي تُصنعُ من عِظامِ السَّمَك، ثم تُغطّى بجلودِ الجمَال. ثم نَباتُ الكُنْدُر الذي يَراه لأولِ مَرة، فيقول «وعندَهم شَجرُ الكُنْدُر، وهو رَقيقُ الوَرَق، إذا شُرِطَت الوَرَقةُ مِنه قَطرَ منها ماءٌ شِبْهُ اللَّبن، ثم عادَ صَمْغا، وذلك الصَّمغُ هو اللُّبان، وهو كثيرٌ جِداً هناك».

مِن مَرْسى حاسِك، يَرحلُ ابنُ بَطوطَة برًّا لِمدّةِ أَربعةِ أيامٍ حتّى يَصلَ إلى جبَل (لَمَعان)، وهو جبلٌ قائمٌ في وَسَطِ البَحْر، وفي أعلاهُ بناءٌ وَحيد، جَوانبُه من الحِجَارةِ وَسَقفُه من عِظام السَّمَك الكَبير. عندَما شاهدَ ابنُ بطوطةَ ذلك المَبنَى المُقامَ أَعْلَى الجَبل، دَفَعته رُوحُ الاستكشافِ التي تَميّزَ بها إلى مُحاولةِ الصّعودِ إليه واجتلاءِ أَمرِه. وما أَنْ رَسَا المركَبُ بالقُربِ من السّاحل، حتّى هَبَطَ مع بَعضِ رفاقِه، وَشَرعوا جميعاً في ارتقاءِ دُروبِ الجَبَلِ الشاقّةِ سَعياً إلى ذلك البناءِ الغَريب.

كانَت دَهشتُهم كبيرةً عندَما وَصَلوا إلى المَبنى، فَلَمْ يَروا فيه سوى شيخٍ كبيرِ السنِّ يَنامُ مُطمئنًّا. أَلقت الجَماعةُ السّلامَ على ذلك الشَّيخِ، فاستيقَظ، وردّ تحيّتَهم بالإشارةِ دُونَ كَلام. تَعَجبَ القومُ مِن فِعْلِهِ، فقال ابن بطّوطَة، ربما كان الرجل في حالة لا تسمح له بالحديثِ نَتيجةً لِجُوعِه الشّديد.. فَلْنقدّم إليه شَيئاً ممّا مَعَنا من طَعام». لكنّ الشيخَ أَبى أنْ يَقْبلَ مَا قَدّموه إليه من طَعامٍ وشَراب.

أخذ ابنُ بَطوطة يُفكّرُ في حالِ ذلك الشيخِ الغَريب... يَرْتدِي

ثياباً رثّة ، وغطاءُ رأسِهِ مِنَ اللُّبّاد ، ولَيس مَعه إبريقٌ أو وِعاءٌ يَحفظُ فِيه الشّرابَ والطّعام ، كَما لا يوجدُ مَعه نَعلٌ يَضَعُها في قَدَميه ، مما يؤكدُ أنّه مقيمٌ بهذا المكان المُنقطعِ عَن الدنيا ، لا يُغادِرُه. وعندما قال له ابنُ بَطوطة «أيّها الشيخُ الكَرِيم ، هَلاّ دَعوت لنا دعوةً صَالحة..» ، لم يتكلّم الرَّجل ، إنّما تَحرّكتَ شَفتاه ، دونَ أن يُصْدِرَ صَوتاً. فظنّ البعض أن به عاهةً تمنَعُه من النُّطق ، فهو لَمْ يَنطقْ كَلمةً واحدةً طَوالَ ذلك النّهارِ الذي أمْضته الجَمَاعةُ في ذلك المَكان. كان إذا حلَّ موعدُ الصّلاة ، قامَ فَصلّى مَعَهم ، وكلّما تَناوَلوا شيئاً من الطعامِ عَرَضوا عليه أنْ يُشارِكَهم فيه ، فيرفضُ مُعتذراً بإشارةٍ مِن يَدِهِ.

عندَما حلّت صَلاة العِشاء ، فُوجئَ ابنُ بطوطة ومَن معه بذلك الشيخِ الصامتِ يُؤذنُ للعِشاء بصوتٍ جميلٍ قويّ ، ثم رَاحَ يتلُو آياتٍ من القرآنِ الْكَرِيم ، فأجاد. وعندَما انتهت الصّلاة ، عادَ إلى صَمتِه ، وأومأ إليهم يطلبُ مِنهم الانصراف ، فَودّعوه مُستجيبين إلى طلبه ، وانْصرفوا عائدين إلى سَفينتِهم ، وَهم في عجبٍ من أمرِه. وعندَما سألَ ابنُ بطوطةَ أهل هذه المِنْطَقةِ عنه ، أكّدوا أنّهم لم يُشاهدوا ذلك الشيخَ مِنْ قَبْل.

جَزيرةُ الطّيْـــر

أَقْلعتِ السّفينةُ مُتّجهةً إلى جزيرةٍ تُدْعى (جزيرةَ الطّير) ، وَطَوالَ الرحلةِ التي امْتدّت يَوْمين كامِلَين ، كان ابنُ بَطوطةَ لا يتوقّفُ عن

التفكيرِ في ذلك الشيخِ النّاسكِ الغَريبِ الذي التقَى به عندَ قِمّةِ جبلِ لَمَعان. ولم يُكتَبْ له أن ينسى تلك الذِكرى إلاّ عندَما وَصَل إلى جزيرةِ الطَّيْر.... فقد وجدَ تلك الجزيرةَ تَختفي تَماماً تحت ما يقفُ عَليها من طيورٍ كَبيرةِ الجِسم.

انبهرَ ابنُ بطوطة من هذا المشهدِ العَجيب، وأفاقَ مِن تأمّلاتِه عندَما رأَىَ الطيورَ تَندفعُ مُحلّقةً في الفَضَاء، ورفيفُ أجنحتِها يُصدرُ صَوتاً كالهديرِ القَويّ. واكتشفَ بعدَ قليلٍ أنّ السرّ في هذا، هو أنّ بعض رفاقِ سفرِه، قد وَصَلوا إلى الجزيرةِ مُتسلّلين، في محاولةٍ للامساكِ ببعض هذه الطّيور. ثم رَأى البعضَ الآخرَ يَطوفُ الجزيرةَ ليجمعَ بيضَ تلك الطيور.

عاد الجميعُ إلى السّفينة، وانْهمَكَ الرجالُ في طَهْو الطّيور وإِنْضاجِ البَيْض، وعندَما انْتَهوْا من عملِهم، دَعَوا ابنَ بطوطةَ ليشاركَهم هذه الوَجْبَةَ الساخنةَ التي انْتَهوْا من اعدادِها، لكنّ ابنَ بطوطةَ عافَتْ نفسُه الطيرَ والطَّعام، بعدَ أن رَآهم يَكْتَفُون بخنقِ الطيرِ دونَ ذَبْحِه، وَفقا لِما جَرَى عليه الأمرْ بَين المُسْلمين في مشارقِ الأرضِ ومَغاربِها. تَرَكَهم في حالِهم وَصَخَبِهم، واتّجهَ إلى أمتعتِه يُخرجُ مِنها بعضَ الخُبز والكَعْك، ممّا كان قَد حملَه معه من ظَفَار.

وَاصَلت السفينةُ رِحلتَها في البَحر، وطالَت الرِحلة، وأخذَ رصيدُ ابنِ بطّوطة منَ الطّعامِ في التّناقُص، حتّى نَفِدَ ما كانَ معه، واضْطُرَّ إلى مشاركةِ رُكابِ السفينةِ طَعامَهم اليَوميّ. كانُوا يَصطادون سمكاً كبيراً يُطلقون عليه اسم «شير ماهي»، وَمعناها أسدُ السَّمك، فيُقُطِّعونَه قِطَعاً

صَغيرة ، وَيَشْوُونها على النارِ التي يُوقِدونها على ظَهرِ السَّفينة ، ثم يُوزِّعونها على الركابِ بالتّساوِي مع قليلٍ من التَّمْر.

وعندَما حلَّ عيدُ الأضحى ، كانُوا ما يَزالون يَقْطَعُون رِحلتَهم هذه ولم يَصِلوا بعدُ إلى غايتِهم. وهكذا اقتصَر احتفالُهم بالعيدِ على تناولِ ذلك السَّمكِ مع التَّمْر.

عاصفةٌ تُغرقُ السَّفينة



كانت هُناك سفينةٌ أُخْرى تَتقدّمُ السّفينةَ التي يَركبُها ابنُ بَطّوطةَ في رِحلتِه هذه. وفي فجرِ اليومِ الأولِ من عيدِ الأضحى ، هبّت عاصفةٌ هَوْجَاء ، اهتزّت لها السَّفينتان الكَبيرتان ، وكأنّهما ريشَتان تَعبَثُ بِهما الرّياح. تَشبّث الرجالُ بأجزاءِ السَّفينة ، خَوفاً مِنْ أن تُلقيَ بِهم حَركاتُها الهَوجاءُ إلى البَحْر. وراحَ البعضُ يَتأوّه من قَسْوةِ لَطَماتِ الريحِ وضَرَباتِ الأمواجِ العَالية ، بَينَما انْخرطَ البعضُ الآخرُ في تَرديدِ الدُّعاءِ ضارِعينَ إلى اللهِ أنْ يُنقذَهم من هذه المِحنَة.

بعدَ قليل ، شاهَدوا موجةً هائلةً تَنقضُّ على السّفينةِ التي تَتقدّمُهم ، فَتقلِبُها ، ثُم تَدفعُ بها إلى جوفِ البَحر. ورغمَ ارتفاعِ صَفيرِ الرياحِ وصَخَبِ المَوْج ، فقدْ وَصلتهم وهم في سفينتِهم أصواتُ الاستغاثةِ التي أطلقَها ركّابُ السفينةِ الأُخرى ، وهي تهوي إلى أعماقِ البَحر. وعندَما هَدأت العاصفةُ بعضَ الشيء ، وخرجَت الشمسُ من

خلفِ السُحب، شاهَدوا رجلاً وحيداً مِن ركّابِ السفينةِ الأخرى، يصارِعُ الأمواج، محاولاً أنْ يَبقَى على سَطحِ الماء، فأسرعُوا إلى نَجدتِه، وعَرفوا أنّه الوحيدُ الذي نَجَا من بينِ رُكابِ السّفينة..

بعدَ أنْ اطمأنّ ابنُ بطوطةَ إلى نَجاتِه من العاصفة، أخذَ يَبحثُ عن صديقِه الهنديِّ مَولانا خضر، الذي كان قد تَعرّف عليه في بدايةِ الرّحلة، وتَوطّدت بَينَهما أواصرُ الصّداقة. كان خضر رجلاً تقياً يحفظُ القرآنَ الكريمَ ويُحسنُ الكِتابة، وقد ارتاح ابنُ بطوطة إلى صُحبتِه. بعدَ بحثٍ طويلٍ عثرَ ابنُ بطوطة على صَديقهِ خضر في ركن مُنزوٍ قَصّيٍ من السّفينة، وقد لفّ عباءَته حولَ رأسِه بحيث لا يَرَى أو يسمعُ ما يَجرِي من أهوالٍ أثناءَ العَاصِفة.

هزّ ابنُ بطوطةَ الرجلَ وهو يَسألُه «كيف حالُك يا مَولانا خضر؟.»، أَزاحَ الرجلُ العَباءَة من فوقِ رأسِه بِحذَر، وهو يتطلّعُ مِن حولِه، لا يُصدّقُ أنه قد نَجَا من العاصِفة، ثم اعتدل جالساً والتقطَ أنفاسَه ثم قال «الحمدُ للهِ على نَجاتِنا يا صاحِبِي.. كنتُ عندَ الهولِ أفتحُ عَينيّ، أنظرُ هل جاءَ الملائكةُ الذين يَقْبِضون الأرواح... وعندَما لا أراهم، أردّد: الحمدُ لله!. فلو كنت قد غرقت لأَتوا لقبضِ رُوحِي.. وَظَلَلت هكذا، أُغلقُ عَينيّ وأَفتحهُما، إلى أنْ جِئتَ إليّ..».

عندَما وَصلت السفينةُ إلى مدينة (صور) وهي ميناءُ قريةٍ كبيرةٍ على ساحل البحر، عَرف ابنُ بطوطة أنّ رُبّان المركَب سيبقَى في هذا الميناء بعضَ الوَقْت، ثم يسافرُ بعدَ ذلك إلى الهند. ولمّا كانَ موعدُ الحجّ إلى بيت اللهِ قد اقْترَب، لم يَشأْ ابنُ بطوطةَ أن يَفُوتَه أداءُ

الفَريضة ، فقررَ أن يُنهيَ رِحلتَه في تلك السّفينة ، وأن يَمْضيَ في زيارةِ لمدنِ الخَليج ، حتّى يحلّ موعدُ الحَجّ ، فَيتّجه إلى الأراضِي المُقدّسة .

علمَ صاحبُه مولانا خضر بنيّتِه هذه ، فطلب مِن ابنُ بطّوطَة أنْ يَقبلَ رفقتَه في رحلتِه ، حتّى يُتاحَ له هو الآخرُ تأديةُ فَريضةِ الحجّ . ورحّبَ ابنُ بطوطةَ بصحبتِه ، لِمَا رآه مِن لُطفِه وحسنِ خُلُقِه .

سألَ مَولانا خضر «إلى أينَ نَتّجهُ يا صَاحبي؟ . » . قال ابنُ بَطوطةَ وهو يُشِيرُ إلى مدينةٍ بعيدةٍ تَبدو عندَ سَفْحِ أحدِ الجبال «إلى قَلْهَات . » تردّدَ مولانا خضر قليلاً قبلَ أنْ يقول «ولكنْ ألاَ ترَى أنّها بعيدةٌ عنّا ، وأنّنا لن نستطيعَ أنْ نَصلَ إليها قبلَ أنْ يَحِلّ المَساء .. وفي هذا ما تَعرفُه مِن مخاطرَ وَمُجازَفات ؟ ! » . قال ابنُ بَطّوطة بحَماسٍ وحَسْم «بل نَتحرّكُ على الفَوْر ! . فقد اتّفقت على استئجارِ أحدِ سُكّانِ هذه المِنْطَقَة ، يحملُ عنّا مَتاعَنا ، وَيَدُلُّنا على أقرب السُبُل ، بحيث نَصلُها قبلَ أنْ تَغْرُبَ الشّمس .. » .

قبلَ أنْ تبدأ الرحلةُ إلى (قلهات) ، حَرِصَ ابنُ بطوطَة على شِراءِ رُمحٍ طويلٍ مِن قَريةِ صُور . تَعجّبَ مولانا خضر لهذا ، وسأل «ألاَ تَكتَفي بما مَعَنا مِن أحْمال .. حتّى تُضيفَ إليها هذا الرُّمح؟ .. » ، فَهَمس ابنُ بطوطة في أذنِه «هذا الرمحُ ضروريٌّ في رِحلتِنا هذه .. أرهبُ به الدّليل ، حتّى لا يطمعَ في سَرقةِ مَتاعِنا ، أو إلحاقِ الأذى بنا ! .. » .

تحقّقت مخاوفُ ابنِ بطّوطة بعدَ قليلٍ مِن بدايةِ الرِحلة ، عندما وصلَ الركبُ إلى خليجٍ يَخرُجُ منَ البَحْر ، ويَظهرُ فيه أثرُ المدِّ والجَزْرِ

بشكل لافت. قال الدليلُ لابنِ بطّوطة «سأحملُ متاعَكم، وأمضي عابراً الخليجَ بسرعةٍ قبلَ أنْ يحلَّ موعدُ المدِّ العَالي، فيرتفعَ مُستوى الماء بما لا يسمحُ بالعُبور.. أمّا أنتما فالْحَقا بي خَوضاً فِي الماء.. وَأسْرِعا بِقَدْرِ ما تُطِيقان..».

أدركَ ابنُ بطوطةَ حيلةَ الدّليل، الذي يُريدُ أنْ يهربَ بمتاعِهما، فقال له «إنما تَعبُرُ وحدَك أولاً، وتتركُ المَتاعَ مَعنا.. فانْ رأينا امكانَ عبورِ الخَليجِ سَيْراً على الأقدام، عُدت لتأخذَ المَتاعَ ونَتحرّكَ معاً..»، أدركَ الدليلُ أنّ حيلتَه لم تَجُزْ على ابن بطوطة، فرجَعَ عنها، وعادَ إلى اقتراحِ الاتّجاه إلى الطريق العُلْويِّ في الجَبل.

وقد تأكّد ابنُ بطوطَة بعدَ ذلك مِن خِداع هذا الدّليل، عندَما شاهدَ بعضَ الرجالِ يَعْبُرون الخَليج، إلى أنَ يصلوا إلى موضعٍ مُعيّنٍ مِنه، فيُكمِلون رحلتَهم سِبَاحَة، لارتفاعِ الماء عن قامَة الإنسان. قبضَ ابن بطوطة على رمحِهِ بُقوّة، وشدّ جسمَه، وهزّ رُمحَه وصاحَ في الدليلِ بصوتٍ ثابتٍ «هيّا تقدّمْنا أيّها الدّليل!!»، فأتَى هذا بنتيجةٍ سَريعةٍ مَلْحوظة، إذ ظهرَ الخَوفُ على الدّليل، وأبدَى استعدادَه الكاملَ للإنْصِيَاع، والعملِ وَفْقاً لتعليماتِ ابنِ بَطّوطة.

ابن بطوطة

الموتُ عَطشاً في الصَّحْراء

تَحرّكَ الثّلاثةُ يَصْعَدُون الطريقَ الجَبليَّ الوَعْر، الذي أوصلَهم بعد مسيرةٍ طويلةٍ إلى صَحراءَ وَاسِعة، لا أثرَ فِيها لِلْحياة... توقّفَ ابنُ بطوطَة يسألُ الدّليل «وماذا سنفعَلُ بعدَ ذلك؟.» قال الدّليلُ بِبساطة «سنعبُرُ هذه الصحراءَ حتّى نصلَ إلى شاطئِ البحرِ مرّةً ثانية، حيثُ الطريقُ المُؤدِّي إلى مدينةِ قلهات التي تَسْعَيَان إليها..». تبادلَ ابنُ بطوطة النّظَراتِ مع صاحبِهِ الهنديّ، لكنَّهما لم يَجِدا مَناصاً مِن مُواصلةِ الرِحلة عبرَ هذه الصحراء.

طالت الرحلةُ عبرَ الصّحراء، تَحت أشعّةِ الشّمسِ المُحْرِقة.. واشتدّ العطشُ بابنِ بطّوطة وصاحِبِه، لِكنَّهما لم يَجِدا حولَهما في الصَّحراءِ الوَاسعةِ ما يُوحِي بأنّهما سَيَعْثُرانِ على قَطرةِ ماءٍ واحدةٍ على امتدادِ رحلتِهم فيها. وقال مولانا خضر وهو يَلهثُ من فَرْطِ الإعياء «لقد اشتدّ بي العَطَشُ يا صاحبي، وما أظنّني بقادرٍ عَلى مُواصلةِ هذه الرِحلةِ دونَ أن أبلّل فَمِي ولَو بِقَطَراتٍ قليلةٍ مِنَ الماء.. لِماذا لا نَصْرِف النظرَ عن هذه الرِحلةِ الشّاقة، ونعودُ مِن حيثُ أتينا؟.». فالتقطَ ابنُ بَطوطة أنفاسه وهو يقول «لقد فات أوان التراجع يا مولانا خضر.. أنظر خَلْفَكَ لِترى أنّ ما بَقِيَ أمامَنا لنعبره مِن هذه الصحراء، يكادُ يُقاربُ ما قَطَعناه منها!..».

كانت المُفاجأةُ المُفْرحة، أكبرَ مِن أن تُراودَ أحلامَ أيٍّ منهم... فقد شاهَدوا سَحابةً من الرمالِ الثّائِرةِ تَقتربُ مِنهما.. ظَنّاها في أولِ الأمر

مقدّمةً لعاصفةٍ رَمْلية.. لكنّ السَحابةَ تَكشّفتْ بعدَ قليلٍ عن جَمْعٍ منَ الفُرسانِ فوقَ جِيادِهم!..

توقّفَ الفُرسانُ عندَما أَدْركوا رَكْبَ ابنِ بطّوطة، واستَفْسَرُوا منه عن وِجْهتِه، ثم سألوه إذا كانوا يَحتاجون إلى شيء في رِحلتهم. اندفعَ مولانا خضر يقولُ في رجاء «قَطَرات ماءٍ أبلّلُ بِها شَفَتَيّ!!». أسرعَ أحدُهم رافعاً عَن سَرْجِ حِصانِه وعاءً جلديًّا فيه الكثيرُ منَ الماء، ودفع به إلى مولانا خضر وهو يقول «بل كل هذا الماء إذا شئت.. لكنْ حاذرْ أنّ تَعُبّ منه دَفعةً واحدة!. واحْرِصْ على أنْ تَتذوّقَه قَطرةً بقطرةٍ في أولِ الأمر.. حتّى لا تُصابَ بِضَرر وأنتَ في هذه الحالةِ من العَطَش..».

شرب الجَميع، وَبَلَّلوا وجوهَهم، فارتاحُوا وتجدَّد نَشاطُهم، ثم وَاصَلوا رحلتَهم بجِدٍّ عَبْرَ ما بقيَ من هذه الصّحراء، وقد تَصوّروا أنّهم سيُدركون قلهات قبلَ أنْ تَغرُبَ الشّمس. لكنّ الصَحراءَ قادَتْهم إلى أرضٍ وَعْرةٍ تعترضُها الخَنادقُ العَميقة.

وعندَما غَرَبَت الشّمس، عَرَضَ عليهم الدليلُ أنْ يتَوجَّهوا ناحيةَ البَحر، وأن يَسيروا بمحاذاة الشاطئ حتّى يَصِلوا إلى المدينة. اقتربوا منَ البحر، فاكتشفَ ابنُ بطوطة أنّ الساحلَ صَخريّ، تمتدُّ على طولهُ حجارةٌ ضَخْمة، فسألَ الدّليل «كيف تَظنّ أنّنا سنَمْضِي في سيرِنا يَا رجل؟!»، أجابَ الدليل «نتسلّقُ هذه الحِجارةَ واحداً بعدَ الآخر، حتّى نصلَ إلى المَدينة.. فهذا هو الطريقُ المُختصَرُ إليها..».

راحَ ابنُ بطوطةَ يُفكّرُ في هذا العَرْض، فارتفعَ صوتُ مولانا

خضر «لا يا صاحبي!.. أنا لا أقدرُ على تَسلّقِ هذه الصخورِ الضَّخْمة.. ستُدَقُّ عُنقي إذا ما انْزلقَت قَدمي فَوقَها..»، ومالَ ابنُ بطوطة إلى رأيِ صاحبهِ لسببٍ آخر. فقد خَشِيَ أن تَصعُبَ عليهما الحركةُ فوقَ هذه الصّخور، مما يتيحُ للدليلِ فُرصةَ الهربِ بأمتعتِهما. قال ابنُ بطوطةَ للدليلِ بِحَسْمٍ «إنّما نَتبعُ الطريقَ الآخرَ الذي كُنّا نَمضِي فيه..». وكان ذلكَ الدربُ يبعدُ عَن شاطئِ البحرِ مسافةَ مِيل.

سارَ الركبُ في الطريقِ التي اختارَها ابنُ بطّوطة، والتي تَمتدُّ بالقُربِ من سَفْحِ الجبل. لكنْ ما لَبثَ أنْ اختفَى آخرُ شُعاعٍ من الضّوء، وحلّ الظّلام، فتوقّفَ الدليلُ وهو يَقول «أرَى أنْ نَستريحَ هنا، وننامَ بعضَ الوقتِ حتّى يظهرَ أوّلُ شُعاعٍ لصباحِ الغَد، فنواصلَ رِحلتَنا..». نظرَ ابنُ بطوطةَ حولَه يبحثُ عن مكانٍ يَستريحون فيه، فَرأى بعضَ الرجالِ يَتحرّكون بَعيداً على سَفحِ الجَبل، وخافَ أنْ يَكونوا لُصوصاً، فقال «أرَى أن نُمضي بعضَ الشّيء حتّى نبتعدَ عن هذا المَكان، ونَتجنّبَ الطَّريق.. هكذا سنكونُ أكثرَ اطْمِئْناناً على أنفسنا ومتاعِنا خلالَ اللّيل..». لكنّ مولانا خضر تأوّه وهو يَقولُ «بل نبقَى هُنا يا صاحِبي.. لم أعدْ قادراً على السّيرِ خُطوةً أُخرْى إلى الأمَام..».

استجابَ ابنُ بطوطةَ لرجاءِ صاحبِه، واختارُوا شَجرةً كبيرةً قَريبةً من الطّريق، ارتمَى مَولانا خضر عندَ ساقِها يَشكو من العَطَش والإجهاد. أمّا ابنُ بطوطةَ فَرغم كلِّ ما كانَ يَشعُرُ به من إعياءٍ وإرهاقٍ شَديدين، فقد آثَرَ أن يُبديَ التجلّدَ والقوّة حتّى يُخيفَ الدّليل.

الدخولُ مِن عينِ السّمكة !.

مضَت على ابنِ بَطوطة ليلةٌ قاسيةٌ طَويلة ، لم يَغْمضْ له فيها جَفْن !..

جَلس مستنداً إلى ساقِ الشّجرة ، وقد وَضَعَ المتَاع إلى جوارِه ، بينما حَرِصَ على أن ينامَ الدّليلُ بينه وبين صاحبِه مَولانا خضر. وأمسكَ الرّمحَ بيدهِ ، وبقيَ ساهراً حتّى الصباح ، وكلّما لاحظَ حَرَكةً للدليل ، تكلّمَ معه حتّى يُفهمَه أنّه مستيقظٌ مُنتَبه ، لا تجوزُ عليه أيُّ حيلةٍ أو خدْعة.

عندَما طَلعَ النّهار ، تَحرّك الرّكبُ إلى المدينة ، واطمأنّتْ نَفسُ ابنِ بطوطةَ عندَما رَأى أعداداً منَ الناس ، تأخذُ طريقَها إلى المدينة على نفسِ الدَّرب. وعندَمَا وَصَلوا إلى مدينةِ قَلْهات ، كان ابنُ بطوطَة يَتأوّهُ بصوتٍ مرتفعٍ كُلّما رَفَعَ قَدماً أو وَضَعَ الأخرى على الأرض ، وفي هذا يقولُ «ثمّ وَصلنا إلى مدينةِ قلهات ، فأتيناها ونحن في جَهْدٍ عظيم ، وكنت قد ضاقَت نَعلِي على رِجلي حتّى كادَ الدَّمُ أن يخرجَ مِن تحتِ أظافرِها !.».

عندَما وَصلوا إلى بابِ المدينة ، كانَ ابنُ بطوطة يُمنِّي النفسَ بأنْ يصلَ في أسرعِ وقتٍ إلى فندقٍ أو مكانٍ يستريحُ فيه مِن عَناءِ هذه الرِحلةِ الشّاقّة. لكن ، ما إنْ هَمّوا بعبورِ الباب ، حتّى تَصدّى لهم الحارسُ المُوكّلُ بالْبَاب ، وقال لابنِ بطوطة «لا بدَّ لك أنْ تَذهَب مَعي إلى أميرِ المَدينة ليعرفَ قَضيتَك ، ومِن أين قَدِمت...». فلم يجدْ

ابنُ بطّوطةَ مَنَاصاً من أنْ يَستجيبَ له . وسارَ الركبُ خلفَ أحدِ الحرّاسِ حتّى وَصَلوا إلى مَوضعِ أميرِ المَدينة .

يتحدّثُ ابنُ بطوطَة عَن لقائِه بأميرِ المدينة ، فيقول «.. فَذَهبت مَعه إليه ، فرأيتُه فاضلاً حَسَنَ الأخلاق ، وسألني عن حَالي وأنْزلَني ، وأقمت عندَه ستةَ أيامٍ لا قُدْرةَ لي فِيها على النّهوضِ على قَدميّ لِما لَحِقهما مِنَ الآلام .. » . عندَما استعادَ ابنُ بطوطةَ عافيتَه بعضَ الشّيء ، قامَ بجولةٍ واسعةٍ في المَدينة . فوجد قلهات مدينةً ساحليّة «.. حَسنةَ الأسواق ، لَها مسجدٌ مِن أحسنِ المساجد ، حيطانُه بالْقَاشَاني ، وهو مرتفعٌ يُنظَرُ منه إلى البحرِ والمَرْسَى .. وأكلت بهذه المدينةِ سَمكاً لمْ آكلْ مثلَه في إقليمٍ من الأقاليم ، وكنت أفضّلُه على جميعِ اللّحومِ فلا آكلُ سِواه ، وهم يَشْوُونه على وَرَقِ الشّجر ، ويَجْعلونه على الأَرُزْ ويأكُلونه » .

ويَرى ابنُ بطوطَة أنّ أهلَ قلهات يعتمدون في معيشتِهم على التّجارةِ وعلى ما يمرُّ بمدينتِهم من المراكبِ التجاريةِ التي تَعبُرُ المحيطَ الهنديّ ، فيقول «إذا وصلَ إليهم مرَكَبُ فَرحوا به أشدّ الفَرح ، وَكلامُهم لَيس بالفُصْحى مع أنّهم عَرب » . وبالقربِ من قلهات يَزُورَ ابنُ بطوطَة قَرْية (طِيبَى) التي يقولُ عنها «وهي من أجملِ القُرىَ وأبدعِها حُسْناً ، ذاتُ أنهارٍ جارِيَة ، وأشجارٍ ناضِرة ، وبساتينَ كَثيرة ، ومِنها تُجلبُ الفَواكهُ إلى قَلْهات » .

بعدَ أن تَنْتهيَ زيارةُ ابنِ بطوطة لمدينةِ قلهات ، وبعدَ أنْ يَستردَّ مولانا خضر عافيتَه من أثرِ الرحلةِ السابقةِ المُتْعِبة ، يبدآن تَرْحالَهما إلى



هرمز
نزوا
صور
ظفار
صنعاء
بحر القلزم
بحر الهند
رحلات ابن بطوطة
مقديشو
منبسى

بلادِ (عُمَان)، فيَصلانها بعدَ مَسيرةِ سَبعةِ أيامٍ في صَحراءِ مُترامية الأطْراف، ويستقرّان في مَدينةِ (نَزْوَا) عاصمةِ البِلاد، فيصفُها ابنُ بطوطةَ قائلاً «وهي خَصِبةٌ ذَاتُ أنهارٍ وأشجارٍ وَبَساتينَ وحدائِقِ نَخْلٍ وفاكِهَة.. لها أسواقٌ حسنةٌ ومساجدُ مُعظّمةٌ نَقِيّة. وعادةُ أهلِها أنّهم يأكلون في صُحونِ المساجد، يأتي كلُّ انسانٍ بما عندَه، ويجتمعون للأكلِ في صَحنِ المَسجد، ويأكلُ مَعهم الواردُ والصَّادر».

وسلطانُ البلادِ في ذلك الحِين، كان عَربيًّا مِن قبيلةِ الأزْد واسمُه أبو محمد بنُ نبْهَان. تَلْفِتَ عادَاتُ ذلك السلطانِ انتباهَ ابنِ بطوطة، فيقول «... وعادتُه أنْ يَجلسَ خارجَ بابِ دارِه في مجلسٍ هُنالك، ولا حاجبَ أو وزير، ولا يمنعُ أحداً منَ الدخولِ إليه مِن غريبٍ أو غيرِه، ويُكرمُ الضيفَ على عادةِ العَرَب، ويُعيّنُ له الضِّيافة، ويُعْطِيه على قَدْرِه».

مِن بلادِ عُمَان يرحلُ ابنُ بطوطَة إلى بلادِ (هُرمز الجَديدة)، التي تَلتقِي عندَها السفنُ القادمةُ مِن الهندِ والسِّند، ومنها تَنتقلُ البضائعُ إلى فارسَ والعِرَاق. والمدينةُ عِبارةٌ عن جَزيرةٍ واسعةٍ تُحيطُها المِياهُ من كلِّ جانب، وأرضُها لا تَصلُحُ للزراعةِ نَتيجةً لملوحةِ الماءِ المُشبَّعةُ به أراضِيها. ويَرى ابنُ بطوطَة في المدينةِ جبالَ المِلح الذي يُطلقُ عليه المِلحُ الدّارَاني، والذي تُصنعُ منه أواني الزِينةِ وقواعدُ القَناديل».

ولمَّا كانت الزّراعةُ شاقّةً في مِثلِ تِلك التُربة، فانّ الطعامَ يَجيءُ إليها من البَصْرةِ وعُمَان. ويَحكي ابنُ بطوطَة عن هيكلِ سَمَكةٍ عِمْلاقة شاهدَها هناك، فيقول «ورأيت من العَجائب عندَ بابِ الجامعِ فيما بَيْنَه

وبين السّوق، رأس سَمكةٍ كأنّه رَابية، وَعَيناه كأنّهما بَابَان، فَتَرى النّاسَ يَدْخلون من إحداهما، وَيَخْرُجون من الأُخرى!!.».

بالحَرْب.. أمْ بالدّسِيسَة؟.

عندَما وَصَل ابنُ بطوطة إلى هُرْمُز، وجدَ سلطانَها يَتهيّأ لحربٍ يَشنُّها على ابنِ أخيه نظام الدّين، ونتيجةً لِهذا استولَى الغَلاءُ على الجَزيرة، وارتفعت أسعارُ السِّلعِ ارتفاعاً مَلْحوظاً. وعَرَفَ ابنُ بطوطة أنّ الحربَ القادمةَ هي حَلْقةٌ من سِلسلةِ حُروبٍ دَخلَ فيها سُلطانُ الجَزيرةِ قُطْبُ الدّين تَمَهن بنُ طوران شاه. وقد نَشأت هذه الحروبُ عندَما كان السلطانُ يَقومُ ذاتَ مَرّة بنزهةٍ بحْريّة، فانقلبَ عليه أخُوه نظامُ الدّين، واستطاعَ أنْ يكتسبَ ثقةَ أهلِ الجَزيرة، فبايَعه جيشُ الجزيرةِ سُلْطاناً عَليها.

خاف السلطانُ قُطبُ الدّين على حياتِه إنْ هو حاولَ الاقترابَ من الجَزيرة، فلجأ إلى مدينةِ قلهات، والتي تَدخلُ ضمنَ مُلكه. أقامَ السلطانُ عِدّة شهورٍ في قلهات يُجهزُ حملةً بَحرية، وعندَما حاولَ غَزْوَ الجزيرة، قاتَلَه أهلها تحتَ قيادةِ أخيه فهَزموه، واضْطُرَّ إلى العودَة مرّة ثانيةً إلى قلهات، تكرّرت محاولاتُ السلطانِ لاستعادةِ مُلْكِه، فلم تُكلّلْ أيٌّ مِن هذه المحاولاتِ بالنّجَاح.

وهنا، فكّر في أنْ يَنتصرَ على أخيه بالحيلةِ والدَّسِيسة، إذا كانَ

الانتصارُ الحربيّ قد استعصَى عَليه، فأرسَل الرّسائلَ إلى بعض نساءِ أخيه، وَحَضّهن على دَسِّ السُمِّ لَه في طَعامِه. وهكذا استطاعَ السلطانُ قُطبُ الدّين أن يدخلَ الجَزيرة، ويستعيدَ عاصمةَ مُلكِه بعدَ أنّ ماتَ نظامُ الدّين مَسْموماً، غيرَ أنّ أبناءَ أخيه نظامِ الدّين فرُّوا بخزائنِ المَالِ وبعضِ الجُندِ إلى جزيرةٍ أُخرَى تُدْعى (قَيْس)، وهي مَركَزٌ للغوصِ في أعماقِ البحرِ لاستخلاصِ الّلآلئ، وصارُوا يَنقضّون على قَوافلِ التّجارة القادمةِ إلى هُرْمُز الجديدةِ والخارجةِ منها، ويُهاجِمون المدنَ التابعةَ للسُّلطان. وقد شَهدَ ابنُ بطوطةَ إعْدادَ الحملةِ التي جَهّزها السلطانُ للقَضاءِ عَلى هؤلاءِ المُتمرِّدِين.

عندما انتهت زيارةُ ابنِ بطوطَة لمدينةِ هُرمز الجديدة، اعتزمَ زيارةَ مدينةٍ تُدعى (خَنْج بَال). وعندَما أبدَى رغبتَه هذه وَسْطَ جمعٍ مِن أهلِ الجزيرة، أَبْدَوْا تَخوّفَهم، وَنَصحُوا ابنَ بطوطةَ بالرّجوعِ عن عَزمِه. هنا ثارت روحُ المُغامرةِ لدَى ابنِ بطوطة، وأصرّ على مَعرفةِ أسبابِ هذا التّخوفّ.

قال له واحدٌ مِن أهل الجَزيرة «انّ الوصولَ إلى خَنْج بال يَقتضِي السفرَ في صَحراءَ مَهجورةٍ لمدّة أربعةَ أيّامٍ بليالِيها..». فقال ابنُ بطوطةَ «ولكنّي في رِحلاتِي السابقةِ قَطعت الكثيرَ مِن الصحارِي... واجترتها سَليماً بإذنِ الله...»، فقاطعَه الرجلُ قائلاً «هذه الصحراءُ يَختلفُ أمرُها.. ففي هذا الوقتِ منَ السنةِ تهبّ عليها ريحُ السَّمُوم.. وهي رياحٌ قاتلةٌ قَضَت علَى الكَثيرين ممّن فكّروا في عُبورِ الصّحراءِ في هذا الْوقْت.. لذا تَنتشرُ في هذه الصحراءِ قُبورُ الّذين حاوَلُوا عُبورَها...

أَنَا لا أحاولُ إخَافَتَكَ.. لكنّ الذين نَجَوْا مِن مثلِ هذه الرِحلةِ يَقولون إنّهم عندَما كانوا يَسْعَوْن إلى دَفنِ رفاقِهم الذين ماتُوا وَسَطَ هذه العَواصف، كانت أعضاءُ المُتوفّى تَتساقطُ منفصلَةً عن جَسدِه!!.».

وقبلَ أنْ يتكلّمَ ابنُ بطوطة، أسرعَ رجلٌ آخرٌ يقول «هذا بالإضافة إلى اللُّصوصِ وقُطّاعِ الطُرقِ الذين يَنْتَشرون في هذه الصّحراء المُميتَة..»، فقال ابنُ بطّوطة «ولكنْ... كيف يَتحمّلُ هؤلاء اللّصوصُ مخاطرَ رِياحِ السّمومِ هذه؟!.»، أجابَ الرّجل «لَهم وَسائلُهم الخَاصةُ التي تَدَرّبوا عليها.. ألمْ تسمعْ بقصّةِ قاطعِ الطريقِ الشهيرِ جَمال اللُّك؟..».

هزَّ ابنُ بطّوطةَ رأسَه نَفْياً، فواصلَ الرجُل حَديثَه قائلاً «جمال اللُّك هذا كان من أهلِ سِجستّان.. وَلَقبُ اللُّك هذا مَعناه الأقطعُ بِلغةِ أهلِ سجْستان، فقد كانت احدَى يَديد قد قُطِعت في مَعركةٍ خاضَها... وكانت لجمالِ اللُّك جماعةٌ كبيرةٌ مِن فُرسانِ الأعرابِ والأعاجم يَقطعُ بهم الطُرق..»، قاطعَه رجلٌ آخر قائلاً بحَماس «لكنّه لم يكن مِثلَ غيْرِه من قُطّاعِ الطرقِ المُنتشرين حاليًّا في هذه الصّحراء!..».

قال الرجل مُؤَمِّناً برأسِه «نَعم!. نعم أعرفُ ذلك!. لقد كان يَقطعُ الطريقَ على الذين يَكْنِزون المالَ دوُن أن يَدْفَعوا عنه الزّكاةَ التي فَرضَها الدين.. كان يَستولي على ما يقعُ في يَدِه مِن مالِهم، ثم يُوزّعُه على الفُقراءِ والمُحْتاجين... بل كان يَبْني الزّوايا ويُطعمُ القادمَ والعابرَ من الأموالِ التي يَسْلِبُها..».

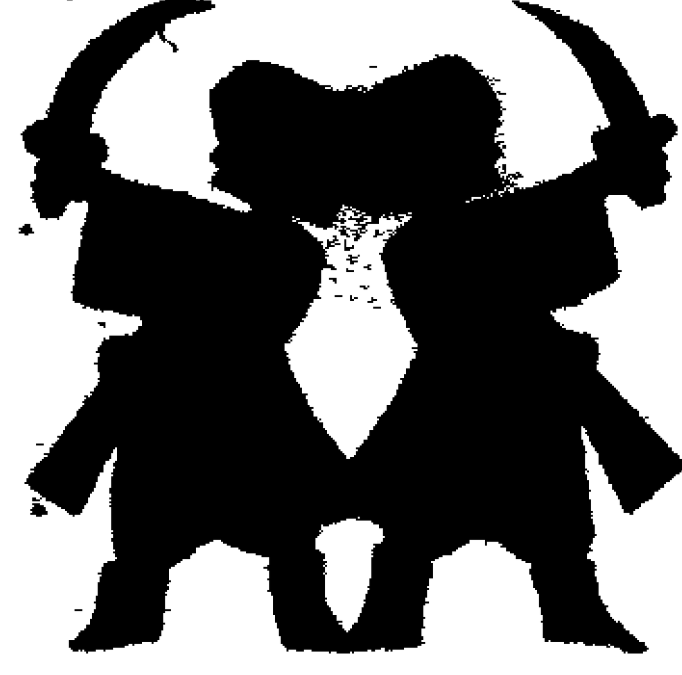
ضَحك واحدٌ من المَوْجُودين وهو يقول «لقد كان ذكيّاً.. يَسلُكُ مع فرسانِه الطرقَ التي لا يَعرفُها أحدٌ سِواهم في الصّحراء. وكان يَدفن قِرَبَ الماءِ في مَواقعَ يعرفُها وَسَطَ الصّحراء، فاذا تَبعَه عَسكَرُ السُّلطان، فرّ أمامَهم إلى عُمْقِ الصحراء، لا يُعجزُه الخَوضُ فيها، وهو يجدُ في كلِّ مكانٍ مَا كانَ قد أخفاه مِن ماء... أمّا العَسكر، فبعدَ أن يُمْضُوا في ملاحقتِه بعضَ الْوَقت، يَنْفَدُ ما لَديهم مِن ماء، فَيَرجِعون مِن حيث أَتَوْا خوفاً من الهَلاك... وهكذا بَقِيَ جَمال اللُّك زمناً طويلاً يَسْتعصِي على كُلّ ملوكِ المِنْطَقَة..».

* * *

كان ابنُ بطوطَة يُتابعَ ذلك الحَديث، فتثورُ في نفسِه روحُ المُغامَرة، وَعِشقُ مُواجَهةِ المَخاطِر. وعندَما انْتَهَوْا مِن حديثِهم، الْتَفَتُوا إليه فوجَدُوه صامِتاً. سألَه واحدٌ منهم «وماذا انْتَوْيت أَيُّها الرجلُ الكريم؟.».

قالَ ابنُ بَطّوطة وعيناه تَلْمَعان بالتحدِّي «غداً بإذنِ اللهِ أبدأُ رِحلتي عَبْرَ هذه الصَّحْراء!!..».

ابن بطوطة

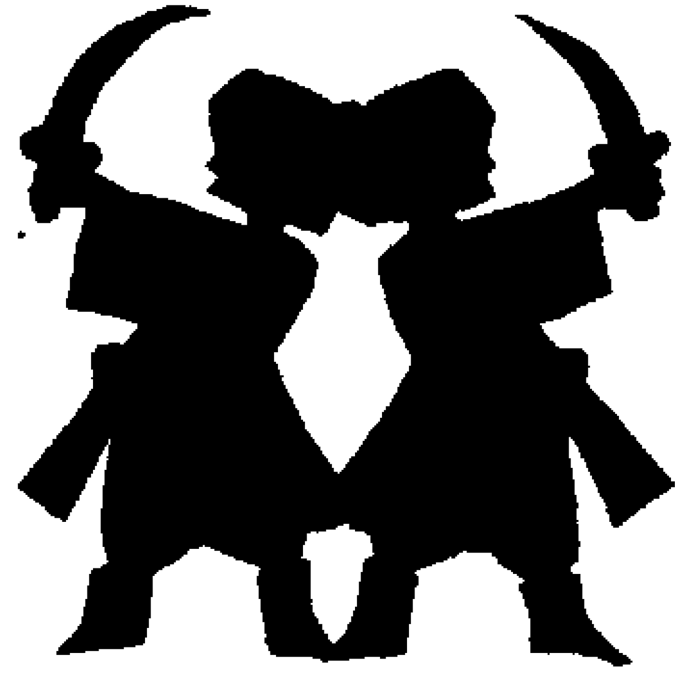


مغامرات
ابن بطوطة

٦

جبال الثلج

اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان



الزَّاهدُ أَبُو دُلَف

كان ابنُ بَطّوطةَ قد أَنهَى زيارتَه لمدينةِ هُرْمُز التي تَقعُ على الشَّاطىءِ الشّرقيّ من خليجِ العَرب. وفي هُرْمُز، سَمعَ عن شَيخ عابدٍ زاهدٍ يُدعَى أبا دُلف مُحمَّداً بناحيةِ خنج بال، فاعتزمَ زيارتَه والتبرّكَ بلقائِه. كان يجلسُ بينَ جمعٍ منْ أصحابه عندَما أعلنَ عن عزمِه، فَحَاولُوا ثَنْيَه عن هذا العَزْم، وإقناعَه بخطورةِ الرحلةِ التي يَنوِي القيامَ بِها.. فالطريقُ إليها تَعترضُه صَحراءُ مُقْفِرة، تَهُبُّ عليها رياحُ السّمومِ التي تَقضِي على القوافلِ بما فِيها من آدميّين ودَوَابّ. والقافلةُ إذا صادفَها حُسْنُ الطّالع، ونَجَت من هذه الرِّياح، لا تسلمُ مِن قُطّاع الطُرقِ الذين يَنْتشِرُون في هذه الصَّحراء.

لكنَّ هذه المخاوفَ لَم تَثْنِ ابنَ بطّوطَة عن عَزْمِه، وعندما لَمَسَ الصِّحابُ تَصميمَه عَلى القيامِ بهذه الرِّحْلة، نَصَحوه بأنْ يَعتمدَ على قافلةٍ مِنْ سُكانِ تلك البلادِ الّذِين يُعْرَفون بالتّرْكُمَان، لِمَا يَتمتّعُون به من شَجاعةٍ نَادِرَة، ومعرفةٍ جيّدةٍ بالطَّريق.



استجابَ ابنُ بطّوطَة لنصيحتِهم، وَبَدأت الرِحلةُ عَبْرَ الصحراءِ في جوٍّ شَديدِ الحَرَرة، فوصلَ الرَّكبُ إلى المحطةِ الأولَى دَاخلَ هذه الصَّحراء، إلى البلدةِ الصَّغيرةِ التي تُسمَّى (كُورِسْتَان). بقيَ الرَّكبُ في هذه البلدةِ بَعْضَ الوقتِ يَستمتعون بأنهارِها الرائقةِ وبساتينِها المُورِقَة. ثُمّ واصَلوا سَيرَهم بعدَ ذلك عَبرَ الصحراءِ علَى مَدَى ثلاثة أيّام، حتّى وَصَلوا إلى مدينةِ (لار) التي تَنتهِي عندَها الصَّحراء، فوجدَها ابنُ بَطّوطَة مدينةً كبيرةً تكثُرُ بها عيونُ الماءِ والأنهارُ والبَساتينُ والأسواقُ المُرتَّبة، التي تَبيع كلَّ ما يحتاجُه الإنْسَان.

عندَما استقرَّ بِهم الحالُ في مدينةِ لار، مَضى ابنُ بطوطَة يَستعلمُ مِن أهلِ المدينةِ عن الشيخِ الزاهدِ أبي دُلف، فَقالوا أنّه يقيمُ فِعلاً في خَنْج بال، ولكنَّ له بمدينتِهم زاويةً يقومُ على أمرِها ابنُ الشَّيخ، أبو زيدٍ عبدُ الرَّحمن.

فرِحَ ابنُ بَطّوطةَ بهذه الأَخبار، وتوجَّهَ لِتوّهِ إلى الزاويةِ حيث الْتقَى بأبي زَيْد ومعه جَماعةٌ مِنَ الفُقَراء. كان الوقتُ عَصْراً عندَما وصلَ إلى الزّاوية، وما أنْ استقرَّ بها حتَّى رأَى الفُقراءَ يَنْصرِفون واحداً بعدَ الآخر. راحَ يسألُ الشيخَ عن أخبارِ أبيه، وعن أحوالِ زَاويتِه في خنج بال، فمرَّ عليهما وهما في ذلك وقتٌ لَيس بالقليل. ثم شاهدَ ابنُ بطوطةَ هؤلاءِ الفُقراءَ وهم يَتَوالَوْن على الزَّاوية، وقدْ حَمَلَ كلٌّ منهم عدداً كبيراً من الأرغفةِ بينَ يَديه..

قبلَ أنْ يسألَ ابنُ بطوطَة عَن تفسيرِ لهذا، قال الشيخ «هَذه هي عادتُنا في مدينةِ لار.. في عصرِ كلِّ يومٍ ينطلقُ هَؤلاء الفقراءُ إلى بُيوتِ

المدينةِ بَيتاً بيتاً، فيقدِّمُ إليهم كلُّ بيتٍ رَغيفاً أو رَغيفين.. تتجمّعُ كلُّها في الزّاوية، ثم يَجرِي توزيعُها على فقراءِ المدينة، وزوّارِها.. وقد استجابَ أصحابُ البيوتِ لهذا التّقليد، فَصارُوا يَستعِدّون بزيادةٍ عن احتياجاتِهم من الخُبز، لتقديمه إلى الزاويةِ في كُلِّ يوم..».

وعندَما حلَّ المَساء، وجدَ ابنُ بطوطَة الزاويةَ قد ازْدَحَمت بأهلِ التّقوىَ والصَّلاحِ من سكّانِ المدينة، يَخْتَلِطون بالفُقَراء، وقد أتى كلٌّ منهم ببعضِ المال، يَهَبُه لواحدٍ من أبناءِ الزاوية، فَيُدبِّرون بما تَجمّعَ لَديهم طَعاماً لِلْجَميع. بعد تَناوُلِ الطَّعامِ يَنشغلُ الجميعُ في الصّلاةِ والعِبادةِ وذِكرِ اللهِ طَوالَ اللّيل، ولا يَنصرفُ أيٌّ مِنهم إلاّ بعدَ أنْ يُؤدي الجميعُ صَلاةَ الصُّبح.

سافَرَ ابنُ بَطوطَة بعدَ ذلك إلى خَنْج بال، وعندَ وُصولِه تَوجَّه إلى زاويةِ الشَّيخ أبي دُلَف. دخلَ ابنُ بطوطَة الزَّاوية، فرأى شَيْخاً مَهِيباً يَجلسُ على تُرابِ الأرضِ دُونَ فِراش، وعليه جُبّةٌ منَ الصوفِ الأخضرِ البَالي المُمزَّق، وفوقَ رأسِه عِمامةٌ من الصوفِ الأسودِ، فَعَرفَ فيه الشيخَ أبا دُلف، أَلقَى السَّلام، فردَّ عليه الشيخُ بأحسنِ السّلام. واتّصلَ بَينهما الحديثُ طَويلاً، وابنُ بطوطَة يجيبُ عن استفساراتِ الشّيخ، عن البلادِ التي زَارَها، والفقهاءِ الذين التقَى بِهم.


نَزَلَ ابنُ بطوطَة في هذه الزَّاوية، وفي موعدِ كُلِّ وَجْبة كان أحدُ أبناءِ الشّيخِ يُقْبِلُ فيضعُ أمامَ ابنِ بطوطَة الطعامَ والفاكهة، وكان ابنُ بطوطَة يجدُ هؤلاء الأبناءَ غايةً في الخُشوعِ والتَّواضُع، يُكْثِرون الصّلاةَ والصِّيام. ومَعْ مرورِ الأيامِ استطاعَ ابنُ بطّوطةَ أنْ يتعرَّفَ على جَوانبَ

عديدةٍ مِنْ شؤونِ هَذه الزّاوية.

وَقدْ أَثارت دَهْشتَه قدرةُ العَطاءِ والكرمِ الهائلةُ التي تَتوافرُ لهذا الشَّيخ، وحجمُ المالِ الذي يُنْفقُه على الفُقراءِ والمُحتاجين. عَن هذا يقولُ ابنُ بَطّوطةَ «نَفقتُه في هذه الزاويةِ عَظيمة، وهو يُعطِي الجَزيل، ويَكسُوا الناس، وَيُرْكِبُهم الخَيْل، ويُحْسِنُ إلى كلٍّ واردٍ وَصَادِر، ولمْ أرَ في تلك البلادِ مِثْلَه!.».

ثم يَحكي ابنُ بطوطَة عن زاويةٍ أُخرَى سَمعَ عنها، وزارَها في هذه المدينة.. ذَهَبَ إليها ذاتَ مساء، فوجدَ شيخَ الزاويةِ يَتوسَّطُها، ومِنْ حولِه جَماعةٌ من الزُهَّادِ والمُتعبِّدين، تَظهرُ عليهم علاماتُ الوَرعِ والتّقوى. وَهُمْ مِن فَرْطِ العِبَادة، قد اصفرَّت وجوهُهم، ونَحلَتْ أجسامُهم.. رَآهم يَسْتَغْرِقون في صَلاتِهم وذِكْرِهم حتّى تسيلَ دُموعُهم غَزيرةً عَلى وُجوهِهم..

جلسَ ابنُ بَطّوطةَ مع شَيخِ هذه الزّاوية يَتبادَلان الحَدِيث، ثم أمرَ الشّيخُ بتقديمِ الطَّعام، وعندَما وصلَ الطّعام، قال الشيخُ لِمن حولَه «أُدْعُوا لِي ولدِي مُحمّداً..»، فأتَى ابنُه الذي كان مُعْتزلاً في رُكنٍ مِن أركانِ الزّاوية، وكأنّما قد خَرَجَ من القَبْر مِن فرطِ ما أَنْهكتْه العِبَادة، فسلّمَ وَقعَد، فقال له أبوه «يا بُنيَّ شَارِكْ هؤلاء الوَاردِين في الأكلِ تَنَلْ مِن بَرَكاتِهم...»، وكانَ الابنُ صَائماً، فأفطرَ مع ابنِ بَطوطةَ ومَنْ كانَ مَعَه.



في مَغاصِ الجَوْهَـــر

مِن خنج بال ، واصَلَ ابنُ بَطوطَةَ رِحلتَه مُصعِّداً على امتدادِ الشَّاطئِ الشّرقيِّ لخليجِ العَرب ، حتّى وصلَ إلى مَدينةِ (سيرَاف) ، والتي كانت تُدْعى أيضاً باسمِ (قَيْس). وجدَها ابنُ بَطّوطَة مدينةً فَسيحة ، جميلةَ المَوْقِع ، تتميَّزُ دُورُها بالحدائقِ اللَّطيفة ، وتَتوزَّعُ في أنحاءِ المَدينةِ الرَّيَاحِينُ والأشجارُ المُورِقةُ ، وعيون الماءِ المُنْبَثِقةُ من جبالِها والتي يَشْربُ مِنها أهلُ المَدينة . ووجدَ ابنُ بطوطَة أهلَ المدِينةِ خَليطاً من العَرَبِ والفُرْس.. وَمِنْ بينِهم عَربُ بَنِي سفاف ، الّذين يَغُوصُون في البحرِ لاستخراجِ اللُّؤْلُؤ.

أحبَّ ابنُ بَطوطَة أنْ يَرَى كيف يَغُوصُ هؤلاءِ لصيدِ اللُّؤلؤ ، فسعَى إلى أحدِ العَامِلين في هذه المِهْنة ، واتّفقَ مَعه على أنْ يَصْحَبَه في اليومِ التالي إلى البحر ، ليشهدَ تفاصيلَ عَمَلِهم .

في صباحِ اليومِ التّالي ، تَحرَّكَ بِهم الْمركَبُ حتّى وَصَل إلى عُرْضِ الخَلِيج ، في مَوقعٍ بَين سِيراف و (الْبَحْرَين) ، فَرأى ابنُ بطوطَة تَجمُّعاً من المراكبِ العَديدةِ التي تَسْعَى إلى نفسِ الغَرَض ، وقد أَتى من فارسَ والبَحْرَين والقَطِيف .

بدأَ الغَوّاصُ استعدادَه للعَمل بأنْ وَضَعَ على وَجهِه قِناعاً من عِظامِ السُّلَحْفَاةِ البَحرية ، بِه فَتَحاتٌ للأنفِ والعَيْنَين ، ثم رأى مَنْ على المركَبِ يَرْبِطُونه مِن وَسَطِه بحبلٍ طَوِيلٍ مَتِين. وتناولَ الغطّاسُ مِن أحدِ الرجال مِخْلاةً لها حَبلٌ وَضَعُه حولَ رَقَبتِه ، لتتدلَّى المخلاةُ على

صَدْرِه، ثم تَناوِلَ منه قِطعةً منَ الحديدِ أمسكَها بيدِه. وعندَما اقتربَ العطّاسُ مِن حَافَةِ المركَبِ تَأَهُّباً للغَوْص، ناولَه أحدُ المَوجودين شيئاً أَشبَهَ بالمِشْبَكِ مَصنوعاً مِن عظامِ السُّلَحفاةِ، ضَغَطه حولَ فَتْحَتَيْ أَنفِه، ثم قَفَزَ إلى الماء.

كُلّما غَاصَ الرجلُ في البَحر، كان الحبلُ المَربوطُ في وَسَطِه يتدلّى مِن جانبِ المركَبِ بانتظام، حتّى تَوقّفت حَرَكةُ الحَبْل، فعلمَ ابنُ بطوطَة أنَّ الرجلَ قد وَصَلَ إلى قاعِ البَحْر. طالت غَيبةُ الرجلِ في قاعِ البحر، فَظهرِ القلقُ على ابنِ بَطُّوطة، وسألَ «ما الذِي حَدث؟.. لِماذا طالَتْ غيبتُه هكذا؟.. هل يستطيعُ أنْ يبقَى كُلَّ هذا الوقتِ دونَ أن يَتنفّس؟..»، أجابَه أقربُ المَوجودين إليه «هذه هي موهبةُ الغَطّاسِ الأولى التي يَعملُ على تَنميتِها وَتطويرِها.. قُدرتُه على البقاءِ تحتَ الماءِ زمناً طويلاً بِالنِّسبةِ لِغَيْرِهِ».

سألَ ابنُ بطّوطة «وماذا يَفعلُ الآن؟..»، أجاب «إنّه يَبحثُ عن المَحَارِ الذي يُوجدُ بِه اللُّؤلُؤُ بين الصُّخور، ووَسط رمالِ الْقَاع.. قد يجدُ المحارَ مُلتصقاً بالصَّخر، فَيخلعُه مُستخدِماً قِطعةَ الحديدِ التي رأيته يُمْسِكُ بها.. ثم يضعُ الْمَحَارَ في المِخْلاَةِ التي عَلى صَدرِه..».

وبينما هُما في هذا الحديثِ، اهتزَّ الحَبلُ اهتزازاً وَاضحاً، فَرأى ابنُ بَطُّوطةَ الرجالَ الذين على ظَهْرِ المركَبِ يَتَعاونون في جذبِ الحبلِ بقوةٍ وَسُرعة.. وَعَرَفَ أنَّ هَزَّ الحبلِ هو الإشارةُ الّتي يُعطيها الغطّاس عندَما يَنتهي مِن عَمِلِه، وَيضِيقُ نَفَسُه، فلا يُطيقُ البقاءَ تَحْتَ الماء أكثَرَ مِن ذلك.

عندما صَعِدَ الغوّاصُ إلى سَطْحِ المركَب، ارتمَى على الأرض يَلتقطُ أنفاسَه، بينما أخذَ صَدرُه يَعْلُو ويَهْبِطُ في حَركَةٍ وَاضِحة. وتناولَ أحدُ الرِجالِ المِخلاةَ التي في عُنُقِه، فأخرجَ ما بِها من الأَصْدَاف، وَبِسلاحٍ في يدِه أخذَ يَفتحُها واحدةً بَعدَ الأُخْرَى، لِتَظْهَرَ بداخلِ كُلٍّ واحدةٍ مِنها لؤلؤةٌ وَسْطَ لَحْمِ المَحَار، تَلمعُ ببرقٍ يأخذُ الأَبْصَار. وَعَرَف ابنُ بطوطة أنّ مَنْ يَصطادُ اللؤلؤَ في هذه المِياه، عليه أنْ يُقدمَ خُمْسَ ما يحصُلُ عليه من لؤلؤٍ إلى سُلطانِ سِيرَاف، كضريبةٍ وَاجبةِ الأدَاء. ثم يبيعُ الباقي إلى التُجّارِ الذين يَنْتظرون المراكبَ على شَاطئِ سِيراف.

بعدَ انتهاءِ زيارتِه لِسيراف، يسافرُ ابنُ بَطّوطة إلى مدينة البَحْرَين، وَيصفُها فيقول «وهي مدينةٌ كبيرةٌ حَسَنَة، ذاتُ بساتينَ وأشجارٍ وأنهار، وماؤُها قَريبُ المُونة، يُحْفَرُ عليه بالأَيْدي فيوجد، وبها حدائقُ النَّخلِ والرُمّان والأُتْرُجّ، ويُزرعُ بها القُطْن. وهي شديدةُ الحرّ كثيرةُ الرِمال، رُبّما غَلَب الرملُ على بَعضِ مَنازِلها. وكان فيما بَينها وبين (عُمَان) طريقٌ اسْتولَتْ عليه الرِمالُ وانْقَطَع، فلا يُوصَلُ من عُمَان إليها إلاّ في البَحْر..». وتتواصلُ رِحلةُ ابنِ بَطّوطَة بعدَ ذلكَ فَيسافرُ إلى (القَطِيف) ثُم إلى (هَجَر) التي يُطلقُ عليها أيضاً اسمُ (الحَسَا)، وبها من النَّخيلِ ما لمْ يَرَه في مدينةٍ أخرى. وهذا هوَ مصدرُ المَثَلِ القَائل: كَجَالبِ التَّمر إلى هَجَر!.

أخيراً، يصلُ ابنُ بَطوطَة إلى مكّةَ المُكرَّمة، ليبدأَ في تأديةِ شَعائِرِ الحَجّ، وكانَ هذا عامَ ١٣٣٢ ميلادية، أيّ بَعدَ سَبعِ سَنواتٍ من بدايةِ

رِحلتِه الطّويلة ، التي بَدأَها في طَنْجَة. عندَما انتهى ابنُ بَطُّوطةَ من اداءِ حِجّتِه الثالثة ، وشكرَ اللهَ على هذه النّعمةِ التي حقّقَها له .. تساءل : هل يا تُرى سيُتاحُ لي أنْ أزورَ بيتَ اللهِ مرةً أُخْرَى قبلَ أنْ أَمُوت ؟...

مركَب التّونسيِّ يَغْرَق !.

بعدَ أنْ انتهَى ابنُ بَطّوطَة مِن أَداءِ مَشاعرِ الحجّ ، سافرَ إلى جُدّة ، وأقَامَ بها حَوالَى أربعين يوماً ، يُفكّر حائراً : إلى أينَ يَمْضِي في رِحلاتِه بعدَ ذلك ؟. كان يتمنّى أنْ يُسافرَ إلى الهِند ، فقد سَمِعَ الكثيرَ عن تلك البِلاد ، واشتاقَ لرؤيةِ مَعالِمِها ، والاختلاطِ بأهلِها . لكنّه وَجَدَ الكثيرَ منَ المتاعبِ والمصاعبِ تَقفُ في وجهِ هذه الزّيارة . فعزَمَ على عبورِ بحرِ القُلْزُم (البحرُ الأحمرُ حالياً) ، والتوجّهِ إلى صعيدِ مِصر ، حتّى يَصْعَدَ شَمالاً ، عابراً بلادَ الشّام ، قاصِداً الأَراضيَ التُّركية ، التي كانت تُعرفُ في ذلك الحين بْاسمِ (بلادِ الرُّوم).

أخذَ ابنُ بطّوطة يبحثُ عن مركَبٍ يَنقلُه إلى الشاطئِ الغَربيّ ، فدلَّه القومُ على صاحبِ مَركَبٍ يُدْعى عبدَ الله التُّونسي . وعِندَما صَعِدَ ابنُ بطوطَة إلى ظَهرِ المركَب ، لمْ تُعْجِبْه أحوالُه ، وتَراجَعَ عن السفرِ عليه . وبقيَ في جُدّة يبحثُ عن مَركَبٍ آخر . وَبينما هُو في ذلك ، وَصَلته أخبارُ مركَبِ التّونسيّ . حَكُوا أن المركَبَ عندَما توسَّطَ البَحر .. ووصَل إلى مكان يُعرفُ باسمِ رأسِ أَبِي مُحمّد ، غَرِقَ في البَحر ،

وكان عليه أكثرُ من سَبعين حاجّاً، ماتَ أكثرُهم غَرَقاً، ونَجَا مِنهم أقلُّ القَليل. فَحَمِدَ ابنُ بطوطَة ربَّه الذي ألهمَه أنْ يَرجعَ عن رُكوبِ ذلك المَرْكَب.

بعدَ تردّدٍ طَويل، اختارَ ابنُ بَطوطَة أحدَ المراكبِ المُتجهةِ إلى ميناءِ عَيْذَاب على الشاطئِ الغَربيّ منَ البَحْر. بدَأت الرحلةُ والبَحرُ هادئٌ سَاكِن، لكنّ الرياحَ لم تَلبثْ أنْ ثَارَت، وأخذَت تَدفعُ بالمركَبِ في كُلِّ اتّجاه، حتّى وَجَدوا أَنفسَهم أخيراً عندَ مَرسى يُعرفُ باسمِ (رأسِ دواير)، فَحمِدُوا اللهَ على سَلامتِهم، وسألَ ابنُ بَطوطةَ ربّانَ المركَب «أين نَحنُ الآن مِن عَيْذَاب؟..»، أجاب «إلى الجنوبِ منه بمسافةٍ لا يُستهانُ بها..»، عادَ ابنُ بطوطَة لِيسأل «وما العَمَل؟.. كيف سنصلُ إلى عَيذاب؟..»، أجابَ الرُبّان «ليس أمامَكَ سوَى الطريقِ البرّي.. فالبحرُ كما تَرى لا يؤمنُ جانبُه..».

بعد بَحْث، وجَد ابنُ بطوطَة أنَّ خيرَ مَن يَدُلُّه على الطّريق. دليلٌ مِن قَبائلِ البُجَاةِ التي تَعيشُ في تِلك المِنْطَقَة. بدأت الرِحلةُ في طَريقٍ صَحراويّ، بعد تجهيز القافلةِ بما تَحتاجُه خِلالَها مِن طَعامٍ وَمَاء. كانت بدايةً لَطِيفة، تَسلّى فيها ابنُ بطوطَة بمشاهدةِ النَّعامِ الذي يَكثرُ في تِلك الصَّحراء، والغِزْلان التي تَعبُرُها في رَشاقةٍ وَيُسْر.


لكنّ الرحلةَ طَالت، وَنفِدَ ما مَعَ القافلةِ مِنْ طَعام، فسألَ ابنُ بطوطَة دليلَ القَافلةِ عن الطريقةِ التي سَيُحلُّ بها هذه المُشْكلة، فَطَمأنَه الدليلُ قائلاً «إنّ أبناءَ قبيلةِ البجاة يَنْتشرون في هذه الصَّحراء.. ولن نَعْدَمَ أنْ نلتقيَ ببعضِ الرّعاة منهم، حيث سنجدُ ما يكفي لطعامِنا..».

وكانَ هذا هو ما حدَث ، فقد اشتَرت القافلةَ مِن بَعضِ هؤلاء الرّعاة ما يكفي الرِحلَة مِن أغنام طَوَالَ أيّامِها التِّسْعَة .

بعدَ أنْ استراحَ ابنُ بطوطَة قَليلاً في عيذاب ، واصَلَ مَسِيرَتَه ، عابراً الصّحراءَ إلى صعيدِ مِصر، ومن هناكَ شمالاً إلى بُلْبَيْس ، ومِنها إلى الشّام ، حيث تَوجَّه إلى اللاّذِقيَّةِ ، ليسافر بَحْراً في سفينةٍ كبيرةٍ إلى الشّاطئ الجَنوبيّ مِن بلادِ الرّوم.

دامت رحلةُ ابنِ بطوطَة في (بَحرِ الرّوم) الذي نُطلقُ عليه حاليًّا اسمَ البَحرِ الأبيضِ المُتوسِّط ، عَشَرَةَ أيامٍ كامِلة . وَصَلت بعدَها السفينةُ إلى مدينةِ (العَلايَا) أوّلِ بلدٍ مِن بِلادِ الرومِ يَزورُها ابنُ بطّوطة . فيقول في وَصْفِ هذه المدينة «مدينةٌ كَبيرةٌ على ساحلِ البَحر، يسكنُها التُّرْكُمَان ، ويَنزلُها تُجّارُ مصرَ واسكندريَّة والشّام ، وهي كثيرةُ الخَشَب ، ومِنها يُحملُ إلى الاسكندريةِ وَدُمْيَاط ، ويُحملُ منها إلى سائرِ بلادِ مِصر ، ولَها قَلعةٌ بأعلاها ، عجيبةٌ مَنيعة ، بَناها السّلطانُ المعظّمُ عَلاءُ الدِّينِ الرُّوميّ ... » .

ويقول ابنُ بطوطَة إنّ أهلَ العَلايا يَتميّزون بحُسنِ الصُّورة ، ونَظافةِ المَلابِس ، وطِيبِ الطّعام . وإنّهم يَشْتهرون بين البِلادِ الأُخرى بشفقتِهم الشّديدة ، وفي هذا يقولُ ابنُ بَطّوطة «لِذلك يقال : البَرَكَةُ في الشّام ، والشَفَقَةُ في الرُّوم ، وإنّما عَنَى به أهلَ هذه البَلد» . وقد تَجلَّت هذه الشفقةُ فِيما لَقِيَه ابنُ بطّوطَة من رعايةِ أهلِ تِلك البلاد . فقد كان لا يكادُ ينزلُ في زَاويةٍ أو دَار ، حتّى يسرعَ الجِيرانُ من الرِجالِ والنّساءِ إلى تَفقّدِ حالِه ، والحِرْصِ على تَقديمِ كلّ ما يحتاجُ



إليه. وقد أثارَ دَهشةَ ابنِ بطوطَةَ أنْ يجدَ نِساءَ الرومِ سَافِرات، لا يَحتَجِبْن. وهو يَحكي عن رِقَّةِ عَواطفِ أهلِ تلك البلادِ، قائلاً «فإذا سافَرْنا عَنهم ودّعونا، كأنَّهم أقارِبُنا وأهلُنا، وتَرى النساءَ باكياتٍ لِفراقِنا مُتأسِّفات!.».

من العَلاَيا، يَرتحلُ ابنُ بَطّوطة إلى (أنطالية)، وهي مدينةٌ كَبيرة، بها مسجدٌ جامِع، ومَدْرسَة، وحَمّاماتٌ كَثيرة، وأسواقٌ ضَخْمةٌ حَسَنةُ التّرتيبِ والتّنْسيق. وقد لاحظَ ابنُ بطوطَة أنّ أَتباعَ كلّ دينٍ أو طائفة، يُقِيمون في مكانٍ خَاصٍّ بهم، مُغْلَقٍ عليهم بأسوارٍ وأَبْواب، يقول «وكلُّ فِرقةٍ مِن سكّانِها منفردةٌ بأنفسِها عن الفِرقةِ الأخرى، فتجّارُ النّصارَى ماكِثُون مِنها بالمَوْضوعِ المعروفِ بالمِينَاء، وعَليهم سورٌ تُسَدُّ أبوابُه عَليهم لَيلاً، وعندَ صَلاةِ الجُمُعة. والرؤُم الّذين كانوا أهلَها قَديماً سَاكِنون بموضعٍ آخرَ مُنفرِدِين به، وعليهم أيضاً سُور، واليهودُ في موضعٍ آخرَ وعَليهم سُور، والمَلِكُ وأهلُ دولتِه ومماليكُه يَسْكُنون ببلدةٍ عليها أيضاً سورٌ يُحيطُ بها.. وسائرُ الناسِ من المُسلمين يَسكُنُون المدينةَ العُظْمَى..».

الأخيــة الفتيـــان

عندَما وَصلَ ابنُ بَطّوطَة إلى أَنْطَاكيَة، نَزَل بمدرستِها، في ضيافةِ الشّيخِ شهابِ الدّين الحَمَويّ. وفي الليلةِ التاليةِ لوصولِه، أتَى أحدُ

الرجالِ إلى الشيخِ شهابِ الدين، وتكلّمَ مَعَه باللّغة التُّركيةِ الّتي لا يَفهمُها ابنُ بَطّوطة. كانَ ذلك الفتَى يَرتدِي ثياباً قديمةً مُهلْهَلة، ويضعُ على رأسِه قَلَنْسُوةً من اللُّبّاد. سألَ الشيخُ الحمويُّ ابنَ بَطّوطة «أتعلمُ ما يقولُه هذا الرّجل؟..». أجاب «لا أعلم.»، فقال الشيخ «إنّه يَدعوك إلى ضيافتِه أَنت وأصحابَك الّذين وَفَدوا مَعك إلى المدينة»، فَقَبِلَ ابنُ بطّوطَة الدَّعْوة.

عندَما انصرفَ الرجُل، قال ابنُ بطّوطةَ للشيخِ الحَمويِّ «هذا الرجلُ يَبدُو عليه الفَقر، وأخشَى إذا نَحن قبِلْنا ضيافتَه أن نُحمِّلَه ما لا طَاقَة له به..»، فَضحكَ الشيخُ وقال «هذا أحدُ شُيوخِ الفِتْيَان.. فِتيانِ الأخيّة..»، سأل ابنُ بَطّوطة «ومن هم فِتيانُ الأخيّةِ هؤلاء»..». قال الشيخُ الْفَقِيه «هؤلاء ستُصادِفُهم في جميعِ أنحاء البلاد التُّرُكُمانيّة الرّومية.. في كلِ مدينةٍ أو بَلدةٍ أو قَرْية.. ولا يوجدُ في الدّنيا مثلُهم، أشدّ احتفالاً بالغُرباءِ منَ الناس..».

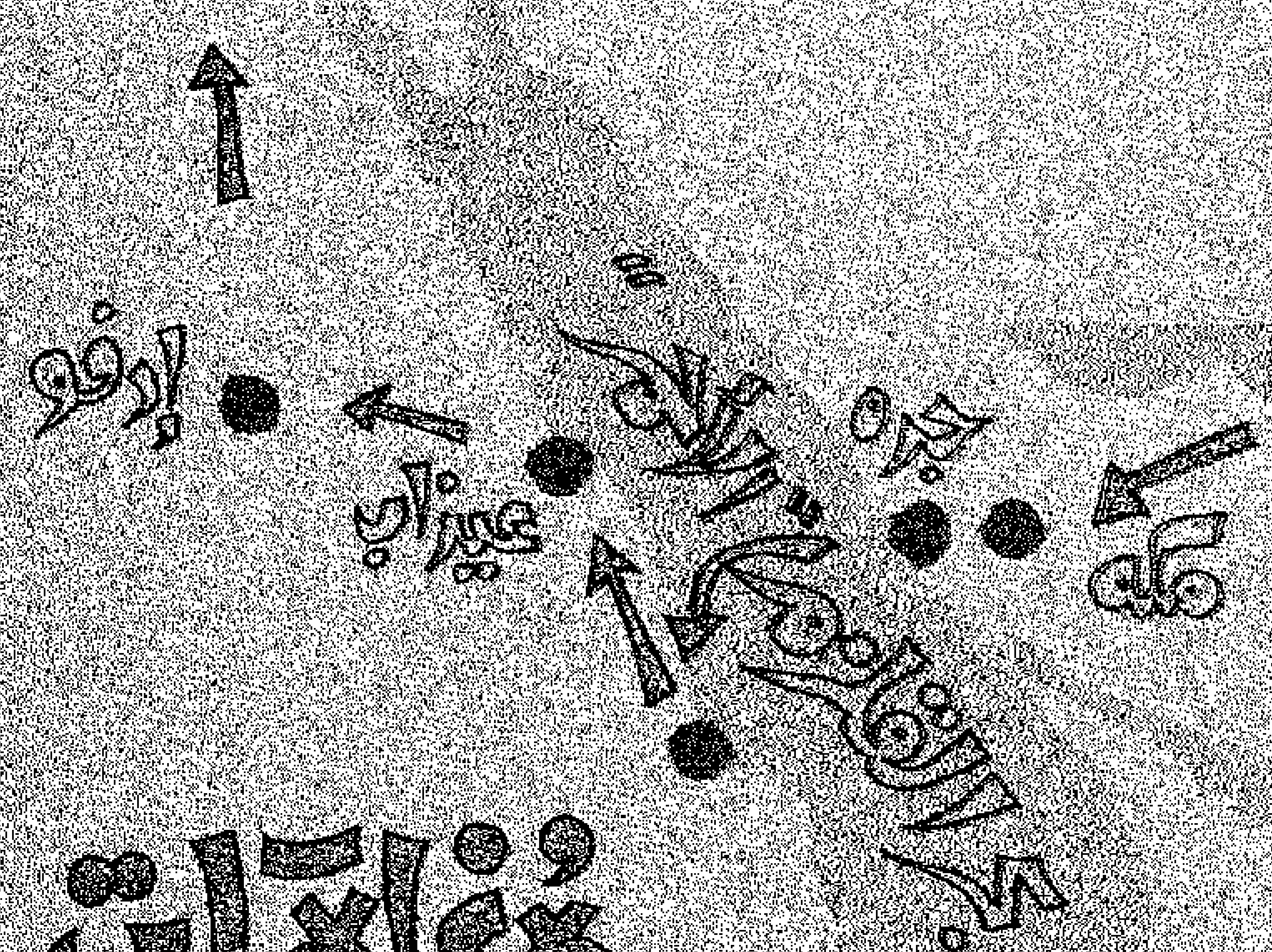
وعَرَفَ ابنُ بطوطةَ أنّ الواحدَ من الأخية الفِتيان، ويطلق عليه «أُخَي»، رجلٌ يلتفُّ حولَه أبناءُ حِرفتِه وغيرِها مِنَ الصّنائع، يُقدِّمونه على أنفسِهم، ويَجعلونَه مسؤولاً عنهم. ويتولّى الأخيُّ بناءَ زاوية، يُؤثِّثها بالفِراشِ والمَصابيح وما تَحتاجُه من أدَوات. في الصباحِ يَمضِي أصحابُه وأَتباعُه إلى أعمالِهم وحِرفَهم، ثم يَأْتُون إليه عند العَصْر بما كَسَبُوه من مال، يُنفقُ منه على شِراءِ ما يَحتاجونه من طَعام وفَاكِهَة. فإذا وَصَلَ غَريبٌ إلى المَدِينة، أَنزلُوه في ضِيافتِهم، ويبقَى في هذه الضيافةِ إلى حينِ أنْ يغادرَ المدِينَة.

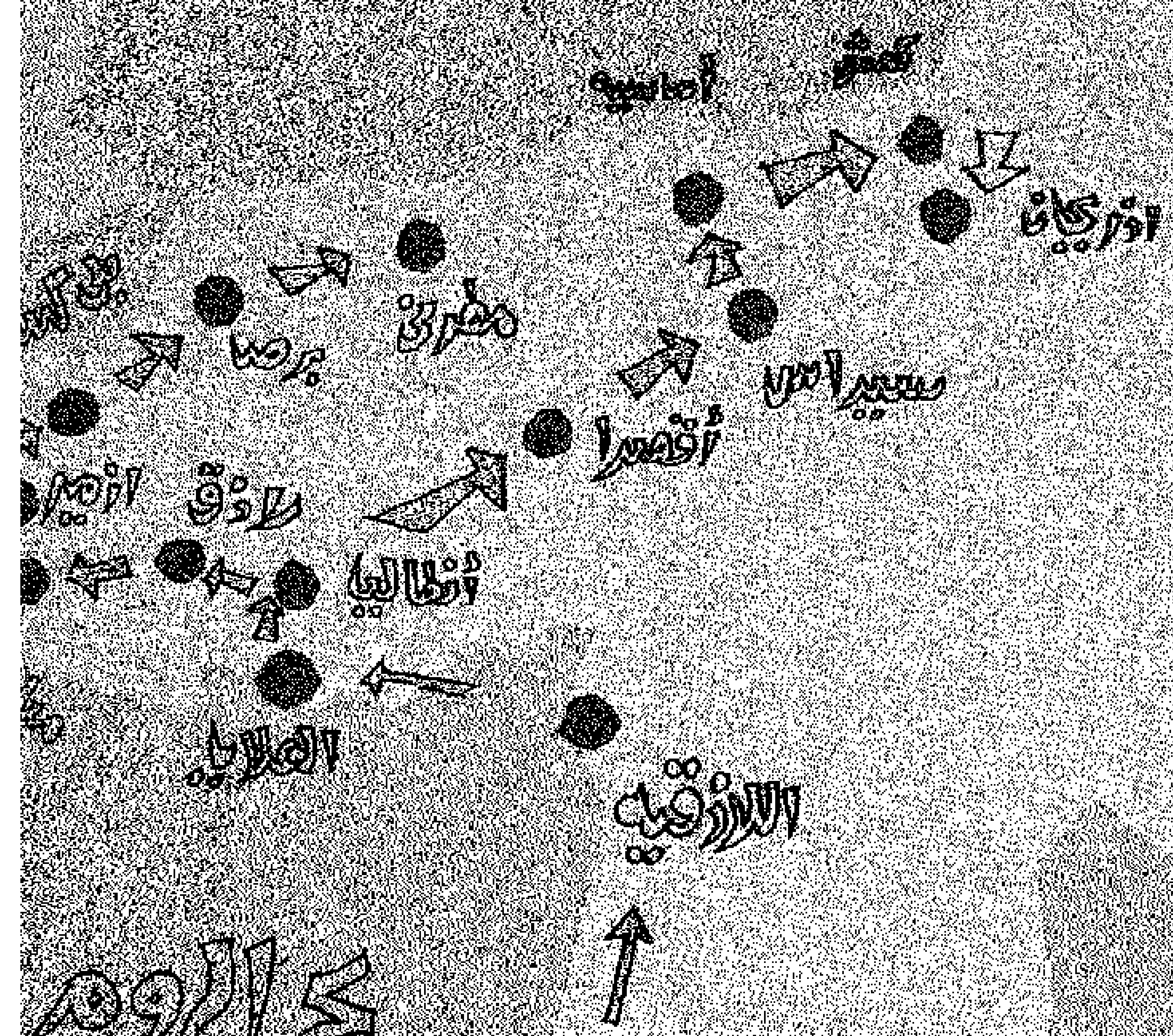
في ذلك اليوم، وبعدَ صَلاةِ المَغْرب، وَصَلَ ذلك الأخيُّ ليصَحَبَ ابنَ بطوطَةَ إلى زاويتِه، فوجدَها ابنُ بطوطَة مُنسَّقة، مفروشةً بالسّجاجيدِ الروميةِ الجَميلة، ويتردّدُ فيها الضوءُ الصادرُ عن القَناديلِ الزُّجَاجيّة. ورأى في المكانِ خَمسةَ قَوائمَ نُحاسيّة يُطْلقون على الواحدِ منها اسم «بيسوس»، لكلٍّ واحدٍ مِنها ثلاث أَرجل، وفي وَسَطِه أنبوبةٌ تَنتَهي بِفَتيل. ويُملأُ الأنبوبُ بالشّحمِ المُذاب، وإلى جَانبِهِ آنيةٌ من النُّحَاسِ مَملوَّةٌ بالشّحم، ومعها ما يُسمَّى المِقْرَاضَ لإِصلاحِ الفَتيل، وَضَبْطِ إضاءَتِه.

اصطفَّ بالمجلسِ مجموعةٌ منَ الشَّباب، يَرْتدُون الثيابَ الوَاسعةَ وقد تَحزَّموا بحِزامٍ عريضٍ يَضَعون فيه سِكّيناً طُولُها ذِرَاعين، وعلَى رؤوسِهِم قَلانُس بَيضاءُ من الصّوفِ أو اللُّبَّاد، وبأعلَى القَلَنْسُوةِ قِطعةٌ من القُماشِ مَوْصُولةٌ بِها طولُها كالذِّراع. وما أنْ استقرّوا في المجلسِ حولَ ابنِ بَطّوطةَ حتّى خلعَ كلٌّ واحدٍ مِنهم قَلنسوتَه ووضعَها بَين يديه. وظَهَرَ من تحتِها عِطَاءُ رأسٍ آخَرُ من الحريرِ الرَّقيق. كانوا يَجْلِسون على الأرض، بعدَ أنْ أجْلَسوا ابنَ بطوطَة على ما يُشْبِهُ المَرْتَبَة.

بعدَ قليل، أَتَوْا بالطّعام، طَعامٍ كثيرٍ وفاكهةٍ وَحَلْوى. وبعدَ أنْ أنتَهَوْا من تناولِ طعامِهِم، أخَذوا جميعاً في الغِناء. ثم قَامَ بعضُهم ليؤدّيَ بعضَ الرَّقَصاتِ الطريفةِ التي أَعجبت ابنَ بطّوطة. وفي وقتِ الصلاةِ كانوا يَنصرِفون إلى صَلاتِهم، وإلى ذكرِ الله. وهكذَا مرّتِ السّهرَة على ابنِ بطوطةِ ومَن معه، لطيفةً مُمْتِعَة، ولم يَنْصرِفوا من عندِهم إلاّ في آخرِ اللّيل.

مغامرات ابن بطوطة





تَتواصلُ رحلةُ ابنِ بطّوطة وَصَحْبِه بعدَ ذلك إلى (أَكْرِيدُور)، وهي مدينةٌ عظيمة، بِها المباني الضَّخْمة، والأسواقُ المُنظَّمة، والأشجارُ والبَسَاتِين. والمدينةُ تُطلُّ على بُحيرةٍ كبيرةٍ منَ الماءِ العَذْب، يَقطعُها المركَبُ من طَرَفِها إلى طرفِها الآخرِ في يَومين كامِلَين.

ومِن هذه المَدينة، يتحرّكُ ابنُ بطوطَة إلى مدينةِ (قل حصار)، حيث يَنزِلُ بها ضيفاً على مَن بها من فِتيانِ الأُخيَّة.

حمّـــاماتُ مـاءِ الْـوَرْد

عندَما عَلِمَ سُلْطانُ «قل حصار» بعزمِ ابنِ بطّوطةَ على السّفرِ إلى مدينةِ (لاذَق)، وأنّه سيَصِلُ إليها عن طَرِيق (قَرَا أَغاج)، وهي مِنْطقةُ غاباتٍ يَسكنُها التُّرْكُمان، وتوجدُ بها جماعةٌ تعرف بالجرميان، تَقْطعُ الطريقَ على المُسافِرين وتَنْهبُهم، عندَما سمعَ السلطانُ بذلك، قرّر أنْ يبعَثَ مَعْ ابنِ بطّوطةَ في سَفرِه بعددٍ مِنَ الفُرْسان، يَصِلُون به إلى مدينةِ (لاذَق).

وهكذا تَحرّكَ الركبُ في حِراسةِ الفُرسانِ حتّى لاحَتِ المدينةُ، فانصرفَ الفُرسانُ عائدين، وتقدّمَ ابنُ بطوطَة وصحبُه فوقَ جيادِهم إلى المدينة. وما أنْ وَصَلوا إلى سوقِها، حتّى رأوا جماعةً منَ الرجالِ تَخرُجُ مِن بعضِ حَوانيتِ السّوق، ثم تَتنازَعُ في قَسوةٍ أعنّةَ جِيادِ ابن بطّوطة وصَحْبِه، وقد نَشأت بين هؤلاءِ الرجالِ مَعركةٌ عَنيفة، رَفعوا فيها

السّكاكينَ على بَعْضِهم البَعْض.

أُصيبَ ابنُ بَطوطة وصحبهُ بِذُعرٍ شَديد، وقال واحدٌ مِنهم هَمْساً «إحْذَرُوا يا صِحَاب!.. يَبدو أنّهم الجرميان الّذين سَمِعْنا خَبرَهم في قل حصار!.». لكن الصراعَ انْحصَرَ بينَ الرِّجال، دونَ أنْ يُلْحِقُوا أيَّ أذىً بابنِ بطّوطَة أو صَحْبِه.

أخيراً، ظَهَرَ بينَ الجمعِ مَن يتكلّمُ العَربيّة، فَنَزل إليه ابنُ بَطّوطَة مِن فوقِ جَوادِه يسألُه «مَن هم هؤلاء؟.. وماذا يُريدون مِنّا؟..». أجابَ الرّجل «إنّهم من الفِتيان الأخيّة.. الذي أَقْبَلُوا نَحْوَكم في البدايةِ مِن أتباعِ الفَتَى أخِي سِنَان.. أمّا مَن جاءَ بعدَ ذلك فَهم من أتباعِ الفَتى أخِي طُومان..وكلُّ فئةٍ مِنهم تَرغبُ في أنْ تَنزلوا ضُيوفاً عليهم..». اطمأنّت نُفوسُ ابنِ بطوطَة وصحبِهِ عندَما عَرَفوا سبَبَ ما يَجْري، وإن لم يَزُلْ عَجبُهم مِن هذا الكرمِ الغَريب!.

بعدَ نقاشٍ وجِدالٍ طَويلين، اتّفقَ الطَّرَفان على الاحتكامِ إلى القُرْعة، فَمَن كانت القرعةُ في جانبهِ، نَزَلَ الضيوفُ عندَه أوّلاً. جرَت القُرعةُ فَرَست على أَخِي سِنَان، ولم تمضِ بضعُ لَحَظاتٍ، حتّى كان أخِي سِنان يُقْبِلُ في جَمْعٍ مِن أتْباعِه. حيُّوا الضّيوف، ثُم انزلُوهم بزاويةٍ تابعةٍ لهم، وأَتَوْا لهم بأصنافِ الطَّعام. وعندَ انتهاءِ الطّعام، صَحِبُوهم إلى الحَمّام، وقد صَمّمَ أخِي سِنَان على أنْ يَتولّى خِدمةَ ابنِ بَطوطةَ بنفسِه، في حينِ تولّى اتباعُه خِدمةَ مَن كانُوا مع ابنِ بَطّوطة.

بعد الحمّام، أُقيمت وليمةٌ حافِلة، ضَمّت أنواعاً عديدةً مِنَ الطَّعام والفَاكهةِ والحَلْوى. وبعدَ الطعامِ، بدأ القُرّاءُ يَتْلون آياتٍ مِنَ

القُرآن الكريم، ثم تَبِعَ هذا عَرضٌ مِنَ الغِنَاءِ والرّقْص.

في اليومِ التالي حَضر أخِي طُومان وأَتْبَاعُه، فاصْطَحَبُوا ابنَ بطّوطة وصحبَه إلى زاويتِهم، وعنْ هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «فَفَعلوا في الطّعامِ والحَمّامِ مثلَ أصْحابِهم، وزادُوا عَليهم أنْ صَبُّوا علينا ماءَ الوَرْدِ صَبًّا بعدَ خُروجِنا منَ الحَمَّام..».

يَبدأُ ابنُ بطّوطةَ وصحبُه بعدَ ذلك رحلتَهم تِجاهَ الساحلِ الجنوبيِّ لبلادِ الرّوم، فيمرُّون بحِصْنِ (طواس)، ثم مدينةِ (مِيلاس)، التي يقولُ عَنها ابنُ بَطوطة أنّها من أحسن بلادِ الرومِ وأضخمِها. نَزل ابنُ بطوطَة في هذه المدينة، كما حَدَثَ في المدنِ الروميةِ الأخرى، بزاويةِ أحدِ الفِتيان الأخيّة. في هذه المدينةِ التَقى ابنُ بطوطَة أكثرَ من مرّةٍ بسلطانِها شُجاعِ الدينِ أُرْخان بك. ويروي كيف استطاعَ أنْ يَرفَعَ غَضَبَ السلطانِ عن أحدِ الفُقهاءِ ويُدعَى الخُوارِزْميّ. ذَلك الفَقيهُ كانَ قد سافَر إلى مدينةٍ أخرى، وقَبلَ هدايا سُلطانِها، فغضبَ عليه السّلطان شُجاعُ الدّين. فما كانَ مِن ابنِ بطوطَة إلاّ أنْ راحَ يُثني على الفَقيهِ الخُوارزْميّ أمام السّلطان، ويعدّدُ مَناقِبَه وأفضالَه العِلمية، حتّى رضيَ عنه السّلْطان.

ومن ميلاس يُسافرُ ابنُ بطوطَةَ شَرْقاً إلى مدينةِ (قونية)، التي يقالُ إنّ الإسْكندرَ الأكبَر هو الذي بَنَاها، ومِنها يسافرُ إلى مَدينةِ (اللارَندة)، حيث يَلتقي بسُلْطانِها بدرِ الدين بنِ قَرمان، وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «.. وَلَقيتُ هذا السلطانَ خارجَ المدينة، وهو عائدٌ من تَصيُّدِه، فَنَزلت له عَنْ دَابتّي، فنزل هو عَنْ دَابّتِه، وسَلّمت

عليه، وأقبلَ عليّ. ومن عادةِ مُلوكِ هذه البلادِ أنّه إذا نَزَلَ لهم الواردُ عَن دَابّتِه، نَزَلوا له وأعجبَهم فِعْلُه، وزادُوا في اكرامِه. وإنْ سَلّم عليهم رَاكباً، ساءَهم ذلك، ولمْ يُرْضِهم!».

بلادُ الفِضّةِ والنُّحَاس

يَمْضِي ابنُ بطّوطَة بعدَ ذلك، مُتَّجِهاً ناحيةَ الشَّرق، في الأراضي الخَاضعةِ لِمَلك العراقِ دَاخلَ بلادِ الرُّوم، فيصلُ إلى مدينةِ (اقصرا)، ويقولُ عنها «وهي مدينةٌ مِن أحسنِ بلادِ الرّومِ وأَتقنِها، تَحِفُّ بِها العُيونُ الجاريةُ والبَساتينُ مِن كلِّ نَاحية. وَيَشُقُّ المَدينةَ ثلاثةُ أنهار، ويَجري الماء بِدُورِها، وفِيها الأشجارُ ودَوالي العِنَب، وبداخِلها بَساتينُ كثيرة. وتُصنعُ بِها البُسطُ المَنسوبةُ إليها من صوفِ الغَنَم، ولا مَثيلُ لَها في بلدٍ مِنَ البلاد، ومِنها تُحملُ إلى الشّام ومصرَ والعراقِ والهندِ والصينِ وبلادِ الأَتْراك. وهذه المَدينةُ في طاعةِ مَلِكِ العِرَاق».

ومِن أقصرا، يواصلُ ابنُ بطّوطَةَ مَسيرَته شَرقاً، حتّى يصلَ إلى مَدينة (نكدة)، ومِنها إلى (قيسارية). وعن قيسارية يقولُ «وهي مِن بلادِ صاحبِ العِرَاق، وهي إحدَى المُدُنِ العِظامِ في هذا الأقليم، بها عَسكرُ أهْلِ العِراق». ومن هناك يسافرُ شَرقاً إلى مدينةِ (سيواس)، وهي أعظمُ المُدُنِ التابعةِ لملكِ العِراق، ومقرُّ نُوّابه وَمُفوّضِيه في حُكمِ هذه الأَقاليم. يقول عنها ابنُ بَطوطة «مدينةٌ حَسَنَةُ العِمارةِ، واسعةُ

الشوارع ، أسواقُها غاصّةٌ بالناس ، وبها دارٌ مثلُ المدرسةِ تُسمَّى دارَ السِّيادة ، لا ينزلُها إلاّ الشّرَفاء ، ونَقيبُهم ساكنٌ بها ، وتَجرِي لَهم فِيها مدّةَ مُقامِهم الفُرُشُ والطعامُ والشَّمعُ وغَيرهُ... ».

في سيواس ، تَكَرّرَ لابنِ بَطوطَة ما جَرَى له مِن قَبْل ، فقد تَنازَعَهُ أصحابُ أَخِي أحمد بجقجي ، وأصحابُ الفَتى أخي جلبي. ودخلَ المدينة بصحبةِ أتباعِ الفتى أخي بجقجي ، معتذراً للآخرين ، وواعداً بالنّزول في زَاويتِهم بعدَ ذلك. وما أنْ استقرّ ابنُ بطوطَة في زاويةِ أخِي بجقجي ، حتّى وصلَ قاضِي المَدينة ، مع خَيلِ نائبِ مَلَكِ العراقِ الأميرِ علاءِ الدينِ أرتنا ، فَركبوا إليه ، واستقبلَهم في مَدخلِ دَارِه ، فسلّمَ علَيهم ورحّبَ بهم ، بلغةٍ عَربيةٍ سَليمة.

جلسَ ابنُ بطوطَة إلى جِوارِ الأميرِ يُجيبُ عن أسئلتِه حولَ العِراقِ وأَصْبَهانَ وشِيرازَ وكَرَمان ، وعن بلادِ الشّامِ ومصر. وبعدَ الحديث ، أقامَ الأميرُ وليمةً كبيرةً احتفاءً بوصولِ ابنِ بطّوطة ، ثم قال في نِهايةِ السَّهرة «تكونُ في ضِيَافتي ! . » ، فقال له الفَتى أخي جلبي الذي كان حاضراً» إنّهم لم يَنْزِلُوا بعدُ بِزَاويتي.. فَلْيكُونوا عِندي ، وضيافتُك تَصِلُهم.. » ، فوافقَ الأمير ، وبعثَ لابنِ بطُّوطة وصَحبه بالهَدايا الثمينةِ على زَاويةِ أخي جلبي ، التي أقامُوا بِها مدّة سِتّة أيام.

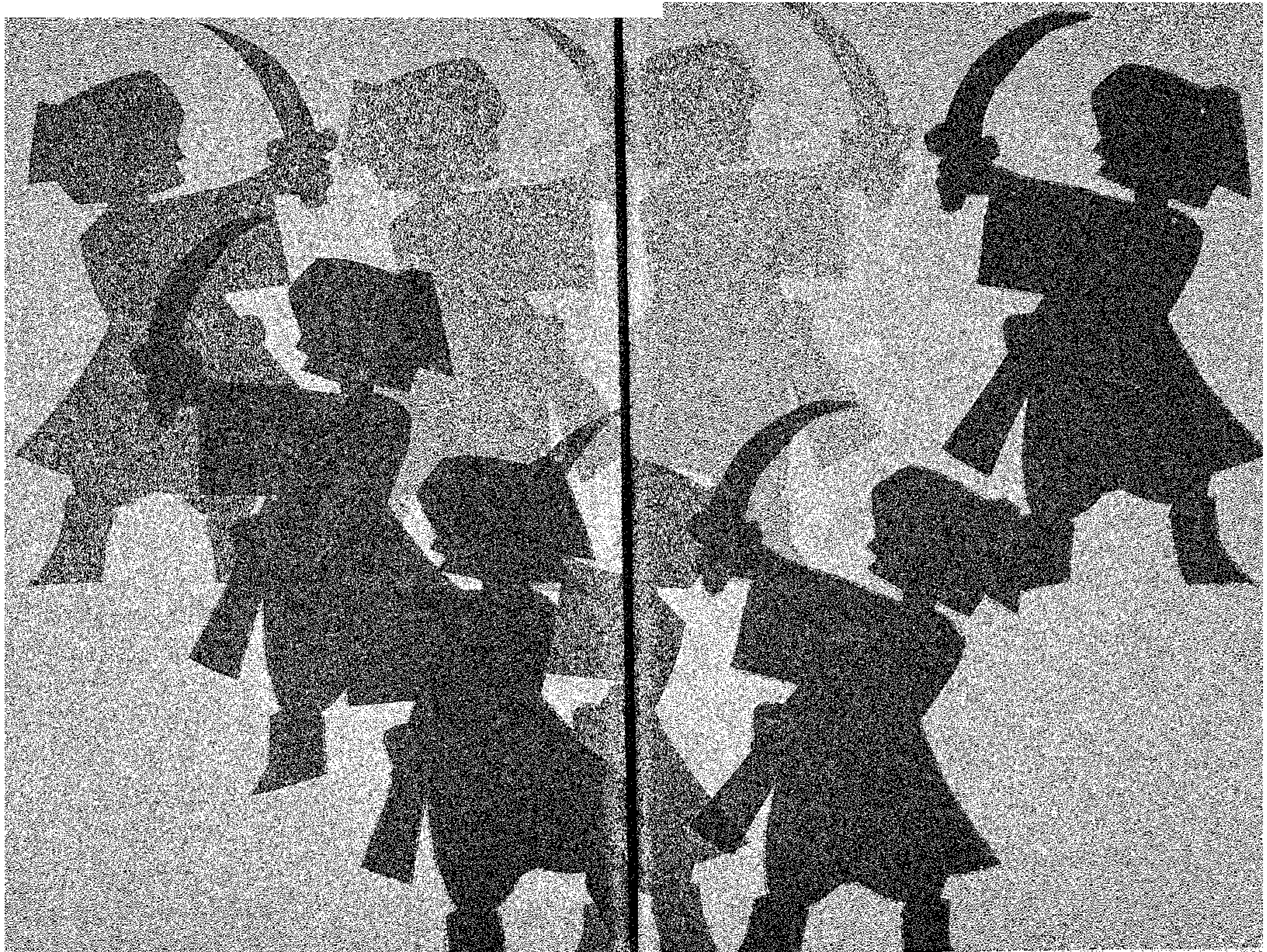
يواصلُ ابنُ بطوطَة سفرَه إلى الشَّرق ، فيمرُّ بمدينةِ (أماسية) ذاتِ السَّواقِي الكبيرةِ التي تسمَّى بالنّواعِير ، ثم بمدينةِ (كمش) التي تَشتهرُ بالفِضّة ، وَيأتيها التجّارُ من العراقِ والشام لِشراءِ الفضّة. ثم يصلُ ابنُ بطوطَة إلى مدينةِ (أرزنجان) ، فيقولُ عنها «وهي مِن بلادِ صاحبِ

العِراق، مدينةٌ كبيرةٌ عامِرة، وأكثرُ سُكّانِها الأرمن، والمُسلمون بها يتكلّمون التُّركية، ولَها أسواقٌ حَسَنَةُ التّرتيب، ويُصنعُ بها ثِيابٌ حِسانٌ تُنسبُ إليها، وفيها معادنُ النُّحاس..».

عندَما وصلَ ابنُ بطوطَة بعدَ ذلك إلى مدينةِ (بركي) كان الوقتُ عَصْراً. التقى برجلٍ من أهلِ المَدينة، فسأله عن زَاويةِ الأخي الذي بِها، فقال الرّجل «أنا أدُلُّكم عليها..»، سارَ الرجلُ وَمِنْ خلْفِه ابنُ بطوطَة وصحبُه، حتّى وصلَ بهم إلى مَنزلِه وأجلسَهم في مكانٍ ظليل، وأتى لهم بأنواعِ الفَاكهةِ وخيرِ الطّعام، وقدّمَ العَلفَ للدّواب، وأصرّ على أنْ يَبيتوا تلك الليلةَ عندَه. وقد عَرفَ ابنُ بطوطةَ خلالَ حديثِه مع الرجلِ أنّه ممّنْ يَدْرسون على الفقيهِ الشيخِ محيي الدّين، فطلبَ مقابلتَه.

في الصّباح، ذهبَ ابنُ بطوطةَ مع الرجلِ إلى المدرسة، وبعدَ وصولِهم بقليلٍ أقبلَ الشيخُ محيِ الدّين راكباً بَغْلتَه النَّشيطة، ومماليكُه وخدّامُه عَن جانِبَيه، والطلبةُ أمامَه. كان الشيخُ يَرتدي ثياباً فَخمةً مطرّزةً بالذّهب. سلّم ابنُ بطوطَة على الشّيخ، فرَّحب به الشيخُ تَرحيباً حارّاً، وأمسكَ بيدِ ابنِ بطوطة، فأجلسَه إلى جانِبه. وما لَبِثَ أن جاء قاضِي المَدينة، فجلسَ إلى الجانبِ الآخرِ منَ الشّيخ، وبدأ في تدريس علومِ الفقهِ والتّشريع. وقد هيَّأ الشيخُ مُحيي الدين لابنِ بطوطَة وصحبِه مُقاماً مُناسباً في المدرسة، وبعثَ إليه ضِيافةً حافِلة.

فلمَّا انقضَى المَغْرِب، أرسَل الشيخُ إلى ابنِ بطوطَةَ يَدعوه إلى بيتِه، فَمضَى إليه، وهو يصفُ ذلك قائلاً «.. فوجدتُه يجلسُ بِبُستانٍ



له ، وهناك صِهريجُ ماءٍ يَنحدرُ إليه الماءُ من حَوضٍ رُخامٍ أبيض ، يَدورُ به القَاشاني ، وبين يَديه جُملةٌ منَ الطَّلبة ، ومماليكُه وخدّامُه وقوفٌ عنْ جانِبيه ، وهو قاعدٌ على مَرْتَبة ، فَخِلْته لمّا شاهدتُه مَلِكاً منَ المُلوك ! . » .

في ضيافــة السلطـــان

بعثَ الفقيهُ مُحيي الدين إلى سُلطانِ المدينةِ مُحمّد بنِ آيدين ، يُعْلمُه بوصولِ ابنِ بَطّوطة . فأرسلَ السّلطانُ نائبَه يَدعوهُما إلى مجلِسه . وكان الشيخُ قد أُصيب في قَدمِه إصابةً تَعُوقُ حَرَكتَه ، فَلمْ يتوجَّها إلى السُّلطانِ على الفَور . غيرَ أنّ السُّلطانَ عادَ وكرّر الدعوة ، فتحاملَ الشيخُ على نفسِه ، وركِبَ فوقَ جَوادِه ، ومضَى الرّكبُ يَشُقُّ طريقَه وَسَطَ مَسالِكِ الجبلِ الوَعْرة ، للوصول إلى المقرِّ الجَبليِّ للسُّلْطان . وقد اسْتغرَقت الرِحلةُ نَهاراً بأكملِه .

عندَما دَخلَ ابنُ بِطّوطَة مع الشَّيخِ مُحيي الدّين عَلى السّلطان ، وَجَدُوه في حالةٍ بالغةٍ منَ القَلقِ وانْشغالِ الْبَال ، بسبب فِرار ابنِه الأصغرِ سُلَيمان إلى صِهرِه السلطانِ أرخان بك . وَوجَدا عندَه جَمْعاً مِنَ الأمراءِ يَتدَاولُون في الأمر . فبعثَ بهما السلطانُ إلى خيمةٍ تُسمَّى عندَهم «خركاه» ، وَأَتَوْا لَهما بِفُرشٍ دَاخل الخَيْمة ، أمّا أصحابُهما ، فكانا قد تَركُوهم خارجَ بيتِ السّلطان ، تحتَ شَجرةِ جَوز . وقد عانَى الجميعُ من شِدّة البرْدِ في تلك اللّيلة ، إلى حدٍّ أنَّ الفَرَسَ الخاصَّ بابنِ

بَطّوطة، ماتَ من فَرَطِ برودةِ الجوّ.

في صباحِ اليومِ التالي، دَخلَ ابنُ بَطّوطةَ مع الشيخِ مُحيِي الدينِ على السّلطان، وقَعدوا إلى جانبه، وأخذَ السّلطانُ يسألُ ابنَ بطوطَة عن أحوالِ البلادِ التي مَرّ بها. وبعدَ أن تَنَاوَلوا طَعامَ الغذَاء، انصرفَ ابنُ بطوطةَ مع الشيخِ إلى خَيمتِهما حيث وَجَدا السلطانَ قد أرسلَ إليهما المؤونة الخاصةَ بِهما، مِن أَرُزٍّ ودقيقٍ وَسَمْنٍ وَلُحوم.

مَضت الأيّام على هذا النَّسق، وأخذَ ابنُ بَطّوطة يسألُ الشيخَ مُحيي الدّين «متَى سنَنصرفُ مِن هنا؟..» كانت إجابةُ الشيخِ الدّائمةُ هي «عندما يأذَنُ السُّلطان..». وعَصْرَ ذاتِ يوم، رَأيا السُّلطانَ مُقْبلاً ناحيةَ الخَيمةِ التي يُقيمان بها، فاستبشَرَ ابنُ بَطّوطةَ بذلك خيْراً، وظَنَّ أنَّ هذا يَعْني انتهاءَ أجَلِ هذه الزيارةِ الطّويلة. لكنّ السلطانَ بعدَ أنْ جلَس، طلبَ من ابنِ بطوطَة أنْ يكتبَ له بعضَ الأحاديثِ الشريفةِ التي تُرْوَى عَن رسولِ الله صلَّى الله عَليه وسلّم، فكتبَها له، وسلّمها السلطانُ للشيخِ مُحْيِي الدين، طالباً منه أن يكتبَ شرْحَها باللغةِ التُّركية، ثُمّ مضى!.

هَكذا مَضَت الأيام، والسَّأمُ يَتسلّلُ إلى نفسِ ابنِ بطّوطة، مما دَفعَ الشيخَ إلى أنْ يبعثَ إلى السّلطان، يُخبرُه برغبةِ ابنِ بطّوطة في السّفر. وفي صباحِ اليومِ التالي وصلَ نائبُ السُّلطانِ ليقول «انّ السلطان يأمرُ أنْ تُقيماَ هنا اليوم، وتَنْزِلا مَعه غداً إلى دَارِه بالْمدِينة...».

في اليومِ التالي أرسلَ السّلطانُ لابنِ بطّوطةَ فرساً قويًّا ليركبَه في رِحلةِ العَوْدة، وانضمَّ مَع الشيخِ إلى ركبِ السّلطان. فَرأى ابنُ بطوطَة تَزاحُمَ الناسِ لاستقبالِ مَوْكِبِ السُّلْطان، وفي مُقدِّمتِهم قاضِي الْمدينة. عندَما أدْركَ الركبُ دارَ السُّلطان، أرادَ أن يَمضيَ مَع الشيخِ مُحيي الدينِ إلى الْمدرسَة، لكنَّ السّلْطان أمَرهما بأنْ يَدخلا معه إلى القَصْر.

أولُ ما لَفَتَ نظرَ ابنِ بطوطة داخلَ القصر، ذلك الحشدُ منَ الخَدمِ الذي كان في استقبالِ السّلطان. وفي هذا يَقول «وجدْنا من خُدّامِه نحوَ عشرين، صورُهم فائقةُ الحُسْن، وعليهم ثيابُ الحَرير، وشعورُهم مَفروقةٌ مُرْسَلة، وألوانُهم سَاطعةُ البياضِ مُشْرَبَةٌ بحُمْرة. فَقلت لِلْفقيه: ما هذه الصورُ الحِسَان؟. فقال: هؤلاء فِتْيانٌ رُوميّون». صَعِدَ ابنُ بطوطَة مع السلطانِ دَرَجاً عالياً، حتّى وصلَ الجميعُ إلى مَجلسٍ جَميل، في وَسَطِهِ صهريجُ مَاء، وعلى كلِّ رُكْنٍ من أَرْكانِه تِمثالٌ مِنَ النُّحاسِ على شكلِ أسدٍ يَخرُجُ الماءُ مُندفِعاً مِنْ فَمِه.

حولَ جُدرانِ هذه الْقَاعة، كانت تنتشرُ المجالسُ الْمفروشَة، فَقعَدَ السُّلطانُ وأجلسَ ابنَ بطوطَة والشيخَ مُحيي الدينِ إلى جانبِه، ثم بُدِئَ تَقديمُ الطَّعام. يصفُ ابنُ بطوطَة هذا فيقول «ثم جاءوا مَعها بصحافٍ صينيةٍ فيها مثلُ ذلك، وفيها مَلاعقُ خَشَب. فَمَنْ تورَّعَ استعملَ صِحافَ الصينيِّ وملاعقَ الخَشَب».

بعدَ ثَلاثةِ أيامٍ من وُصولِ ابنِ بَطّوطَة إلى القَصر، أقامَ السلطانُ وليمةً كبيرةً دَعا إليها الفُقهاءَ والمشايخَ وأَعيانَ العَسكرِ وكبارَ أهلِ المَدينة، فتناولَ الجميعُ طَعامَهم، ثم تُليَ القرآنُ الكريمُ بِأصواتٍ

جَميلة. وكانت هذه الوليمةُ مُخصَّصةً لِوَدَاعِ ابنِ بطّوطة.

بعدَ الْوليمة، عادَ ابنُ بطّوطةَ مع الشيخ الْفقيهِ مُحيي الدّين إلى المدرسة، فوجَدوا في انتظارِهما هدايَا السلطانِ لابنِ بطوطَة منَ المالِ والملابسِ والجِيَاد، بمناسبةِ انتهاءِ زيارتِهِ للمدينة. وعندَما غادرَ ابنُ بطوطَة مدينةَ بركي، كان قد أمضى بِها أربعةَ عشرَ يوماً. غادرَ المدينةَ مُتّجهاً ناحيةَ الغَربْ، قاصِداً ساحلَ البَحْر، حتّى وصلَ إلى مدينةِ (إزمير).

جيشُ رُوما يَغْزُو إزْمير

عندَما وصلَ ابنُ بطوطَة إلى إزمير، أخذَ يَتطلَّعُ إلى قَلْعتِها المُنِيفةِ المُقامَةِ أَعلاها، والّتي يسكنُها أميرُ إزمير عُمر بك، ابنُ سُلطان بركي مُحمّد بنِ آيدين. وقتَ وصولِ ابنِ بطوطَة إلى المدينة، لم يكنْ أميرُها بِها، بل كان في زيارةٍ لوالدِه السُّلطان. وبعدَ خَمسةِ أيامٍ عادَ إلى إزمير، وَحَرِصَ على أنْ يَتوجَّه بنفسِه إلى ابنِ بطوطَة في الزاوية التي يُقيمُ بها، ليُرحّبَ به. ثم بَعَثَ إليه بالعَديدِ منَ الْهدايا الثّمينة، الّتي تكشفُ عن كَرمِه البالغِ الذي اشتُهِرَ به.

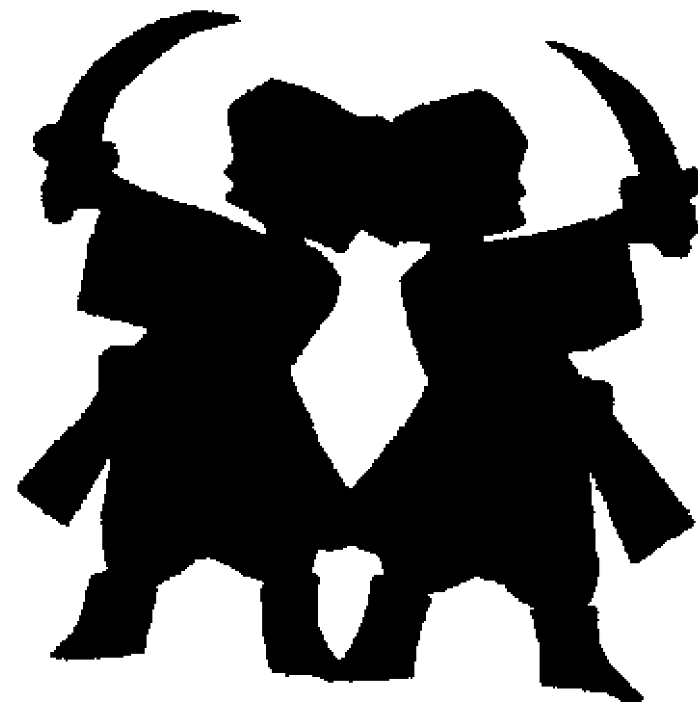
ويذكرُ ابنُ بطوطةَ جانباً من الحِكاياتِ التي سَمِعَها عن الحروبِ البحريةِ الّتي قامَ بِها الأميرُ عمر بك. يقولُ إنّ الأميرَ كانت لِه عدّةُ مَراكبَ حَربيّة، يُطْلقون عليها «الأجفان الغزويّة». كان يُهاجمُ بهذه

المراكبِ نَواحِيَ (القسطنطينية)، فيأسُرُ ويستولي على الغَنَائم، ثم يعودُ إلى مدينتِه ليوّزعَ ما غَنِمَه على أهلِها. ثم يَبدأ جولةً جديدةً بأجفانه الغزويةِ هذه.

ثم يَحْكي ابنُ بَطّوطَة عمّا حدَث، عندَما ارْتفَعت شكْوى البلادِ المُجاورةِ مِنْ هذه الغَزَوات، فَرفَعت أمرَها إلى بَابا روما. وكيف أنّ بابا رُوما أمرَ جَنَوه وفَرنسا بتدبيرِ حَملةٍ لرَدْعِ الأميرِ عمر بك. كما جَرى في نفسِ الوقتِ تَجهيزُ جيشٍ مِن روما. وعندَما الْتقَتْ هذه الجيوشُ عند أزمير، استولَتْ على المِيناء، ودَخلتِ الْمدينة.

عند هذا، قرّرَ الأميرُ عمر بك أنْ ينزل مِن قلعتِه لمقاتلةِ الجيوشِ الغَازِية، وما أن ظهرَ مَع جَندِه حتّى انْقضُّوا عَليهم، وَقتلُوهم جَميعاً، بمَا في ذلك الأمير. ورغمَ أنّ الجيوشَ الغازيةَ استقرَّتْ في المدينة، إلاّ أنّها لم تستطعْ مَع هذا الدخولَ إلى قلعةِ المَدينة، أو اقْتحامَها.

تَنتهِي زيارةُ ابنِ بطوطَة لأزمير، بكلٍّ ما تَخلّلَتْهُ مِنْ أَحداث، فيسافرُ مِنها إلى مدينةِ (مغنيسية)، وهي مدينةٌ كبيرةٌ مُقامةٌ عندَ سَفْحِ جَبَلٍ كبير، في أماكِنها المنبسطةِ تكثُرُ الأنهارُ والعيونُ والبَساتينُ والفَواكِه. وفي مغنيسية يَعيشُ ابنُ بطوطَة تجربةً غَريبة، لم يَر مثيلاً لَها في جميعِ البلادِ التي زَارها.



تَعليقُ جُثمانِ الأَميرِ!.

عنَدما وصلَ ابنُ بطوطةَ إلى مغنيسية، وجدَ سُلطانَها صاروخان في مَدْفنِ ابنِه الأميرِ الذي كانَ قد تُوفِّيَ مُنذ عدّةِ شُهور. تَوجّه ابنُ بطوطَة إلى المَدْفَن، بعد أن عَرَفَ بوجودِ السلطانِ وزوجتِه هُناك ليلةَ العيدِ وَصبيحتَه.

وما أنْ دَخَلَ ابنُ بطوطَة إلى المدفن، حتّى رَأى مَشْهداً، جعلَه يَقفُ مُسَمَّراً في مكانِه من فَرْطِ الدّهشة!. كانُوا قد حنَّطوا الأميرَ المُتوفّى، وَوَضعوهُ في تابوتٍ من الخَشَب، مكسوٌّ بالحديدِ والقَصْدير، وعَلَّقوا التابوتَ في سقفِ قُبّةٍ مَكشوفةٍ جوانبُها، حتّى تَذهبَ رَائحةُ الجُثمانِ ولا تَزْكُمُ الأُنوف!!. وقد عَلمَ فيما بعدُ أنّ هذه الفَتَحاتِ سيتمُّ إغلاقُها عندَما تَتبدّدُ الرائحةُ تَماماً، وسيبقَى التابوتُ ظَاهراً فوقَ سَطْحِ الأرض، وقد رَقَدَ فيه الأميرُ المُتوفّى، يَرتدِي ملابسَه كاملة.

عندَما انتهَى السلطانُ مِن زيارةِ ابنِه المتوفّى، تقدّمَ ابنُ بطوطة، وَسلَّمَ عليه، ثم أدّى صلاةَ العيدِ مع السُّلطان، وعادَ إلى الزاويةِ التي يَنزِلُ بها، زاويةِ أحدِ الأخيةِ الفِتْيان. كانَ الغلامُ المَنُوطُ بجيادِ ابنِ بطوطَة وصحبِه، قد مَضَى مع واحدٍ من زُملائِه، لِيَسْقِيَ الجياد. وعندَما حلَّ مَوْعِدُ العَشَاء، ولم يَعدْ أحدٌ مِنهما، نَقَلَ ابنُ بطوطَة شكواه إلى فَقيه المدينةِ مُصْلحِ الدّين، فنصحَ الشيخُ بالْمُضيّ معاً إلى السّلطان، لينقُلا إليه الخَبَر. فأرسلَ السّلطانُ مَنْ يبحثُ عن الصّبيَّيْنِ في أطرافِ المدينةِ، فلمْ يَعثُروا على أثرٍ لهما.



كان اليومُ عيداً، والمدينةُ مُزْدحمة، والكلُّ منشغلٌ باحتفالاتِ العيد، فعادَ ابنُ بطوطَة من عندِ السلطانِ حَزيناً على فَقْدِ الجياد. وعندَما انقضَى ظُهرُ اليوم، أبصر ابنُ بطوطَة مَوكِباً كبيراً من حُرّاسِ السّلطان، يُقْبلُ ناحيةَ الزّاوية، ومَعهم الجيادُ والصَّبيَّان.

عَرَف ابنُ بطوطَة بعدَ ذلك، أنّ الصَّبِيَّين أخذَا الجِياد وَهَربا بها إلى مدينةِ (فوجه) على مسافةِ سَفرِ يومٍ من مغنيسية. وهي تُطُّل على البَحْر، وأنَّ هذه المدينةَ يَسكُنُها الأوروبيون، وهم على علاقة طيّبة بالسلطان. عندما أبصر أهل هذه المدينة بالصبيين والجياد، شكُّوا في أمرِهما، وقامُوا باستجوابِهما. في أولِ الأمرِ أنكرَ الصّبيّان، لكنْ مَا لَبِثَا أنْ اعْتَرَفا.

أسرعَ ابنُ بَطوطَة وَصحبُه يُغادِرُون هذه المَدينة، بِسَبَبِ ما يجرِي فِيها من أحداثٍ غريبة، وَمَضَوْا يَقْطَعُون المَراعِي التي يَعيشُ فيها التُّرْكُمَانِ.

حَمَّاماتُ الاستشفاءِ في برصا

حلَّ المساءُ أثناءَ سَفرِهم، فاقترحَ ابنُ بَطوطَة أنْ يَتوقَّفوا حتَّى يَنقضِي اللّيل، ثم يُواصِلُوا سَفرَهم في الصباحِ المبكّرِ إلى مَدينة (برغمة) التي يَقْصِدُونَها. سَألُوا التّرْكُمَان، الرعاةَ الذين يُقيمون في ذلك المَكان، إذا كانَ لَديهم عَلَفٌ يُطْعِمون منه الجِياد، فأنكَروا ذلك، بطريقةٍ لا تَتسّمُ بِالْوُدُّ، وانْصرَفوا مُبْتعِدِين.

قال ابنُ بَطوطةَ لِصَحْبِه «أخشَى يا إخواني أنْ يَعْمدَ هؤلاء القومُ إلى سَرِقَةِ جيادِنا!..»، وَصَمَتَ قليلاً، ثم استَطْرَد «إنّ بعضَ الظنِّ إثم.. ولكنْ على سَبيلِ الاحْتِيَاط، عَلينا أنْ نَتناوَبَ السَّهَرَ طَوالَ اللّيل، لِحِراسةِ الجِياد..».

في النصفِ الأخيرِ من اللّيل، استيقظَ ابنُ بَطوطةَ ليتفقَّدَ الأَحْوال، وكانت وقتَها نَوبةَ رفيقِ سَفرِه الفَقيه عَفيفِ الدّين التّوزري، فسمِعَه يَتلُو آياتِ القرآنِ الْكَرِيم، قال له ابنُ بطّوطة «إذا أحْسَسْتَ برغبة في النّوم، أَيقِظْني لأتدبّرَ مَن الّذي يَتَولّى عَنك حِراسَةَ الجِياد..»، فوافق الفقيهُ التوزري. بعدَها نامَ ابنُ بطوطة حتّى الصّباح، وعندَما استيقظَ اكتشفَ أنّ الْفقيهَ قد غَفِل، فَسُرِقت بعضُ الجيادِ الثّمينةِ بما عَليها مِنْ مَتَاع!..

يقولُ ابنُ بَطّوطة «.. فَوصلْنا إلى مَدينةِ برغمة، وهي مَدينةٌ خَرِبَة، لها قَلعةٌ عظيمةٌ منيعةٌ بِأعلى الجَبَل، ويقالُ إنّ أَفلاطون الحكيمَ منْ أهلِ هذه الْمَدينة، ودارُه تَشْتهِرُ باسمِهِ إلى الآن. فَنَزَلْنا مِنها بزاويةِ فقيرٍ مِنَ الأحْمَديّة، ثم جاءَ أحدُ كُبراءِ المدينة، فَنَقَلَنا إلى دارِه، وأكرمَنا إكراماً كثيراً..».

يتحرّكُ ابنُ بطوطَة بعدَ ذلك شَمالاً إلى مدينةِ (بلى كسرى)، وَمِنْها إلى مدينةِ (برصا)، المشهورةِ بحمّاماتِ الاسْتِشْفاء، وَعنها يقُول ابنُ بَطوطة «مدينةٌ كبيرةٌ عظيمةٌ حَسَنَةُ الأسواق، فَسيحةُ الشّوارع، تَحِفُّ بِها البساتينُ مِنْ جميعِ جِهاتِها، والعيونُ الجارية، وبخارجِها نهرٌ شديدُ الحَرَارة، يَصبُّ في بركةٍ عظيمة، وقد بُنِيَ عليها بَيْتان، أحدُهما للرِّجال، والآخرُ للنِّساء. والمَرْضَى يَسْتَشْفُون بهذه الحَمَّةِ



وَيأتون إليها من أقاصِي البلاد». ويعني ابنُ بطوطةَ بكلمةِ الحَمَّةِ هذه العينَ الحارَّةَ التي يَستَشْفي بِها الْمرْضَى.

وكان سلطانُ مَدينةِ برصا وقتَ زيارة إبنِ بطوطة لها، اختيارَ الدِّين أرخان بك، وهو ابنُ السلطانِ السابقِ عُثمان جوق الذي اشتُهرَ بقدرتِه العَسْكريّة، والذي يُعتبرُ أكبرَ مُلوكِ التّركُمان، وأكثرَهم مالاً وَبِلاداً وعَسْكراً، فَقد كان له ما يَزيدُ على مِائةِ حِصْن.

كان يَقضِي حياتَه يَمُرُّ على تِلك الحُصون، فيُقيمُ بكلِّ حِصنٍ أياماً، لِتفقُّدِ أَحْوالِه، وتنظيمِ شؤونه. ويقال إنّ إقامتَه بأيّ مدينةٍ لم تُزد على شَهرٍ كاملٍ بأيّ حال. وهو الذي غزَا برصا، واستولَى عَليها منَ الرّوم. ويُحكَى أنّه حاصرَ مدينةَ (يزنيك) حوالَى عشرين عاماً، وماتَ قَبْلَ فَتحِها، فَلمْ يَتمَّ الاستيلاءُ عَليها، إلاّ على يَديْ ابنهِ السلطانِ اختِيارِ الدّين، الذي طالَ حِصارُه لَها اثنيْ عَشَرَ عاماً!..

بعدَ سَماعِ هذا، يَسعى ابنُ بطوطَة إلى زيارةِ مدينةِ يزنيك هذه. فيبدأُ رحلتَه إليها وَسَطَ طريقٍ تَحِفُّ به أشجارُ الرُّمّانِ بِزُهورِها الجَميلة، وأشجارُ اللَّيمون برائحتِها العَطِرة. وقبلَ أنْ يَصلَ إلى المدينةِ بثمانيةِ أَمْيال، يجدُ نفسَه أمامَ بُحَيرةٍ واسعةٍ تنمُو فيها وحولَها النّباتاتُ العَالِية، لم يستطعْ هُو وصحبُه عُبورَها إلاّ من خِلالِ طريقٍ ضَيّق، لا يَسمحُ إلاّ بمرورِ شخصٍ واحدٍ في آنٍ واحد.

بعدَ مُغامراتٍ طويلة، يصلُ ابنُ بَطّوطَة إلَى المدينةِ التي كان قد سَمِعَ عنها الكَثير، فيصفُها قائلاً «.. وَعلى المدينةِ أسوارٌ أرْبعة، بينَ كُلِّ سُورَين خَنْدَق، وفيه الْمَاء. ويُدخلُ إليها على جُسورِ خَشَب، متَى

أرادُوا رَفْعَها رَفعوها... وبداخلِ المدينةِ البَساتينُ والدُّورُ والْمزارِع، فلكلٍّ انسانٍ دَارُه ومزرعتُه وبُسْتَانُه».

ما إنْ يصلُ ابنُ بطوطَة إلى المَدينةِ حتّى يَمرَضَ حِصَانُه، فَيُضْطرّ إلى البَقَاءِ بها نحوَ أَربعين يوماً. لكنّ الحِصانَ لم يَتمّ له الشّفاء. فَلمَّا طالَ مَرضَ الحِصَان، قرّرَ ابنُ بطوطَةَ أن يتركَه بِالْمدِينة، ويواصلَ سَفَرَه.

اشْترَكَ مع ابنِ بَطوطَة في سَفرِه هَذا ثَلاثةٌ مِن أصحابِه، وقد حَاوَلُوا أنْ يَعثُروا على مُترجمٍ يتكلّمُ العَربيّة، ويساعدَهم على التّفاهمِ مع أهلِ هذه البلادِ التي لا تَتكلّمُ العَربية، بعدَ أنْ انسحبَ المترجمُ الذي كان يُرافقُهم، فلمْ يُفْلِحوا في هذا... فواصلوا رحلتَهم شَمالاً على امتدادِ الدَّرْدَنِيل، وباتُوا لَيْلتَهم الأُولى عندَ فَقيهِ قريةٍ تُدعى (مكجا). عندَما أَبْدَوْا في صَباحِ اليومِ التالي تَخوُّفَهم من أنْ يَضِلّوا الطَّريق، دلَّهم الفقيهُ على امرأةٍ تُركيةٍ تَمتطِي حِصاناً وَيتْبعُها خادمٌ لها، وقالَ لَهم «هذه المرأةُ تقصِدُ مدينةَ (ينجا) الّتِي تَقْصِدونها.. اتْبَعوها تَدُلّكم على الطَّريق..».

تَساقُطُ الثّلوج فوقَ الجِبال

سارَت المرأةُ بحصانِها، وهم مِنْ خَلفِها، حتّى وَصَلوا إلى وادٍ كَبير، يَجرِي فيه نهرٌ مُندفعٌ جَارف. تَقدّمتِ المرأةُ تريدُ أنْ تَعبُرَ النهرَ وهيَ فوقَ حِصانِها، وعندما وَصلتْ إلى منتصفِ النّهر، كادَ الحِصانُ

أنْ يَغْرَق ، فَرَمَاها من فوقِ ظهرِهِ. أرادَ الخادمُ أن يُنقِذَها ، فَغَرِقَ معها !.. شاهدَ بعضُ أهلِ المِنطقةِ ما جَرَى ، فأسرعُوا في محاولةٍ لانقاذ الغَرقى. أخرجُوا المرأةَ وبها رمقٌ منَ الحَياة ، أمَّا الخَادم ، فَوجدُوه قد قَضى نَحْبَه.

عندَما رأى ابنُ بَطوطَة ما جَرَى ، أحجمَ عن عُبورِ النهر ، وفكَّرَ في العودةِ من حيثُ أتَى ، لكنّ بعضَ أهلِ المَكان الذين تَجَمَّعوا ، دَلُّوه على طريقةٍ آمنةٍ لِعبورِ النَّهْر... قال إنه على مَسافةٍ من المَوقعِ الذي يَقِفون عندَه تُوجدُ «مُعَدِّيَةٌ» يُمكنُ أنْ يَعبُروا بها إلى الشاطئِ الآخر. فيسيرُ الركبُ على امتدادِ شَاطئِ النهرِ ، حَتى يصلَ إلى مكانِ هذه المُعدّيَة ، ويصفُها ابنُ بَطّوطة فيقول «وهي أربعُ خَشَباتٍ مَربوطةٍ بالحِبال عَليها سُروجُ الدوابّ والْمَتاع ، ويَجْذِبُها الرجالُ من الْعَدْوَةِ الأُخرَى ، ويركبُ عَليها النّاس».

بعدَ عُبورِ النّهر ، وصلَ ابنُ بَطوطَة وصحبُه إلى بلدةٍتُدعى (كاوية) ، باتُوا فيها ثُم واصَلوا رِحلتَهم إلى غايتِهم ، مدينةِ ينجا ، وكانَ فقيهُ كاوية قد بعثَ مَعهم بدليلٍ يُرشدُهم إلى الطّريق. ويَحكِي ابنُ بطوطَة قِصّةً طريفةً حدَثت له عندَما وصلَ إلى ينجا ، فيقول «بَحَثنا بها عن زاويةِ الأخي فَوجدْنا بها أحدَ الفُقراءِ المُولّهين ، فقلت له : أهذه زاويةُ الأخي؟. فقال لي : نَعم !.. ، فَسُررت عندَ ذلك إذ وَجَدت منَ يفهمُ اللِّسانَ العَربيّ ، فَلمّا اختبرتُه أبرزَ الْغَيْبُ أنّه لا يَعرفُ منَ اللِّسانِ العربيِّ إلاّ كلمةَ نَعم خاصّة !..».

عندَما وَاصَل ابنُ بطوطَة رحلتَه بعدَ ذلك ، صادفَ مِنطقةً جبليةً

وَعْرة ، بِدايةً مِن مدينةِ (كبنوك) التي تقعُ في شَمال بلادِ الروم. وعندَما أرادَ السّفرَ مِنها إلى مَدينةِ (مطرني) ، أصرّ أهلُ كبنوك على أنْ يزوّدُوا ابنَ بطوطَة بفارسٍ يَدُلُّه على المسالِك الجبليةِ التي تَقودُه إلى الْمَدينة. كانَ الوقتُ شِتاء ، والثلوجُ تَهبطُ غَزيرةً من السماءِ ، فَتُغطِّي كلّ شيءٍ باللّونِ الأبيضِ النّاصع ، وتَخْفِي مَعالمَ الطّريقِ تماماً.

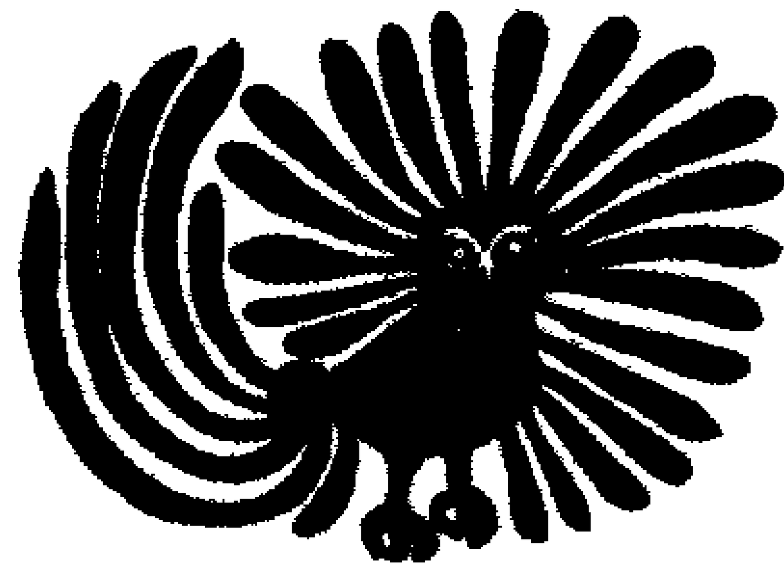
تبعَ ابنُ بطوطةَ ذلك الفارسَ الدّليل ، حتّى وَصلوا عندَ انتصافِ النهارِ إلى قَريةٍ صغيرةٍ لِلتُّرْكُمان ، تَناولوا فيها طَعامَهم. وتَرَكهمُ الفارسُ بين يَدَيْ دليلٍ مِن أهلِ هذه القَرية ، سارَ بِهمْ في طُرقٍ وَعْرة ، تَصعَدُ وتَهبِطُ في الجَبل ، وتعترِضُها المياهُ المندفعةُ من أَعلى الجبلِ في كثيرٍ منَ الأَحْيان. وعندَما وَصَلوا إلى منطقةٍ مَهجورةٍ من الجَبل. توقّف الدّليلُ طالباً أجرَه ، فقال له ابنُ بطوطة «عندَما نصلُ إلى المدينةِ سنُعطيك ما تَطلُب..» ، غيرَ أنّ الدليلَ لم يُعجبْه ذلك القول ، ومضَى هارباً منهم !.

لم يجدْ ابنُ بطوطَة مَناصاً مِنْ أن يُواصِلوا الرِحلةَ دونَ دَليل ، وكانت مُهمّةً شاقّة ، يصفُها قائلاً «كُنّا نَتلمّحُ أَثَرَ الطريقَ تحتَ الثلجِ ونسلكُه ، إلى أنْ بَلَغْنا عندَ غروبِ الشمسِ جَبَلاً لم يَظهَرْ الطريقُ بِهِ لكثرةِ الحِجَارة ، فَخفتُ الهَلاكَ على نَفْسِي ومَن مَعي ، وتوقّعتُ نزولَ الثّلجِ لَيلاً ، ولا عِمارةَ هُنالك ، فإنْ نَزَلْنا عن الدّواب هَلكنا ، وان سَرَيْنا لَيْلتَنا لا نَعرِفُ أَينَ نَتوجَّه ! .».

اضطُرّ الركبُ إلى التوقُّف.. فقال ابنُ بَطّوطةَ بشَجاعة «أيُّها الأصْحاب.. سأمضِي بمفردِي لاكتشافِ الطّريق.. فاذا نَجَحت ،

عُدت إليكم لأُرشدَكم ، أمّا إذا لم أعدْ... فاعرِفوا أنّ أمراً حدَثَ لي !. والأمرُ للهِ مِن قَبْلُ ومِنْ بَعد..».

لكزَ ابنُ بطوطةَ حِصانَه ، فَمضَى يَصْعَدُ في الجَبل ، يضربُ بحوافِرِه في الصَّخر ، وعندما كادَ ابنُ بطوطَة أنْ يَختفِي عن أعينِهم.. استدارَ برأسِه ، وألقَى على صحبِه نظرةً أخيرَة !..

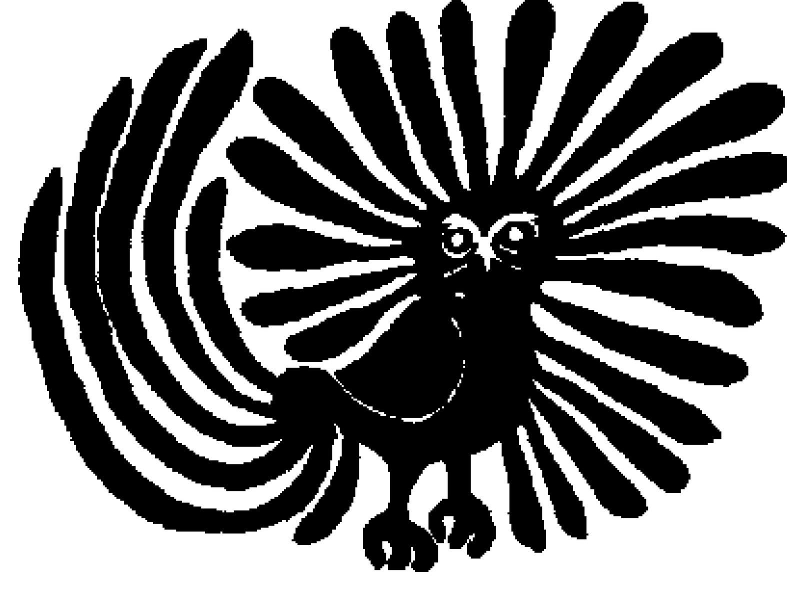


مغامرات
ابن بطوطة

٧

في أرض الظلمات

اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان



مَقابِرُ على الْجَبَل

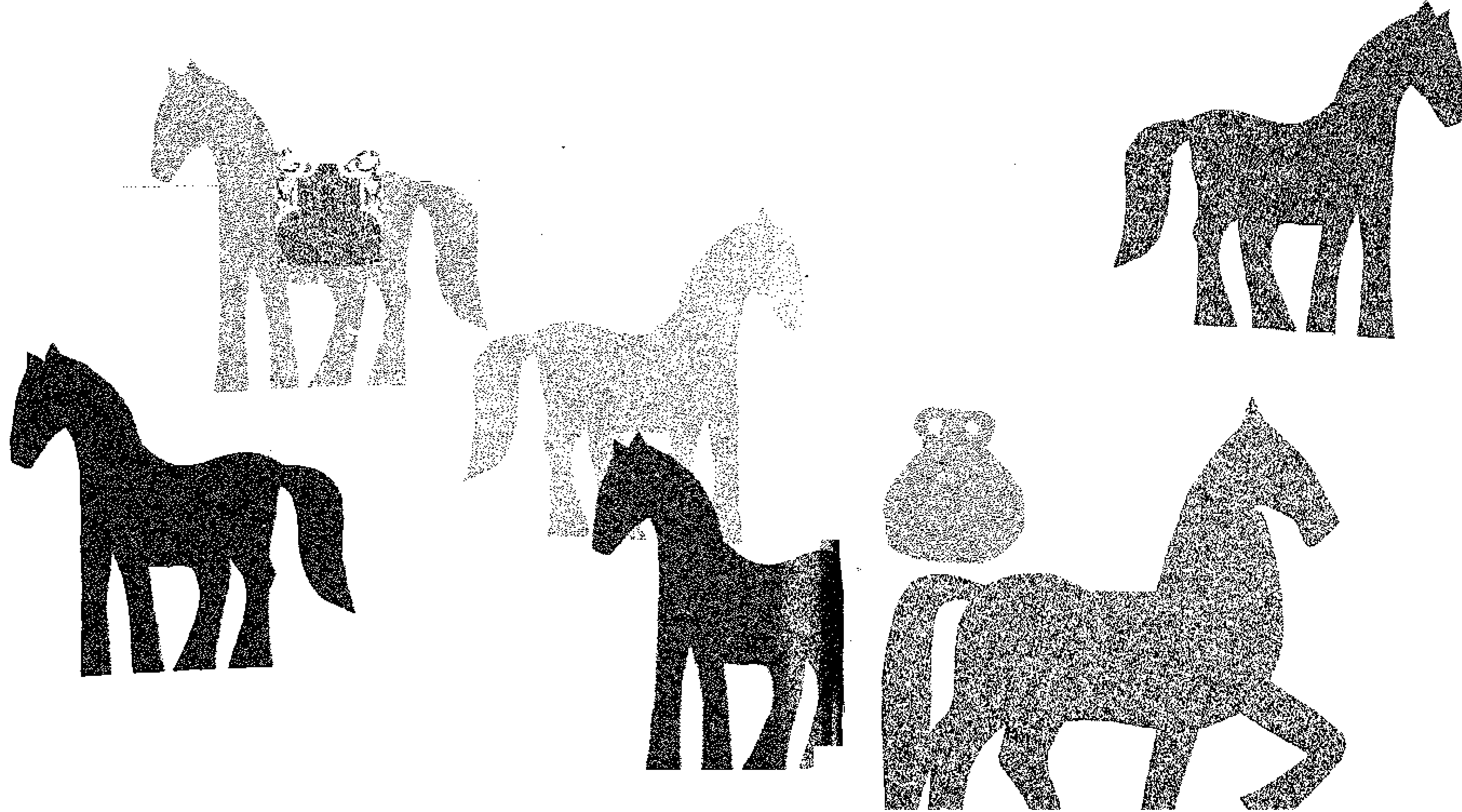
كانَ ابنُ بطّوطة يَقصِدُ مَدينةَ (مطرني) في شمَالِ بلادِ الروم.. والوُصولُ إلَى هذه المدينةِ كانَ يَقتضِي عُبورَ مِنطقةٍ جَبليّة، تَرتفعُ فِيها الجبالُ الوَعْرة، وقد كَسَتْها الثُلوجُ فَأَخفتْ معالمَ الطريقِ الضيّقِ الّذي يَسلُكُه المُسافِرُون. وعندَما انْسحبَ الدليلُ الّذِي كان يرافقُ ابنَ بطوطةَ وصَحبَه، أُسْقِطَ في يَدِهم.. الليلُ يُقبلُ عليهم، والثلوجُ تَنهمرُ بغَزَارة، انْ هُمْ نَزَلوا عن دَوابّهم هَلَكوا، وانْ حَاوَلُوا مُواصلةَ السيرِ تَعرَّضُوا للسُّقوطِ من فوقِ الجبلِ نَتيجةً للصخورِ الضَّخْمةِ المتحرّكةِ الّتي تُغطِّيها الثُّلوج.

اضطُرَّ الركْبُ إلى التوقُّف. وقال ابنُ بَطّوطةَ لصحبِه إِنّه سيَمضِي لاستكشافِ الطّريقِ بمفردِهِ، فانْ أَدركَ غايتَه، عادَ إليهم ليرشدَهم إلى الطريقِ الآمن.. وانْ لم يَعُدْ «فالأمرُ للهِ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعد..».

انطلقَ ابنُ بطوطةَ بِحِصانِه في حَذَر، يحاولُ أنْ يَتبيَّنَ مَعالمَ الطريقِ الّتي غَطّتْها الثّلوج، وكلَّما اختَلَطَ عليه الأمر، هَبَطَ مِن فوقِ

فقال الرجل ، لا توجد اماكن مغلقة لدى الدواب ، فابواب البيوت هنا صغيرة لا تسمح بدخول الجياد .

جَوادِه ، وراحَ يَفحصُ الأرضَ التي يَقِفُ عَليها ، باحثاً عن اتجاهِ الطريقِ وَسْطَ صخورِ الجَبَل. وبين الحينِ والآخر كانَ يتطلّعُ إلى جانبِ الطريقِ ، عَسى أنْ يجدَ مظهراً مِن مظاهرِ الحياةِ والعُمْران. وأكثرَ مِن مَرّةٍ رأى ما يُشبهُ سقفَ البيتِ الذي تُغطّيه الثلوج ، فيسرعُ ناحيتَه ، ليكتشفَ بعدَ قليلٍ أنّه قد وَصلَ إلى مَقْبرة !. فقد كانَ مِن عادةِ أهلِ تلكَ المناطقِ الجَبليّة ، أنْ يبْنوا على القبورِ بُيوتاً مِنَ الخشبِ لتحميَها مِن الثّلوج ، فيظنُّها العابرُ مِن بعيدٍ بُيوتاً للأحْياء.



عندمَا أَظْلمت السماءُ تَماماً ، كانت فَرحةُ ابنِ بطوطَة كبيرةً عندَما رأَى بيُوتاً تَختلفُ عن المقابرِ التِي كان يراها في طريقِه ، وقال دَاعياً «اللّهمّ اجعلْها عامِرة . . » . استجابَ اللهُ لدعاءِ ابنِ بَطّوطة ، فقد وجدَ نفسَه بين عددٍ مِن البيوتِ المُقامةِ على الجَبَل . . وعندَ بابِ أحدِ هذه البُيوت ، رأَى شَيْخاً . كلَّمَه باللغةِ العَربية ، فأجابَ بالتُّرْكية ، وأشارَ إلى ابنِ بطوطَة أنْ يدخلَ البيت . حاولَ ابنُ بطَّوطة ، تارةً بالكلمات ، وتارةً أُخْرَى بالإشَارات ، أنْ يُفهمَ الرجلَ أنّ باقِي صحبِه يَنْتظِرون في موقعٍ بالجَبل ، على أملٍ أنْ يَصِلَ إليهم مَن يُرشدُهم إلى هَذا المَكان . . لكنّ الرجلَ لمْ يَفْهَمْ مِنه .

لكنْ مِن حُسنِ الطّالع ، كانت هذه الدارُ عِبارةً عن زَاويةٍ تَضمُّ عدداً منَ الفُقَراء ، يُشرفُ على معيشتِهم فيها ذلك الشّيخ . سمعَ الفقراءُ الّذين بداخلِ الدارِ جانباً مِن الحِوارِ العجيبِ الذي يدورُ بالعَربيّة والتُّركيـة ، فخرجَ بعضُهم يَسْتَجْلي حقيقةَ الأمر . وكانت دهشةُ ابن بطوطةَ كبيرةً عندَما وجدَ مِن بين هؤلاء الفُقراء أحدَ معارفِه الذين التقَى بهم أثناءَ رحلاتِه في هذه البَلاد . . وكان الرجلُ يَتكلّمُ اللغةَ

رحَّبَ ذلك الرجلُ بِابنِ بطوطة ، فشكرهَ ابنُ بَطّوطةَ وطلبَ مِنه أن يسعَى إلى إنقاذِ باقِي أصحابِه ، بعدَ أنْ وصفَ له المَوقعَ الذي يَنْتظرون عندَه . على الفورِ انْطلقت مجموعةٌ مِنهم إلى حيثُ أشارَ ابن بطّوطة ، ولم يَمضِ وقتٌ طويل ، حتى كانُوا يَعْودون بهم ، ليلتئمَ الشّملُ مرّةً ثانية ، ولِيقيمَ الجميعُ في هذه الزّاوية .

في صباحِ اليومِ التالِي واصلَ ابنُ بطّوطَة مع صحبِه رحلتَهم إلى

مطرني، فوَصلُوها ظُهراً، ونَزَلوا جميعاً بزاويةِ أحدِ الفِتْيان الأخية. وفي مطرني واجهَت الجماعةَ مُشكلةُ إيواءِ الدَّوابِ التي يَركبونها. فقد كانَ من الضروريِّ البحثُ عن مكانٍ مَسقوف، حتّى لا تتعرّضَ لجوِّ ذلك المكانِ البارد، وللجليدِ المتساقطِ بِلا توقّف، الأمرُ الذي يُهدّدُ حياتَها. وقد وَصَلوا إلى حلٍّ لهذه المشكلةِ عندمَا التقَى ابنُ بطوطةَ مصادفةً بأحدِ سُكانِ هذه المدينةِ ممّن يتكلّمون العربيّة، والذي يُعَرفُ بينهم باسمِ الحاجّ. قال الرجل «لا توجدُ عندَنا أماكنُ مُغْلقة لحفظِ الدَّواب، فأبوابُ البيوتِ صَغيرة لا تَسمحُ بدخولِها.. لكنِّي سأدلُّكم على سقيفةٍ بالسُّوق، يَربِطُ المسافرون فيها دوابَّهم، ومَن يأتون لحُضورِ السوقِ في موعِده..».

توجَّه الجميعُ إلى السَّقيفةِ التي أشارَ إليها الحاج، فَربَطوا الدوابَّ تَحتها، وطلبَ ابنُ بطوطَة من أحدِ رِفاقِ رحلتِه أنْ ينزلَ بحانوتٍ خالٍ في مواجهةِ السّقيفة، حتّى يتمكّنَ من حِراسةِ الدّوَاب، وقال له «ابقَ هنا، وبعدَ قليلٍ سأرسلُ إليك طَعامَك، كما سأرسلُ إليك التِّبن لتُطعمَ الجيَاد..».

عندَما وصلوا إلى الزّاوية، أرسلَ ابنُ بطوطةَ اثْنين من رفاقِه ليبتاعَ أحدُهم السّمْنَ يَطْهُون به طَعامَهم، وليبتاعَ الآخرُ قَدْراً منَ التِّبنِ يكفِي لطعامِ الدّواب. بعد قليل عادَ الرجلان، يحملُ أحدُهما التّبن، بينَما لا يحملُ الآخرُ شيئاً، ويَضحكُ قائلاً «بعدَ أنْ اشترينا التّبن، وصَلنا إلى دكّانٍ بالسّوق وطلبنا منه السّمن، فأشارَ إلينا بالانتظار، وتحدّثَ مع ابنِه بالتّركية، وطلبَ مِنا أن نُعطيَه النّقود... غابَ الابن

بعضَ الوقتِ ثم عادَ يحملُ تِبْناً أيضاً!.. ثَارت دَهشتُنا، وقلْنا للرّجل: إنّنا نريدُ سَمْنا.. فأجاب: وهذا هو السَّمْن!!.». ضَحك الحاج وقال لابنِ بطّوطة «ذلك لأننا نطلقُ هُنا على التبنِ بالتُركية لفظَ سَمن.. أمّا السّمنُ فيطلقُ عليه عندَنا اسمُ رباغ..».

مُرَاوغَات الدَّليلِ الخَسِيس

استعدَّ ابنُ بطوطةَ لمغادرةِ مطرني قاصداً مَدينة (قسطموني) الّتي تبعدُ مَسيرةَ عَشَرةِ أيام. وقبلَ أنْ يُغادرَ مطرني عَرَضَ على الحاج الذي يَتكلّمُ العَربيةَ أنْ يرافقَهم كدليلٍ في المرحلةِ القادمةِ من رحلتهم. تردّد الحاج، فراحَ ابنُ بطوطة يَسترضيه، وأهداه ثَوباً من ثيابه قد اشْتراه من مصر، وأعطاه مالاً يَتركُه لعائلتِه أثناءَ السّفر، وخصَّصَ له دَابّةً يَمتطيها متقدِّماً الرّكب، ووعَدَ بمزيدٍ منَ المالِ عندَما يَصِلون إلى غايتِهم، فَقبِلَ

بَدَأَتِ الرِحلة، وقد حَرِصَ ابنُ بطوطَة على أنْ يَتجاذبَ أطرافَ الحَديثِ مع الحاجِّ الدليلِ أثناءَ السفرِ حتّى يُؤنسَه. فعلمَ أنّه ليس فقيراً، وأنَّ له عندَ الناسِ الكثيرَ منَ الدُّيون لكنّه فاقدُ الهمّة كَسُول. واكتشفَ بعدَ ذلك مِن تجربتِه مع الرجلِ أنّه ليس أَميناً، تَتّسِمُ تَصرّفاتُه بالخِسّة.

كان بانُ بطوطَةَ يُعطيه المالَ لشراءِ طَعامٍ يَكفي مَنْ بِالرَّكْب، فكانَ يَشترِي ببعضِ النقودِ خُبزاً وخُضَراً ثم يأخذُ الباقي لنفسِه. وكلّما

همّ أصحابُ ابنِ بطوطَة بمحاسبتِه على أفعالِه وسَرِقاتِه هذه، مَنَعَهم ابنُ بطوطةَ طالباً مِنهم تحمّلَ هذه الفعالِ حتّى يَصِلوا إلى مدينةِ قسطموني، فهو الوحيدُ الذي يَستطيع أنْ يُترجمَ لهم أثناءَ حديثِهم مع أهلِ البلاد. فاكتفَى أصحابُ ابنُ بطوطَة بممازحتِه.. وفي آخرِ النهارِ كان أحدُهم يقولَ له مُعابِثاً «يا حاج!. كم سَرَقت اليومَ مِن النَّفقَة؟..»، فيجيبُ الرجلُ بكلِّ بَساطةٍ ودونَ غَضَب «كَذا!!»، فَيضحك الجميعُ مِن ذلك.

وَيتعجَّبُ ابنُ بطوطةَ من أَخلاقِ ذلك الرجلِ المُعِيبَة، فيقول إنّه أثناءَ رحلتِهم ماتَ حصانٌ لهم، فقرّروا تَرْكه حيث ماتَ ومواصلةَ رِحلتِهم، لكنّ الحاجَّ الدليلَ رفَضَ هذا، وبقِيَ حتّى سلخَ الحصانَ وأخذَ جلدَه، وباعَه ثُم قَبضَ ثَمنَه. ويقول ابنُ بطوطةَ إنّهم في طريقِهم إلى قسطموني نَزَلوا بقريةٍ تقيمُ فيها أختُ ذلك الرّجل. كانت الأختُ كريمةً في استقبالِها لَهم، فجاءت لهم بطعامٍ كثير، وفاكهةٍ مجفّفةٍ منَ الكُمّثرى والتّفاحِ والمِشْمِشِ والخَوْخِ، مَنقوعةً في الماء، أَكلوها وشَرِبوا ماءَها. ولاحظَ الحاجّ أنَّ ابنَ بطّوطة يُخرجُ كيسَ نُقودِه ليُعطيَ المرأةَ مُكافأةً ماليةً على حُسنِ ضيافتِها، فقال لابنِ بطّوطة «لا تُعطوها شيئاً، وأعطوني ذلك!.»، فأعطاه ابنُ بطوطة المالَ أرضاءً له، ثم طلبَ مِن أحدِ أصحابِه أن يُعطيَ المرأةَ بعضَ المالِ خِفيةً عن أخيها، ودونَ أنْ يعلم...

في الطريقِ إلى قسطموني وصلَ الرَّكْبُ إلى مَدينةِ (بولي). قبلَ أنْ يصلَ الركبُ إلى المَدينة، كانَ عليهم أنْ يَعْبُروا نَهراً بالوادِي يَفصلُ

بينَهم وبين المَدينة. ظنَّ الجميعُ أنّه قليلُ العُمق، فتقدّمَ بعضُ صِحابِ ابنِ بطوطةَ فوقَ جيادِهم، واكْتشفوا أنّ النهرَ أعمقُ ممّا ظَنّوا، كما أنّ مياهَه تَندفعُ بقوّةٍ شَديدة. بقيَ ابنُ بطوطةَ حتّى اطمأنّ على عُبورِ الجميع، وكانوا قد تَركوا معه جاريةً صغيرةً تُرافقُ الرّكْب، خافُوا عليها أنْ تعبُرَ النّهرَ فوقَ حِصانِها بمفردِها.. ولمّا كانَ حصانُ ابنِ بطوطَة أقوَى من حصانِها وَأكبر، فقد أخذَ الجاريةَ خلفَه فوقَ حِصانِه، لكن ما إنْ وصلَ إلى منتصفِ النهرِ المُندفع، حتّى زَادَت فجأةً حدّةُ اندفاعِه، فكبَا الحِصان، وسقَطَ ابنُ بطوطَة مع الجاريةِ في النّهر. رأى الرجالُ ما حدَث لهما، فَهبّوا لنجدتِهما. وأنقذُوا الجارية، وقد كادَت تَلفُظُ أنفاسَها.

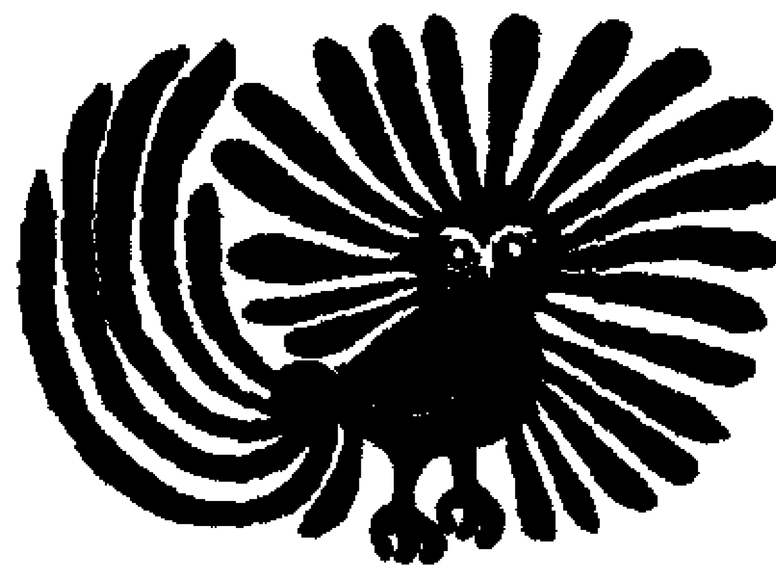
خرج ابنُ بطوطةَ منَ النهرِ يَرتجفُ مِنْ شدّةِ البَرد، فأسرعَ به الدّليلُ إلى المَدينة، قاصداً زاويةَ أحدِ الفِتيان الأخية، فلقيَ الركبُ كلَّ تَرحيب، وأخذُوا ابنَ بطوطةَ إلى جِوارِ ما يُشبهُ المِدْفَأةَ الكَبيرة. خلعَ ابنُ بطوطةَ ملابسَه المُبتلّة، وارتَدى ثياباً جَديدة، وجلسَ إلى جوارِ المِدفأةِ يَصطلي بنارِها.. فاستراحتْ نفسُه، وراحَ يتطلّعُ إلى تصميمِ المِدفأة التي لمْ يَرَ مَثيلاً لَها مِنْ قَبل، فيقول «ومِن عاداتِهم أنه لا تَزالُ النارُ مُوقَدَةً في زَواياهم أيّامَ الشتاءِ أَبداً، يَجعلون في كلِّ رُكنٍ من أركانِ الزاويةِ مَوْقِداً للنار، وَيَصْنعون لها منافسَ يصعدُ منها الدُّخان، ولا يؤذِيَ الزّاوية، ويُسمّونها البُخارى..».

بعدَ قليل، أقبلَ الأخي يحملُ الطّعامَ والفَاكهة وغيرَ ذلك من وَسائلِ الإكْرام، فأكلَ ابنُ بطوطةَ وشَرب، واستلقَى بالقُربِ من

المِدْفأة ، يَستَمْتِعُ بنارِها وهو يقولُ لنفسِهِ «لله دَرُّهم مِن طائفة !. ما أكرمَ نُفوسَهم ، وأشدّ إيثارَهم ، وأعظمَ شَفَقتَهم على الغَريب ، وألطفَهم بالْوارِد، وأحبَّهم فيه ، وأجملَهم احْتفالاً بأمرِه... فَليس قدومُ الإنسانِ الغريبِ عليهم إلاّ كَقُدومِهِ على أحبِّ أهلِه إليه !.».

في صباحِ اليومِ التالي واصلَ ابنُ بَطّوطة رحلتَه ، حتّى وصلَ إلى مدينةٍ تُدعى (كردي بولي) ، في طريقِهم إلى قسطموني. وجدَها ابنُ بطوطَة مدينةً كبيرةً مُقامةً فوقَ أرضٍ مُنبسطةٍ تَتخلّلُها الشّوارعُ النّظيفة. والأسواقُ الحَافِلة. كانَ وصولُ ابنِ بطوطَة إلى هذه المدينةِ ظُهرَ يومِ جمعة ، فَتوجّهَ إلى الجامعِ مباشرةً حيث أَدّى فيه صَلاةَ الجُمُعة ، ثم تَوجّهَ بعدَ ذلك إلى إحدَى زَوايا المَدينة ، وبعدَ قليلٍ مِن وصولِه إلى الزّاوية ، أقبلَ عليه فَقيهُ المَدينةِ وخَطيبُها شمسُ الدّينِ الدّمشقيُّ الحَنْبليّ ، الذي استقرّ بَهذه المدينةِ عدّةَ سَنوات ، والذي حَظيَ بمكانةٍ عاليةٍ عندَ سُلطانِها.

بعدَ تَبادل التّحيّات ، قال الفقيهُ إنَّ السُلطَان شاه بك سَيجيءُ لزيارةِ ابن بطوطةَ في الزّاوية. وبعدَها أقبلَ السّلطانُ فوجدَه ابنُ بطوطةَ حَسَنَ الصُّورة ، جميلَ الخُلق ، وقد أخذَ يسألُ عن حالِ البلادِ التي جاءَ مِنها ابنُ بطّوطة ، وعَمّن لَقيَ مِن السّلاطين. وبعدَ أنْ انتهَى اللّقاء ، وانصرفَ السّلطان ، وَصَلت منه إلى ابنِ بطوطةَ هَداياه اللّطيفة.



عمرُه مائةٌ وثلاثٌ وستّون سَنة...

كانت مَحطَّتُهم الأخيرةُ قبلَ قسطموني في مدينةِ (برلو)، وهي صَغيرةٌ، مقامةٌ على تَلّ، وأسفلَها خندقٌ يَحميها من المُهاجِمين، بالإضافةِ إلى قَلعةٍ شاهقةٍ بأعلى التلّ. وقد ظَهَرَ أنَّ دليلَهم الحاجَّ يعرِفُ الكثيرَ مِن فُقهاءِ هذه المدينةِ وأساتذتِها. وعندَما سمعَ أميرُ المدينةِ بوصولِهم، دَعاهم للصعودِ إلى القَلعة، ورحَّب بِهم وأكرمَهم. وعَرَفَ ابنُ بطوطةَ أنّ هذا الأميرَ هو ابنُ السّلطانِ الكبيرِ سُليمان باد شاه، سُلطانِ قسطموني.

وفي اليومِ التالي وَصَلوا إلى غايتِهم قسطموني، فَيصفُها ابنُ بَطوطةَ قائلاً «وهي من أعظمِ المُدنِ وأحسنِها، كثيرةُ الخَيْرات، رخيصةُ الأسْعار». في هذه المدينة، نَزل ابنُ بطوطَة في زاويةٍ يُعرفُ شيخُها باسمِ «الأطروش» لِثِقَلِ سَمْعِه.. وكانت وسيلةُ التفاهمِ معه، أنْ يَكتبَ له مَن يتحدّثُ مَعه في الهواءِ أو على الأرضِ الكلماتِ التي يَبغي قَولَها، فيفهمُها الشّيخُ وَيُجيبُ عنها.

بقيَ ابنُ بطوطةَ في قسطموني حَوَالى أَربعين يوماً. وكانَ أكثرَ ما لَفَتَ نَظرهُ فيها، رُخصُ الأسعارِ بالنسبةِ لغيرِها من المُدن. فيقولُ إنه كان يَشْتري نِصْفَ الخروفِ السَّمينِ بدرهمين، وإنه كانَ يكفيهِ هو وتسعةً آخرين من الخبزِ ما يَشتريه بدِرْهَمين، ويستطردُ قائلاً «.. ونَشترِي حَلواءَ العَسلِ بدرهمين فَيكْفينا أَجْمعين، ونَشترِي جَوْزاً بدرهمٍ وقَسْطَلاً بِمثلِه، فنأكلُ مِنها أجمعون، ويَفضُلُ باقِيها. ونَشترِي حِمْلَ

الحَطبِ بدرهمٍ واحد، وذلك أَوانَ البرْدِ الشَّديد.. ولم أرَ في البلادِ مدينة أرخص أسعاراً منها..».

وفي مدرسةٍ لعالمٍ أستاذٍ يُعرفُ باسمِ صَدْرِ الدّين سُلَيمان الفينيقي، يَلتقِي ابنُ بطّوطةَ بشيخٍ معمّر صالحٍ يُدعَى دَادا أمير علي. وَيحكِي القصّةَ العَجيبةَ لِهذا اللّقاء، فيقول «دَخلت عَليه بزاويةٍ بِمَقْرُبَةٍ من سوقِ الخَيل، فوجدتُه مُلقىً على ظَهرِه، فأجلسَه بعضُ خُدّامِه، ورفَعَ بعضُهم حاجِبَيه عن عينيه، ففتحهما، وكلّمني بالعَربيٍّ الفَصيح وقال: قَدمت خيرَ مَقْدَم. وسألتُه عن عمرِه فقال: كنتُ مِن أصحابِ الخليفةِ المُستنصرِ بالله، وتُوفّي وأَنا ابنُ ثَلاثينَ سَنة، وعمرِي الآن مائةٌ وثَلاثٌ وستّون سَنة!.».

وفي قسطموني، يَلتقِي ابنُ بطوطَة بسلطانِها سُليمانَ باد شاه عمرُه يزيدُ على سَبْعين عاماً «حَسَنُ الوَجهِ، طَويلُ اللّحية، صاحبُ وَقارٍ وَهَيْبة، يجالسُه الفُقهاءُ والصُّلَحاء...، في أوّلِ لقاءٍ بَينهما، احتفَى بِه السّلطان، وأجلسَه إلى جَانبِه، وبعدَ أنْ عَرَفَ منه أَخبارَ البلادِ الأُخرَى التي قَدِمَ منها، أعجبَه ما لَدَى ابنِ بَطوطةَ منَ المَعارف، فأمرَ بإنزالِه في مَكانٍ قريبٍ منْ مَقرِّه، وقدّمَ إليه الثّمينَ مِن الهدَايا الفاخِرة.

وأكثرُ ما يَلفِتُ نَظرَ ابنِ بطوطَة في عَمائِرِ قسطموني، الجامعُ الّذِي يُؤدّي فيه السُّلطانُ صلاةَ الجُمعة، فيصفُه قائلاً «والمسجدُ المَذكورُ ثَلاثُ طَبقاتٍ من الخَشَب، فَيصلِّي السّلطانُ وأربابُ دَولتِه والقاضِي والفقهاءُ ووجوُه الأجنادِ في الطَّبَقة السُّفلى، ويُصلِّي الأفندِي وهو أخُو السلطانِ وأصحابُه وخدّامُه وبعضُ أهلِ المدينةِ في الطبقةِ

الوُسْطَى ، ويصلِّي ابنُ السّلطانِ ووليُّ عهدِه ، وهو أصغرُ أولادِه ويسمَّى جَوَاد ، وأصحابُه ومَماليكُه وخُدّامُه وسائرُ الناسِ في الطبقةِ العُلْيا. ويجتمعُ القُرّاءُ فَيَقْعُدُون أمامَ المِحْراب ، ويقعدُ مَعَهم الخَطيبُ والقَاضِي ، ويكونُ السلطانُ بِإزاءِ المِحْرَاب..».

بعدَ انتهاءِ الصّلاةِ على هذه الصّورة ، يَحكِي ابنُ بطوطَة كَيفيّةَ انصرافِ الجَميعِ مِنَ الجَامع ، فيقولُ إنّ القارئَ يأتِي ليقرأَ القرآنَ الكريمَ بَينَ يدَي السّلطان ، وبعدَ انتهاءِ القراءةِ يَنصرفُ السّلطانُ ومَن مَعه في طابقِه ، فيصعَدُ القارئُ إلى شقيقِ السلطانِ ويفعلُ نَفْسَ الشّيء ، وبعدَها يَجرِي نَفسُ الترتيبِ عندَ ابنِ السُّلطان.

تَنتهِي زيارةُ ابنِ بطّوطَة لمدينةِ قسطموني ، فيُقرّرُ أنْ يُواصلَ رِحلتَه إلى مدينةِ (سينوب) التي تَقعُ على شَاطِىءِ البحرِ الأسودِ ، في شَمالِ بلادِ الروم.

السّلطانُ يَخرُقُ قَاعَ سُفنِ الأَعْدَاء..

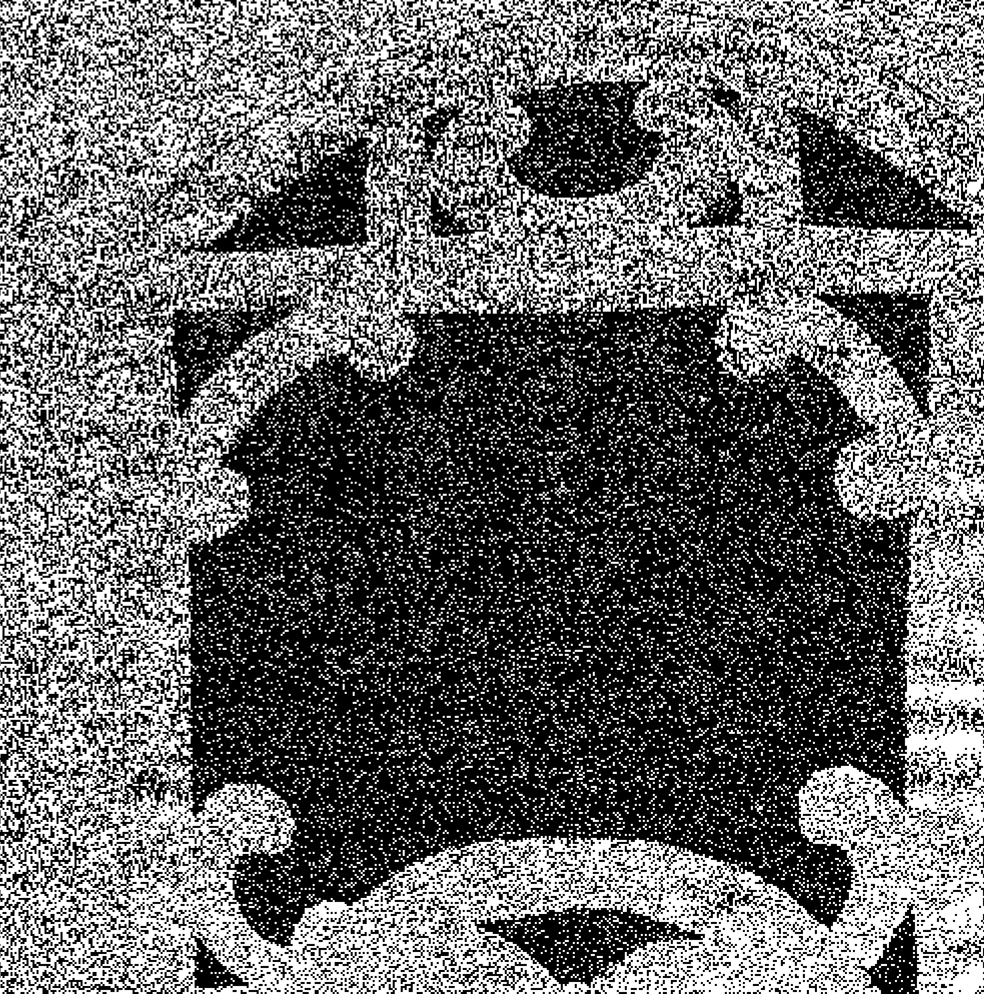
ومدينةُ سينوب شديدةُ التّحصين ، يُحيطُ بِها البحرُ مِنْ جَميعِ جهاتِها ، إلاّ جهةً واحدةً ناحيةَ الشّرق.. وفي جهةِ الشّرقِ يقومُ البابُ الوحيدُ لِلمدينة ، لا يجتازُه أحدٌ إلاّ بإذنٍ من أميرِ المدينةِ إبراهيم بك ابنِ السلطانِ سُليمان باد شاه. وعندَما وصَلَ إلى البابِ الإذنُ بدخولِ ابنِ بطّوطةَ ومَنْ معه ، تَوجَّهُوا إلى زاويةِ أحدِ الفِتيان ويُسمّى عِزّ الدّين جَلَبِي.

وَيُبدِي ابنُ بطوطَة إعجابَه بالمسجدِ الجامعِ لِمدينةِ سينوب، فَيتحدّثُ عَنْ بِرْكةِ المَاءِ الّتي بِوَسَطِ الجَامِع، وما عَلَيها مِن قُبّةٍ جَميلةٍ تَحملُها أربعةُ أَعمدةٍ منَ الرُّخَام، وما فَوقَ هذه القُبّةِ من مكانٍ للجلوسِ يَصعَدُ إليه الناسُ بواسطةِ دَرَجٍ خَشَبيّ. ويقول إنّ هذا المسجدَ بَناه السلطانُ بروانه، ابنُ السلطانِ عَلاءِ الدّين الرّومي. ويقال إنّ ذلك السلطانَ كانَ يُصلّي الجُمُعَةَ بِأعلَى تلك القُبّة.

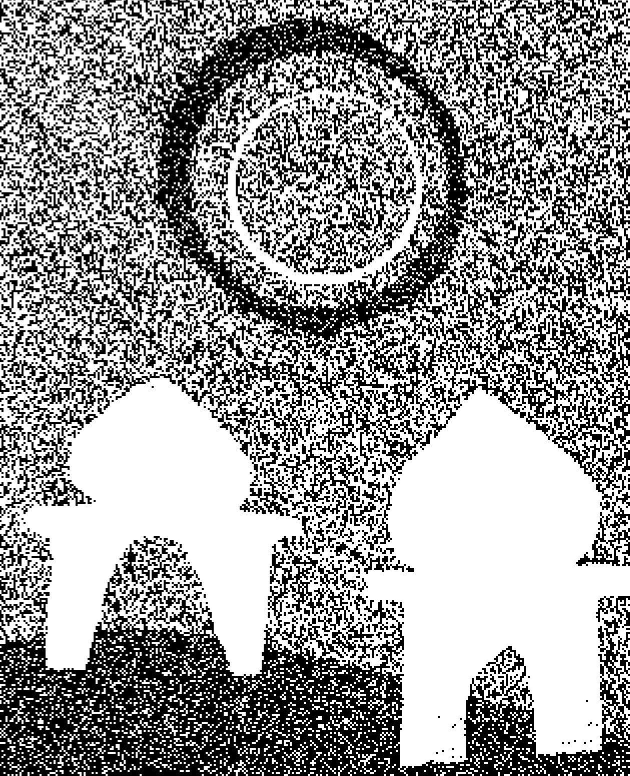
وقد جاءَ بعدَ السلطانِ بروانه ابنُه السّلطانُ غازي جلبي. وَيُبدِي ابنُ بطّوطَة إعجاباً شديداً بشَجاعةِ واقدامِ السُّلطانِ جلبي. وَيَحكي أنّ ذلك السلطانَ كان يَتمتّعُ بقدرةٍ خاصّة على البقاءِ طويلاً تحتَ المْاء. وأنّه في أيامِه كثُرت غزَوَاتُ السّفنِ الحربيةِ الرّوميةِ لِمدينتِه. فكان عندَما يشتعلُ القِتالَ بينَ جيشِ المدينةِ والسُّفنِ الحربيةِ الغَازيَة، ينتهزُ فُرصةَ انشغالِ الجميعِ بِهذا، فيغطسُ تحتَ الماء، وبيدِه آلةٌ حَديديةٍ يَخْرُقُ بِها قاعَ سُفنِ الأعداء، فتبدأ السُّفنُ في الغوصِ دونَ أنْ يشعُرَ بذلك مَن فَوقَها مِن الجندِ أثناءَ انشغالِهم بالقِتال.. وهكذا تَغرَقُ سفنُ الأعداءِ واحدةً بعدَ الأخرى. ويقول ابنُ بطّوطةَ عنه، إنّه في احدَى المرّاتِ استطاعَ أنْ يأسُرَ كلَّ مَن كانَ على ظهرِ احدَى السفن، بعدَ أنْ خرَقَها، وبَدأت تَغرَق.

وجَاءَت نِهايةُ ذلك السّلطانِ بعيداً عن ساحةِ القِتال. فقد خرَجَ يوماً للصيّد، وكان مُولعاً بصيدِ الحَيوانات، فرأَى غَزالةً تَدخُلُ بين الأشجار. لكَزَ جَوادَه، وأسرَعَ لِيلحقَ بها. ولم ينتبهْ أثناءَ ذلك لفرعِ شجرةٍ كبيرٍ يَعترضُ طريقَه، فاصطدَم رأسُه بفرعِ الشجرةِ صَدمةً شديدةً أَودتْ بحياتِه.

فسأل ابن بطوطة الذي لم يكن قد
رأى عربة من قبل ، وما تشكلها ، و
كيف الحصول على بعضها









وقد جرَت لابنِ بَطّوطَة وصحبِه حادثةٌ طَريفةٌ عندَ أوّلِ مُقامِهم بهذه المَدينة. كانَ هو وصحبُه يتّبعون المذهبَ المالكيّ، بَينما يتبع أهلُ المدينةِ مَذهبَ أبي حنيفة. وكانت هناك بعضُ الفُروقِ في طريقةِ وضْعِ الأيدِي أثناءَ الصّلاةِ بَين المَذْهَبين. وعندَما رأى أهلُ المَدينةِ ابنَ بطوطةَ وصحبَه أثناءَ صَلاتِهم يُسْبِلُون أَيديَهم، سَأَلُوهم عَن مذهبِهم، فأخبرَهم ابنُ بَطوطةَ أنّهم على مذهبِ الإمامِ مالِك. سكَتَ أهلُ البَلد، لكنهم لم يَقْتنعُوا بكلام ابنِ بطّوطة، ذلك لأنّ بَعضَ الروافضِ الخارِجين على الدِّين الإسْلامي، كانوا يَضَعُون الأيديَ بنفسِ الطَّريقة، وخاصّةً رَافضةَ العِرَاق.

تَناقَل أهلُ المَدينةِ هذا الشّك، حتّى وَصَل الأمرُ إلى نَائبِ السُّلطانِ الذي أرادَ أنْ يَمتحنَ صدقَ قولِ ابنِ بَطوطة، فأرسلَ لَه مع خادمٍ له أرنباً هديةً لِيأكلَه، وأوصَى خادمَه بأنْ يراقبَ ما سيفعلُه ابنُ بطوطةَ بالأرنب. فما كانَ من ابنِ بطوطة ومَن معه إلاّ أن ذَبَحُوا الأرنَب وَطَبخوه، ثُم أكلوه. انصرفَ الخادمُ مُسْرِعاً لينقلَ إلى نائبِ السلطانِ ما رآه، فاطمأنّ قَلبُ الرجُل، وتبدّدَ شَكُّ أهلِ المَدينة، ذلك لأنَّ الروافض لا يَأكلُون الأرانب. بعدَها انْهالَت الهَدايا والضِّيافاتُ على ابنِ بَطّوطةَ وصَحبِه.

بقيَ ابنُ بطوطَة بهذه المدينةِ مدةَ أَربعين يوماً، يتطلّعُ إلى البَحرِ الأسود، مُنتظِراً وصولَ سفينةٍ مناسبةٍ تَنقُلُه مع صحبه إلى شِبْه جزيرةِ القِرْم. وعندَما عَثَرَ على السفينةِ المنشودةِ، لمْ يستطعْ ربّانُها أنْ يُقلعَ بسفينتِه إلاّ بعدَ أحدَ عشرَ يوماً، انتظرَ فيِها مُساعدةَ الرِّيح.

هَذهِ الغَرَباتُ العَجيبَة

بَدأت الرِحلةُ والبَحرُ هادئٌ نَوْعاً، والرياحُ مُواتِية، واختفَى شاطئُ بلادِ الرُّوم، فأصبحَ البحرُ يُحيطُهم من كلّ جانب. وبعدَ ثَلاثةِ أيامٍ هاجَ البحرُ هِياجاً شديداً، وَأصْبَحَت السفينةُ كَريشةٍ في مَهَبِّ الرِيح، وشعَرَ الجميعُ أنّهم لا ريبَ إلى هَلاك. كان ابنُ بَطوطَة يَختبئُ منَ الأمواجِ العاليةِ في مكانٍ يُقال له «الطارمة»، وهو حُجرةٌ خشبيةٌ تَحتَ موقعِ الدّفّة، فقال لأحدِ أصحابِه أنْ يَصعَدَ إلى ظهرِ السفينةِ لِيَرَى حالةَ الجوّ. بعدَ قَليل، عادَ الرجلُ إلى ابنِ بطوطَة وقد ظَهرَ الفزَعُ على وَجهِه، وهو يقول «أَسْتودِعُكم الله!!.».

بقيَ الجميعُ على حَالِهم من الفَزعِ والهَوْل، وقد أَصابَهم اليأسُ مِنَ النَّجاة. وفَجْأة!. تَغيَّرت حالةُ الجوّ، وَهبّت رياحٌ جَديدة، دَفَعت بالسفينةِ قَريباً مِن ميناءِ سينوب الذي غَادَرُوه في بدايةِ رحلتِهم... أرادَ مَنْ بالسفينةِ الهُبوطَ إلى الْيابِسة، هُروباً من هذه الرِّحلةِ الخَطِرة، لكنّ ابنَ بطّوطَة الذي كانَ مُصمِّماً على مُواصلةِ رِحلتِه شَمالَ البحرِ الأسود، رَفَضَ ذلك، فَقد كانَ يَحلَمُ بزيارةِ البلادِ البَعيدةِ التي يُطلقون عليها اسمَ (أرْضِ الظُّلْمة)، أو ما نُطلقُ عليه حاليًّا اسمَ صحراءِ سيبيريا الجَليديّة. لِهذا طَلَبَ منَ الرُّبّانِ ألاّ يقتربَ مِن اليابسة، وألاّ يَسمحَ لأحدٍ بالنُّزولِ منَ السَّفينة.

عندَما استَقامت الرّيح، واصَلتِ السّفينةُ رِحلتَها.. وهذه المرّة أَيضاً، ما إنْ تَوسَّطُوا البحرَ الأَسود، حتّى هاجَ البحرُ هِياجاً شديداً..



لكنْ ما لَبِثَت الرياحُ أنْ دَفعتهم هذه المرّةَ إلى الشاطىءِ الشّماليّ ، فَهلّلَ الجميعُ عندَما رَأَوْا جِبالَ البرِّ عندَ الأُفق .

اتّجهَت السفينةُ إلى ميناءِ (كرش) ، تَنوي الرُسوَّ علَى شَاطئِه . لكنْ قبلَ أنْ تَصلَ السفينةُ إلى الميناء ، شاهدَ مَن عليها جَماعةً تقفُ فَوقَ أحدِ الجِبالِ القَريبة ، وتشيرُ مُحذّرةً مِن الدخولِ إلى الميناء . خافَ ربّان السفينةِ أنْ تكونَ سفنُ الأعداءِ تتربّصُ في الميناء ، فاستدارَ بسفينتِهِ يريدُ العَودةَ مِن حيثُ أتى ، لكنّ ابنَ بطوطَة قال له مُشيراً إلى شاطىءٍ قَريب «أريدُ أنْ أنزِلَ هنا !. » ، سألَ الرُبّان «أين ؟.. » . أجابَ بِحَسْم «هنا.. على هذا الشّاطئ !. » . حاولَ الربّانُ أنْ يُحذّرَ ابنَ بطّوطة منَ الأَخطارِ التي يمكنُ أنْ يُصادِفَها على هَذهِ الأرض ، لكنّه لم يجدْ سوَى الإصْرارِ التامّ ، فاستجابَ لطلبِ ابنِ بَطّوطة .

هَبَطَ ابنُ بَطوطَة وصحبُه إلى الشّاطئ ، وَحَملوا مَتاعَهم يَتوغّلُون في البرّ ، حتّى رَأَوْا عن بُعدٍ كنيسةً مُنعزلةً بلا دُورٍ حَولَها ، فأشارَ ابنُ بطوطةَ بالتوجّهِ إليها . عندَ بابِ الكنيسةِ لَقِيَهم الراهبُ الذي يُقيمُ بها ، فرحّبَ بِهم ، واسْتضافَهم .

مِن ذلك الرّاهبِ عَرَفَ ابنُ بطوطَة أنّه فيما يَلي البحر ، تَقومُ الصّحراء المَعروفةَ باسمِ (دشت قفجق) . ويُطلَقُ عليها اسمُ صَحراء رغمَ انّها عامرةٌ بالحَشائشِ العالية ، لأنّه ليس بِها أشجارٌ ولاَ جِبال . وعَرَفَ كذلك أنَّ أهلَ هذه الصَّحراءِ يَعتَمِدون في إشعالِ النارِ على رَوْثِ البَهائم ، فالحطبُ مُنعدمٌ نَتيجةً لعدمِ وُجودِ الأَشْجَار .

أخذَ ابنُ بطوطةَ يَسألُ الرّاهب عن البلادِ التي سيَمْضي إليها ،

وَوسيلةِ الوصولِ إلى أطرافِها، فقالَ الرّاهب «هذه الصحراءُ المُقفرةُ واسِعة، لا تَقطعُها سوَى العَربات، وهي مَسِيرةُ ستّةِ أشهرٍ كاملة، ثَلاثةٍ مِنها في بلادِ السُّلطانِ مُحمد أوزبك، وثَلاثةٌ في بلادِ غَيره من السّلاطين..». فسألَ ابنُ بطّوطَة الذي لم يكنْ قد رَأى عَرَبةً مِنْ قبل» وما شكلُ هذه العَرَبات... وكيفَ الحُصُولُ على بَعضِها..؟».

قال الرَّاهب «هي مَرْكَباتٌ تَسيرُ فوقَ الأرض على أربعِ عَجَلاتٍ أو بَكَراتٍ كَبيرة.. بعضُها تَجرُّه الجِياد، وبعضُها الآخرُ تَجرّه البَقرُ والجِمَال، وَفْقاً لحالة العَرَبة وقَدْرِ ما يُوضعُ فوقَها من أَحْمال.. والذي يَسوقُ العَرَبَة يركبُ فوقَ أحدِ الجِياد التي تَجرُّها، ويُمسكُ السائقُ في يدِه سَوطاً يَدفعُ به الدوابَّ إلى الحَرَكة، وباليدِ الأخرَى يُمسكُ فَرعاً طويلاً منَ الخَشَب، يُوجِّهُ بِه الحيواناتِ إذا حادَتْ عَن طَرِيقِها..».

ظَهَرَ التعجُّبُ على ابنِ بَطّوطة، فاستطردَ الراهبُ يَقول: «وهي أكثرُ رَاحةً للمُسافِرين مِن تَرحالِهم فوقَ ظُهورِ الجياد، حيثُ يَتعرَّضون للرّياحِ والأمْطار.. فالعربةُ تُثَبَّتُ إليها بِسُيُورِ منَ الجِلدِ أربعةُ قَوائمَ مِنُ الخَشَب، وهذه تُثبّتَ بِها أيضاً عَوارضُ خَشبيةٌ تَصْنعُ ما يُشْبهُ القُبّةَ فوقَ العَرَبة، ثم يَكْسُو هذا كلَّه غِطاءٌ منَ الجُوخِ أو اللُّباد..»، سأل ابنُ بَطّوطة «وهكذا يَبْقَى المسافرُ طَوالَ الوقتِ دَاخلَ هذه الخَيْمةِ لا يَرى شَيئاً مِمَّا يَمُرُّ بِه في سَفرِه».» قاطعَه الرّاهبُ قائلاً «بل تُوجدُ في هذا الغِطاءِ فَتَحاتٌ كالنّوافِذ يُمكنُ فَتحُها أو إغلاقُها حَسَبَ الحَاجَة، وهكذا يَرَى المُسافرُ ما بالخارجِ ولا يَرَاه أَحَد!. وداخلَ هذه الخيمةِ يَستطيعُ المسافرُ أنْ يَنتقلَ مِن موضعٍ لآخرَ، ينامُ أو يأكلُ أو يَقرأُ أو يَكتُبُ وَفْقَ ما يشاء!!.».

في صُحبةِ الأميرِ تلكتمور

تحمَّس ابنُ بَطّوطةَ لمواصلةِ الرِحلةِ بعدَ الذي سَمِعَه عن هذه العَرَبات، وفي صَباحِ اليومِ التالي، أوفدَ ابنُ بطوطَة بعضَ صَحبِه من التُجّار، حتّى يتفاوَضُوا مع سُكانِ هذه الصَّحراء، الّذين يُطلَقُ عَليهم اسمُ «قفجق»، لاستئجارِ عَربةٍ مِن عَرباتِهم تَجُرُّها الجِيَاد.

عندَما عَادَ أصحابُ ابنِ بطوطَة بالعَرَبة، انطلقُوا بِها إلى أوّل مَدينةٍ في رِحلتِهم (الكفا)، وهي مدينةٌ ذَاتُ امتدادٍ كبيرٍ على البَحرِ يَسكُنها المَسيحيّون، وأكثرهُم نازحٌ مِنْ أوروبا. وأميرُ هذه المدينةِ يُدعى «الدمير». وعندما وَصَلوها، تَجوَّلوا فِيها حتّى عَثَروا على المسجدِ الوحيدِ بها، فَنزلُوا بِه.

بعدَ ساعةٍ مِنْ وُصولِهم، دبّ الفَزَعُ في نفوسِهم وهم يَسْتمعون لأولِ مرةٍ إلى صوتِ رَنينِ الأجراسِ العديدةِ لكنائسِ المَدِينة، فأمرَ ابنُ بطوطةَ أصحابَه بالصُّعودِ إلى صَومعةِ الجَامع، يُؤذِّنون ويَقرأون القرآن الكريم، لدفعِ الرّهبةِ من هذه الأَجْراس. وفُوجِئَ ابنُ بطوطة برجلٍ يقتحمُ المسجدَ وقد ارتدى الدِّرعَ وأَمسكَ بالسِّلاح!. أثارَ الرجلُ المزيدَ مِنَ الفَزَعِ لَديهم، لكنّ دَهشتَهم تَجاوزَت فَزَعَهم عندَما سَمِعُوا الرجلَ يَقول: «السلامُ عَليكم..». بعدَها، عَرَفَ ابنُ بطوطَة أنّ الرجل هو قاضِي المُسلمِين بالمَدينة، سمعَ القراءَةَ والأذان، فأَسرعَ إلى الجامعِ وقد ظَنَّ أنّ مَكروهاً قد لَحِقَ بِمَنْ فيه.

في صَباحِ اليومِ التّالي فُوجِئَ ابنُ بطوطَة بوصولِ أميرِ المَدينة،

الذي أَصرَّ علَى أنْ يتناولَ ابنُ بطوطَة وصحبُه طَعامُ الغَدَاءِ على مائدتِه ، وبعدَ ذلك قامُوا بجولةٍ في أنحاءِ الْمدينَة. وكانَ أكثرَ ما بَهَرَهم في هذه المدينةِ مَرْسَاها الذي تحتشدُ فِيه نَحوُ مائِتَيْ سفينةٍ حربيةٍ ومدنيّة ، بعضُها صَغيرٌ وبعضُها كَبير، جاءَت من جميعِ أنحاءِ العالَم.

عندَما قَرَرَ ابنُ بطوطَة السّفرَ إلى مدينةِ (القِرْم) استأجرَ عَربةً تَنقُلُهم مَع متاعِهم ، وكان مَعهم أحدُ العَامِلين عندَ أميرِ المدينةِ تلكتمور ، وعندَ وُصولِهم إلى المدينة. وقبلَ أنْ يَستقرُّوا في المكانِ الذي سيُقيمون به ، أقبلَ عَليهم إمامُ الأمير، ويُدعَى سعدَ الدِّين ، يحملُ هَدية الأميرِ لابنِ بَطّوطة ، ثم صَحِبَهم ليُقيموا بزاويةِ الشيخِ زاده الخُرَاسَاني.

استراحَ ابنُ بطّوطةَ إلى الشّيخِ زَاده ، ورأى مدَى إجلالِ الناسِ له ، وإقبالِهم عليه ، واحترامهم له. وفي مجلس هذا الشيخ ، تَعرَّفَ ابنُ بَطوطَة علَى عددٍ منْ فُقهاءِ وقُضاةِ وعلماءِ الْقِرْم. وقد استفادَ ابنُ بطوطَة كثيراً منَ المعلوماتِ التي استَقَاهَا مِن ذلك الشّيخ ، وهو لا يَنسى أنْ يُسجّلَ في مُذكّراتِه نَدَمَه على عَدَمِ القيامِ بزيارةٍ دَعَاه إليها الشّيخ ، فيقولُ «.. وأَخبرَني هذا الشيخُ زادَه أنّ بخارجِ هَذه المدينةِ رَاهباً منَ النّصارَى في دَيْرٍ يَتعبّدُ بِه ، ويُكثرُ الصّوم ، وأنّه انتهَى إلى أنْ يواصلَ أَرْبعين يوماً ثُم يُفطرُ على حبّةِ فُول ، وَرَغِبَ مِنّي أنْ أصحبَه في التوجّهِ إليه ، فأَبيت. ثم نَدِمت بعدَ ذلك على أَنْ لم أَكُنْ رَأيتُه وعَرَفْتُ حَقيقةَ أمْرِه..».

وبالرُّغم مِن أنَّ الأميرَ تلكتمور كانَ مَرِيضاً عندَ وُصولِ ابنِ

بَطّوطةَ إلى المدينةِ، فقد طلبَ أنْ يَتوجَّهَ ابنُ بطوطَة وصحبُه إلى مَحْضَرِه، وأكرمَهم وأهداهُم الْهدَايا. وفي مَحْضَرِ الأمير، عَرَف ابنُ بطوطَة أنّه يُزْمعُ السفرَ إلى مدينةِ (السرا) عاصمةِ مُلْكِ السّلطانِ محمد أوزبك، الذي تَتْبعَهُ هذه البلادُ كُلُّها، فاستأذنَ الأمير في أنْ يَسيرَ في رَكْبِه. وعندَما وافقَ الأمير، أسرعَ ابنُ بَطوطَة يشتري العَرباتِ اللازمةَ لِهذه الرِحلةِ الطُّويلة، حتَّى يَكونَ بِرفقة الأمير، وفي حِمايتِه. اشْتَرى ابنُ بطوطَة عَربةً له مُغطّاةً بالجُوخ، وعربةً صَغيرةً لرفيقِ سفرِه عَفيفِ الدينِ التّوزري، ثم عَربةً كبيرةً تَجرُّها ثَلاثةٌ منَ الجِمالِ لِباقي رفاقِ رِحلتِه.

سارَ ابنُ بطوطةَ وصحبُه في ركْبِ الأميرِ الذي كانَ يَضُمُّ بالإضافةِ إلى وَلَديه وأخيه، العديدَ مِنَ الفُقهاءِ والعُلماء، مِن بينِهم إمامُه سعدُ الدّين، والمُعرِّفُ عَلاءُ الدّين. ولم يكن ابنُ بطوطَة قد سَمِعَ مِن قبلُ بوظيفةِ المُعرِّفِ هذه، فسألَ عن ذَلك الامامَ سَعْدَ الدّين، الذي قال له «المعرّفُ يجلسُ بَين يَدَي الأميرِ في مجلِسِه، فاذا أتى القاضِي مَثلاً، وَقَفَ هذا المعرّفُ وقال بصوتٍ مُرتفع: باسم الله، سيّدُنا ومولانا قاضِي القُضاةِ والحُكّام، مُبيّنُ الفَتاوَى والأحكام، باسمِ الله. فَيَتهيّأ مَن كان حاضِراً لدخولِ الدّاخل، وَيَقومُ إليه، ويُفسحُ له مكاناً في المَجْلس...».



العِقابُ الصارمُ لِلُّصُوص

بَدأت الرِحلةُ إلى السّرا ، وكان الركبُ يَتحرَّك بعدَ صَلاةِ الصّبح ، ثم يتوقّفُ في الضُّحَى لتناولِ الطَّعام ، ويستأنفُ السّيَرَ بعدَ ذلك ليتوقّفَ في الْعِشَاء. وكانوا إذا توقّفوا ، حلُّوا الابلَ والبَقَرَ عَنِ العَرَبات ، وسرَّحوها للرعْي لَيلاً ونَهاراً ، فَهم لم يَكونوا في حاجةٍ لإطعامِ الدوابِّ العَلَف ، لأنّ النّباتاتِ والأعشابَ التي تُغطّي هذه الصحراءَ تُصلُحُ طَعاماً لها. وتَوافرُ هذا الزادِ للدّوَاب ، هو السبب في كَثرتها بهذه البِلاد ، ورُخْصِ سِعرها. ودوابٌّ هذه البلادِ لا رعاةَ لَها أو حُرّاس ، ذلك لأنّ قَوانينَهم حاسمةٌ في الضّربِ على أيدي لصوصِ الدّوَاب ، وفي هذا يقولُ ابن بطّوطة «وحكمُهم فيها أنّه مَن وُجدَ عندَه فَرسٌ مَسروق ، كُلّفَ أن يَرُدَّه إلى صاحبِه ، ويُعطِيَه مَعه تِسعةً مِثلَه ، فانْ لم يَقدْر على ذلك أُخذَ أولادُه في ذلك ، فانْ لم يكن له أولاد ، ذُبِحَ كما تُذبحُ الشّاة ! ! .» .

طَوالَ هذه الرحلةِ كان ابنُ بَطّوطَة وصحبُه يَتناولون طعَامَهم على الموائدِ التي يَمُدُّها الأمير. وكانَ عليهم أنْ يَتّبعُوا عادَات أهلِ تلك البلادِ في الطَّعام. ويتحدّثُ ابنُ بطوطَة عن طَعامِهم فيقول «.. لا يأكلون الخُبزَ ولا الطّعامَ الغَليظ ، إنّما يَصْنعون طَعاماً مِن شَيءٍ عندَهم يُسمّونه الدّوقي ، يجعلون على النارِ الماء ، فإذا غلى صَبُّوا عليه شَيئاً من الدّوقي ، وانْ كان عندَهم لَحمٌ قَطّعوه قِطَعاً صِغاراً وَطَبَخوه معه ، ثم يُجعَلُ لكلِّ رَجلٍ نَصيبُه في صَحْفَة ، ويَصُبّون عليه اللّبَنَ الرّائب ، ويَشربون عليه لَبنَ الخَيلِ وهم يُسمّونه القمزّ ، وهم أهلُ قُوّةٍ وشِدّةٍ وحُسْنِ مِزَاج ..» .



كان أوّلَ ما وَصَلوا إليه بعدَ مُغادرةِ القِرْم، موضعٌ يُعرفُ باسمِ (سجحان). ما إنْ حَطُّوا رِحالَهم حتّى بَعثَ الأميرُ تلكتمور إلى ابنِ بطوطَة برسولٍ يَدعوه إلى الزّاويةِ التي يَنزِلُ بِها. وعندَما وَصلَ وجدَ الأميرَ قد أعدَّ له وليمةً حافلةً بأنواعِ الطَّعام، وقد وُضِعَ عليها الخُبْزُ إكراماً له. وبعدَ أنْ انْتَهَوا من تَناولِ الطَّعام، قَدّموا إلى ابنِ بطوطةَ سائلاً أبيض في أوعيةٍ صَغيرة، فَشربَ مِنه الجميع. وكان ابنُ بطوطةَ يَجلسُ إلى جوارِ فَقيهٍ يُدعَى الشيخَ مُظفَّرَ الدّين، فسأله «ما هذا؟..»، أجاب «هذا ماءُ الدُّهن..». فلمْ يفهم ابنُ بطوطةَ مَعنى هذا، وعندَما تذَوَّقَ ذلك السائلَ وجدَه حامِضاً فلمْ يُعجِبْه وتَركَه.

بعدَ أنْ خرجَ مِن محضرِ الأمير، سألَ عن ذلك السائل، فقيلَ له إنّه نوعٌ من الخَمرِ يَصنعونه من حبوبِ الدّقي التي يَطْهونها لِطعامِهم. وفَهِم بعدَ ذلك أنّ الشيخَ مُظفّرَ الدين عندَما قال له «ماءُ الدّهن»، كان يقصِدُ أنْ يقول «ماء الدُّخْن»، أيْ الحبوبُ التي يُسمّونها الدّوقي، لكنّه لم يكنْ يَنطقُ حَرفَ الْخَاء، شأنَ أهلِ تلك البِلاَد.

طالَت مَسيرتُهم، حتّى وَصَلوا إلى مِنْطَقةٍ شاسعةٍ تُغطّيها المياهُ الضَّحْلة. وكان قَطْعُ هذهِ الأرضِ يُسببُ لَهم الكثيرَ منَ المَشاكل. فالعَرَباتُ كانَت تَغُوصُ في الوَحْل، كما أنَّ الدّوابَّ كانت تجدُ صُعوبةً كبيرةً في نَزْعِ أقدامِها منه.

كانَ الركبُ يَسيرُ مُتَأنّياً، ولم يكنْ بإمكانِ إبنِ بطّوطةَ أنْ يُسْرِع مُتخطّياً عربةَ الأمير. لكنَّ الأميرَ ما لَبثَ أنْ جاءَ إلى ابنِ بطّوطة، وطلبَ إليه أنْ يتقدّمَ هو وصحبُه ولا يَنتظِرَ باقي الرّكب، وأمرَ بعضَ

خَدمِه بمرافقةِ ابنِ بطوطَة لِيُبيّنوا له الطّريق. كَما سلَّم ابنَ بطوطَة خِطاباً إلى أميرِ المدينةِ التّالية (آزاق)، يُعْلمُه فيها أنّ ابنَ بطوطةَ قادمٌ مِن طَرَفِه، يبتغي لِقاءَ السلطانِ أوزبيك.

الجِيادُ عندَهم كالغَنَم

استقلَّ ابنُ بطوطَة بِرَكْبِه، فأسرعَ في سيرِهِ قَدْرَ استطاعتِه، وصلَ مدينةَ آزاق بعدَ أكثرَ مِن ثلاثةِ أيّام. وجدَها مدينةً كبيرةً على السَّاحِلِ الشماليّ الشّرقيّ للبحرِ الأسود، بها المَباني الجَميلة، وتَعْمُرُ بالتّجارِ القادِمين من كُلِّ مَكان، وبخاصةٍ مِن جَنَوا. عندَما تَسلّمَ أميرُ آزاق، محمدُ خواجة الخُوارزمي خِطابَ الأميرِ تلكتمور، خرجَ لاستقبالِ ابنِ بَطّوطة وبرفقتِه قاضِي المَدينةِ وطَلَبَتُها. وكان ابنُ بطوطةَ قد حَطَّ رحالَه خارجَ المَدينة، في انتظارِ وُصولِ الأميرِ تلكتمور. وقد رحَّبَ أميرُ آزاقَ بابنِ بطّوطة، ومدَّ له الموائدَ الحافلةَ بأَصنافِ الطّعام.

بعدَ وصولِ ابنِ بطّوطة بيومين، وصَلَ الأميرُ تلكتمور، فخرجَ الأميرُ مُحمد للقائِه وأَعَدَّ له الضّيافة، بعدَ أنْ أقامَ ثَلاثَ خِيامٍ ضَخْمة، يَتصلُ بعضُها بِبَعْض، إحداها من الحَريرِ المُزخرَفِ البَديع، والأُخْرَيان من الكتّان. وعندَما نَزَل الأميرُ تلكتمور من عربتِه، بُسطَت أمامَه أقمشةُ الحريرِ ليسيرَ عليها. وقد سرَّ ابنُ بطوطةَ عندَما أصرَّ الأميرُ تلكتمور على أنْ يَسْبِقَه ابنُ بطوطةَ في مَسيرتِه، حتّى يَعرِفَ الأمير محمد مكانَتَه.

وَصلَ الجميعُ إلى الخَيمةِ الأُولى المُعدّةِ للجُلوس، وقد وُضِعَت في صدرِها أريكةٌ خَشبيةٌ مُرصّعةٌ بالجواهِر لجلوسِ الأميرِ الضّيف. وقد حَرِصَ الأميرُ أنْ يُجلِسَ ابنَ بطوطةَ إلى جوارِه على تِلك الأريكة. وبعدَ أنْ انتهَى تَقديمُ الطّعام، أقامُوا مِنْبَراً، صَعدَ عليه الواعظُ وجَلسَ القُرّاءُ بَين يَديه، فَخَطَب خُطبةً بَليغة، ودعَا للسّلطانِ والأميرِ والحَاضرين. كان يقولُ هذا باللّغة العربيّة، ثم يُتَرجمُه إلى التُّركية.

بعدَ هذا بَدَأ الغِناءُ بالعَربيةِ والتّركية والفارسيّة، ثم عادُوا إلى تقديمِ الطَّعام، ومَضى الأمرُ علَى هذا النَّحوِ حتَّى العِشاء، وَكلّما هَمَّ ابنُ بَطوطةَ بالانْصِراف، استبقاه الأمير، الذي قام بَعدَ ذلك بتوزيعِ الهَدايا، فنالَ ابنُ بطوطةَ منها كُسوةً فَخمةً وحِصاناً. وقد لاحَظَ ابنُ بطوطةَ كثْرةَ الهدايا من الجيَاد، وعَرَف أنَّ الخيلَ بهذه البلادِ كثيرةٌ جدّاً وثَمنَها قليل، وهي عندَهم كالغَنم، فالواحدُ مِنهم يَملكُ منها الآلاف. وهذه الجيادُ تُرسَلُ إلى بِلادِ الهِند، فَتَضُمُّ الدَّفعةُ الواحدةُ منها ستّة آلافِ حِصانٍ أوْ أَكثر. ومع ما يَدفعُه التّجارُ من ضَرائب في أرضِ الهند، ومع ما يَمُوتُ من هذه الجيادِ أثناءَ الرحلةِ الطّويلةِ أو يَضِيع، فإنّهم يَكْسِبُون الكثيرَ مِن تجارتِهم هذه.

عندَما انْتوىَ الأميرُ تلكتمور مُغادرةَ آزاق، مواصلاً رِحلتَه إلى السرا، بقيَ ابنُ بطوطةَ ثَلاثَة أيامٍ بعدَ انصرافِ الأمير، حتَّى يَنتهِيَ مِن إعدادِ رَكْبِه للسّفر، مُستفيداً منَ التّسْهيلاتِ والهَدايا التي قدَّمها له الأميرُ مُحمد خواجة. وبعدَ أنْ تحرّكَ ابنُ بطوطَة لِيلحقَ بموكبِ الأمير، كانَ أوّلَ توقّفٍ لَه عندَ مَدينةِ (الماجر)، وهي مَدينةٌ كبيرةٌ عَلى نَهْرٍ واسِع، تَكثُرُ بِها البَساتِين.

في مدينةِ الماجر نَزَلَ ابنُ بطوطةَ وصحبه بزاويةِ الشّيخ مُحمد البَطائحيّ نِسبةً إلى مِنْطَقةِ البطائح بالعِرَاقِ والتي قَدِمَ منها. وقد وَجَدَ بزاويتِه حُوالَى سَبعين من فُقراءِ العَرَبِ والفُرسِ والتُّرك والرُّوم، مِنهم المتزوّجُ ومِنهم الأَعزب. وقد لاَحظ ابنُ بطوطَة شِدّةَ احتفاءِ أهلِ المَدينةِ بالفُقراء. فقد كانُوا في كلِّ ليلةٍ يَأتون إلى الزّاويةِ بالخَيل والبقرِ والغَنَم، كما كانَ سُلطانُ هذه المدينةِ يأتِي أيضاً لزيارةِ الشيخِ والتَّبرُّك بِه، وكذلك زَوجاتُه اللائي يُطلقُ عَليهن «الخواتين»، وكنَّ يَحْملن مَعَهن الكثيرَ مِنَ الْهَدَايا الثّمينة.

ويَحكِي ابنُ بَطوطة ما شَهِدَه في صَلاةِ الجُمعة من اعتزازِ أهلِ المَدينةِ بِفُقهائِهم. فَبعدَ أن انتَهَى الواعظُ عِزُّ الدّينِ مِن مَوعظَتِه، نَهضَ الشيخُ مُحمد البطائحيّ وقال «إنّ الفَقيهَ الواعظَ يريدُ السَّفر، ونريدُ له زَاداً..»، ثم خَلعَ عَباءةً ثمينةً كان يَلْبَسُها وقال «هَذِه مِنّي إليه..». وعلى الفورِ تقدّمَ كُلُّ مَن حَضَر الصّلاةَ بما يتبرّعُ به، فتجمّعَ لَدَى الواعظِ الكثيرُ مِن الملابسِ الثّمينةِ والجِيادِ والنُّقُود.

وكانت دَهشةُ ابنِ بَطوطةَ كبيرةً عندَما التقَى أثناءَ جَولتِه في سوقِ الْمَدينةِ بعدَ الصَّلاةِ برجلٍ يَتكلَّمُ اللّغةَ العَربية. وعندَما تَمَّ التعارفُ بَينهما، فَهِمَ ابنُ بطوطَة أنّ الرجلَ يَهوديٌّ قَدِمَ مِن بلادِ الأندلُس، وأنّه وصلَ إلى الماجر عن طَريقِ البرّ، عَبْرَ البلادِ الأوروبية، ولَمْ يَسْلُكْ طريقَ البَحر. وأخذَ الرجلُ يَحكِي لابنِ بطوطةَ عن مدينةِ (القُسْطَنْطينيّة) التي مرّ بِها في رحلتِه، راحَ يَصفُ عَظَمَتَها وفَخَامتَها، ممّا أثارَ لَدَى ابنِ بَطّوطَة رَغبةً شديدةً في زيارتِها. وقد عَرَف ابنُ بطوطة أنَّ هَذا الرجلَ استغرقت مِنه الرِحلةُ من الأندلسِ إلى الماجر أربعةَ أَشْهر.

المَدينةُ المُتحرِكَة

مِمّا لَفَتَ نَظَرَ ابنِ بَطّوطة في هَذِه البِلاَد، تَعظيمُهم لِلنِّساء. فالنّساءُ لَهنّ مَكانةٌ أفضلُ مِن مكانةِ الرِجالِ في كثيرٍ مِنَ الأحْيان، سواءٌ بَينَ الأمراءِ أو بَين عَامَّةِ النَّاس. وكانَ أَوّلَ ما لاحظَ ابنُ بَطّوطة هذا الوَضعَ المُتميِّز لِلنِّساء، عندَما شاهَدَ مَقْدمَ «الخاتون» زوجةِ الأمير سلطية حاكمِ المدينةِ في عَرَبةٍ لَها لِلِقَاءِ الأَمير.

يقولُ ابنُ بَطّوطَة إنّ زَوجةَ الأمِير قَدِمَتْ في عَربةٍ فَخْمةٍ مُغَطَّاةٍ بنسيجٍ أَزْرقَ جَمِيل، «.. وبينَ يَدَيها أربعُ جَوارٍ فائقاتِ الحُسْن، بَديعاتِ اللِّباس، وخَلْفَها جُملةٌ مِنَ العَرَباتِ فِيها جَوارٍ يَتْبَعْنَها. ولمّا قَرُبَتْ مِن مَنزلِ الأمِير، نَزَلَتْ مِنَ العَربةِ إلى الأرْض، ونَزَلَ مَعها نَحْوُ ثَلاثين منَ الجَوارِي، يَرْفَعْن أَذْيالَها، وَلأثوابِها عُرىً تَأخذُ كُلُّ جارِيةٍ بِعُرْوَة، ويَرْفَعْن الأَذْيَالَ عن الأرضِ مِنْ كُلِّ جَانب.. ومَشت كذلك مُتَبَخْتِرة، فَلمَّا وَصَلت إلى الأمير، قامَ إِليها وسلَّمَ عليها، وأَجلسَها إلى جانبِه..».

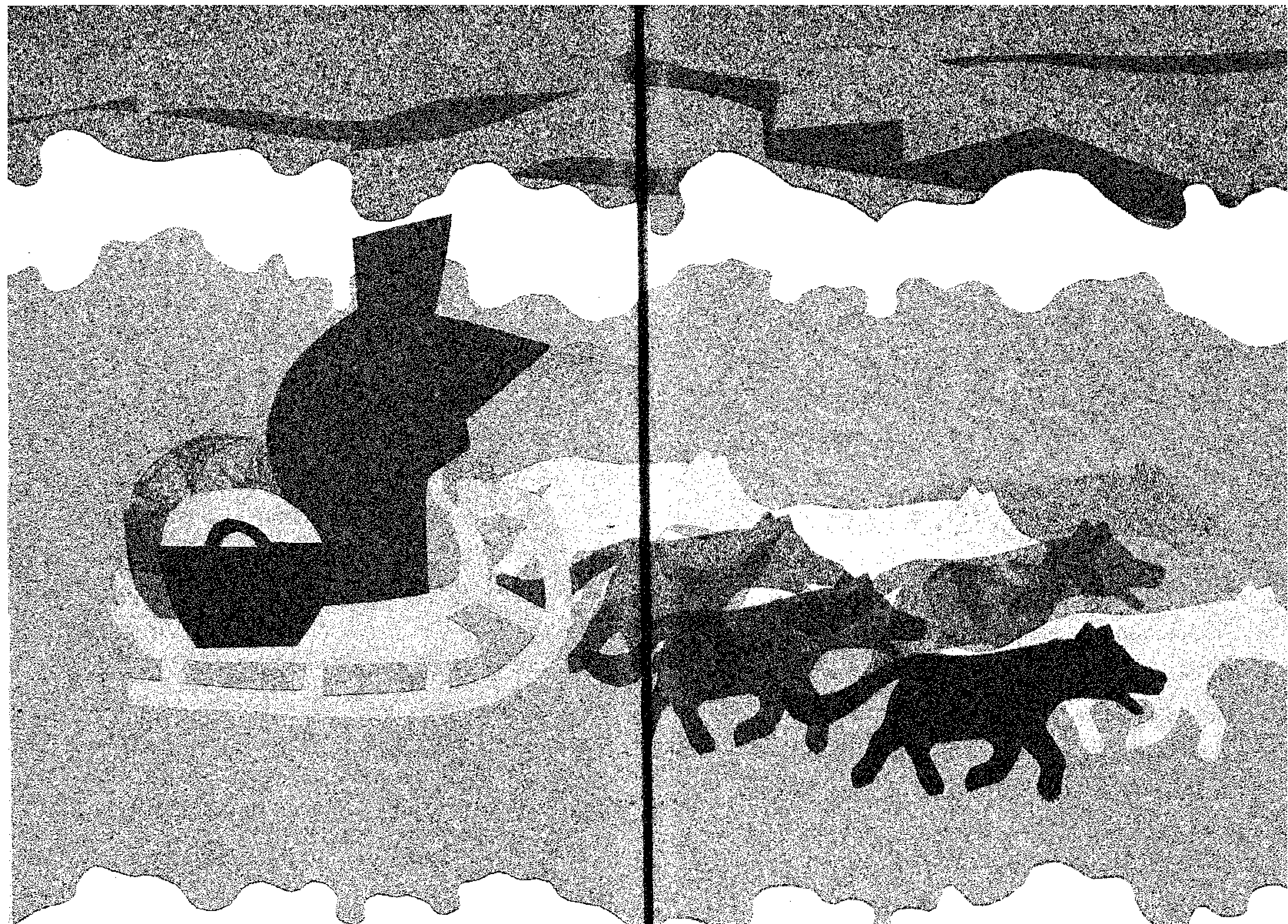
أمّا نِساءُ البَاعةِ وَبُسطاءِ الناسِ فقد رأَى لَهُنّ ما يُشبهُ الأَميرة، رأَى بَعْضَهُنّ في عَرَباتِهِنّ التي تَجرُّها الخَيل، وكانَت الواحدةُ مِنْهن تَجلسُ أيضاً بَين ثَلاثٍ أو أربعٍ مِنَ الجَوَاري، وهنّ أيضاً يَرْفعن ذَيلَها عندَما تَسيرُ وعلَى رأسِها ما يُسمّى «البغطاق»، وهو قُبَعةٌ مَخْروطيّةٌ على شكلِ الطُرْطُور، مرَصعٌ بالجَواهرِ، وَأعْلاه رِيشُ الطّاووس، تَسيرُ سافِرة، شأنَ كُلّ نِساءِ التُّرك، فَهُنّ لا يَحْتَجِبْن.

شَاهدَ ابنُ بَطّوطةَ بعضَ نِساءِ العامَّةِ يَجئنَ إلى السُّوقِ بهذه الْهَيْئة ، وَمع كُلٍّ وَاحدةٍ مِنهُنْ عَبيدُها وغَنمُها وَلَبَنُها ، تَبيعُ ذلك كُلَّه ، وتَشتَرِي ما تَحتاجُه مِن عُطورٍ وأدواتِ زِينة. ويقولُ ابنُ بَطّوطة «.. وربّما كان معَ المرأةِ مِنهنّ زَوجُها فيظنُّه مَن يَرَاه بَعضَ خُدّامِها ، ولا يكونُ عليه منَ الثيابِ إلاّ فَرْوةٌ مِن جلدِ الغَنَم ، وفي رأسِه قَلَنسُوَةٌ تُناسِبُ ذلك !!».

انْتهَت زيارةُ ابنِ بطّوطةَ لمدينةِ الماجر ، وأسرعَ مَعْ صَحْبِه لِيُدْرِكُوا مَوكبَ السّلطان الذي قِيل لهم إنّه يُعَسكرُ في مكانٍ على مَسِيرةِ أربعةِ أيامٍ مِن الماجر ، بموضعٍ يُقالُ له (بش دغ) ومعناها الجبالُ الخَمْسة ، وقيلَ لهم إنَّ بهذه الجبالِ عُيوناً حارّة ، مَن يَغتسلْ بها لا يُصَبْ بِالأمْراض.

عندَما وَصَلَ ابنُ بطّوطةَ إلى المَوضعِ المُحدّدَ ، وجدَ أنَّ مَوكبَ السُّلطانِ قد تَحرَّكَ مِنه ، وعلمَ أنّ الموكبَ سيَمُرُّ بعدَ قليلٍ بموضعٍ قريب ، فَمضَى إلى ذلك المَوضِع ، وأقامَ خِيامَه فوقَ تَلٍّ هناك ، ورفَعَ أمامَ خَيمتهِ عَلَماً يَعني رغبتَه في لِقاءِ السُّلطان ، أمّا العَرَباتُ والخيلُ فَقد وضعَها خلفَ الخِيام ، وكانَ ذلك في أوّلِ يومٍ مِنْ رَمَضان.

بعدَ قليلٍ أقبلَ مِنْ بَعيدٍ موكبُ السُّلطان ، وقد بَدَا مِن مكانِه وكأنّه مَدينةٌ مُتحرِّكة.. وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «.. فرأينا مَدينةً عظيمةً تَسيرُ بأهلِها ، فيها المَساجدُ والأَسْواق ، ودُخانُ المطابخِ صاعداً في الهَواء ، وهم يَطْبُخون في حالِ رحيلِهم ، والعَرَباتُ تَجرُّها الخيلُ بهم..». اقتربَ الموكبُ حتّى مرَّ بابنِ بطّوطة ، لكنَّ أحداً لم يَنتبْه إلى



خِيامِه أو العَلَمِ الذي رفعَه. مرّت عَرباتُ السُّلطانِ وزوجاتِه الخَواتِين، وعندَما مرّت الخاتُون الرَّابعة، رأَتِ الخَيمةَ والعَلَمَ فَبعثَت الفِتْيانَ والجَوارِي ينقلون تَحيّتَها بعدَ أنْ تَوقَّفَ مَوكبُها. فَبعث إليها ابنُ بَطّوطة مع مُعرِّفِ الأميرِ تلكتمور هَديّةً ثَمينةً، فَقَبِلتْها، وأمرَتْ أنْ يَنزِلَ في مُعَسكرِ السُّلْطان.

كَراهِيَةُ الحَلْوَى...

سارَ ابنُ بطّوطةَ في رَكبِ السّلطان، وأقامَ خَيمتَه حيث تَوقّفَ الرّكب، إلى جوارِ خَيمةِ أحدِ ابناءِ السلطانِ جان بك، في انتظارِ أنْ يَمثُلَ بَين يَدَيْ السُّلطانِ مُحمّد أوزبيك خان، ويقولُ عنه ابنُ بطّوطة «.. وهذا السلطانُ عَظيمُ المَمْلكة، شديدُ القُوّة، كبيرُ الشّأنِ رَفيعُ المَكان، قاهرٌ لأعداءِ اللهِ أهلِ قُسْطَنطينيّةِ العُظمى.. بلادُه مُتّسعةٌ ومدُنُه عظيمةٌ، منها الكفا والقِرم والماجر وآزاق وسراجوق وخُوارِزم، وعاصمتُه السُّرا..».

في عَصرِ اليومِ التالي دخلَ ابنُ بطّوطةَ على السُّلطانِ في خَيمتِه الواسعةِ التي تُسمَّى قُبّةَ الذَهَب، وهي مُزَخْرَفة، تَحملها قُضبانٌ مِنَ الخَشبِ المكسوِّ بصفَائحِ الذّهب، وفي وَسَطِها أريكةٌ من الخشبِ مَكسوّةٌ بِصفائحَ مِن الفضّةِ المُذهَّبة، وقوائمُها منَ الفضّةِ الخَالِصة، ورؤوسُ الخَيمةِ مرصّعةٌ بالجَواهِر.

ويَحْكِي ابنُ بطّوطةَ عن نِظامِ جُلوسِ السُّلطانِ في قُبّةِ الذَهبِ

كما شاهدَه، فيقول «يَقعُدُ السلطانُ على السّريرِ وعلى يَمينِه الخَاتُون طبطغلي، وتَلِيها الخَاتون جبك، وعلى يَسارِه الخاتون بيلون، وتَليها الخاتون أروجي. ويقفُ أسفلَ السّريرِ على اليمينِ ولدُ السُّلطان تين بك، وعن الشِّمالِ ولدُه الثاني جان بك، وتجلسُ بَين يَديه ابنتُه ايت كجحك. وإذا أتت إحداهنّ، قامَ لها السلطانُ وأخذَ بيدِها حتَّى تَصْعَدَ إلى السَّرير، أمَّا طيطغلي وهي الملكةُ وَأَحْظاهُنَّ عندَه، فانّه يَستقبلُها إلى بابِ القُبّة، فيُسلّمُ عليها ويأخذُ بيدِها، فإذا صَعِدت إلى السريرِ وجَلَست، حينئذ يجلسُ السّلطان... ويأتي بعدَ ذلك كبارُ الأمراءِ فتُنصبُ كَراسيهِم على اليمينِ والشِّمال، وكلُّ انسانٍ مِنهم إذا أتى مجلسَ السّلطانِ يأتي مَعه غُلامٌ بكرسيّه..». وهكذا تَمتلئُ قُبّةُ الذَّهبِ بالأمراءِ والكُبراءِ ورجالِ الدَّولة. شاهَدَ ابنُ بطوطةَ ذلك كُلّه، وبعدَ أنْ تَعرَّفَ على السُّلطانِ وتلقَّى هَداياه، انصرفَ على أملِ لِقاءٍ آخَر.

بعدَ هذا اللِّقاءِ بعدّةِ أيّام، دَعَا السلطانُ ابنَ بطوطَة ليُصلّيَ مَعه صَلاةَ العَصْر. وعندما أرادَ ابنُ بطوطة أنْ ينصرفَ بعدَ انتهاءِ الصّلاة، أمرَه السُّلطانُ بالبقَاء، لتناوُلِ الطّعام، وجاءت أطباقُ اللّحومِ المسلوقةِ مِنَ الغَنَمِ والخيْل. وكانَ ابنُ بطّوطةَ قد استعدَّ لِهذه الزيارةِ بطَبَقٍ من الحَلْوى كَلّفَ أحدَ أصحابه بصناعتِه. وبعدَ أن انتهَى السّلطانُ مِن تَناولِ طعامِه، تقدّمَ ابنُ بطّوطة بطبقِ الحَلوى ناحيةَ السلطان. مدّ السلطانُ أصبعَه في الطّبق، ثم وضعَ أصبعَه في فمِه يتذوّقُ ما في الطبق، ثم ظهَرَ على وجهِه تعبيرُ استِياء، فمَضَى ابنُ بطوطَة مُبتعِداً بالطّبق.

أرض الظلمة

بلغار

سراجوق

حاج ترخان

القرم

البحر الأسود

بحر قزوين

قسطموني

كردي بولي

بعدَ أنْ انتهَى اللّقاء، سألَ ابنُ بطوطة الأميرَ تلكتمور عن سرِّ استياءِ السُّلطانِ من طَبَقِ الحَلْوى، فقالَ له الأميرُ إنَّ أهلَ بلادِهِ يَرَون في أكلِ الحَلوى عَيباً. وحكَى الأميرُ تلكتمور أنَّ أحدَ كبارِ مَماليكِ السّلطانِ أوزبيك، كان له مِن أولادِهِ وأحفادِهِ نَحوُ أربعين فَرْداً، يَعيشون جميعاً كمماليكَ عندَ السُّلطان. قال له السلطانُ يَوماً «كُلْ هَذه الحَلْوَى، فأُعتِقكم جَميعاً!.»، فرفضَ المَملوك وهو يقول «لو قَتَلْتني مَا أَكلتُها!!.».

إلى أرضِ الظُّلُمَات

انتهَى ابنُ بطّوطةَ مِن زيارةِ السّلطان، فقرّرَ زيارةَ زوجاتِهِ الخواتين، وتوجَّه في اليومِ التالي إلى خيمةِ الخَاتون الكُبرى طيطغلي، والدةِ الأميرين جان بك وتين بك، ويصفُ ابنُ بطّوطةَ دخولَه على هذه الخاتونِ فيقول «.. دَخلت إلى هذه الخاتونِ وهي قاعدةٌ فِيما بين عَشْرٍ من النساءِ القَواعِد، كأنّهن خادِماتٌ لها، وبينَ يَدَيها نَحْوُ خَمسين جاريةً صَغيرة، يُسمّين البَنات، وبين أيدِيهن صِحافٌ منَ الذَّهبِ والفِضّة مَملوءةٌ بنباتِ حبِّ المُلوكِ وهنَّ تُنقّينَه.. وبين يَدَي الخاتونِ صِينيةُ ذَهبٍ مملوءةٌ مِنه، وهي تُنقّيه، فَسلَّمْنا عليها، وكان في جُملةِ أصحابِي قارئٌ يقرأُ القرآن على طَريقةِ المِصريّين، بطريقةٍ حَسَنةٍ وصوتٍ طَيّب، فقرأ، بعدَ ذلك قَدَّمت لهم الخَاتونُ شَرابَ القمزِّ الّذي لم يُحبّه ابنُ بطّوطة، وأخذت تسألهُ عن أحوالِه وَرِحْلاتِه، حتّى نهايةِ الزّيارة.

وهكذا تَتَابعت زيارةُ ابنِ بطوطَة للخَواتين والأُمراء، وعنِ الخَاتونِ الثالثةِ بيلون يقولُ «.. وهي بنتُ مَلكِ القُسْطنطينيّةِ العُظمَى السُّلطانِ تَكْفُور. ودَخلنا على الخاتون، وهي قاعدةٌ على سريرٍ مُرصّع، قوائمهُ فِضّة، وبين يَدَيها نحْوُ مائةِ جاريةٍ رُومِيّات وتُرْكيّاتٍ ونُوبِيّات، مِنهن قائماتٌ وقَاعِدات والْفِتيانُ على رأسِها والحَجابُ بين يَديها من رجالِ الرّوم. فَسألتْ عن حالِنا ومَقْدَمِنا، وبُعْدِ أوطانِنا، وبكتْ ومَسحتْ وجهَها بِمنديلٍ كانَ بَين يَديها، رِقّةً مِنها وَشَفَقة».

أثناءَ إقامةِ ابنِ بطوطَة في مُعَسْكر السّلطان، سمِعَ عَن مَدينةِ (بَلْغَار) التي تَبعُدُ مَسيرةَ عَشَرةِ أيامٍ في أقصَى الشّمالِ على نَهْرِ (أتل). سمعَ عن تَبايُنِ طُولِ النّهارِ والليلِ بِها في كُلِّ فصلٍ من فصولِ السّنة، تَبايُناً ظاهِراً. فينتهِزُ فُرصةَ وجودِه مع السُّلطان، ويطلبُ مِنه أنْ يبعثَ مَعه مَن يصلُ به إلى مدينةِ بلغار. فيوافقُ السّلطان، ويَمضِي ابنُ بطّوطة فِي رحلتِه.

عندَما وصَلَ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ بلغار في أقصى الشَّمال، كانَ الليلُ في تلك المدينةِ يتميزُ بقصَرٍ شديدٍ بالنسبةِ إلى النّهار، وكانَ شهرُ رَمضانَ لم يَنْقَضِ، وفي هذا يقول «فَلمّا صَلّينا المغربَ أفطرْنا، فَصلّينا، وَصلَّينا التراويحَ والشَّفْعَ والوَتْر، وطلعَ الفجرُ إثْرَ ذلك!..».

أثناءَ إقامةِ ابنِ بطوطَة سَمعَ الكثيرَ عن (خانات سيبر) أو أرضِ الظُلمة، وهي الصَّحراءُ الجَليديةُ المُترامِيةُ الأطرافِ فِي شَمالِ آسيا، والتي نَعرفُها اليومَ باسمِ سيبيريا، فمالَ إلى السفرِ إليها. وأخذَ يجَمعُ المَعلوماتِ عن هذه البلاد، فقالوا له إنّها تبعدُ عَن مدينةِ بلغار مسيرةَ

أَربعين يوماً. وعَرَفَ أنّ السّفرَ إليها لا يكون إلا في عَرَباتٍ صغارٍ تجرُّها كلابٌ ضخمة، فإن السَّيرَ على تلك الأراضي يكون فَوقَ الجَليد، فلا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يَمشي، وكذلك تغوصُ حَوافرُ الدَّواب، أمّا الكِلابُ فَتَتيحُ لَها أقدامُها الصّغيرةُ ومخالبُها السّيرَ فَوقَه.

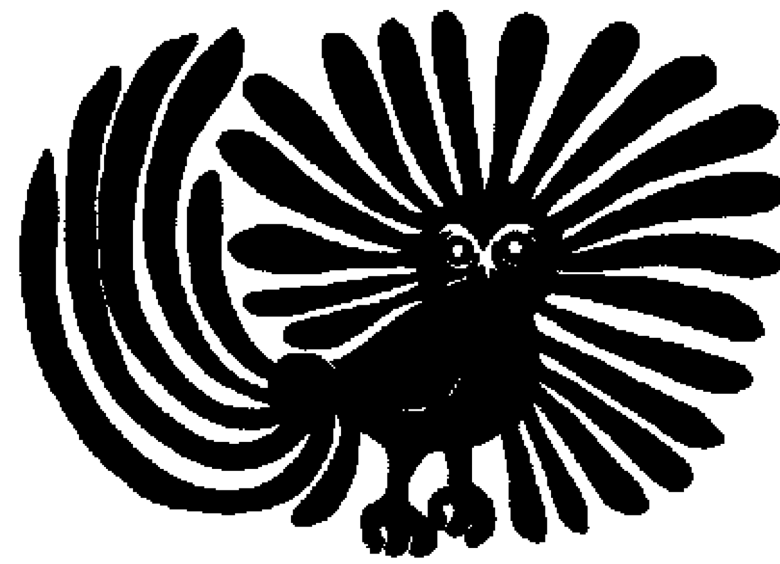
والدليلُ في هذه الأراضِي هو الكلبُ الّذي يَجرُّ العَرَبة، والذي سَبَقَ له أنْ سَارَ فيها أكثرَ مِن مرّة. وقيمةُ الكلبِ المدرّبِ منها حَوالَى ألفِ دِينار، يتقدّمُ المَوكِب، وتتبعُه الكلابُ الأخرى. والكلبُ القائدُ يُدَلِّلُهُ الرجال، فإذا حَضرَ الطَّعام، تأكلُ الكلابُ أوّلاً، ثُم الآدميّون، مَرْضاةً للكلابِ التي لا غِنىً عَنها في هذه الرِّحلات.

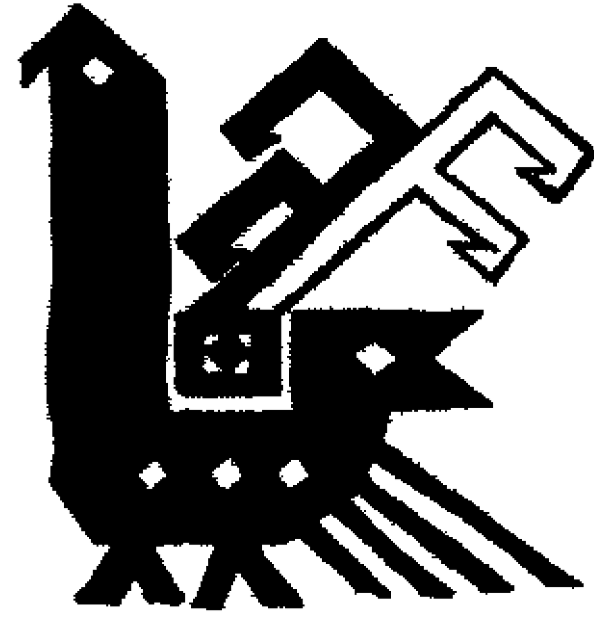
وَيعْرِفُ ابنُ بطوطة أنّ الركبَ إذا وصلَ إلى أرضِ الظُلمةِ بعدَ رِحلةٍ تزيدُ عَن أَربعين يوماً، يتركُ التّجارُ ما مَعهم مِن بضائعَ في مكانٍ مُعيَّن، ثم يَعودُون إلى خيامِهم. في اليومِ التالي يَتوجّهون إلى حيثُ تَركوا البَضائع، فَيجدُون في مكانِها الفِراءَ مِن جلدِ حَيواناتِ السَّمُّورِ والسِّنْجابِ والقَاقِم. فإنْ رَضيَ التّجارُ بما وَجَدوه من الفِراء، أخذوه ومَضَوْا. وانْ لم يُعجبْهم قَدْرُ ما وَجَدوا، تَرَكوا الفِراء في مكانِه وعادُوا بعْدَ يومٍ آخر. وهنا يحْدُثُ أحدُ أمْرين، إمّا أن يَجدوهم قد زادُوا الفِراء، أو يَجدوهم قد أخذوا الفِراء، وأعادَوا البضائعَ الّتي سَبَقَ أنْ أَخذوها. وهذا يَعني أنّهم يَرفُضون إجراءَ المُقايَضة.. وبهذا يَتِمُّ البيعُ والشِراءُ والمُساومةُ دونَ أنْ يرى أيٌّ مِنَ الفَرِيقَين الفَرِيقَ الآخر.

تَلْمعُ عَينا ابنِ بطّوطةَ وهو يستمعُ إلى أَخبارِ تِلك البلادِ الغَريبة، وتَستولي عليه الرَّغبةُ في زيارتِها، لكنّ رِفاقَ سَفَرِهِ وَمَنْ أوفدَهم

السّلطانُ مَعه يُعارِضون بِشدّة، خَوفاً مِنْ أنْ تكونَ نهايتُهم في أرضِ الظُّلمة. وينضمُّ إليهم في رفضِهم أهلُ البلغار، الّذين يقولون إنّ الرحلاتِ إلى تلك البلادِ لا يَقومُ بِها إلا الأقوياءُ منَ التُّجار، الذين يكونُ للواحِدِ مِنهم نحوُ مائةِ عَرَبة، مليئةٍ بالطَّعامِ والشَّرابِ والحَطَب.. فانَّ الأراضي التي يَقْطعونَها في سَفرِهم ليس بها شَجرٌ أو نَباتَ.. فهيَ صَحراءٌ مُترامِيةُ الأطرافِ مِنَ الجَليد.

ومعْ هذا، يَبقَى ابنُ بطّوطةَ حائراً، بين انْصِياعِه لنصيحةِ الأصْحاب، وبينَ الاستجابةِ لرغبتِه المُلِحَّة في استكشافِ ذلك العالَمِ المَجهولِ المُخيف..



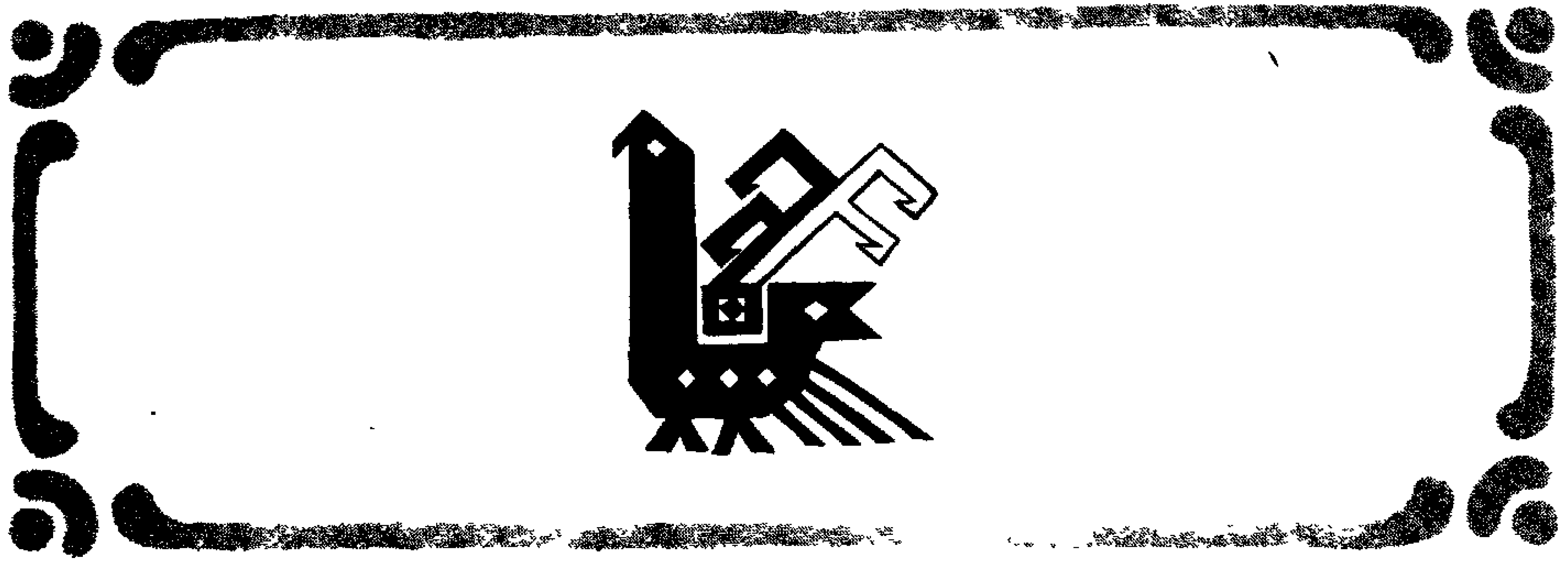


مغامرات
ابن بطوطة

٨

سراكنو في بحر الروم

اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان


في خَيمةِ السُّلْطان

بقيَ ابنُ بَطّوطَة في مدينة بَلْغار حائراً، هل يَستجيبُ لنصيحةِ أصحابِه بعدمِ الدخولِ إلى أرضِ الظُّلْمة، لما فِيها مِن مَخاطِر؟.. أم يستجيبُ لِنداءِ المُغامَرة، والرّغبةِ في اكتشافِ المَجْهول؟.. لكنّه في نهايةِ الأمرِ استجابَ لنصيحةِ الأصدِقاء، ومشورةِ الرِّفاق، بعدَ أنْ تأكَد مِن استحالةِ السفرِ عبرَ أرضِ الظُّلمة، دونَ أنْ تَتوافَرَ إمكانياتُ السّفرِ الباهظةُ التكالِيف، التي تَسمحُ له بالتوغّلِ في هذه الصَّحارَى الجليديةِ الوَاسِعة.. وهكذا، قَررَ مغادرةَ مدينةِ بلغار، بصُحبةِ الأميرِ المكلّفِ مِنْ قِبَلِ السُّلطانِ بمرافقتِه.

وعندَما كانُوا في طريقِ العَودة. عَرَفوا أنّ موكبَ السُّلطان، قد استقرَّ عندَ (بش د غ)، فاتّجهوا إليها، ووصلوها قُرب نِهايةِ شَهرِ رمضان، وبذلك أُتيحَ لابنِ بطّوطةَ أن يشهدَ تَرتيباتِ صَلاةِ العيدِ واحتفالاتِه.

في صباحِ يومِ العيد، رَكبَ السلطانُ المُعظّمُ محمدُ أوزبك خان



وَسْطَ جمعٍ مِن جندِه، كما رَكِبت زَوجاتُه «الخَواتين» كلٌّ مع جُندِها. وضمَّ الموكبُ ابنةَ السلطانِ التي كانت تَضعُ التاجَ على رأسِها، فقد كانت ورِثت المُلكَ عن أمِّها، كما ضَمَّ أبناءَ السلطانِ مع عساكِرهم. وشارَكَ في الموكبِ الفُقَهاءُ والمَشايخُ والقُضاةُ والخُطَباء. مضَى الموكبُ الضَّخمُ حتّى وصلَ السّلطانُ إلى بناءٍ خشبيٍّ كبيرٍ يُطلِقون عليه «الكِشْك»، فَجلسَ فيه السُّلطانُ مع زَوجاتِه. كما أُقيمَ برجٌ خَشبيٌّ آخرُ جَلَست فيه ابنةُ السُّلْطان، وليّةُ العَهْد، صاحبةُ التاج. بالإضافةِ إلى أبراجٍ خَشبيةٍ أُخرَى جَلسَ تَحتَها أبناءُ السُّلطانِ وأَقاربُه.

بدأَ السّلْطان في توزيعِ الْهدايَا على الأُمراء، وهي عبارةٌ عن أثوابٍ جَميلة، فكانَ كُلّ أميرٍ يتقدم إلى حيثُ يَجلسُ السُّلْطان، فيُظهرُ شَعائرَ الطّاعةِ والخُضوع، وكان أسلوبُهم في هذا، أنْ يتقدّمَ الأمير، ثم يَمَسَّ الأرضَ برُكبتِه اليُمنى، ويَمُدَّ ساقَه الأُخرَى إلى الخَلْف.

بعدَ هذا، هَبَطَ السّلطانُ مِن «الكشك»، وامتطَى جوادَه يُحيطُ به الأُمراءُ والزوجاتُ فِي عَرَباتٍ مكسوّةٍ بأَثوابِ الحريرِ المُذهَّب، تَجرُّها الخيلُ التي زُيِّنَتْ أيضاً بنفسِ الحريرِ المذهَّب. أمَّا باقِي أقاربِ السّلطان، والوزراءِ ورجالِ الدّولة، فَيَمْشُون على أقدامِهم، حتَّى يَصلَ الجميعُ إلى الخَيْمةِ الضَّخمةِ التي تُسمّى عندَهم «الباركاه»، أو «الباركه». والباركاه، خيمةٌ كَبيرة، لَها أربعةُ أَعْمدةٍ منَ الخَشَبِ

مكسوّةٍ بصفائحِ الفِضّةِ المُموَّهةِ بالذّهَب، وفي أعلَى كُلِّ عمودٍ مِنها تاجٌ منَ الفِضّةِ المُذهّبَة، تنعكسُ عَليه أشعةُ الشّمس، فيبدوُ لامعاً مُتوهِّجاً. وإلى جوارِ هذه الخيمةِ تُقامُ خيامٌ أُخرَىَ من القُماشِ القُطنيِّ والكتّانيّ، وتُفرَشُ كلُّها بالحريرِ ليجلسَ فِيها باقِي الرّكْب.

ويصفُ ابنُ بطّوطَة داخلَ الباركاه، فيقولُ «وَيُنصَبُ في وَسَطِ الباركه السَّريرُ الأَعظم، وهم يُسمّونه التَّخْت، وهو مِن خَشَبٍ مُرصَّع، وأعوادُه مَكسوّةٌ بِصَفائحَ فضيّةٍ مُذهَّبَة، وقوائمُه مِن الفضّةِ الخالِصةِ المُموَّهة، وفوقَه فَرشٌ عَظِيم. وفي وَسَط السَّريرِ الأعظمِ مَرتبةٌ يجلسُ عَليها السّلطانُ والخاتونُ الكُبْرَى، وعن يمينِه مَرتبةٌ جَلست عليها بنتُه آيت كججك، مع الخاتونِ أردوجاً، وعن يَسارِه مَرتبةٌ جَلست عليها الخاتونُ بيلون ومعَها الخاتون كبك.. ونُصِبت كَرَاسيٌّ عنِ اليَمينِ واليَسَار، جلسَ فوقَها أبناءُ المُلوكِ والأُمراءُ الكِبار، ثُم الأمراءُ الصِّغار، ثم امراءُ (هزاره)، وهم الذين يَقُودُون ألْفا..».

ويعودُ ابنُ بطوطةَ بعدَ ذلك ليصفَ موائدَ الطَّعام، فيقول «.. ثم أُتِي بعدَ ذَلك بالطّعام عَلى موائدَ مِنَ الذَهبِ والفِضّة، وكلُّ مائدةٍ يَحملُها أربعةُ رِجال، وأكثرُ مِن ذلك! وطعامُهم لُحومُ الخَيلِ والغنمِ المَسْلوقة، وتوضعُ بينَ يَدَيْ كُلِّ أميرٍ مَائِدَة. ويأتِي (الباورجي) وهو مُقطِّعُ اللَّحم، وعليه ثِيَابُ حرير، وقد رَبَطَ عليها فُوطةَ حَرير، وفي حِزامِه جُملةُ سَكاكينَ في أغمادِها. ويكُون لكلِّ أميرٍ باورجي، فاذا قُدِّمت المائدةُ قَعدَ بين يَدَي أميرِه، ويُؤتَى بِصَحْفةٍ صغيرةٍ مِنَ الذَهبِ أو الفِضّة، فِيها مِلحٌ مَحلولٌ بِالْمَاء، فيقطعُ الباورجي اللّحمَ

قِطعاً صِغاراً. وَلَهم في ذلك صَنْعةٌ في قَطْعِ اللحمِ مُختلطاً بالعَظْم، فانّهم لا يأكُلون مِنه إلاّ ما اختَلَطَ بالعَظْم. ثم يُؤتَى بأواني الذَهبِ والفضةِ للشّرب، وأكثرُ شُربِهم نَبيذُ العَسَل...».

ويصفُ ابنُ بَطّوطةَ بعدَ ذلك تقاليدَهم في الشّراب. فاذا أرادَ السّلطانُ أَن يَشْرب، تأخذُ بنتُهُ بيدِها وتَتقدّمُ ناحيتَه وتُحيِّي بالطريقةِ التي وَصَفْناها، رُكبةٌ على الأرضِ والسّاقُ الأُخرَى مَمدودةٌ إلى الخَلف، ثم تُناولُ القَدحَ للسُّلطانِ فَيشرَبُ منه. وتَفعلُ بعدَ ذَلك نَفْسَ الشّيءِ مع الخَاتون الكُبْرى، أيْ الزّوجةَ الكُبْرَى للسُّلطان.. وهكَذا بالترتيبِ وَفْقاً لِتَدرُّجِ المكَانة. ثم يحلُّ دَورُ وليِّ العهدِ ليُكرّرَ ما فَعلَتْه الابْنَة.. ثم يَحلُّ بعدَ ذلك دورُ الأُمراء، واحداً بعدَ الآخر، ليقومُ بهذه الخِدمة. وفي هذه الأثْناءِ يقومُ صِغارُ الأمراءِ بالغِنَاء.

هَذا عن خَيمةِ السّلطان، أمَّا عن الخَيمةِ التي جَلَسَ فيها ابنُ بطّوطة، فَهو يصفُها قائلاً «.. وكانت قد نُصِبت قُبّةٌ كبيرةٌ أيضاً إزاءَ المَسجِدِ للقاضِي والخَطيبِ والشّريفِ وسائرِ الفُقهاءِ والمَشايخِ وأَنَا مَعَهم، فأُتِينا بموائدِ الذّهبِ والفِضّة، يحملُ كُلَّ واحدةٍ أربعةٌ مِن كبارِ الأتراك.. فكانَ مِن الفُقهاءِ من أكل، ومِنهم من تَورّعَ عن الأكلِ في موائدِ الفِضّةِ والذّهَب..».

بعدَ أنْ انتهَى الطّعام تَوجَّه الفقهاءُ ومعهم ابنُ بطوطةَ إلى المسجدِ في انتظارِ صَلاةِ الجُمُعة، عندَما يَصلُ السّلطان. ويقولُ ابنُ بطوطةَ في ذلك «.. فأبطأَ السُّلطان، فَمِن قائل: إنّه لا يأتي لأنّ السُّكْرَ قد غَلَبَ عليه! ومِن قائل: انّه لا يَترِكُ الجُمُعة. فَلما كان بعدَ تَمكُّنِ الوَقت،

أنّى وهو يَتمايَل، فَسلّمَ على السَّيدِ الشّريف، وتبسَّمَ له. كان يُخاطِبُه بآطا وهو (الأب) بلسانِ التّركية. ثم صَلَّينا الجُمعة، وانصرفَ الناسُ إلى منازِلِهم».

في موكبِ الخَاتُون بيلون

وما أنْ انقضَى عيدُ الفِطر، حتّى تَحرَّكَ ركبُ السُّلطان، قاصداً مَدينةَ (الحاج تُرْخَان)، والّتي نَعرفُها باسمِ اسْتِرَاخَان. وهي مدينةٌ مُقامةٌ على نَهرِ (أتل) الذي يُعرفُ حالياً باسمِ نهرِ الفولغا. ويقولُ ابنُ بطّوطةَ عَنِ المدينة «مِن أحسنِ المُدن، عَظيمةُ الأَسْواق.. وهنالك يقيمُ السُّلطان حتّى يَشتدَّ البَرْد، ويَجْمَدَ النّهر، وتجمدَ المياهُ المتّصلةُ به، ثم يأمرُ أهلَ تلك البلادِ فَيأتون بالآلاف من أحمالِ التِّبْن، فَيَجعلُونها على الجليدِ المُنعقدِ فَوقَ النّهر.. ويُسافِرون بالعَرَبات فوقَ النّهر والمِياهِ المتَّصلةِ به، ثلاثَ مِراحل. وربما جازَت القوافلُ فوقَه مَعْ آخرِ فَصلِ الشتاءِ فَيَغْرَقُون وَيَهْلَكُون».

عندَما وَصلَ الركبُ إلى مدينةِ الحاجّ ترخان، أبْدت الخاتون بيلون زَوجةُ السُّلطانِ وابنةُ مَلكِ الرومِ رَغبتَها في أنْ يَأذَن لَها السلطانُ في زيارةِ أَبيها. فقد كانت حامِلا، تَرغبُ في أنْ تُسافرَ إلى هناك لتلدَ ثُم تعودُ مع مولودِها. وافَقَ السُّلطانُ أوزبك خان على طَلبِ زوجتِه بيلون. وعندَما وَصلَ خبرُ هذا إلى سمعِ ابنِ بطّوطة، ثَارت في نفسِه رَغبةُ الارْتحالِ واكتشافِ المَجهولِ وارتيادِ الأَماكنِ التي لم يَرَها مِن

قَبل، فطلبَ مِنَ السُّلطانِ أنْ يأذَنَ له في السفرِ بصحبةِ الخاتون لمُشاهدةِ (القُسْطَنْطِينيَّة) العُظمى، عاصمةِ سُلطانِ الرُّوم، تكفور بن جرجيس.

رفضَ السّلطانُ في أولِ الأمر، وعندَما عادَ ابنُ بطوطَة وألحَّ في طَلَبِه، قال له السلطانُ إنّ ما يَدعوه إلى رفضِ الطّلب هو خَوفُه على ابنِ بطّوطة، مما يمكنُ أنْ يَلحقَ بِه على أيدِي الرومِ الذين لا يَدِينُون بالإسْلام. أخذَ ابنُ بطّوطة يُلاطفُ السّلطان، ويقول له: إنّما أَدخُلُها في حُرمتِك وجِوارِك، فلا أخافُ أَحداً. في آخرِ الأمرِ وافَقَ السُّلطان، ولمّا ذهبَ ابنُ بطوطَة قبلَ السَّفرِ ليودّعَه، مَنحَه ألفاً وخمسَمائةِ دِينار، وأرديةً وخُيولاً كثيرة. كَما انْهالَتْ عليه الْهَدايا مِن زَوجاتِ السّلطانِ الأُخرَيَات، ومِن ابنتِه، هَدايا من سَبائِكِ الفِضّة، وفرو حَيوانِ السِّنجاب والسَّمُّور، والخَيل والثّياب.

وفي العاشرِ مِن شَوال بدأَ ابنُ بطوطةَ رحلتَه إلى القُسْطنطينيةِ. مَضَى ضمنَ ركبِ الخاتون بيلون، وقد رَحَلَ السلطانُ في تَوديعِها مع بعضِ أفرادِ عائلتِه إلى مسافةٍ مُعيّنةٍ ثُمّ عادُوا. ويصفُ ابنُ بطّوطةَ ركبَ الخاتون بيلون فيقول «وكانَ عَسكرُ الخاتون نَحوَ خَمْسِمائةِ فارِس، مِنهم خُدّامُها مِنَ المَماليكِ والرومِ نحوُ مائتين، والباقون من التّرك، وكانَ مَعها من الجواري نِحوُ مائتين، وأكثرُهُن رُوميّات. وكان لَها منَ العَرَبات نحوُ أربعِمائةِ عَرَبة، ونحوُ أَلفيْ فَرَسٍ لِجرِّها وللرُّكوب، ونَحوُ ثَلثمائةٍ منَ البَقر، ومائتين مِنَ الجِمالِ. وكان مَعَهَا من الفِتْيانِ الرّوميين عَشَرة، ومنَ الهِنْدِّيين مثلُهم. وقائدُهم الأكبرُ يسمّى سُنْبلَ الهِنديّ، وقائدُ الرّوميين يسمّى مِيخَائِيل..».

مضَى الركبُ غَرباً حتَّى أَدْرِكَ مَدينةَ (أكك)، وهي مدينةٌ مُتوسِّطة، حَسَنةُ المباني، كثيرةُ الخَيْرات، شَديدةُ البَرْد. وعلَى مَسيرةِ يومٍ مِن هذه المدينةِ تَقعُ جبالُ الرُّوس، وعن الروس يقولُ ابنُ بطوطة «وهم نَصارىَ شُقْرُ الشُّعور، زُرْقُ العُيون، قِبَاحُ الصُّوَر، أهلُ غَدْر، وعندَهم مَعادنُ الفِضّة، ومن بِلادِهم يُؤتَى بـ (الصوم). وهي سَبائكُ الفضّةِ الّتي يُباعُ بها ويُشْتَرى».

ثم يواصلُ الركبُ مَسيرتَه مدةَ عَشَرةِ أيامٍ حتى يصلَ إلى مدينةِ (سردق) عَلَى ساحلِ البَحرِ الأَسود، ويصفُها ابنُ بَطّوطةَ قائلاً «وَمَرْسَاها من أعظمِ المَراسِي وأحسنِها وبخارجِها البَساتينُ والمِيَاه. وينزلُها التُّركَ وطائفةٌ مِنَ الرومِ تحتَ ذِمّتِهم وهم أهلُ الصِّناعات. وأكثرُ بيوتِها خَشَب. وكانت هذه المدينةُ كَبيرة، فَخَرِبَ معظمُها بسببِ فتنةٍ وَقَعت بيَنَ الرومِ والتّرك، وكانت الغَلَبَةُ للرّوم، فانتصرَ للتركِ أصحابُهم، وقَتلوا الرومَ شرَّ قِتْلَة، وَنَفَوْا أكثرَهم..».

ومعْ مَشقّةِ السفرِ في تلك الرِحلة، ومع شِدّةِ البردِ القارِس، فَقد كان يُخفّفُ مِن هذا، ما تَلْقاهُ الخاتون بيلون من تَرحيبِ وتكريمٍ في كلِّ مكانٍ تَحِلُّ فيه، وما تَتلقّاهُ مِن هَدايا ثمينةٍ هي وَمَنْ مَعها. ويصفُ ابنُ بطّوطةَ هذا فيقول «.. وكانت الضيافةُ تُحملُ إلَى الخَاتون في كلِّ منزلٍ مِن تلك البلادِ منَ الخيلِ والغَنَمِ والبَقَر، والدّوقي والقمز وألبانِ البَقَرِ والغَنَم. وكلُّ أميرٍ بتلكَ البلادِ يَصْحَبُ الخاتون بعساكِره إلى آخرِ حدٍّ بلادِه، تعظيماً لها لا خوفاً عليها، لأنّ تلك البلادَ آمنة».

بعد هذا يَصلُ الركبُ إلى آخر بلادِ التّرك، عندَ مَدينةِ (بابا

سلطوق). وبين هذه المدينةِ وأوّلِ أملاكِ بلادِ الرومِ مَسيرةُ ثَمانيةَ عَشَرَ يوماً في أرضٍ مَهجورة، مِنها ثَمانيةُ أيام لا ماءَ بها. لذلك يتزوّدُ الركبُ بحاجتِه من الماءِ في الأوعيةِ والقِرَب الّتي في العَرَبات.

دَخلَ الركبُ مَدينةَ بَابا سلطوق في أيامِ بَردٍ شَديدٍ قارِس، فلمْ يَحتَجْ المُسافرون إلى التزوّدِ بالكثيرِ مِنَ الماء، لمواجهةِ الرِحلةِ القادمة. بدأَ الجَميعُ يَستعِدُّون للمرحلةِ القادمةِ من السّفر، وتبيّنَ ابنُ بطوطةَ أنّه يَحتاجُ إلى الْمَزيدِ من الخَيل، ولَمّا كان ابنُ بطوطةَ يَزُورُ زَوجةَ السلطان ليسلّمَ عَليها كُلَّ صَباحٍ ومَساء، فقد انتهزَ هذه الفُرصةَ وأخبرَها بما يحتاجُه. فكانت كُلّما تَلقَّت هَديةً مِن أميرٍ تُرسلُ إليه حِصَانَين أو ثَلاثة، فتجمَّعَ لابن بطوطةَ نحوُ خَمسين حِصاناً، ثم أَمَرت الخاتون له بخمسةَ عَشرَ فَرَسا، كما طَلَبت مِن وكيلِها أنْ يَختارَها خَيْلاً سمينةً من الخَيلِ التي تُذبَحُ وتُؤكَل. ثم قالت لابنِ بطّوطة: لا تَخَف، فإنِ احتَجْتَ لغيرِها زِدْنَاك.

الوصولُ إلى القُسطَنْطينيّة

دخلَ الركبُ إلى الأرضِ الخَاليةِ المَهجورةِ في منتصفِ شَهرِ ذِي القِعْدَة، واستمرَّت مسيرتُه في تلك البرّيةِ ثَمانيةَ عَشَرَ يوما، حتَّى وصَلَ إلى حِصنِ (مهتولي)، وهو أوّلُ بلادِ الرّوم. وكان مَلكُ الرومِ قد سَمعَ بعودةِ ابنتهِ إلى بلادِها، فوجَدت الخاتون عندَ حِصنِ مهتولي في استقبالِها نِيقولا رسولَ أَبيها، ومَعه جيشٌ عَظيمٌ لتحيّتِها وتكريمِها.

ثم يصفُ ابنُ بطوطَة وصولَ شَقيقِ الخاتون، فيقول «ثم قَدِمَ أَخُوها شقيقُها كفالى قراس في خَمسةِ آلافِ فارِس، شَاكِّين في السّلاح. ولمّا أرادُوا لِقاءَ الخاتون، رَكبَ أَخوها فَرسا أشْهَب، ولبسَ ثِياباً بَيْضاء، وجَعَلَ على رأسِه مِظلاّتٌ مُزَرْكَشةٌ بالذّهَب. وجعَلَ بَين يَديه مائةً مِنَ المَاشِين..».

ويتحدّثُ ابنُ بَطّوطةَ عنِ الفُرسانِ الذين كانوا يَحِفُّون بموكبِ شَقيقِ الخاتون، فيقولُ إنّ كُلَّ فارسٍ كان يَقودُ فَرَساً مُسْرَجاً مُدرَّعاً، ويَرتدِي رِداءَ الفُرْسانِ مِن خُوذَةٍ وَدِرْع، ويحملُ جُعبةَ السِّهامِ والقوسَ والسَّيف، وبإحدَى يَديه رُمحٌ في طَرَفِهِ الأعلى رَايَة. وكان الرمحُ مَكْسُوًّا بصفائحَ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّة. هذا بالإضافةِ إلى عددٍ مِن قارِعي الطّبولِ ونَافِخِي الأبواق.

عندَما عَلِمت الخاتون بيلون باقترابِ مَوكِبِ أخيها، رَكِبت الفَرَسَ وَسْطَ مَماليكِها وَجَوارِيها وفِتْيانِها وخُدّامِها، وهُم نَحوُ خَمسِمائة، عليهم الثيابُ الحَريريةُ المُزَرْكشةُ بالذَهبِ المُرصّعةُ بالجَواهِر. ويصفُ ابنُ بطّوطةَ نفسَها فيَقول «وَعلى الخاتون حِلّةٌ مُرصّعةٌ بالجَوْهَر، وعلى رأسِها تاجٌ مُرصَّع، وفرسُها مُجلّلٌ بِجُلٍّ حريرٍ مُزَرْكَشٍ بالذَّهب، وفي يَديه وَرِجْلَيه خَلاخيلُ الذّهب، وفي عُنُقِه قلائدُ مُرصَّعة، وعَظْمُ السَّرجِ مَكْسُوٌّ ذَهَباً، مُكَلّلٌ جَوْهَراً..».

أخذَ ابنُ بطوطةَ يُتابعُ باهتمامٍ حَدَثَ التقاءِ الخَاتون بيلون بشقيقِها. وقد تَمَّ ذلك اللقاءُ علَى مَسافةٍ مِنَ الحِصْن، في أرضٍ منْبسطَة. نَزَلَ الأخُ عَن جوادِه، احتراماً لأختِه الأكبرِ سِنّاً، وقَبَّلَ

ركابَ حِصانِها ، فَقبّلت رأسَه ، وتوالَى أولادُ المُلوكِ الذين جاءوا في صُحبةِ شَقيقِ الخاتون ، فَقبّلوا جميعاً رِكابَ حصانِها. ثم انْصرَفت الخاتون مَع أخيها.

تَواصَلت المَسيرةُ بعدَ ذلك ، وكان رَكبُ الخاتون قد انضمّ إلى رَكْبِ شقيقِها ، فَوصَلوا جَميعاً إلى مدينةٍ كبيرةٍ على سَاحلِ البَحر ، لا يَتذكّرُ ابنُ بطّوطةَ اسمَها ، ولكنْه يقُول عنها إنّها ذَاتُ أنهارٍ وأشْجَار. إلى هذه المدينةِ وَصَلَ وليُّ العَهد ، والشقيقُ الأكبرُ للخاتون ، في موكبٍ عظيمٍ مَشْهود ، يَضُمّ أكثرَ مِن عَشَرةِ آلافِ جُنديٍ مُدُرَّع. ودَخلت الخاتون مع شقيقِها الأكبرِ إلى خَيمةٍ من الحَرِير.

عندَما أصبَح الرّكبُ عَلى بُعد عَشَرةِ أميالٍ منَ القُسْطَنْطِينيَّة ، حطَّ الجَميعُ رِحالَهم استعداداً لدُخولِ عاصمةِ سُلطانِ الرّوم. وكان أهلُ القُسْطنطينيةِ قد عَلِموا بوصولِ الخاتون ، فَخرجَ لاستقبالِها عددٌ غَفيرٌ منَ الرِجالِ والنِّساءِ والصِّبْيان. بعضُهم يَركبُ الخَيل ، والبعضُ الآخرُ يَسيرُ على قَدَميه ، وقد ارتَدَوْا جَميعاً أفضلَ مَلابِسِهم وأجْمَلَها.

في صباحِ اليومِ التّالي ، قُرِعَت الطُّبول ونُفِخَت الأَبواق ، واصْطَفَّ الجندُ استعداداً لخروجِ السّلطانِ تكفور وزوجتِه الخاتون ، والدةِ بيلون ، لاستقبالِ ابنتِهما. ومع السُّلطانِ وزوجتِه ، خَرَج أربابُ الدَّولةِ وأهمُّ شَخصياتِها. سارَ المَوكِب. وقد حَمَلَت مَجموعةٌ من الفُرسانِ ما يُشبهُ الخَيمةَ الكبيرةَ فوقَ رأسِ السُّلطانِ وزوجَتِه. وعندَما اقتربَ السّلطانُ من الموضعِ الذي تَنتظرُ فيه الخاتون بيلون ، اختلطَ الجندُ اختلاطاً شَديداً ، وثارَ الغُبارُ وتصاعدَ إلى السّماء ، وعلاَ

الضَّجيجُ وتَضارَبتِ الأَصْوَات. وقد أثارَ هَذا خوفَ ابنِ بَطّوطة، فلمْ يَستطعْ أنْ يَتقدَّمَ ليتابعَ ذلك اللقاءَ المَشهودَ بينَ سُلطانِ الرومِ وابنتِه. واكتفَى بأنْ لزمَ مكانَه بينَ رجالِ الخاتون، بناءً على نَصيحتِهم.

استاءَ ابنُ بطوطَة لعدمِ تمكّنِه مِن مشاهدةِ ذلك اللّقاء، فَراحَ يَسألُ مَن حَضَرُوه أنْ يَصِفُوه له، فَقالوا إنّ الخَاتون عندَما اقْتَربت مِن أبَوَيْها، نَزَلت مِن فوقِ جَوادِها، وقَبّلت حَافِرَي فَرَسَيْهما، وفَعَلَ كبارُ أصحابِها مثلَ فِعْلِها هذا.

عندَما وَصَلَ ابنُ بطوطَة وصحبُه إلى البَاب الأولِ منْ أبوابِ قَصرِ السلطان، فُوجِئَ بالحرسِ الّذين تَجاوزَ عددُهم مائةَ حارِس، لَهم رئيسٌ يَقفُ على مَكانٍ مُرتفعٍ، فُوجِئَ بهم وقد أَخَذوا يَصِيحون «سراكنو!.. سراكنو!..»، وَهم يُشِيرون إلى ابنِ بَطّوطة ومن مَعه من المُسْلمين العَرَب. توقّفَ ابنُ بطوطَة ومَن معه في أماكِنِهم، وقد أثارت هذه الصيحاتُ الرّعبَ في قلوبِهم.

وكلمةُ «سراكنو» عندَ الرومِ كانتَ تَعني المُسلمين، ويقولُ المُستَشْرِقون إنّها مأخوذةٌ من كَلمة «شَرقيّ»، بعدَ تَحريفِها إلى «سراسينس» اللاتينية. وسراسينس تطلقُ على القبائلِ المُتاخمةِ لباديةِ الشّام، وشبهِ جزيرةِ سِيناء.

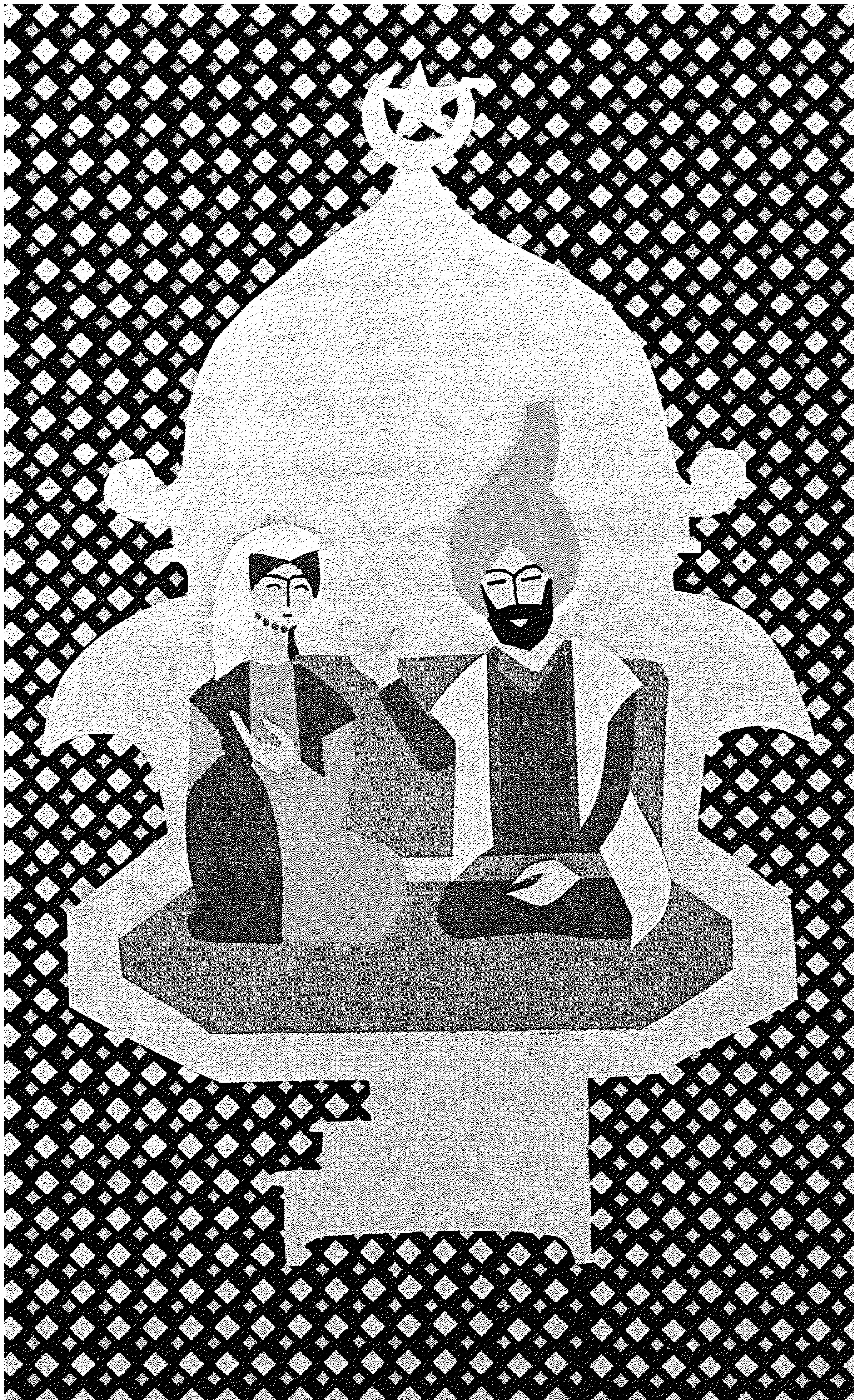
بعدَ أنْ أَطلقَ الحرسُ صَيحاتِهم هذه، تَصَدَّوْا لابنِ بطوطَة وصَحْبِه، يَمنعونهم من عُبورِ بابِ قَصْرِ السّلطان. فقالَ لَهم بعضُ الّذين كانوا في ركبِ الخاتون: إنّهم مَعَنا، وقد جاءُوا في صُحبةِ الخاتون. فلم يقتنعْ قائدُ الحَرَسِ بهذا، وأصرَّ على مَنْعِهم من الدُّخولِ

إلاّ إذا جاءَ الإذْنُ من السُّلطان. عندَما يئسَ أصحابُ الخاتون من إقناعِ الحَرَس، مَضَوْا إلى داخِلِ القَصر، بَينما بقيَ ابنُ بَطوطَة وصحبُه خارجَ البَاب. استاءَ ابنُ بطوطَة مِن هذا الاستقبال، وغَاظَه أنْ يَقطَع كُلَّ هذه المَسافاتِ ليرَى القُسطنطينيَّة، فَيُصدَّ عندَ أبوابِها، وهو ضَيفُ ابنةِ السُّلطان.

لكنّ أصحابَ الخَاتون استَطاعُوا أنْ يَنقُلوا إليها خَبَرَ ما حدَث، وَكانت في ذلكَ الوقتِ مُجتمعةً بأبيها، فَنَقلت إليه بدورِها الخَبَر، فأرسلَ مَن ينقلُ إلى الحَرَسِ أمرَه بدخولِهم، ثمّ خصّصَ لابنِ بَطوطة ومَن معه، دَاراً بالقُربِ من دَارِ الخاتون. فَانْشرحَ قلبُ ابنِ بطوطَة لِهذه الأخبار، وتَضاعفت سَعادتُه عندَما علمَ أنَّ السُّلطانَ قد أَصدرَ أمراً بألاّ يَعترضَ أحدٌ طَريقَهم أثناءَ تَجْوالِهم بالمدينة، إذا ما أرادُوا أنْ يَتجوَّلُوا فِيها. وأمرَ السّلطانُ أنْ يُنادَى بِهذا في الأَسْواق، حتى يصلَ خَبرُه إلى عِلمِ الجَميع، فَلا يُواجِهُ ابنُ بطوطةَ وصحبُه ما وَاجَهُوه عندَ بابِ القَصْر.

اللّقاءُ المُخيفُ مع السُّلْطان

بَقيَ ابنُ بَطوطَة مع صَحبِه مُدةَ ثَلاثةِ أيامٍ في الدّارِ التي خُصِّصت لَهم، وكانت الضيافةُ تُبعثُ إليهم كُلَّ يَوم، تتضمّنُ الدّقيقَ والخُبزَ والغَنمَ والدّجَاجَ والسّمْنَ والفَاكِهة والأَسْماك، بالإضافةِ إلى النقودِ والمَلابِس. وفي اليومِ الرابع سُمِحَ لهم بالدّخولِ على السّلطان.



في ذلك الْيوم، أَوْفَدت الخاتون بيلون الفَتَى سُنْبُلَ الهنديَّ إلى ابنِ بطّوطةَ وصحبِه حتَّى يقودَهم إلى داخلِ القَصر. أخذَ سنبلُ الهنديُّ بيدِ ابنِ بطّوطة، ودخلَ بِهم القَصر. رَاحُوا يَجْتازون الأبوابَ واحداً بعدَ الآخر، وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «فَجُزْنا أربعةَ أبوابٍ في كلِّ بابٍ سقَائفِ، بها رجالٌ وأَسلحتُهم، وقائدُهم على دُكّانٍ مَفْروش، فلمّا وصلنا إلى البابِ الخَامس، تَرَكَني الفَتى سنبلُ ودَخل، ثم أَتى ومَعه أربعةٌ مِن الفِتْيانِ الرُّوميين، فَفَتّشُوني لئلاّ يكونَ مَعي سِكّين، وقالَ القَائد: تِلكَ عادةٌ لَهم، لا بدّ مِنْ تَفتيشِ كلِّ مَن يدخُلُ على الملكِ منْ خاصٍّ أو عامّ، غريبٍ أو بَلدِي..».

بعدَ أنْ انتهَى التّفتيشُ، قامَ المسؤولُ عن الْبَاب، فأخذَ بيدِ ابنِ بطّوطةَ وفتحَ البابَ. فَجْأة!.. وجدَ ابنُ بطوطةَ أربعةً منَ الرجالِ قد أَحاطُوا به. أمسكَ اثنانِ منهم كلٌّ بأحدِ أكمامِه، ووقفَ اثْنان من خلفِه، ثم دَخلوا به على هذه الصورةِ إلى قاعةٍ كبيرة، حيطانُها مُزخرفةٌ بالفُسَيفِسَاء، وقد رُسِمَ بِها صورٌ للبشرِ والحَيَوانات. في وَسَطِ هذه القاعةِ تقومُ نافورةُ ماءٍ ضَخْمة، تُحيطُ بِها الأشجارُ مِن جانِبيْها، وقد اصطفَّ عددٌ منَ الناسِ على اليمينِ واليَسَار، يَقِفون في أماكِنهم لا يَصْدُرُ عَنهم صوت. في وَسَطِ هذه القَاعة، وقفَ ثلاثةُ رجالٍ في انتظارِ ابنِ بطّوطة. أَسلَمه الأربعةُ إلى هؤلاء الثّلاثة، الّذين قامُوا بامساكِه من ثِيابِه، لا يَسْمحون له بحركةٍ واحدةٍ دونَ إرادتِهم.. ثم أَشارَ لهم رَجلٌ بالقاعة، فتقدّمُوا بابنِ بطّوطة.

شعرَ ابنُ بطوطةَ بالخوفِ مِنْ عَواقبِ هذه المُعامَلة، وتضاعفَ خَوفُه وهو يفكّرُ فيما يمكنُ أنْ ينتظرَه بعدَ ذلك، وبينما هو يُقلّبُ

أفكارَه، وقد ظَهرَ عليه الانْزِعَاج، سَمِعَ مَن يَهمِسُ في أذنِه باللغةِ العَربية: لا تَخَف!.. استدارَ ابنُ بطوطةَ إلى مصدرِ الصوت، فرأى أنَّ الصوتَ قد صدَرَ من أحدِ الّذين يُمْسِكُون به، وسمعَ الرجلَ يقولُ: أنا التَرْجُمَان، وأصلِي من بِلادِ الشّام. ولاحظَ الرجلُ استنكارَ ابنِ بطوطَة للطّريقةِ التي يُمسكونَه بِها مِن ثيابِه. فقالَ الرّجل: لا تَخَف.. فَهذه هي عادتُهم مع كلِّ قادمٍ لمُلاقاةِ السلطان. استراحتْ نَفسُ ابنِ بطوطةَ بعضَ الشّيءِ نَتيجةً لأقوالِ التُّرجُمَان، فسألَه مُسْتوضِحاً: وما هي عادتُهم في السلامِ على السُّلطان. أجابَ التَرجُمَان: قُل السّلامُ عَليكُم.

بعدَها... دخَلَ ابنُ بَطوطة، أو أُدخِل، إلى قاعةٍ عظيمةٍ ذاتِ قُبّةٍ كَبيرة، ورأى السلطانَ تكفور بن جرجيس على عَرشِه، وقد جَلَست بالقُربِ مِنه زَوجتُه أمُّ الخَاتون بيلون، وعندَ أقدامِ العرشِ جَلست الخاتون وَشقيقاتُها، وقد وقفَ الرجالُ المُسلَّحون عن يَمينِ السلطانِ ويسارِه. أشارَ السلطانُ إشارةً خاصةً قبلَ أنْ يَصِلَ إليه ابنُ بطّوطة، فتوقّفَ الرجالُ مِن حولِه، وطلبَ مِنه الرجلُ الذي يَتكلّمُ العَربيةَ أنْ يَجلسَ حيث هو لِيستَريح، ويَستردَّ أنفاسَه بعدَ الرِحلةِ التي قَطعَها من أولِ بابٍ للْقَصر، حتّى يتكلّمَ إلى السُّلطانِ بِهُدوء.

عندَما سَكنَ رَوْعُ ابنِ بطّوطة، نَهَض، ثم مَضَى مُتّجِهاً حيث يَجلسُ السُّلطان، فألقَى عَليه السلام. أشارَ السُّلطان لابن بطوطةَ أنْ يجلسَ، لكنّه على سَبيلِ الاحترامِ الزّائد، رفضَ أنْ يَجلس، وفضّل أنْ يتكلّمَ إلى السلطانِ واقفاً عَلى قَدَميه. كان السلطانُ يُوجّهُ أسئلتَه إلى ابنِ بطوطةَ بالرّوميّة، فيقومُ المُترجمُ بنقلِها إلى العَربيّة. وكلّما أجابَ

ابنُ بطوطة عَن سؤال ، تولّىَ الترجُمَان نقلَ الإجابة إلى الرّومية . سأل السلطانُ عن بيتِ المَقدِسِ ، وعن الصّخرَة المقدّسة ، وعن مهدِ عيسى ، وعن بيتَ لَحْم ، وعن مدينةِ الخَليل ، ثم عَن دمشقَ ومِصرَ والعراقِ وبلادِ الرّوم . راحَ ابنُ بطوطَة يجيبُ عنْ أسئلةِ السلطانِ باسْتِفَاضَة ، ناقِلاً إليه أهمّ الأخبارِ وأطرَفِها .

ظهرَ على وجهِ السلطانِ الإعجابُ الشديدُ بإجاباتِ ابنِ بطّوطة ، والاستمتاعُ الكبيرُ بمعارفِه الوَاسِعة ، فقال لأبنائِه : أكرِمُوا هذا الرّجلَ وأمِّنُوه . وأمرَ أنْ يُمنحَ مِن الملابسِ أثمنَها وأفخَمها ، كما أمرَ له بِفرسٍ مُسّرَجٍ مُلْجَم ، ومِظَلّةٍ منْ نَفْسِ النوعِ الذي يَضَعُه السلطانُ فوقَ رأسِه . وكانت تلك المظلةُ ذاتَ أهميةٍ خاصّةٍ ونفعٍ كَبير ، فهيَ لا تُمنحُ لأحدٍ غيرِ أصفياءِ السُّلْطان ، ولذلك فهيَ تُوفّرُ للحائزِ عليها الأمنَ الكامِلَ والحمايةَ التامَّة ، أثناءَ تَجْوالِه في أنحاءِ البِلاد .

فرِحَ ابنُ بطّوطَة بِهداياَ السُّلْطان ، وتشجَّعَ قَليلاً ، فطلبَ منَ السُّلطانِ أنْ يُعيّنَ له مَن يُرافقُه في جَولاتِه دَاخلَ المَدينة ، حتّى يَدلّه على نَواحِيها ، ويُرشِدَه إلى أهمِّ آثارِها ومَزاراتِها ، وأغْربِ جَوانبِها ، حتّى يُسجّلَ كُلَّ ذلك في مُذكّراتِه . وافقَ السلطانُ على ذلك . فانتهَت المُقابَلة ، ومضَى ابنُ بطّوطةَ مُنْصَرِفاً .

عندَما بدأتْ جَولاتُ ابنِ بطوطةَ في المَدِينَة ، طَلبَ مِنه مرافقُه أنْ يَرتدِيَ الملابسَ التي خلعَها عَليه السُّلطان ، ويمتطيَ صَهوةَ الجَوادِ الذي أهداهُ له السّلطان . عندَما فَعلَ ذلك سارَ به الدليلُ المرافقُ في أسواقِ المَدينة . وكانت دَهشةُ ابنِ بطوطَة كبيرةً عندَما تَقدَّمت مسيرَته



فِرقةٌ منَ الرجالِ الذين يَقْرعونَ الطُّبولَ وَينفخُونَ الأبواق ، فكانَ كُلّما مرَّ بأحدِ الأَسواقِ توقّفَ الجميعُ عن عَملِهم ، وراحُوا يتطلّعُون إليه. قال ابنُ بطّوطَة للمرافقِ انّه كان يفضّلُ أن يمرَّ على هذه الأسواق ، دونَ هذا المَوكِب ، ومِنْ غيرِ هذا الإعْلام عند مرورِهِ ، حتّى يَرى حياةَ السُّوق الطّبيعية ، ويسجّلَ مُلاَحظاتِه عنها. فقال المرافقُ إنّ هذا ضروريٌّ في أوّلِ جولةٍ له ، حتّى يَراه الناس ، ويَعرِفوا أنّه ضيفُ السُّلطانِ فلاَ يُفكرُ أحدٌ في إيذائِه.

أيَــاصُوفْيَا العُظْمَى..

بانتهاءِ ذلك المَوكِب ، تبدأُ جَولاتُ ابنِ بطوطَة في مدينةِ القُسْطَنْطينيَّةِ الوَاسعةِ الكَبيرة. فيصفُ المدينةَ بأنّها «مُتناهيةُ الكِبَر ، مُنقسمةٌ إلى قسْمين ، بَينهما نَهرٌ عظيمُ المدِّ والجزْر.. وكانت عليه فيما تقدّمَ قَنطرةٌ مبنيّةٌ فَخرِبَت ، وهو الآن يُعبَرُ في القَوارِب ، واسمُ هذا النّهرِ أبسمى» ، وابنُ بطوطةَ هُنا يشيرُ إلى مَضيقِ البُسْفُور.

وفي القسمِ الشرقيِّ مِنَ المدينة ، والذي كان يُطلَقُ عليه في ذلك الحينِ اسمُ (اصْطَنْبُول) ، يسكنُ السلطانُ وكبارُ رجالِ الدّولةِ وأهْلِ المَدينة ، وفيه أَسْواقُها الكَبيرة ، وَشَوارعُها المَرصوفةُ بحجارةٍ رقيقةٍ عَرِيضة ، وهي شوارعُ وَاسِعة. وقد لاحظَ ابنُ بَطّوطةَ أنّ أهلَ كُلِّ صناعةٍ يَسكُنون في مكانٍ مُعيّنٍ لا يُشاركُهم فيه سِواهم. ولكلِّ سُوقٍ مِنَ الأسواقِ بابٌ يوصدُ إذا ما حلَّ اللّيل. وممّا لَفَتَ نَظرَ ابنِ

بطّوطة ، أنَّ أغلبَ الصُنّاعِ والباعةِ في هذه المدينةِ منَ النِّسَاء.

ويقولُ ابنُ بطوطَة في وصفِ المَدينة «والمدينةُ في سَفْحِ جَبلٍ دَاخلٍ في البَحرِ نحوَ تِسعةِ أميال ، وعرضُه مثلُ ذلك أو أَكْثر ، وفي أعلاهُ قَلعةٌ صَغِيرة ، ومقرُّ السُّلطان. والسُّورُ قريةٌ عامِرة. والكنيسةُ العُظْمَى في وَسَطِ هذا القسمِ منَ المَدينة..».

أمَّا القسمُ الثاني مِنَ المَدينةِ فقد كان في الجِهةِ الغَربيةِ مِنها ، وكانت تُقيمُ فيه الجالياتُ الأوروبيةُ مِن أهلِ جنَوَا والبَندقيةِ ورُوما وفَرَنْسا ، لكنَّهم كانُوا يَخْضَعُون لحُكّامِ البِلاد ، يَخْتارُون مِن بينِهم مَن يمثّلُهم ، فَيرتضِيه السلطانُ مَسؤولاً عن أحوالِهم ، وكان يُطلقُ على ذلك المسؤول لَقبُ «القُمُّص» ، وهو الذي يتولَّى جَمعَ الضرائبِ لحكومةِ السُّلطان. وعندَما يتمرّدُ بعضُ هَولاء ، ويرفضُ دفعَ الضّرائبِ والامتثالَ لأوامِرِ السّلطان ، كانت تقومُ بَينهم الحرْب ، حتّى يتدخّلَ البابا ، فَيصلحَ بَينهم.

وأغلبُ سُكّانِ الجانبِ الغربيّ منَ المدينةِ يَعْملون في التِّجَارة ، ولهم مِيناءٌ عظيمٌ يَسْتقبِلون فيه المراكبَ الضَّخمة ، ويحتشدُ بالقواربِ والسفنِ الصَّغيرة التي تحملُ البضائعَ منَ المدينةِ وإليها. وأسواقُ هذا الجانبِ الغربيِّ مِن المدينة ، واسعةٌ عامرةٌ إلاّ أنّها ليست بنظافةِ الأَسواقِ المُقامةِ في الجانبِ الشرقيِّ مِنَ المَدينة.

ثم يتحدّثُ ابنُ بطّوطَة عن زيارتِه للكنيسةِ العُظمى ، وهي الكنيسةُ التي تَحوّلَتْ بعدَ فتحِ الأَتراكِ للقُسطنطينيةِ على يدِ السّلطانِ التركي مُحمد الفَاتح ، إلى ما نَعرفُه باسمِ «مسجد أَيَا صُوفيا» ، وكانوا

يُطْلقون عليهم اسمَ «كنيسةِ أيا صوفيا». ويقولُ ابنُ بطوطةَ إنّهُ سيكتفي بوصفِ خارجِ الكنيسةِ دونَ التعرّضِ لوصفِ ما بداخلِها، ذلك أنه لم يُسمحْ له بدخولِها.. وهو يقول «وإنّما نذكرُ خارجَها، وأمّا داخلَها فَلمْ أشاهدْه. وهي تُسمَّى عندَهم أَيا صُوفْيَا، وهيَ مِن أعظمِ كنائسِ الرّوم، عليها سورٌ يُطِيفُ بها، فكأنّها مَدِينة، وأبوابُها ثَلاثةَ عَشَرَ بابا، ولها حَرَمٌ هو نَحوُ ميل، عليه بابٌ كبيرٌ ولا يُمنعُ أحدٌ مِن دُخولِه»، وهذا الحَرَمُ الذي يتكلّمُ عنه ابنُ بطوطَة عِبارةٌ عَن قاعةِ استقبالٍ عَظيمةٍ أرضُها منَ الرُّخامِ تَتوسَّطُها سَاقِيَة، لَها حائِطانِ مُرتفعان مَصنوعان من الرُّخامِ المُجزَّعِ الْمنقُوش. وقد اصطفَّت الأشجارُ على جَانِبَي السّاقية. والمسافةُ بينَ بابِ الكنيسةِ حتّى بابِ قاعةِ الاستقبالِ هذه، تمتدّ فوقَها سَقيفةٌ من الأخْشاب، تنمو عَلَيها دَوالي العِنَب، وفي أَسفلِها الياسَمِينُ والرَّياحِين. وخارجَ بابِ قاعةِ الاستقبال، قُبّةٌ خشبيةٌ كبيرةٌ تَتوزَّعُ تحتَها الأرائكُ الخَشبيةُ التي يَجلسُ عَليها حُرّاسُ الباب. وعلى يَمينِ القُبّةِ أَرائِكُ وحَوانيتُ أكثرُها من الخَشَب، يجلسُ فِيها القُضاةُ والْكَتَبَة. وتتميّزُ بينها قُبّةٌ خَشبيّة، يُصعَدُ إليها على دَرَجٍ خَشبيّ، بِها كرسيٌّ كَبيرٌ مَفروشٌ بالجُوخ، يجلسُ فوقَه كبيرُ القُضَاة. وعَن يَمينِ القُبّة، سوقٌ للعَطّارِين.

ويصفُ ابنُ بطوطَة بابَ الكنيسةِ ومَنْ بداخِلها فيقول «وهذا البابُ مصفّحٌ بصفائحِ الفضّةِ والذّهب، وحَلْقتاه منَ الذّهبِ الخالِص. وذُكَرَ لي أنّ عددَ مَن بهذهِ الكنيسةِ من الرُّهبان والقِسِيسين يَنتهِي إلى الآلاف، وأنَّ بعضَهم من ذُريّةِ الحَوارِيّين، وأنّ بداخِلها كنيسةً مختصةً بالنّساء، فِيها من الأَبكارِ المُنقطِعاتِ للعبادةِ أزيدُ مِنْ أَلف».

ومِنْ عادَة السُّلطان ورجالِ دَولتِه أنْ يَأتوا كُلَّ يومٍ صَباحاً لزيارةِ الكَنيسة. أمَّا البابا فَيزورُها مرّةً كُلَّ سنَة. وعندَما يُصبحُ البابا على مَسيرةِ أربعةِ أيامٍ منَ البلدِ يَخرُجُ السلطانُ إلى لقائِه، ويلقاهُ بعدَ أنْ يَهبطَ عَن فَرسِه. وعندَ دُخولِ البابا إلى المدينةِ يَمشي السلطانُ أمامَه على قَدَميه، ويأتي للسّلامِ عليه كُلَّ صَباحٍ ومساءٍ طَوالَ مدّةِ اقامتِه بالقُسطنطينيّة.

مَانِستَارُ السُّلطانِ المُترهِّب

بينما كان ابنُ بطوطَة في إحدَى جَولاتِه رَاكباً مع الرجلِ الروميّ الذي عيّنه السُّلطانُ لمرافقتهِ، رأَىَ شَيخاً عليه ملابسُ خَشِنةٌ من الصّفوفِ وعلى رأسِه قَلَنْسُوةٌ منَ اللُّبَّاد، وله لِحيةٌ بيضاءُ طَويلة، ووجهٌ حَسنٌ مِن فرطِ العِبادة والتّقْوَى، تَحوطُه جَماعةٌ منَ الرُّهْبان، وهو يَسيرُ بينَهم مستنداً إلى عُكّاز، وقد وَضَعَ سُبْحَةً كبيرةً في عُنقِه.

عندَما أبصرَ المُرافقُ ذلك الشيخَ طَلبَ مِن ابنِ بطوطةَ أنْ يَهبِطَ عن حِصانِه قَائلاً «إنزلْ فَهذا هو والدُ السُّلطان!.». نزلَ ابنُ بطوطةَ عنْ حِصانِه وهو يتطلّعُ إلى ذلك الشَّيخ، السلطانِ السابقِ جرجيس، الذي كان سُلطاناً على الرومِ ثم تَنازَلَ عن المُلكِ لابنِهِ تكفور، حتّى يتفرّغَ للعبادةِ ما بقيَ لَه مِنْ عُمْر. سلّمَ المرافقُ على السّلطانِ السّابق، فسألَه الشيخُ عَن ابن بطوطةَ الذي كان يقفُ على بُعدٍ مِنهما، وعندَما عَرفَ هُويّتَه، طلبَ منَ المُرافق أنْ يَدعوَه إلى الاقْتِراب.

اقتربَ ابنُ بطوطَة، فَتناولَ الشيخُ المترهّبُ يدَه، وقال للمرافقِ

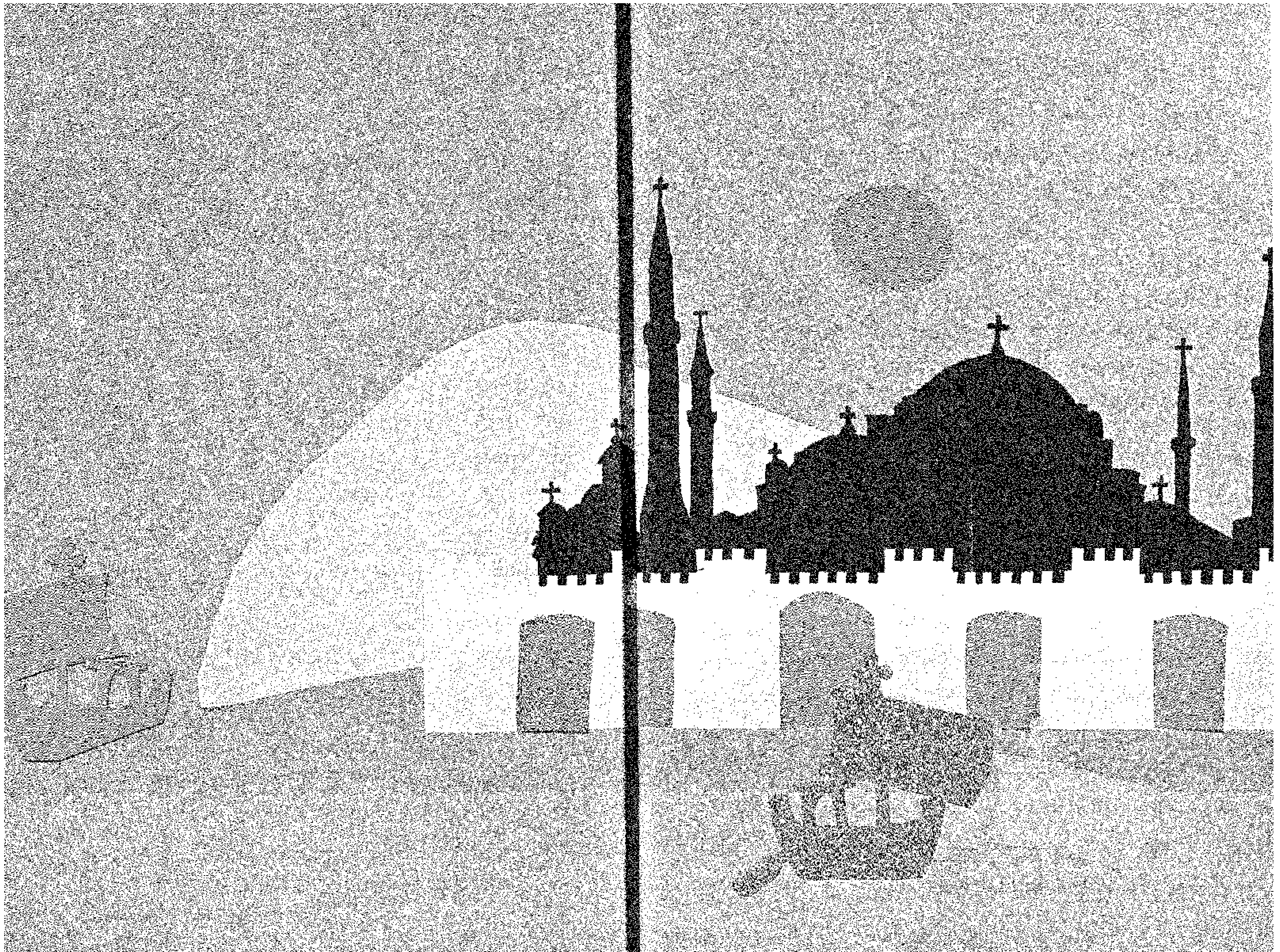
الذي يتولّى التّرجَمَة: قل لِهذا السراكنو (يَعني المُسلم)، أنَا أصافحُ اليدَ التي دَخَلت بيتَ المَقدِس، والرِّجْلَ التي مَشَت دَاخِلَ الصّخرة، والكنيسةِ العُظمَى التي تُسمَّى قيامَة، وبيتَ لَحم. ثم مدَّ الشيخُ يدَه إلى قَدمِ ابنِ بطوطةَ ومَسحَ بها وَجهَه. ثم أخذَ ابنَ بطوطَة مِن يده ومشَى معَه، وسألَه عن بيتِ المقدسِ ومن فيه. وتواصَلت مَسِيرتُهما حتَّى وصَلاَ إلى حَرَمِ كنيسةِ أيا صوفيا، وعندَما اقتربَا منَ البابِ الأعظمِ الذي سَبَق لابنِ بطوطَة أنْ وصفَه من الخارج، خَرجت جماعةٌ منَ القِسِّيسين والرّهبانِ للسَّلامِ على الشّيخ، وعندَما رَآهم الشيخُ تَرَكَ يدَ ابنِ بطوطةَ متوجِّهاً ناحيتَهم، فقال له ابنُ بطّوطة: أريدُ الدخولَ مَعك إلى الكَنيسة. فقال للتَرجُمان: قل له لا!. فَمن يَدخُلْها يجبْ أنْ يَسجدَ للصّليبِ الأَعظم. ثم تَركَه وانْصرَف.

وقد عَرَفَ ابنُ بطوطَة بعدَ ذلك انّ الشيخَ جرجيس عندَما تَقدَّمَ بِه العُمُر، تَرَك المُلكَ لابنهِ تكفور، وبنَي ما يسمَّى «المانِسْتار»، خارجَ المدينةِ على ساحِلها، لينقطعَ فيه للعِبادَة. ويشرحُ ابنُ بطوطةَ معنَى كَلمةِ مانستار، فيقول «المانِسْتار على مثلِ لَفْظِ المَارِستّان.. وهو عندَهم شِبهُ الزاويةِ عندَ المُسْلمين..». وقد شاهدَ ابنُ بطوطةَ مانستارين خارجَ الكنيسةِ العُظمىَ عن يَمينِ الدّاخلِ إليها، وهُما داخلَ بُسْتانٍ، أحدُهما للرجالِ والآخرُ للنّساء. وفي كُلِّ مانستارٍ مِنهما كنيسةٌ تَحِفٌّ بهَا بيوتُ المُتعبِّدين والمتعبِّدات، وقد خُصِّصت الأوقافُ لِكُسْوةِ المتعبِّدين وباقِي نَفقاتِهم. وهناكَ مانَستاران عن يَسارِ الداخلِ إلى الكنيسةِ العُظمى، تحِفٌّ بهما عِدَّةُ بيوتٍ يسكُنُ بعضَها العُمْيان، ويسكنُ البعضَ الآخَرَ الشيوخُ الذين بَلغُوا السِتّين أو تَجاوَزُوها.

وبداخلِ كلِّ مانستارٍ مكانٌ خاصٌّ يَتعبَّدُ فيه المَلِكُ الذي بَناه ، فقد كان مِن عادةِ ملوكِ تلك البلادِ أنَّ الواحدَ مِنهم إذا ما بلغَ السِتّين أو السَّبعين من عمرِه ، أنْ يتنازَلَ عن مُلكِه لوليّ عهدِه ، بعدَ أنْ يبنيَ مانستارا له ، وَيلْبَسَ ثِيابَ الشَّعَرِ الخَشنةَ المُتقشِّفَة ، ويَنْصرِفَ إلى العبادةِ حتّى يَمُوت .

ذاتَ يومٍ طَلبَ ابنُ بطوطَة مِن مُرافقِه أنْ يَدخلَ به إلى أحدِ هذه المانستارات ، فمضَى به إلى مانستارٍ يَشقُّه نَهْر ، وفيه كنيسةٌ تَجمَّعَ فيها ما يَقرُبُ من خمسِمائةِ عَذْراءَ عَليهن ملابسُ الشَّعَرِ الخَشِنة ، ورؤوسُهُن مَحلوقةٌ تماماً يَضَعْن عَليها قَلانسَ منَ اللُّبَّاد . يَصفُ ابنُ بطوطَة تَجربتَه هذه فيَقول « .. ولهنَّ جمالٌ فائقٌ وعليهن أثَرُ العِبَادة ، وقد قَعَدَ صبيٌّ على مبنىً يَقرأ لَهنّ الإنجيلَ بصوتٍ لمْ أسمعْ قَطُّ أحسنَ منه ، وحولَه ثَمانيةٌ من الصُّبيانِ على منابرَ ومَعهم قِسِّيسُهم ، فَلمّا قَرأَ هذا الصبيّ ، قَرأ صبيٌّ آخر. وقال لي الروميُّ إنّ هؤلاء البناتِ من بناتِ المُلوك ، وَهَبْنَ أنفسَهنّ لخدمةِ الكنيسة ، وكذلك الصبيانُ القُرّاء ، ولهم كنيسةٌ أُخرَى خارجَ الكَنيسة .. » .

ثم ينتقلُ ابنُ بطوطَة منْ حديثِه عن المانستارات إلى الحديثِ عن قَضاءِ المدينة ، فقد كان يسيرُ يوماً في سُوقِ الكُتّاب ، عندَما رآه قاضِي المَدينة ، فسألَ عنه ، ولمَّا عَرَفَ أمرَه ، بعثَ إليه مَن يَدعُوه ويقولُ له «النجشي كفالي يَدْعوك .. » . فسأل ابنُ بطوطةَ مُرافقَة عن معنَى ما سَمِع ، فقال له المرافقُ إنّ قاضِي المدينةِ يُدعى النجشي كفالي .. وهذا يَعني انّ القاضيِ يطلبُ أنْ يَراه . يصفُ ابنُ بطوطةَ زيارتَه



للقاضِي فيَقول «.. فَصَعِدْتُ إليه، فرأيت شَيخاً حَسَنَ الوجهِ واللِّمَّة، عليه لِباسُ الرُّهبان، وبينَ يَديه نحوُ عَشَرةٍ منَ الكُتّابِ يَكتبُون، فقامَ إليّ وقامَ أصحابُه، وقال أنت ضيفُ المَلكِ ويجبُ عَلينا إكرامُك، وسألَني عن بيتِ المقدِسِ والشامِ ومصرَ وأطالَ الكلامَ وكثُرَ عليه الازْدِحَام..».

الخَاتون لا تَعودُ إلى السُّلطان..

أثناءَ إقامةِ ابنِ بطوطة في القُسْطَنْطِينيّة، تكشَّفَتْ له حقيقةٌ غَريبة. عَرَفَ أنّ الخاتون بيلون زوجةَ السطان أوزبك التي قَدِمَ بصحبتِها إلى القُسطنطينيّة، رَغمَ أنّها كانت تُبدي اعتناقَها الإسلام، فإنّها ما إنْ وَصَلت إلى القُسطنطينية حتّى كَشَفت عن كونِها ما زَالَت على دينِ أبيها. بل إنّها أعلنتْ عَن رغبتِها في البقاءِ مع أبيها، وعدمِ العودةِ إلى زوجِها السُّلطانِ أوزبك.

عندَما عَرَفَ ابنُ بطوطَة وصحبُه بهذا، طَلَبوا مِنها الإذنَ بالعَودةِ من حيثُ أتَوْا، فأذِنَت لهم، وحمَّلتهم شَيئاً كثيراً منَ الهَدايا والأموال. وكان نَصيبُ ابنِ بطّوطة من ذلك كَثيراً، وهو يصفُ هَدايا الخاتون فيقول «وَبَحَثَتْ عنّي، فأعطتني ثَلثمائةِ دينارٍ من ذهبِهم، وألفيْ دِرهم بندقيّة، وَشِقّةَ ملفٍّ منْ عَملِ البَناتِ وهو أجودُ أنواعِه، وعَشَرَةَ أثوابٍ من حَريرٍ وكتّانٍ وصُوف، وفَرَسَين.. وأوصت بِي «ساروجة»، وودّعتُها وانْصَرَفْت.. وكانت مدّةُ بقائي عندَهم شَهراً وستّةَ أيّام..».

كان ساروجةُ هذا أميراً من الأُمراءِ يُطلَقُ عليه اسمُ ساروجةَ الصَّغير، وكان تَحت أمرِ هذا الأميرِ خَمسُمائة فارِس. تحرَّكَ الركْبُ في حِمايةِ ذلك الأمير، الذي كان حَريصاً على تنفيذِ تَعْليماتِ الخاتون بيلون، فكانَ يُكْرِمُ ابنَ بطوطَة إكراماً خاصًّا، حتّى وَصَلُوا إلى آخرِ بلادِ الرّوم، حيث كانوا قد تَركوا عَرَباتِهم وباقي أصحابِهم.

رَكِبَ الجميعُ العَرَباتِ استعداداً لعُبورِ البرّيةِ المَهجورةِ التي سَبَقَ لَهم أنْ عَبَروها عندَ قُدومِهم. وقد رافقَهم ساروجةُ في رِحلتِهم هذه حتّى مدينةِ بابا سلطوق، ثم انْصرَفَ عائداً إلى بلادِه. كان البردُ شديداً للغايةِ في ذلك الوقت، ويصفُ ابنُ بطوطةَ هذا فيقول «وكنت ألبسُ ثَلاثَ فَرَواتٍ وسِرْوالَين، أحدُهما مُبطَّن، وفي رِجْلي خُفٌّ مِن صُوف، وفوقَه خُفٌّ مبطَّنٌ بِثوبِ كتّان، وفوقَه خفٌّ من البُرْغال، وهو جلدُ الفَرسِ مبطّنٌ بجلدِ الذّئب. وكنت أتوضّأ بالماءِ الحارّ، بِمقْربةٍ منَ النّار، فما تَقْطُرُ منَ الماءِ قَطْرَة، إلاّ جَمَدت لِحينِها. وإذا غَسَلت وجهِي، يصلُ الماءُ إلى لِحيتي، فَيجمَدُ فأحرّكُها، فيسقطُ مِنها شبهُ الثّلج.. وكنت لا أستطيعُ الركوبَ لكثرةِ ما عليَّ من الثّياب، حتّى يُرْكِبَني أصْحابِي..».

عندَما وصَلَ الركبُ إلى مدينةِ الحاج تُرْخان، أو استراخان، حيث فَارَقوا السُّلطانَ أوزبك، وجدُوه قد رَحَلَ واستقرَّ بعاصمةِ مُلكهِ مدينةِ (السرا). ويقولُ ابنُ بطوطَة «فسافرْنا على نهرِ أتل وما يَليه من المياهِ ثَلاثاً، وهي جامِدة. وكنّا إذا احتجْنا إلى الماء، قَطعنا قِطَعاً منَ الجَليد، وجَعلناه في القِدْرِ حتّى يَصيرَ ماء، فَنشربَ مِنه ونَطبُخَ منه..».

يصلُ الركبُ إلى مدينةِ السّرا ، وهي التي عُرِفت باسمِ (سرا بركة) أيضاً ، ويدخلُ ابنُ بطوطَة على السّلطانِ في قَصرِه المعروفِ باسمِ (طون طاش) ومعناها الحجرُ الذّهبيّ ، فيسألُه السلطانُ عن أحوالِ سَفرِه ، وعن سُلطانِ الرّوم ، وعن القُسطنطينية ، فيجيبُ عَن أسئلتِه بما يَعلم. فيأمرُ السلطانُ باستضافتِه ومَن معه ، وأنْ تكونَ نَفقاتُ إقامتِهم عليه.

يمضِي ابنُ بطوطَة ليتجوّلَ في مدينةِ السرا ، ويتعرّفَ على نَواحِيها ، فَتحوزُ اعجابَه ، ويقولُ عنها «.. ومدينةُ السرا من أحسنِ المُدن ، متناهيةُ الكِبَر ، في بَسيطٍ منَ الأرض ، تَغُصُّ بأهلِها كثْرة ، حَسنةُ الأسوَاق ، مُتسعةُ الشّوارع. ورَكبْنا يوماً مع بعضِ كُبرائِها ، وغَرَضُنا التطوّفُ حولَها ، ومعرفةُ مِقدارِها ، وكان مَنزلُنا في طَرَفٍ منها ، فركبْنا مِنه غُدْوَة ، فَما وَصلنا لآخرِها إلاّ بعدَ الزّوال ، فَصلَّينا الظهرَ وأكلْنا طَعامَنا ، فَما وصلْنا المنزلَ إلا عندَ الغُروب. وَمَشينا يوماً في عَرضِها ذَاهِبين راجِعِين في نصفِ يَوم. وذلك في عِمارةٍ مُتّصلةِ الدُّور ، لا خَرابَ فِيها ولا بَساتين. وفِيها ثَلاثَةَ عَشرَ مسجداً لإقامةِ الجُمُعة.. وفيها طوائفُ مِن الناس ، وكلٌّ طائفةٍ تَسكُنُ مَحلّةً على حِدَة ، فيها أَسْواقُها. والتجّارُ والغرباءُ منْ أهلِ العِرَاقَين ومصرَ والشّام وغيرِها ، سَاكنون بمحلّةٍ عليها سُور ، احتياطاً عَلى أموالِ التُجّار».

وفي السرا يلتقِي ابنُ بطوطَة بالإمامَ العَالمِ نعمانِ الدّينِ الخُوارِزْمي ، وهو فَقيهٌ من فُضَلاءِ المشائخ ، حَسَنُ الأخلاقِ شديدُ التّواضُع ، وفي نفسِ الوقتِ شديدُ العُنْفِ مع أهلِ الدنيا الّذين يُخالِفون

أحكامَ الدّين. يأتي إلى زاويتِه السُّلْطانُ أوزبك زائراً كلّ يومِ جُمُعة، فلا يستقبلُه ولا يقومُ إليه.. بل يَظلُّ في جلستِه حتّى يَمْثُلَ السّلطانُ بين يدَيه، ويروحُ السلطانُ يُكلّمُ الخُوارزميّ بكلِ لُطفٍ ويُبدِي له التّواضُع، بينما الشيخُ يُبدِي العكسَ مِنْ هذا.

يقولُ ابنُ بطوطةَ عن ذلك الإمام «وفِعلُه مع الفُقراء والمساكينِ والوَارِدين، خِلافُ فعلِهِ مع السُّلطان، فانّه يتواضعُ لَهم ويكلّمُهم بألطفِ الكَلام ويكرّمُهم..». ويَحكي ابنُ بطوطةَ عمَّا يُسمِّيه كرامةً لِذلكِ الإمام. فيقولُ إنّه انتوَى السفرَ إلى خُوَارِزْم، فطلبَ منه الأمامُ نعمان الدين أنْ يصرفَ النظرَ عن هذه النِيّة، ولو لبعضِ الوقت، وقال له إنْ وقتَ مغادرتِه للسرا لم يَحِنْ بَعد. لكنّ ابنَ بطوطةَ لم يكنْ ينتوِي أنْ يبقَى في السرا أكثرَ من ذلك، وصرَفَ النظرَ عن قولِ الإمام، واتّفقَ مع بعضِ التُجّارِ على السفرِ مَعَهم، لكنّه اكتشفَ قبلَ السفرِ مُباشَرةً فِرارَ واحدٍ من خَدمهِ، فاضطرَّ إلى البَقاءِ في المَدينة، حتّى وَجَدَ له بعضُ أصحابِه ذلك الخادمَ الهاربَ بعدَ ثَلاثةِ أيام.. وهكذا تحقّقتْ أقوالُ الإمامِ وانْتصرَتْ على رَغَباتِه.

رحلةُ الصَّحراءِ القاسِية

انتظَرَ ابنُ بطوطةَ تحرُّكَ قافلةِ تُجّارٍ مُسافرةٍ إلى خُوارِزْم، فالتحقَ بهم. وعَرَفَ مِنهم أنّ بين السرا وخُوارِزم صحراءَ يَقطعُها المسافرُ في أربعين يوماً.. وهذه الصحراءُ لا يُسافِرون فِيها باستخدامِ الخيلِ لِجرّ

العربات، إذ إنّها صَحراءُ قاحلةٌ لَيس بها نَباتٌ لطعامِ الخَيْل، لذا فهم يَعْتمدون على الجمالِ في جرِّ العَرَبات.

بعدَ عَشَرةِ أيامٍ من بدايةِ الرِّحلة، وصلَ الركبُ إلى مَدينةِ (سراجوق)، ومَعناها السرا الصَّغيرة. وهي عَلَى شاطئِ نهرٍ كبيرٍ يقالُ له (الوصو)، ومعناها الماءُ الكَبير، وهو نهرُ أورال الذي يَصُبُّ في بحرِ قَزْوِين. وقد عَبَروا ذلك النهرَ على جِسرٍ منَ القَواربِ مثلِ الجسرِ الذي كانَ ابنُ بطوطةَ قد رَآه مِن قبلُ في بَغداد. في هذه المدينةِ انتهَى استخدامُ الخيولِ لجرِّ العَرَباتِ، واضْطرُّوا إلى بيعِها بأربعةِ دَنانيرَ للفَرس، وبعضَ الأحيانِ بأقلَّ من ذلك، نتيجةً لِرُخْصِها في تلك المَدينة. واسْتأجَرُوا الجِمالَ التي ستَجُرُّ العَرَباتِ عبرَ الصَّحْراء.

كانت الرحلةُ بعدَ ذلك قاسِية. تَواصَلت على مَدَى ثَلاثينَ يوماً منَ السَّيرِ الجَادّ، لا يتوقّفون في اليومِ الواحِد أكثرَ مِن سَاعتين، إحْداهما عندَ الضّحى، والأُخرى عندَ المَغرِب. ويَحكِي ابنُ بطوطة عن حياتِه أثناءَ السّفرِ فيقول: «وتكونُ الإقامةُ قَدْرَ ما يَطْبُخون الدّوقي ويَشربونه، وهو يُطبخُ مِن غَلْيةٍ وَاحدة، ويكونُ مَعَهم الخليعُ من اللّحم، (وهو اللَّحمُ المُقدّدُ المتبَّل)، وَيصُبُّون عليه اللَّبن. وكلُّ انسانٍ ينامُ أو يأكلُ في عَرَبتِه حالَ السَّير. ومِن عادةِ المُسافرين في هذه البريّةِ الإسراعُ لقلّةِ الأعْشاب، والجمالُ التي تَقطعُها يَهْلَكُ مُعظمُها وما يبقَى مِنها لا يُنتفَعُ به إلاّ في سنةٍ أُخرى، بعدَ أنْ يَسْمَن..».

يصلُ الركبُ إلى مدينةِ خُوارِزم، وهي كما يقولُ ابنُ بطوطة «أكبرُ مُدنِ الأَتراكِ وأعظمُها وأجملُها وأفخمُها، لَها الأَسواقُ المَليحةُ والشّوارعَ الفَسيحة، والعِمارةُ الكَثيرة، والمحاسنُ الأثِيرة، وهي تَرْتَجُّ

بسكّانِها لكثرتِهم، تمُوجُ بِهم مَوْجَ البَحْرِ، ولقد رَكبتُ بِها يوماً ودَخَلت السوق، فلمَّا توسّطتُه وبَلَغْتُ منتهَى الزِّحَامِ في موضعٍ يُقال له الشّور، لمْ استطعْ أنْ أَجوزَ ذلك الموضعَ لكثرةِ الازْدِحَام، وأردت الرجوعَ فمَا أمكنَني لكثرةِ النّاس، فبقيت مُتحيِّرا، وبعدَ جُهدٍ شَديدٍ رَجَعْت..».

عندَ أولِ وصولِ ابنِ بطوطةِ إلى خُوارِزْم، نَزَلَ بخارجِها، ثم تَوجَّه بعضُ أصحابِه إلى القاضِي الصدر أبي حَفْص عُمَرَ البكريّ، فبَعثَ نائبَه نورَ الإسلام إلى ابنِ بطّوطةِ لِيُحيّيَهُ ويسلّمَ عَليه، ثم أتى القاضِي في جمْعٍ مِن أصحابِه. قال القاضِي لابنِ بطّوطة: هذه المدينةُ كَثيرةُ الازْدحام، ودخولُكم نَهاراً لا يَتأتّى، وسيأتي إليكم نورُ الإسلامِ نائِبي لتَدْخُلوها مَعَه آخرَ اللّيل. وكانَ ما نَصَحَ به القاضِي، فنزلَ ابنُ بطوطةَ بمدرسةٍ جديدةٍ ليس بِها أحَد. ثم لَمّا طَلَعَ الصّبح، أتَى إليه القاضِي ومَعه جمعٌ غفيرٌ مِن كِبارِ رجالِ المَدينة.

نَشأَت صداقةٌ حميمةٌ بينَ ابنِ بطّوطةَ وبينَ القاضِي أبِي حَفص، فكانا يُصَلِّيان الجُمُعَةَ مَعاً، فَيتوجَّهان إلى دارِ القاضِي القريبةِ منَ المَسجد. ويقول ابنُ بطوطةَ في وَصْفِ مجلسِ القاضِي «.. وهو مِن أبدعِ المجالِس، فيه الفُرُشُ الحافِلة، وحيطانُه مَكسُوّةٌ بالملف (أيّ أثوابِ القُماش) وفيه طِيقانٌ كثيرة، وفي كلِّ طَاقٍ مِنها أواني الفِضّةِ المُموّهةُ بالذّهَب، والأواني العِرَاقية.. ثم يؤتَى بالطّعَامِ الكثير. وهو مِن أهلِ الرَّفَاهِيَةِ والمالِ الكثيرِ والرّباع، وهو سِلْفُ الأميرِ قطلودمور، متزوّجٌ بأختِ امْرأتِه..».



والأميرُ الكبيرُ قطلودمور هو حاكمُ هذه المَدينة ، باسمِ السلطانِ أوزبك ، وهو ابنُ خالةِ السلطانِ أوزبك ، وأكبرُ امرائِه ، ويتولّى عنه حُكمَ خُرَاسان. وهو الذي أنْشأَ المدرسةَ الملحقةَ بالجَامع ، وما يتبعُها من أماكنِ الضّيافة ، أمَّا المسجدُ فَقد بَنَتْه زَوجتُه الخاتُون ترابك.

بِطِّيخُ خُوارِزْم..

قال القاضِي لابنِ بطوطةَ إنّ الأمير فطلودمور قد علمَ بقدومِه ، وإنّه يُعاني من آثارِ مَرضٍ أَلمَّ به ، وأنَّ مرضَه يَمنعهُ مِن الحضورِ إلى حيثُ ابنُ بَطّوطة ، فأبدَى ابنُ بطوطَة استعدادَه لزيارةِ الأميرِ في بيتِه. رَكِبَ مع القاضِي منَ المدرسةِ حتَّى وَصَلا إلى بيتِ الأمير. تَرجّلا ، ودَخَلا قاعةَ استقبالٍ واسعةً منَ الخَشَب ، ثم عَبَراها إلى قاعةٍ أُخرَى صغيرةٍ لَها قُبّةٌ خشبيةٌ مُزَخْرَفَة ، كُسِيَت حيطانُها بالنَّسيجِ المُلوَّن ، وغُطِّيَ سَقفُها بالحريرِ المُذهَّب.

عندَما دَخَلا إلى القَاعةِ الصّغيرة ، وجدَا الأميرَ ممدّداً على فِراشٍ مِنَ الحَرير ، وقد غَطَّى ساقَيه لِمَا بِهما مِن مَرَضِ النِّقْرِس ، الذي وَجَدَه ابنُ بطوطةَ منَ الأمراضِ الشّائعةِ في بلادِ التّرك. سلمَ ابنُ بطوطةَ على الأمير ، فأجلسَه إلى جانبِه. سألَه الأميرُ عنِ السّلطانِ محمد أوزبك ، وعن الخاتون بيلون ، وعن أبِيها والقِسْطَنْطِينيّة ، فَحَكَى له ابنُ بَطوطةَ بعضَ ما يَعْلمُ منَ هذا.

بعدَ قَليل، بُسِطَتْ مَوائدُ الطّعام، منَ الدَّجاج المَشْويّ، وأَفراخ الحَمَام، والخبز المعجون بالسمن، والكعك والحلوى. ثم بُسِطتْ موائدُ أُخرى عَليها الفَواكِه، وكان حَبُّ الرُّمانِ مَوضوعاً في أواني منَ الذَهبِ والفِضّة، ومَعه مَلاعقُ منَ الذّهب. والبعضُ الآخرُ مِن حبِّ الرُّمانِ في أواني من الزُّجاجِ العِراقي، ومَعه مَلاعقُ منْ خَشَب. هذا إلى جانبِ العِنَبِ والبِطِّيخِ العَجيب.

وبطِّيخُ خُوارِزم يعتبرُ مِنَ المسائِل التي لَفَتت نَظَرَ ابنِ بطوطةَ بشكلٍ وَاضحٍ، فَيَفرِدُ له حديثاً طَويلاً مُسْترسَلاً. وفي هذا الصددِ يقول «وبطِيخُ خُوارِزم لا نظيرَ له في بلادِ الدّنيا شَرقاً ولا غَرباً، إلاّ ما كانَ مِن بِطيخِ بُخارَى، وَيَليه بِطيخُ أصْفَهان. وقِشْرُه أخضرُ وباطنُه أحْمر، وهو صادقُ الحَلاَوة، وفيه صَلاَبة، ومنَ العجائبِ أنَّه يُقَدَّدُ ويُيَبّسُ في الشّمس، ويُجعلُ في القَواصِر. ويُحمَلُ مِن خُوارِزم إلى أقصَى بلادِ الهِندِ والصّين. ولَيس في جميعِ الفواكهِ اليابسةِ أَطيبُ منه، وكنت أَيامَ إقامتي بـ(دهلي)، مِن بلادِ الهند، متى قَدِمَ المُسافرون بَعَثت مَن يشترِي لِي مِنهم قَديدَ البِطّيخ..».

في خُوارِزم، يَحضُرُ ابنُ بطوطَة إحدى جَلَساتِ التقاضِي التي يُقيمُها الأميرُ كلَّ يومٍ بحضورِ القَاضِي، وهو يصفُ هذا قائلاً «ومِن عاداتِ هذا الأميرِ أنْ يأتيَ القاضِي كُلّ يومٍ إلى قاعةِ استقبالِه، فيجلسَ بمجلسٍ مُعَدٍّ له، ومعه الفُقهاءُ وكتّابُه. وَيجلسُ في مقابِله أحدُ الأمراءِ الكِبار، ومَعه ثَمانيةُ مِن كُبراءِ أمراءِ التُّركِ وشُيوخِهم. ويتحاكمُ الناسُ إليهم: فَما كانَ منَ القَضايا الشرعيةِ حَكَمَ فيها القاضِي، وما كان مِن

أرض الظلمة

مغامرات
ابن بطوطة

بلغار

السرا

سراجوق

خوارزم

الكات

ترخان

البحر الأسود

سِوَاها حَكَمَ فيه أُولئك الأمراء. وأحكامُهم مَضبوطةٌ عادِلة، لأنهم لا يُتَّهَمُون بِمَيْل. ولا يَقْبَلون الرِّشْوة..».

ولا تُقتصرُ جَولاتُ ابنِ بطوطةَ على دَاخل المَدينة. بل يَمضِي إلى خارجِها حيث يُشاهِدُ مَجرَى نَهر (جَيْحُون) الذي يَصُبُّ في بُحَيرةِ آرال، ويقُول إن ذلك النهرَ يَجْمَدُ في أوانِ البَرْد، وهذا نَفْسُ ما يحدُثُ في نَهْرِ أتل. وعندَما يتجمّدُ النهرُ يَسيرُ الناسُ فَوَقه. ويبقَى جامداً مدّةَ خَمسةِ أشهر، وفي كثيرٍ مِنَ الأحيانِ يُحاولُ بعضُ الناسِ اجتيازَه سَيراً فَوقَه، عندَما يكوُن آخذاً في الذَّوبان، فيَغرَقون، ذلك لأنّ القِشرةَ المتجمّدةَ على سَطْحِ النهرِ تكونُ رقيقةً لا تَتحمَّلُ ثِقلَهم. وهذا النّهرُ هو الذي يَستخدمُه أهلُ خُوارِزم، فَيُسافِرون فيه أيامَ الصيفِ بالمَراكِبِ إلى مدينةِ (تِرْمِذ)، التي يَجْلِبُون مِنها القَمْحَ والشَّعير.

ومنْ واقعِ اختلاطِ ابنِ بطوطةَ بأهلِ خُوارِزم، يُبدِي استحسانَه لطباعِ أهلِ البلد، كما يُبدِي إعجابَه بطريقتِهم في مُحاسبةِ بعضِهم على أداءِ الصَّلاة، والتي يَتولاّها إمامُ المَسْجدِ، فيقول «ولم أرَ في بلاد الدنيا أحسنَ مِن أهلِ خُوارِزْم، ولا أكرَمَ نُفوساً ولا أحبَّ في الغُرباء. ولهم عادةٌ جميلةٌ في الصّلاةِ لمْ أرَها لغيرِهم: وهي أنَّ المُؤذِّنين في مساجدِها يَطُوفُ كُلٌّ واحدٍ مِنهم على دُورِ جيرانِ مَسجدِه مُعْلِماً لهم بحضورِ الصّلاة، فَمَن لم يحضرْ الصلاةَ مع الجماعةِ ضَربَه الإمامُ بِمَحْضَرِ الجماعة. وفي كُلِّ مسجدٍ دَرَّةٌ مُعلّقةٌ لذلك. ويغرَّمُ خَمسةَ دنانيرَ تُنفَقُ في مصالِح المَسْجِد، أو لإطعامِ الفُقراءِ والمَساكِين. ويَذْكُرون أنّ هذه العادةَ عندَهم مُستمرّةٌ على قَديمِ الزّمان».

صَحراءُ بلاَ حيَاة..

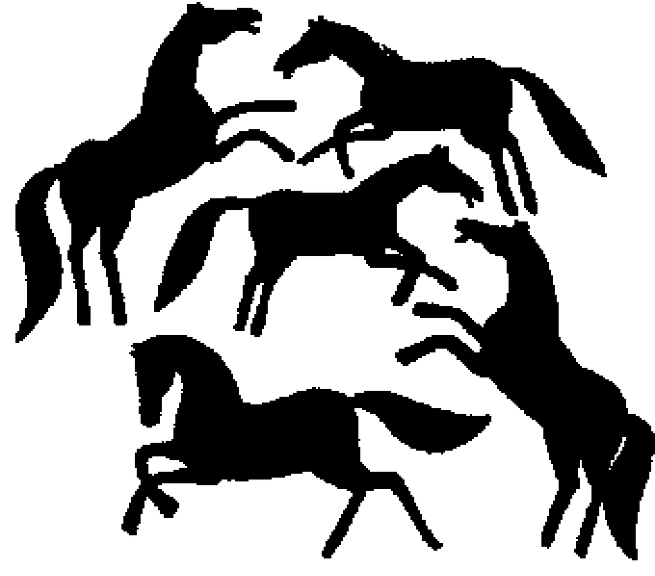
تَنقضِي أيامُ وُجودِ ابنِ بطّوطَةِ فِي خُوارِزم، فتتوالَى عَليه دَعَواتُ الوَدَاع. وبعدَ صَلاةِ الجُمعةِ الأخيرة، أقبلَ نَحوَه القاضِي أبو حَفْص، وقال له: «إنّ الأميرَ أمرَ لك بِخَمْسِمائةِ دِرْهم، وأمرَ أنْ يُصنعَ لك دَعوةٌ يُنفقُ فِيها خمسُمائةِ درهمٍ أخرى، يَحضُرُها المشايخُ والفقهاءُ والوُجَهَاء، فلمَّا أمرَ بذلك قُلت له: أيُّها الأمير.. تَصنعُ دعوةً يأكلُ مَن حضرَها لُقْمةً أو لُقْمَتَين؟، لو جَعلت له جميعَ المالِ كانَ أحسنَ له، فقال: إفعلْ ذلك. وقد أمرَ لَكَ بالألف كَامِلَة.»

ويقولُ ابنُ بطوطةَ إن هذه المِنْحةَ التي رَصدَها له الأمير، جاءت في وقتِ الحاجةِ الشديدةِ إليها. ويتحدّثُ ابنُ بطوطةَ عن هذا فيقولُ عن الهديّة «بعثَها الأميرُ في صُحبةِ امامِه شَمسِ الدّينِ السّنْجَري في خَرِيطةٍ (أي كيس) من القُمَاش، يَحملُها غُلامُه. وكنت قد اشْتريت في ذلك اليومِ فَرَساً أدهمَ اللّونِ بخمسةٍ وثلاثين ديناراً دَرَاهم، وَرَكبتُه في ذَهَابِي إلى المَسجد، فما أعطيت ثَمَنَه إلاّ من تلك الألف. وتَكاثَرت عِندي الخيلُ بعدَ ذلك، حتى انتهتْ إلى عددٍ لا أذكرُه، خِيفةَ مُكذِّبٍ يَكْذِبُ به، ولم تزلْ حَالي في الزِّيادة، حتّى دَخلت أرضَ الهِند..».

عندَما بدأَ ابنُ بَطوطَة تَحرُّكَه مِن خُوارِزم، كانَ يَقْصِدُ أنْ يَصلَ في نهايةِ الأمرِ إلى بلادِ الهِند. وكانت (بخارى) هي محطّتَه التاليةَ بعدَ

خُوارِزم. اتَّفقَ مع صديقِه القَديم، ورفيقِ رحلاتِه الشَّيخِ عفيفِ الدِّينِ التوزري أنْ يُشاركَه هذه الرحلةَ التي يَنْتوِيها إلى الهِند. فاكْترى جِمالا، واشترَى هَوْدَجاً كبيراً يتّسعُ له هو والشيخُ عَفيف.

وَبَدأتْ الرِحلةُ الصّعبَة، في صَحراءَ يَقطعُها المسافرُ في ثَمانيةَ عَشَرَ يوماً وَسْطَ رمالٍ لا عَمَارَ بِها أو حَيَاة....



مغامرات

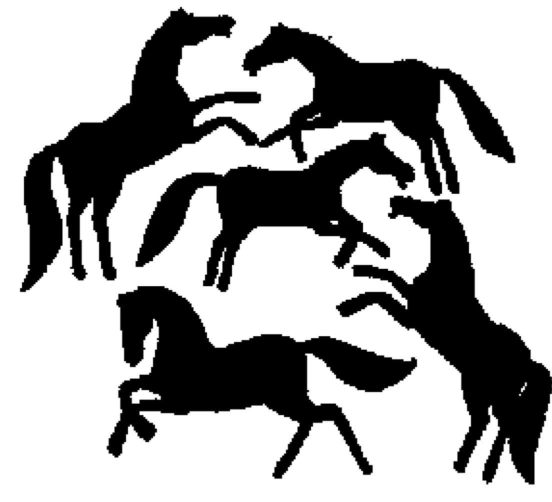
ابن بطوطة

٩

جحافل الغزو التتري

اعداد : راجي عنايت

رسوم : بهجت عثمان



ما وراءَ نَهرِ جَيْحُون

غادرَ ابنُ بَطوطةَ مدينةَ خُوارِزْم، مُتّجِهاً إلى مَدينةِ (بُخارَى)، مَحطّتِه التّاليةِ في طريقِهِ إلى بلادِ الهِند. وكان عليه أنْ يَقطعَ الصّحراءَ الوَاسعةَ التي تَتواصلُ على امتدادِ البَصَر، فوقَ ظَهرِ الجَملِ الذي كان قد استأجَرَه، وداخلَ الهَودجِ الكَبيرِ على ظهرِ الجَملِ، والذي يَضمُّه مع رفيقِ سفرِه وزميلِ رحلتِه الشيخِ عفيفِ الدّينِ التّوزري. جلسَ ابنُ بطوطةَ مع التوزري دَاخلَ الهودجِ يَهتزّان مع حَرَكةِ الجملِ الرّتيبة، ويَحْسُبَان ما مضَى عَليهما، وما بقيَ لَهما من أيامٍ في هذه الرِحلةِ التي يَقطعُها الجملُ في ثَمانيةَ عَشرَ يوماً. يَتذكّران ما مرَّ بِهما من أحداث، خلالَ رحلاتِهما الطّويلة، ويَتطلّعانِ إلى رؤيةِ البلادِ الجَديدةِ التي يُزْمِعان زيارتَها.

توقّفَ الركبُ لأولِ مرّةٍ بعدَ أَربعةِ أيامٍ عندَما وَصَلوا إلى مَدينةِ (الكات). ويصفُ ابنُ بطوطةَ هذه المدينةَ فيقُول إنّها مدينةٌ صغيرةٌ جَميلة. حطَّ الرحالَ خارجَها إلى جانبِ بركةِ ماء، قد جَمَدَ ماؤُها من

شدّةِ البَرْد. راحَ ابنُ بطوطَة ينظرُ مُستمتعاً إلى جموعِ الصِّبيانِ الذين يَلْعبون فوقَ سَطحِ البِركةِ المتجمِّدةِ، ويَتزلَّقون عَليها. بمجرّدِ أنْ شاعَ خبرُ وصولِهم. أقبلَ قاضِي المدينةِ ويسمَّى صَدرَ الشَّريعةِ يُحيِّيهم ويرحِّبُ بِهم، وكان ابنُ بطوطَة قد التقى بِه من قبلُ في دَارِ قاضِي خُوارِزْم. عَرَضَ القاضِي على ابنِ بطوطةَ أن يَمْضِيَا للقاءِ أميرِ المَدينة، فقال أحدُ الشّيوخِ الذين كانوا قد أتَوْا بصُحبةِ القَاضِي، وكان يُدعى الشيخَ مَحمودَ الخيوقي: القادمُ يَنبغِي له أنْ يُزَار، وانْ كانت لَدينا هِمّةٌ نَذهبُ إلى أميرِ المَدينةِ ونأتِي بِه.

وقد كان... فَحَضَر أميرُ المدينةِ بعدَ سَاعة، وَسْطَ جَمْعٍ مِن أصحابِه وخَدَمِه، وعندَما علمَ أنّ ابنَ بطوطَة وصحبَه يُريدون التعجيلَ بمواصلةِ السّفر، ألحّ عَليهم بالبَقاء، على الأقلّ حتَّى يُقيمَ لهم وَليمةً يَدعو لها كُبَراءَ المَدينة. قَبِلَ ابنُ بطوطَة الدّعوة وتلقّى هَدايا الأمير، ثم واصَلَ الركبُ مَسيرتَه بعدَ تَوديعِ الأمير.

أمضى الركبُ ستّةَ أيامٍ في صَحراءَ لَيس بها ماءٌ أو زَرْع، حتّى وَصَلَ إلى بَلدةِ (وبكنه)، التي تبعدُ يوماً واحداً عن بُخارَى. أمّا الرحلةُ مِن وبكنه إلى بُخارَى، فقد كانت مُريحة، عَبْرَ بَساتينَ مُتصلةٍ وانهارٍ وأشجارٍ ومَساكِن. كان ابنُ بطوطةَ في شَوقٍ لرؤيةِ بُخارَى، عاصمةِ ما وراءَ نَهرِ جَيْحون، والمدينةِ التي يَنتسِبُ إليها إمامُ المُحدِّثين أبو عبدِ اللهِ البُخارِي.

تألّم ابنُ بطوطةَ عندَما وَصَلَ إلى بُخارى، فوجدَها خَرِبَة.. مَدارسُها مُهدَّمة، ومساجدُها مَهجورة، بعدَ أنْ مرّت عليها جحافلُ التّترِ

الغَازِية، التي كانت تكتسحُ مَظاهرَ العُمرانِ ومعالمَ الحَضارةِ في طريقِها. نَزَلَ ابنُ بطوطةَ في زَاويةٍ بمكانٍ يُعرفُ باسِمِ (فَتْح أباد). وقد استضافَه شيخُ الزّاويةِ في دَارِه، وجَمَعَ له أهلَ المدينةِ في احتفالٍ كَبير، بُدىءَ بِتِلاوةِ القرآنِ الكريمِ بأعذبِ الأَصْوات، ثم قامَ الوَاعظُ فألقَى مَوعظتَه، وبدأَ بعدَ ذلك الغناءُ الجميلُ باللّغةِ التُّركيةِ والفَارِسيّة. وقد استراحتْ نفسُ ابنِ بطوطَة بعضَ الشّيءِ في نهاية ذلِك الاحتفال، وقد نَسيَ إلى حدٍّ ما آلامَه لِمَا جَرَى لمدينةِ بُخارَى.

كان أولَ ما فعلَه في صَباحِ اليومِ التّالي، أن تَوجَّه لزيارةِ قَبْرِ الإمامِ العالِمَ البُخارِي، صاحبِ كتابِ صَحيحِ البُخارِي المَعروف، وقد لَفَتَ نَظرَ ابنِ بطوطةَ ما قَرأَه على قَبرِ الشّيخِ الأمام، وأعجبَه مَدَى تَقديرِ أهلِ تلك البلادِ لعلمِ شُيوخِهم. فقد قَرأَ على قَبرِ البُخارِي، «هذا قَبرُ مُحمدِ بنِ اسماعيلَ البُخاري، وقد صَنَّفَ منَ الكتبِ كذا وكذا..». ويقولُ ابنُ بطوطَة انَّ هذه هي العادةُ المتَّبعةُ في تِلك البِلاَد، أنْ يُكتَب على كَلِّ قبرٍ أسماءُ الكُتبِ والمؤلّفاتِ والمُصنَّفاتِ التي أَنجزَها المُتوفَّى في حياتِه.

عندَما تنتهِي زيارةُ ابنِ بطوطَة لمدينةِ بُخارَى، يواصلُ ارتحالَه حتَّى يَصِلَ إلى مدينةٍ صغيرةٍ تسمَّى (نخشب)، ثم يَتحرَّكُ الرَّكبُ منها بعدَ ذَلك قاصداً مُعَسكَرَ السّلطانِ علاءِ الدينِ طرمشيرين. عندَ وُصولِهم إلى المُعَسْكر، كانَ السلطانُ غائباً في رِحلةِ صَيْد، فالتقَى ابنُ بطوطَة بنائبِه الأميرِ تقبغا، الّذي رحَّبَ بِه وأفردَ له خَيْمةً خاصّة.

ويتحدّثُ ابنُ بطوطةَ عن السُّلطانِ فيقول «.. وهو السّلطانُ

علاءُ الدِّين طرمشيرين ، وهو عظيمُ المِقدارِ كثيرُ الجُيوشِ والعَساكر ، ضخمُ المَملكةِ شديدُ القُوّة ، عادلُ الحُكْم . وبلادُه مُتوَسِّطةٌ بينَ أربعةٍ مِن ملوكِ الدّنيا الكِبار . وهم مَلِكُ الصّين ، وملكُ الهند ، وملكُ العِراق ، والملكُ أوزبك ، وكلُّهم يُهادُونه ويُعَظِّمونَه ويُكْرِمُونه . . » .

يقيمُ ابنُ بطوطةَ في المُعَسكرِ الذي يُطْلقون عليه « الأردو » في انتظارِ وُصولِ السّلطان . وذاتَ صَباح ، ذهبَ إلى المسجدِ ليصلِّيَ الصبحَ كَعادتِه ، وبعدَ انتهاءِ الصلاةِ سَمِعَ منَ البعضِ أنّ السلطانَ بالمَسْجد . فأخذَ يَتطلّعُ حولَه ، حتّى أشارَ بعضُهم إلى حيثُ كانَ السّلطانُ الذي لم يكنْ قد انتهى من صلاتِه بَعد ، وكان يَرتدي رداءً أخضر وعلى رأسِه عِمامةٌ خَضْراء . عندَما انتَهى السّلطانُ مِن صَلاتِه ، توجَّهَ ابنُ بَطّوطةَ ناحيةَ الفَقيهِ مَولاَنا حُسامِ الدِّين الياغي الذي كانَ قد تَعرَّفَ عليه . فقامَ الفَقيهُ بإجراءِ التّعارفِ بين ابنِ بطوطةَ والسُّلْطان . وقال السلطانُ بالتُّركيةِ ما مَعناه : في عافيةٍ أَنت ، مُبارَكٌ قُدومُك . .

ثم انصرفَ السّلطانُ مِن الجامعِ سائراً على قَدَميه ، وكانَ الناسُ يَتقدّمُون مِنه ، يَعْرِضون عليه شكَاواهم ، فيقفُ مع كلِّ واحدٍ مِنهم صَغيراً كان أمْ كبيراً ، ذَكراً أمْ أُنثى ، ويستمعُ إلى الشكايةِ بانتباهٍ ويَحْسِمُ أمرَها . بعدَ قليلٍ بحثَ السلطانُ عن ابنِ بطوطَة ، فلم يجدْه ، فأرسل إليه مَن يستدعيه للمثولِ بَين يَدَيه في خَيمتِه .



فقيرُ الأعاجم.. وسلطانُ التُّرك

يصلُ ابنُ بطوطةَ إلىٰ خَيمةِ السُّلطان، فيجدُ الناسَ قد تَجمَّعوا عن يَمينِها وعن يَسارِها. ويصفُ ابنُ بطوطَة داخلَ الخَيمة فيقول «.. والأُمراءُ مِنهم على الكَراسيّ، وأصحابُهم وقوفٌ على رؤوسِهم وبينَ أيديِهم، وسائرُ الجندِ قد جَلَسوا صُفوفاً، وأمامَ كلٍّ واحدٍ منهم سِلاحُه، وهم أهلُ النَّوْبة: يَقْعُدُون هنالك إلى العصرِ، ويأتِي آخرون فَيقعُدون إلى آخرِ اللّيل. وقد صُنعت هنالك سَقائفُ مِن ثيابِ القُطنِ يَكُونُون بها. ولمّا دَخَلتُ على الملكِ بداخلِ الخرْقةِ (أيْ الخَيمة) وجدتُه جالساً على كرسيٍّ شبهِ المِنبَرِ مَكسوٌّ بالحريرِ المُزَركشِ بالذَّهب، وداخلُ الخرقةِ مُلبَّسٌ بثيابِ الحريرِ المُذهَّب، والتاجُ المرصَّعُ بالجَوهر واليواقيتِ مُعلّقٌ فوقَ رأسِ السّلطان، بينَه وبين رأسِه قَدْرُ ذِرَاع. والأمراءُ الكبارُ على الكراسيّ عن يَمينِه ويَسارِه..».

عندَما دخلَ ابنُ بطوطَة إلى الخَيمة. نَهضَ أربعةٌ مِن حُجّابِ السُّلطان، وَقادُوه إلى حيثُ السّلطان، ووقفَ المُترجمُ بينَ ابنِ بطوطةَ والسُّلطان، يترجمُ لَهما. سألَ السلطانُ عَن مكّةَ والمَدينةِ والقُدسِ والخَليل، وعن دمشقَ ومِصرَ والْمَلكِ النّاصر، وعن العِراقِ ومَلكِها وبلادِ الأَعاجِم. يقول ابنُ بطوطة «.. ثم أَذَّنَ المؤذّنُ بالظُّهرِ، فانصرفْنا وكنّا نَحضُرُ مَعه الصّلوات، وذلك أيامَ البَرْدِ الشّديدِ المُهْلكِ، فكانَ لا يَتركُ صلاةَ الصّبحِ والعِشاءِ في الجَمَاعة، ويقعدُ للذِكْرِ بالتركيةِ بعدَ صَلاةِ الصبحِ إلى طُلوعِ الشّمس، ويأتي إليه كُل مَن في المسجدِ

يُصافحُه ويشدُّ بيدِه على يَدِه، وكذلك يَفْعلون في صلاةِ العَصْر، وكان إذا أتى بهَدايا من زَبيبٍ أو تَمْر، والتمرُ عندَهم عَزيزٌ وهم يَتبرَّكون به، يُعطي مِنها بيدِه كُلَّ مَن بالْمَسْجِد..».

يَقُصُّ ابنُ بطوطةَ تفاصيلَ واقعةٍ تَتصلُ بالسُّلطان، حَضرَها بنفسِه.. فَذَاتَ يَوم، كان ابنُ بطوطَة في المسجدِ لصَلاةِ العَصْر، وكانَ السلطانُ لم يَحضُرْ بَعد. جاءَ أحدُ فِتيانِ السلطانِ بِسَجّادةٍ وضَعَها في مقابلِ المِحراب، حيث اعتادَ السلطانُ أنْ يُصلِّي، وقال للامامِ الفَقيهِ حسامِ الدّين الياغي، إنَّ مولانا يريدُ أنْ تَنتظرَه بالصّلاةِ قليلاً رَيثما يَتوضَّأ. نهضَ الامامُ مُحتجّاً وهو يَقول: هل الصلاةُ للهِ أمْ لطرمشيرين؟. ثم أمرَ المؤذِّنَ بإقامةِ الصّلاة..

وقتَ وصولِ السلطانِ كان المُصلُّون قد انْتَهَوْا من رَكْعَتين، فبقي السلطانُ عندَ مدخلِ المَسجدِ، بالقُربِ منَ المكانِ الذي يَترُكُ فيه المُصلُّون نِعالَهم، وأدّى الصَّلاة. عندَما انتهتِ الصَّلاة، تَوجَّه السلطانُ إلى الامامِ الياغي ليصافحَه وهو يَضْحك. وجَلَسَ في مواجهةِ المِحرابِ والشيخُ الإمامُ يَجلسُ بينَه وبين ابنِ بطّوطة، فقال السلطانُ مُوجّهاً الحديثَ لابنِ بطّوطة: إذا مَشَيت إلى بلادِك فحدّثْ أنّ فقيراً من فُقراءِ الأعاجمِ يَفعلُ هكذا مع سُلطانِ التُّرك!..

وقد أبدَى ابنُ بطوطةَ إعجابَه الشّديدَ بالإمام حُسامِ الدِّينِ الياغي. يقولُ إنّ ذلك الشيخَ كان يَعِظُ الناسَ كُلَّ يومِ جُمعةٍ في حُضورِ السُّلطان، فيأمرُ السلطانَ بالْمَعْروف، وينهاهُ عن المُنكرِ والظُّلم، ويُغلظُ عَليه الْقَول، والسُّلطانُ يُنصِتُ لكلامِه ويَبكي... وكان الامامْ

الياغي لا يقبلُ منَ السلطانِ مِنحةً أو هديّة، كما لم يكنْ يأكلُ مِن طعامِه، أو يَلبَسُ من ثيابِه. ويصفُ ابنُ بطوطَة الملابسَ التي كان الامامُ اليَاغي يَرتديها، فيقولُ «كان الشيخُ مِن عِبادِ اللهِ الصّالحين. وكنت كثيراً ما أرَى عليه قِباءَ قُطنٍ مُبطَّناً بالقُطنِ مَحشوًّا بِه، وقد بَليَ وتمزَّق، وعلى رأسِه قَلَنسُوةُ لَبَدٍ يُساوي مثلُها قِيراطاً، ولا عِمامة عليه. فقلت له في بعضِ الأيام: يا سيّدي ما هذا القِباءُ الذي أنت لابسُه، إنّه ليس بجيِّد!.. فقال لي: يا ولدي ليس هذا القباءُ لي، وإنّما هو لابْنَتي. فَرَغبتُ أنْ يأخذَ بعضَ ثِيابي، فقال لي: عاهدت اللهَ منذ خمسينَ سنةً ألاَّ أقبلَ منْ أحدٍ شيئاً، ولو كنت أقبلُ مِن أحدٍ لَقبلتُ مِنك..».

أمضَى ابنُ بطوطةَ في بُخارَى أربعةً وخمسين يوماً، وعندَما انتوَى الرَّحيل، توجَّه إلى الناحيةِ التي يُمارِسُ فيها السلطانُ رِياضةَ الصَّيد، حيث التقَى به مُودِّعاً، وأهداهُ السلطانُ الكثيرَ منَ الهدايا، ويصفُ ابنُ بطوطةَ هذا الوَدَاعَ قائلاً «وكان اليومُ شديدَ البردِ جدّاً، فواللهِ ما قَدِرْت أنّ انطقَ بكلمةٍ لِشدّةِ البَرْد، فَفَهِمَ ذلك وَضَحِك، وأعطاني يَدَه، وانْصَرَفْت».

يتحدّثُ ابنُ بطوطةَ عمَّا جَرَى لذلك السلطانِ بعدَ سَنتين، فيقول «بَلَغَنَا الخبرُ أنّ الملأَ مِن قومِه وأمرائِه، اجتمعُوا بأقصَى البلادِ المجاورةِ للصِّين، وهناك مُعظمُ عساكرِه، وبايَعُوا ابنَ عمٍّ له اسمُه بوزن أغلي.. وكان مُسْلِماً إلاّ أنّه كان فاسدَ الدّينِ سيّئَ السِّيرة. وسببُ بَيْعتِهم له وخَلْعِهم لطرمشيرين، انّ طرمشيرين خالفَ أحكامَ جَدِّهم تنكيزَ اللّعين الذي خرَّبَ بلادَ الإسْلاَم..».

جَنْكيزخَان.. سيّدُ الحُكّام

فَمَنْ هو تَنكيزُ اللّعينُ هذا الذي يَتحدَّثُ عنه ابنُ بَطُّوطة؟..

تَنْكيز، أو تَنكيزْخان كما يَذكرُه ابنُ بَطوطَة في موضعٍ آخر، هو الغَازِي التَّتري الشهيرُ جَنكيزْخَان. ولا نَدرِي مِن أين جاءَ ابنُ بطوطة بمعلوماتِه عن أصلِ جَنكيزْخَان، فهو يقول «كان تنكيزخان حدّاداً بأرضِ الخطا، وكان له كَرَمُ نفسٍ وقوّةٌ وبَسْطَةٌ في الجِسْم، وكان يَجمعُ الناسَ ويُطعمُهم، ثم صارَت له جَمَاعة، فَقدّموه على أنفسِهم وغَلَبَ على بلدِه، وقَويَ واشتدَّتْ شَوكَتُه واستفحلَ أمرُه فَغَلَبَ عَلى مَلِكِ الخطا، ثم عَلى مَلِكِ الصِّين...».

وتقولُ المراجعُ التاريخيةُ إن جنكيزخان وُلدَ في عام ١١٦٢م (٥٥٨هـ)، في قِفَارِ مَنْغُوليا، ورغمَ أنّه كان ابناً لزعيمٍ مِن عشائرِ المُلوك، فإنّ أحداً ما كانَ ليخطُرَ ببالِه وقتئذ أنّه سَيَغْدُو يوماً ما مِن أعظمِ الغُزاةِ الفَاتِحين في العالَم. ولقد ظَلّت آسيا وأوروبا في ذلك الوقتِ مُتحرِّرتين من غَزَواتِ المَغُولِ أعواماً كثيرة. ورغمَ أنَّ أُولئك القومَ كانوا كالعَهدِ بِهم دائماً، غِلاظاً يُلْقُون الرّعبَ في القُلوب، إلاّ أنهم كانوا مُنْقَسِمين إلى عددٍ منَ العَشائرِ تتقاتلُ فِيما بَينها.

كان اسمُهُ الأصليُّ تيموجين، وقد خَلَفَ أباه وهو في الثالثةَ عَشْرة، واستطاعَ بمساعدةِ أمّه، مقاتلةَ وهزيمةَ قبائلِ المَغُولِ من جيرانِه. وفي عام ١٢٠٦م (٦٠٣هـ) نُوديَ به بَين شَعبِ المَغُولِ سيداً للحُكّام (وهي تَرجمةُ جَنْكيزْخَان).

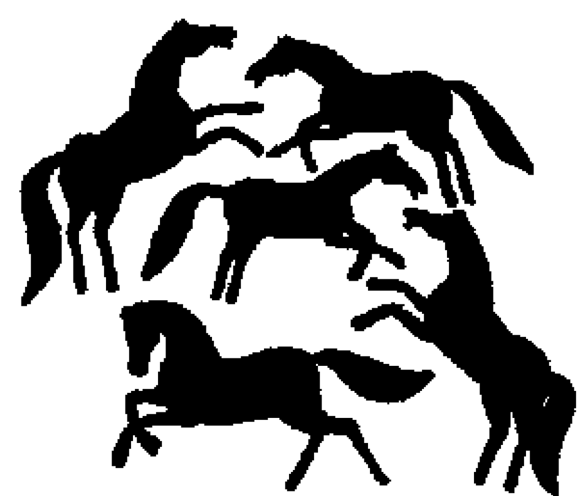
بعدَ خمسةِ أعوامٍ خَرَجَ للقيامِ بحملتِهِ الأُولى لقهرِ الصِّين بقوّةٍ تتألّفُ من مائتيْ ألفِ فارس. كان فُرسانُ جنكيزخان يَتسلَّحُون بالسُّيوفِ المُقوَّسة، والأقواسِ الصَّغيرةِ القويّة، يَتقدّمُون بسرعةٍ في زحفِهم، لا يَكادون يُفارِقون ظُهورَ خُيولِهم، وقد أحسنَ جنكيزخان تنظيمَهم وقيادتَهم، فاستطاعَ أنْ يَقتحمَ بهم سُورَ الصينِ العَظيمِ، ويَقْهَرَ معظمَ الجُزءِ الشماليّ لتلك البِلاد.

ثم استدارَ بعدَ ذلك إلى الغَرب، فاجتاحَ بلادَ التّركِ في آسيا الصُّغرى، والامارات المسكوفيةَ في رُوسيا. لقد بَدَا كما لو كان لا أحدَ لَديه القوّةُ الكافيةُ لمقاومةِ هؤلاء الرجالِ القِصَارِ الأشدّاء، الذين كانوا يُقاتِلون كالأبالِسة. والذين لمْ يكونوا يَعرفون قَطُّ مَعنى التّعب، ولا يُظْهِرون أدْنَى رَحْمة. وقد بلغَ الفَزَعُ منْ اسمِهم حَدّاً جعَلَ لهم قوّةَ السِّحرِ والمغناطيسيةِ على أعدائِهم. حتّى كانت كلُّ إرادةٍ عندَهم للمقاومةِ تَنْهار. وكانوا يَنْتظِرون الموتَ طائِعين مُسْتسْلِمين كالأَغْنامِ في المَذَابح.

وعندَما تُوفيَ جَنكيزخان عام ١٢٢٧م (٦٢٥هـ) خَلَفَه ابنُه أوجتاى خان، فواصلَ زحفَه حتّى دَانتْ له آسيا ومعظمُ أوروبا. وخَلَفَه قوبلاي خان، أحدُ أحفادِ جَنكيزْخان عام ١٢٥٩م (٦٥٨هـ)، الذي مالَ إلى الاستقرار، وأنشأَ بَلاطَه الخاصَّ في الصّين، فقد كان شديدَ الشّغَفِ بالحَضارةِ الصّينية. وقد عَمِلَ جاهداً لكي يضعَ حدّاً للعَداءِ بينَ الصّينيين والتّتر.. وهو الّذي قَدِمَ إلى بلاطِه المستكشفُ الايطاليُّ الشّهيرُ ماركو بولو، فلقيَ الكثيرَ مِن كرمِ الضيافةِ لِعدّةِ سِنين.

وكان آخرَ حُكّامِ التتار العظامِ تَيْمورْلَنْك الذي عادَ إلى سِيرةِ أجدادِهِ من الغَزْوِ والفَتْح، وامتدّتْ فُتوحاتُه إلى الهندِ على رأسِ جيشٍ عظيمٍ، حيث سَلَبَ الكثيرَ مِنْ كنوزِ تِلك البِلاد. وكانت الصينُ قد خَرَجت عن حُكمِ التّتر، فقرّرَ وهو يكادُ يَصلُ إلى السّبعين من عمرِه أن يَغزوَ الصّين، لكنَّه ما لبثَ أنْ توفيَ وهو في طريقِه إليها عامَ ١٤٠٥م (٨٠٨هـ).

ويحكي ابنُ بطوطةَ قِصّةَ أوّلِ صِدامٍ بين جَنكيزْخان والدولةِ الإسْلامية، أو بالتحديدِ بَينه وبين جَلالِ الدِّين سِنْجِر بن خُوارِزْم شاه، مَلكِ خُوارِزْم وخُرَاسان وما وراءَ النّهر، الذي كانت له قوّةٌ عظيمةٌ جعَلت جَنكيزخان يَخْشاه ولا يتعرّضُ له. ويقولُ ابنُ بطوطةَ «.. فاتّفقَ أنْ بعثَ تَنكيزْ تُجّاراً بأمتعةِ الصّين والخطا منَ الثيابِ الحَريرية وسِواها إلى بلدةِ اطرار، وهي آخرُ عُمَالةِ جَلالِ الدين. فبعَثَ إليه عاملُه عليها مُعْلِماً بذلك، واستأذنَه فيما يفعلَ في أمرِهم. فكتبَ إليه يأمرُه بأنْ يأخذَ أموالَهم، ويُمثِّل بِهم، ويُقَطِّعَ أعضاءَهم، ويَرُدَّهم إلى بلادِهم. فلمّا فَعَلَ ذلك، تجهّزَ تنكيزْ بنفسِه في عساكرَ لا تُحصَى كثرةً لغزوِ بلادِ الإسْلام.. فلمّا وَقَعَ القتالُ هَزَمَهم تَنكيز، ودخلَ مدينةَ أطرار بالسَّيف، فقتلَ الرجالَ وسَبَى العَذَارَى. وأتَى جلالُ الدين بنفسِه لمحاربتِه، فكانت بينَهم وقائعُ لا يُعْلمُ في الإسلامِ مثلُها. وآلَ الأمرُ إلى تَملّكِ تنكيز ما وراءَ النّهر، وخرَّب بُخارَى وسَمَرْقَنْدَ وَترْمِذ».


يا ليت أمّي لَمْ تَلِدْني!!.

في مقابلِ هذه الرّوايةِ التي يَسْرِدُها ابنُ بطوطة، دَعْنا نستمعْ إلى رِوايةِ مُؤرّخٍ آخرَ مِن المؤرِّخين العرب، عاصرَ الغَزْوَ التّتري، وهَرَبَ طويلاً مِن وجهِه، وهو العالمُ المؤرخُ ابنُ الأثيرِ الجزري. عاصرَ ابنُ الأثيرِ الغزوَ التّتريَّ منذ بدايتِه عام ١٢١٩م (٦١٦هـ)، حتّى توفّيَ عامَ ١٢٣٢م (٦٣٠هـ).

يقول ابنُ الأثيرِ مُعبّراً عَن شَديدِ حُزنه للكارثةِ التي حاقَت بالأمةِ الإسْلامية «لَقد بقيتُ عدّةَ سِنينَ مُعْرِضاً عن ذِكرِ هذه الحادثةِ استعظاماً لَها، كارِهاً لذكرِها، فأنا أقدّمُ رِجْلاً وأؤخّرُ أُخرى، فَمَنِ الذي يَسهُلُ عليه أنْ يكتبَ نَعْيَ الاسلامِ والمُسْلمين، ومَن الذي يَهُون عليه ذكرُ ذلك؟، فيا لَيت أمِّي لمْ تَلِدْني، ويا لَيتني مُتُّ قبلَ هذا وكنت نَسْياً مَنْسِيًّا!.»، إلى أن يقول «.. وهؤلاء لم يُبْقُوا على أحَد، بل قَتلوا النساءَ والرِجالَ والأطْفال، وشَقُّوا بُطونَ الحَوامِل، وقَتَلوا الأجنّةِ، فإنّا للهِ وإنّا إليه رَاجِعونِ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلاّ باللهِ العليّ العَظيم، لهذه الحادثةِ التي استطارَ شَرَرُها، وعمَّ ضَرَرُها وسارَت في البلادِ كالسَّحَابِ استَدْبَرَتْه الرِّيح..».

ويحمّلُ ابنُ الأثيرِ السلطانَ علاءَ الدِّين خُوارِزْم شَاه (وهو والدُ السّلطانِ جَلالِ الدِين الذي أشارَ إليه ابنَ بطّوطة)، يحمّلُه مسؤوليةَ نَجاحِ زَحْفِ التترِ عندَ أوّلِ خُروجِهم مِن بلادِهم، لسوءِ سياستِه، وطَمعِه في ممالِك المُلوكِ المُسْلمين المُجاورِين له، ممّا جَعلَه يستولي





عليها، لذا فقدْ أضمَروا له العَدَاء. ولمَّا زَحَفَ التترُ على البِلاد، لم يَتعاونْ معه هؤلاء الملوكُ في صدِّهم. لذلك لمْ يستطعْ السّلطانُ علاءُ الدّينِ الصّمودَ أمامَ التّتر، فأخذَ يَفرُّ مِنهم من بلدٍ إلى أُخرَى غَربا، حتَّى احتمَى بقلعةٍ له في بحرِ طَبَرِسْتان، حيث تُوفّيَ بها.

بعدَ وفاتِه، خَلَفَه ابنُه جلالُ الدِّين منكبرتي، ولم يستطعْ بدورِه الصمودَ في وجهِ التّتر، إنّما فرَّ مِنهم إلى الهِند، وظلَّ بها حتّى سنة ١٢٢٥م (٦٢٢هـ)، ولمّا عادَ إلى بلادِه، عاودَ سياسةَ والِده في معاداةِ الأُمراء المُجاورِين له، بالاستيلاءِ عَلى اماراتِهم، حتَّى إنّه اعتدَى على أملاكِ الخَليفة، فَجلَبَ على نَفسِه عَدَوائهم، فَتخَلّوْا عنه.

كما يَحْملُ ابنُ الأثيرِ علَى السّلطانِ أوزبك مَلكِ أذْرَبِيجان، فيقول «وكان أوزبك أميراً مُتخلِّفاً، لا يزالُ مُنْهَمِكاً في الخمرِ ليلاً ونَهاراً، يبقَى الشهرَ والشَّهْرين لا يَظْهَر، وإذا سمعَ هَيْعةً طَارَ مُجْفِلاً منها، وله جميعُ أذْرَبيجان وأران، وهو أعجزُ خَلْقِ اللهِ عن البلادِ من عدوٍّ يُريدُها ويَقْصِدُها..».

وَينْسِبُ ابنُ الأثيرِ إلى عَلاءِ الدّين، واقعةً شَبيهةً بتلك التي يَنْسِبُها ابنُ بطوطةَ إلى جَلالِ الدينِ ابنِه، فيقولُ ابنُ الأثير إنّ سببَ خُروجِ التَّترِ من بلادِهم، هو قتلُ علاءِ الدين لبعضِ التّجار التّابعين لجنكيزخان عندَما وردُوا بلادَه. بل يقولُ ابنُ الأثيرِ إنّ الخليفةَ العبّاسيّ الناصرَ لدينِ اللهِ هو الذي استدعاهم لمحاربةِ السُّلطان علاءِ الدّين خُوارزم شاه، الذي كان يُثْقِلُ عليه ويطلبُ مِنه الاعترافَ بِه سُلطانا، وأنْ يُخطَبَ له على منابرِ بَغداد. ويؤكّدُ هذا الاتهامَ الذي

يوجّهُه ابنُ الأثيرِ إلى الخليفة العبّاسيّ، تاريخُ ابنِ وَاصِلَ الذي قالَ فيه: وقد بَلَغني أنّ الخيفةَ الإمامَ الناصرَ لدينِ اللهِ كَتَبَ إلى علاءِ الدينِ خُوارزم شاه كتابا، وختَمَه ببيتٍ يهدّدُ فيه وهو:

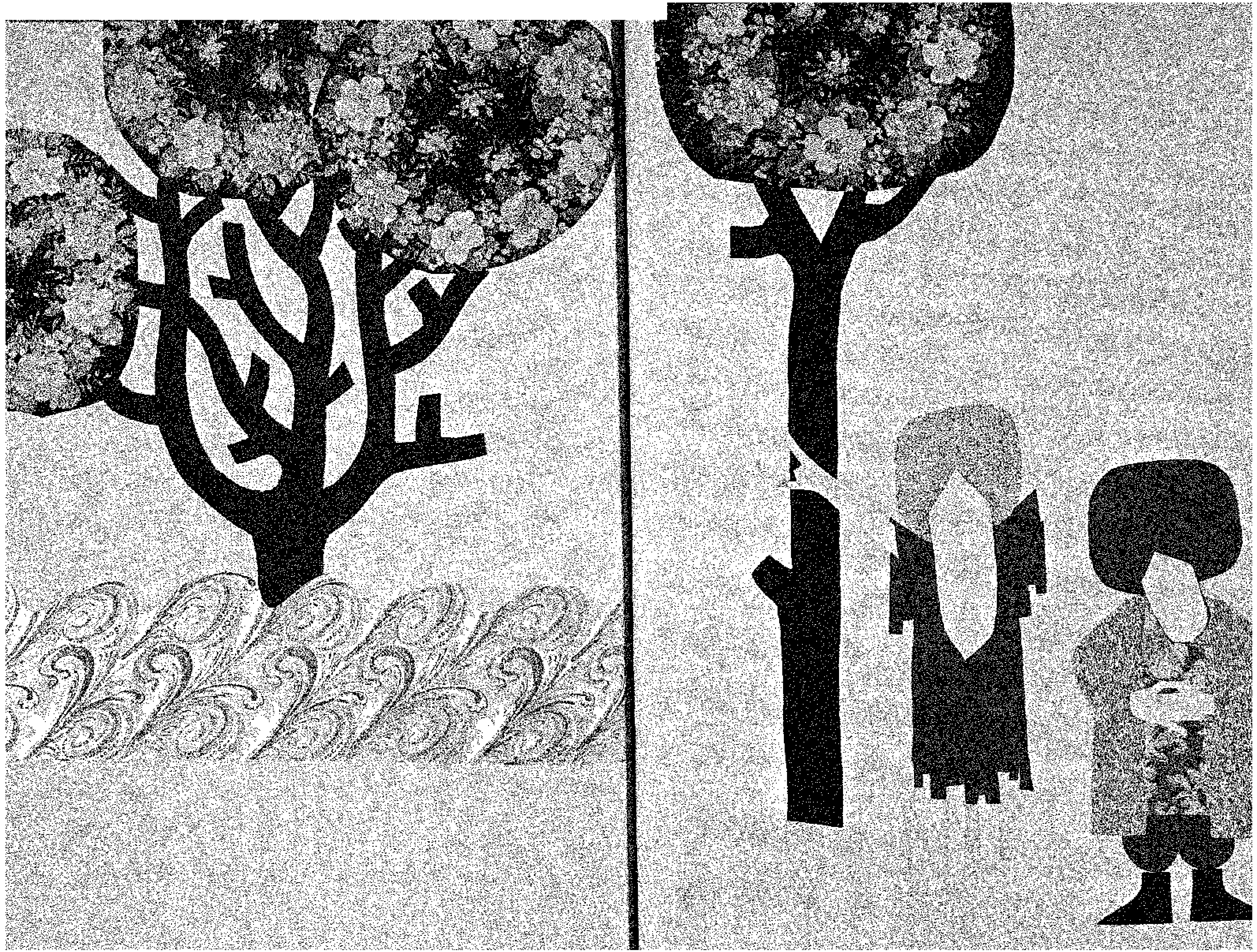
ستعلمُ إنْ حانَتْ منَ الدهرِ لَفتةٌ

عمودُ دَواتِي أو سِنــانُك أَقْومُ

وابنُ واصلَ يُشيرُ هُنا إلى الخلافِ الذي كان بينَ عَلاءِ الدّينِ والخليفة العبّاسي، وإلى قصّةِ الرِسالةِ التي كَتبَها الخليفة العبّاسيُ إلى جَنكيزْخَان يستنجدُ به.

اَلْيَسَاق.. كتابُ جنكيزخان

يواصلُ ابنُ بطوطةَ روايةَ قصّةِ السُّلطان طرمشيرين التّتري، الذي نَزَلَ في ضيافتِه وتلقّى هَداياه، ثم علمَ بعدَ سَنَتين من هذا، أنَ أمراءَ التّترِ اجْتمعُوا وعزلوه، وبايَعُوا ابنَ عمٍّ له يسمَّى بوزن أغلى، لأنّ طرمشيرين خالفَ أحكامَ جدِّهم جنكيزخان، ولْنَدع ابنَ بطوطةَ يَسرِدُ تفاصيلَ ذلك بأُسلوبِه، فيقول «.. وكان تنكيز أَلّفَ كتاباً في أحكامِه، يسمَّى عندَهم اليَسَاق. وعندَهم أنّ مَن خالفَ أحكامَ هذا الكتابِ فَخَلْعُه وَاجب. وَمِنْ جملةِ أحكامِه، أنّهم يَجْتمعون يوماً في السّنة، ويأتِي أولادُ تَنكيز والأمراءُ في أطرافِ البِلاد، ويحضرُ الخَواتينُ وكبارُ الأجْناد. فإذا كان سُلطانُهم قد غَيّرَ شيئاً مِن تلك الأحكام يقومُ إليه كُبراؤهم، فيقولون له: غيّرت كَذا وَغيّرت كذا، وفَعلت كذا، وقد



وَجَبَ خَلعُك. ويأخذون بيدِه ويُقيمونه عن سريرِ المُلْك، ويُقْعدون غيرَه من أبناءِ تَنْكيز.. وكان السلطانُ طرمشيرين قد أبطل حُكمَ هذا اليومِ ومَحَا رَسْمَه.. وأَنكروا عليه أيضاً كونَه أقامَ أربعَ سِنينَ فيما يلِي خُراسان من بلادِه، ولم يَصلْ إلى الجِهةِ التي تُوالِي الصِّين. فلمَّا بايَعوا بوزن أتَى في عسكرٍ عظيمٍ، وخافَ طرمشيرين على نفسِه من أمرائِه ولمْ يأمَنْهم».

يستطردُ ابنُ بطوطةَ في روايةِ ما حَدَثَ لطرمشيرين، فيقولُ إنّه فرَّ برفقةِ خَمسةَ عَشَرَ فارساً قاصداً بلادَ (غَزْنَة) التي تدخلُ في نِطاقِ مُلكِه، يستنجدُ بوالِيها الذي يُدعَى برنطيه، ويصفُه ابنُ بطوطةَ قائلاً «.. وهذا الأمير مُحبٌّ في الإسلامِ والمُسْلمين، وقد عَمَّر في عَمالتِه نحوَ أَربعين زَاوية، فيها الطعامُ للواردِ والصَّادر، وتحتَ يَدِه العَساكرُ العَظيمة. ولمْ أرَ قطّ فيمن رأيتُه من الآدميين بجميعِ بلادِ الدّنيا أعظمَ خِلقةً منه»، مشيراً إلى ضَخَامةِ جسمِ برنطيه.

بَينما كان طرمشيرين يسعَى إلى غَزنة، عَبَرَ نَهرَ جَيحون قاصداً مَدينةَ (بَلْخ)، فَرآه بعضُ الأتراكِ من أصحابِ ينقي ابنِ أخيه كبك. وكان طرمشيرين قد قتلَ أخاه كبك هذا، ففرَّ ابنُه ينقى إلى بَلْخ، واقامَ بها. وهكذا رَكبَ ينقى مع أصحابِه وقَبَضوا على طرمشيرين وسَجنوه. وعندَما وَصلَ بوزن السُّلطان التَّتريّ الذي خَلَفَه، وبايعَه الناس، جاءَ ينقى بطرمشيرين. وتقولُ بعضُ الرّوايات إن بوزن قتلَ طرمشيرين بمكانٍ خارجَ سَمَرْقَنْد، وإنّه دَفَنَه هناك.

لكنَّ ابنَ بطوطةَ يسرِدُ قصّةً أُخرى تفيدُ أنّ طرمشيرين لم يُقتل،

وأنّه نَجَحَ في الفِرارِ من وجهِ بوزن. تقولُ روايةُ ابنِ بطوطةَ إنّ طرمشيرين كان له ابنٌ يُدْعى بشاى أغلى، فرَّ هو وأختُه وزوجُها المدعوُّ فيزور إلى مَلِكِ الهند يَسْتَنْجِدُون به. فعظَّمَهم وأنزلَهم مَنزلةً عاليَة، لِمَا كانَ بَينه وبينَ طرمشيرين من وُدٍّ وعَلاقاتٍ طيّبة. وَيُحكَى أنّه بعدَ ذلك بِزَمن، جاءَ مِن أرضِ السِّندِ رجلٌ أدَّعى أنّه طرمشيرين، فاختلفَ الناسُ في أمرِه. فَسمعَ بذلك وإلى السندِ وابنُ ملكِ الهندِ سرتيز، فأوفدَ بعضَ الأتراكِ الّذين عَرَفوا طرمشيرين مِن قبلُ حتّى يَتحقَّقوا من صدقِ قولِه، فعادُوا به وهم يَقولون إنّه حقًّا طرمشيرين....

احتفَى سرتيز بطرمشيرين، وأقامَ له خَيمةً خارجَ المَدينة، وأكرمَ وِفادتَه، ثم خَرَج لاستقبالِه وأحتفَى به. ثم بَعَثَ إلى والِده مَلكِ الهندِ يُخبرُه بذلك. وكان في خدمةِ ملكِ الهندِ طبيبٌ كَبير، سَبَقَتْ له خدمةُ طرمشيرين، فقال للملك: أَنا أتوجَّهُ إليه وأعرفُ حقيقةَ أمرِه، فإنّي كنت قَد عالجت له دُمَّلاً تحتَ رُكبتِه، وبقيَ أثرُه، وبِه أعرفُه.

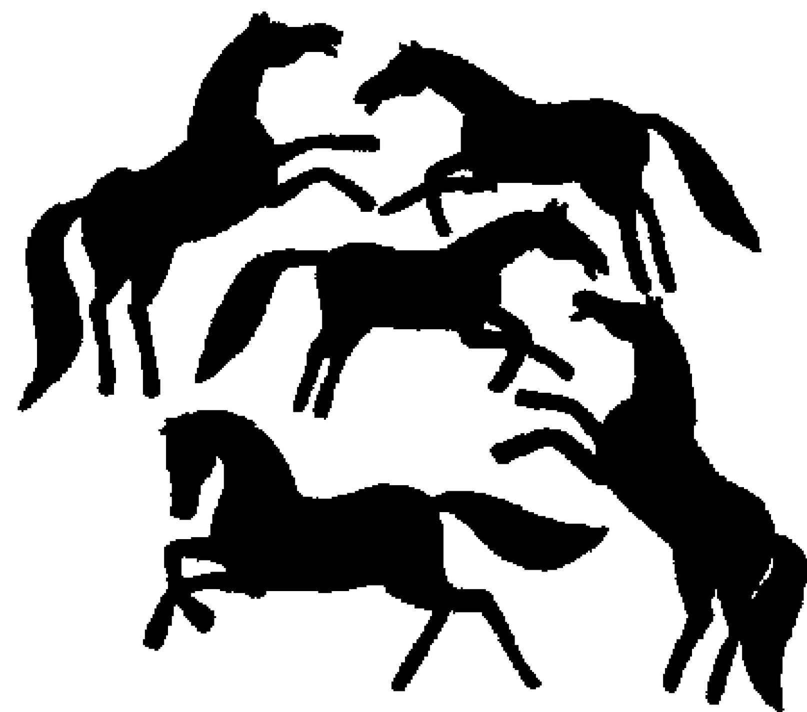
وَصَلَ ذلك الطبيبُ إلى مَجلسِ طرمشيرين، فَفرحَ به، وقرَّبَه منه. لكنّ الطبيبَ راحَ بينَ الحينِ والآخرِ يتحسّسُ ساقَ طرمشيرين. فاستاءَ طرمشيرين من تصرّفِ الرَجل، وكشَفَ عن ساقِه وهو يقولُ غاضباً: تريدُ أنْ تنظُرَ إلى الدُمَّلِ الذي عالَجتَه، ها هو ذا!. وأراه أثرَ الجُرحِ القَديم، فتأكّدَ الطبيبُ مِن صدقِ قولِ السّلطان، وعادَ إلى مَلكِ الهندِ يخبرُه بذلك.

وذاتَ يومٍ دَخَلَ على مَلكِ الهندِ وزيرُه وكبيرُ أمرائِه، وقالا له: يا سيّدَ العالَم، لقد ثَبَت أنَّ الرجلَ هو طرمشيرين، وأنتَ تَعلمُ أنّ بَيننا

مِن قومِه نحوَ أرْبعين ألفاً ، بالاضافةِ إلى وجودِ ابنهِ بشاى وصهرِه فيزور.. إذا اجتمَع شملُ هؤلاء جَميعاً ، أصْبَحوا مصدرَ خطرٍ على مَملكتِنا. أثارَ هذا الكلامُ خوفَ مَلكِ الهند ، وأخذَ يُفكِّرُ في وسيلةٍ يتخلَّصُ بِها مِن طرمشيرين.

وأخيراً وَصلَ ملكُ الهندِ إلى رأي بخصوصِ طرمشيرين ، فأرسلَ يستدعيه ، وعندَما وصلَ أَمرَه أنْ يؤدِّيَ التّحية ، لا كُسلطان سابقٍ وَصَديق ، ولكنْ كأيٍّ فردٍ مِن أفرادِ الرّعيّة. قال الملك : كيف تكذبُ وتقولُ إنّك طرمشيرين؟ إنّنا نَعرفُ جَميعاً أنّه قد قُتلَ على يَدِ بوزن.. واللهِ لَولا بقيةٌ مِن رَحمةٍ لَقتلتك. ثم قال لحاشيتِه : أعْطوه خمسةَ آلافِ دِينار ، واذْهبوا به إلى ابنهِ بشاى وابنتِه ، وقولوا لهما إنّ هذا الكاذبَ يَزعمُ أنَّه والدُكما.

عندَما سَمع ابنُه وبنتُه تِلك القِصَّة ، عَرَفَا حِيلةَ مَلكِ الهندِ وغَرضَه ، وخافا أنْ يَهْلكا بسببِ والدِهما ، فأَنكراه ، ونُفيَ عَن بلادِ الهِندِ والسِّند ، فَساحَ في الأرضِ حتَّى وَصَلَ إلى (شيراز) ، حيث استقبلَه سُلطانُها أبو إسحاق. ويقول ابنُ بطوطَة إنّه في رِحلاتِه التاليةِ زارَ مدينَة شِيراز ، وعَرَفَ أنّ طرمشيرين يقيمُ بها ، فأرادَ أنْ يلتقي به ، لكنّه لَم يتمكّنْ مِن ذلك ، لأنّ طرمشيرين كان يقيمُ في دارٍ لا يَدخُلُ إليها أحدٌ إلاّ بإذنِ السُلطانِ أبِي إسْحاق.



صاحبُ الخَبَر.. في سَمَرْقَند!!.

بعدَ أن يَحكِيَ ابنُ بطوطةِ قِصّةَ السُّلطانِ طرمشيرين، يعودُ إلى سَردِ وَقائعِ رحلتِه، فيقُول إنّه بعدَ أنْ وَدّعَ السُّلطانَ طرمشيرين، سافرَ إلى مَدينةِ (سمرقند)، ويصفُها قائلاً «.. وهي من أكبرِ المُدنِ وأحسنِها وأتمِّها جَمالاً، مَبنيّةٌ على شَاطىءِ وادٍ يُعرفُ بوادِي القَصّارِين، عليه النّواعيرُ تَسقِي البَساتين، وعندَه يَجتمعُ أهلُ البلادِ بعدَ صلاةِ العصرِ للنّزهةِ والتّفرّج، ولَهم عليه مصاطبُ ومجالسُ يَقْعُدون عليها، ودَكاكينُ تباعُ بها الفَاكهةُ وسائرُ المأكولات. وكانت على شَاطئِه قصورٌ عَظيمة، وعِمارةٌ تُنبىءُ عَن علوِّ هِمَمِ أهلِها، فَدُثِرَ أكثرُ ذلك، وكذلك المدينةُ خَرِبَ الكثيرُ مِنها، ولا سُورَ لَها ولا أبوابَ عليها، وفي داخلِها البَساتين. وأهلُ سَمَرْقندَ لهم مكارمُ أخْلاق، ومحبّةٌ للغَريب، وهم خيرٌ مِن أهلِ بُخارَى..».

يَتّجهُ ابنُ بطوطةَ إلى خارجِ سَمرقند ليزورَ قَبرَ قثم بنِ العبّاسِ بنِ عبدِ المطلب، الذي استُشْهِدَ أيامَ فتحِ سَمَرْقند، ولينزلَ بالزاويةِ المُلحقةِ بالقَبْر. ويقول ابنُ بطوطةَ إنّه تعجّبَ لمنظرِ التّتر وهم يأتون لزيارةِ القَبر، ومن خلفِهم قُطعانُ البَقرِ والغنمِ التِي جاءُوا بها لتقديمِها نذوراً للمتوفَّى، بالإضافة إلى ما يُقَدِّمونه مِن مال، يُنفَقُ مِنه على الضّيوف، وعلى مَن يَلُوذُون بالقَبْر.

ويصفُ ابنُ بطوطةَ المدفَنَ فَيقول «.. وعليه قُبّةٌ على أربعِ أرْجل، ومع كلِّ رجلٍ سَارِيتان منَ الرُّخامِ، منها الخُضْرُ والسُّود

والبيضُ والحُمْر، وحيطانُ القُبّةِ بالرّخامِ المُجزّعِ المَنقوشِ بالذّهب، وسقفُها مصنوعٌ بالرّصَاص. وعلى القبرِ خَشَبُ الأبَنُوس المُرصّع، مكسوٌّ الأركانِ بالفِضّة، وفوقَه ثَلاثةُ قَناديلَ من الفضّة، وفَرْشُ القُبّةِ بالصُّوفِ والقُطْن. وفي خارجِها نَهرٌ كبيرٌ يَشُقُّ الزاويةَ التي هُناك، وعلى حَافَتَيْهِ الأشجارُ ودَوالِي العِنبِ واليَاسَمين. وبالزاويةِ مَساكنُ يَسكنُها الوَاردُ والصَّادر..».

وفي سَمَرْقند، عرفَ ابنُ بطوطَة أنّ مَلكَ الهندِ وسلطانَها له في كلِّ بَلدٍ مِن البلادِ التابِعةِ له أو القَريبةِ مِنه رَجلاً يقالُ له «صاحبُ الخَبَر»، يكتبُ له بكلِ ما يَجرِي في ذلك البلدِ منَ الأمور. وكانَ رجالُ مُخابراتِ مَلك الهندِ يَكتُبون له عن كلِّ مَن يتّجهُ إلى مَملكتِه أو الممالِك التابعةِ له. في هذا يقول ابنُ بَطوطة «وإذا أتَى الواردُ كَتَبوا من أيِّ البلادِ وَرَدَ، وكتبُوا اسمَه ونَعْتَه وثِيابَه، وصِحابَه وخيلَه وخُدّامَه، وهيئتَه في الجلوسِ والمأكل، وجميعَ شؤونِه وتَصرّفاتِه، وما يُظهِرُ منه من فضيلةٍ أو ضدِّها، فلا يصلُ الواردُ إلى المَلِك، إلاّ وهو عارفٌ جميعَ حالِه، فتكونُ كرامتُه على مقدارِ ما يَسْتحقُّه..».

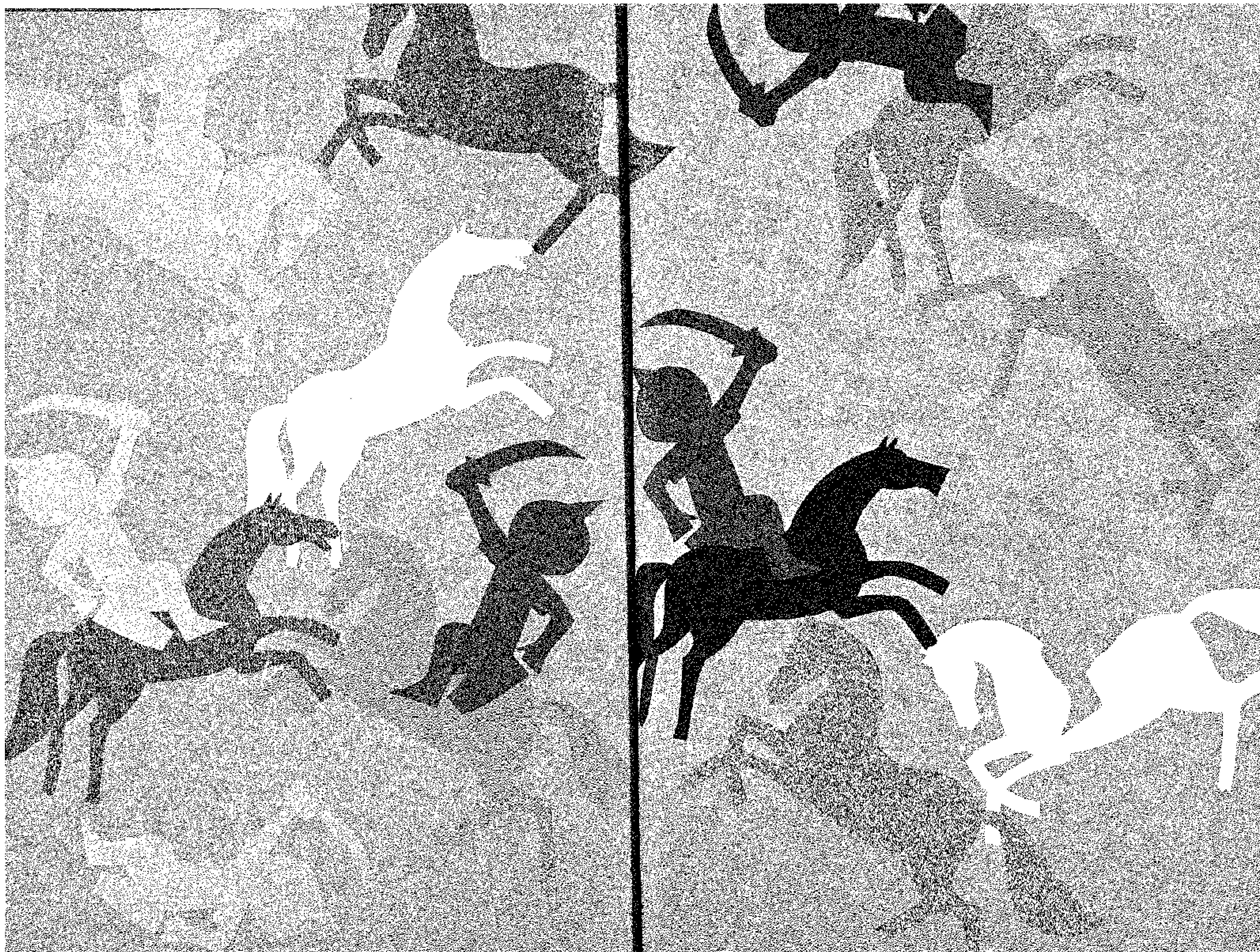
من سَمَرْقند، يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةٍ تُدعى (نسف)، ومِنها إلى مَدينةِ (تِرْمذ)، وهي مدينةٌ كَبيرة، بِها المباني الجَميلة، والأسواقُ الواسعةُ، تَخترقُها الأنْهار، وتَشيعُ فيها البَساتين، التي تكثُرُ فيها دَوالِي العِنبِ وأشجارُ السَّفرجلِ الّذي يتميّزُ بالجُودةِ والحَلاَوة. وخَيراتُ هذه المدينةِ كَثيرة، واللحومُ بِها مُتوافِرة.

وتَلْفِتُ نظرَ ابنِ بطوطةَ في هذه المدينةِ عادةٌ غريبةٌ من عادَاتِ

أهلِها، وهو أنّهم يَغْسِلون رؤوسَهم باللّبَن، مُخالِفين بذلك عادةَ أهلِ ذلك الزّمان، الذين كانوا يَغْسِلُون رؤوسَهم بنوعٍ من الطينِ المُصفّى والمُعطَّر، أو الطُّفال، وفي هذا يقولُ ابنُ بَطَوطة «وأهلُها يَغْسِلُون رؤوسَهم في الحمَّامِ باللّبن عِوَضاً عن الطُّفال، ويكونُ عندَ كلِّ صاحبِ حَمّامٍ أوعيةٌ كبارٌ مملوءةٌ لَبَناً. فاذا دَخَلَ الرجلُ الحَمّام، أخذَ مِنها في إناءٍ صغيرٍ فَغَسَلَ رأسَه، وهو يرطّبُ الشَّعَرَ ويَصْقِلُه..».

ثم يُجري ابنُ بطوطةَ مقارنةً بينَ هذه العادةِ والعَاداتِ المُناظِرةِ لها في بلادِ الهِند، كما رآهَا فيما بَعد، فيقول «.. وأهلُ الهندِ يَجْعَلون في رؤوسِهم زَيتَ السِّمْسِم، ويَغْسِلُون الشَّعرَ بعدَه بالطُّفالِ، فَيُنعِّمُ الجِسْم، ويَصْقَلُ الشّعرَ ويُطيلُه، وبذلك طَالتْ لِحى أهلِ الهندِ ومَن سَكَنَ مَعهم..».

ويتحدّثُ بعدَ ذلك عن تاريخِ مَدينةِ تِرْمِذ، فيقول إنّ المدينةَ القديمةَ كانت مُقامةً على شاطئِ نهرِ جَيْحونَ مُباشرةً، ولكنْ بعدَ هُجومِ جَحافِلِ جَنكيزْخان وتخريبِهم الْمدينة، قامَ أهلُها ببناءِ مدينةٍ جديدةٍ تَبعُدُ عَن النهرِ حَوالَي مِيلَين. وقد نَزَلَ ابنُ بطوطةَ في تِرْمذَ ضَيفاً على زاويةِ واحدٍ من كِبارِ مشائخ المدينةِ وكُرمائِها، يُدعى الشيخَ عزيزان. وكان ابنُ بطوطةَ وهو في طريقهِ إلى تِرمذ قد التقَى بأميرِها عَلاءِ الدين خَدَواند زاده قبلَ أن يصلَ إلى المَدينة، فكتبَ إلى رجالِه أنْ يَستضيفُوا ابنَ بطّوطة، ولهذا كان الطّعامُ يقدَّمُ إليه وإلى صَحْبِهِ كلَّ يومٍ في الزاويةِ التي كان يُقيمُ بِها.



ثوبُ زوجةِ الأمير

يواصلُ ابنُ بطوطةَ رِحلتَه ، فيجتازُ نَهرَ جَيحون ، مُتّجهاً إلى بلادِ خُرَاسان ، وبعدَ أن يَعبُرَ وادِي النّهر ، يَمضِي في رحلةٍ مُدّتُها يوم ونصف في صحراءَ واسعةٍ ليس بِها أثرٌ لِلْحيَاة ، حتّى يصلَ إلى مدينةِ (بَلْخ) . قبلَ أنْ يصلَ ابنُ بطوطةَ إلى المَدينة ، وجدَها عن بُعدٍ مدينةً ضخمةً فَسيحةً عامرةً بالْمَباني الْمُتْقَنَة ، والمساجدِ الكَبيرة . لكنّه ما إنْ دَخَلَ المدينة ، حتّى اكتشفَ أنّها خاويةٌ على عُروشِها ، غيرَ عامِرة ! . فيسألُ في ذلك مَن بقيَ مَنْ أهلِها .

قالَ أهلُ بَلْخ إنّها كانت مدينةً عامِرة ، حتّى دَخَلَها جنكيزخان اللّعين ، فَخرَّبها وشتَّت أهلَها .. وَأرَوْهُ جَانباً من مسجدِها ، وقد شَمِلَ الخَرابُ نحوَ ثُلثِ المَسجد ، رغم أنَّ ما بقيَ منه يكشفُ عن جَمالِ عِمارتِه وضَخامتِه . وتساءَلَ ابنُ بطوطةَ عن سرِّ خَرابِ ذلك الجانبِ من المسجدِ بالذَّات ، فقالوا إنّ جنكيزخان سَمعَ مِن بعضِ أهل المدينة ، أنّ تحتَ عَمودٍ مِن أعمدةِ المسجدِ يوجدُ كنزٌ ثَمِين ، فأمرَ بِهدْمِ ذلك الجانبِ للبحثِ عن الكَنْز.

يستفسرُ ابنُ بطوطةَ عن أصلِ قِصّة الكَنْز ، فيقولُ له واحدٌ منَ العالِمين بتاريخِ هذه المَدينة ، إنَّ هذا المسجدَ بَنتْهُ زوجةُ أميرِ بَلْخَ الذي كان مُعيَّناً مِن قِبَلِ بَنيِ العبّاس ، ويسمَّى دَاودَ بنَ عليّ . ويقالُ إنَ الخليفةَ غَضِبَ ذاتَ يومٍ على أهلِ بَلْخَ لعملٍ قامُوا به . أو لتصرّفٍ أتَوْهُ لمْ يُعْجبِ الخَليفة . فَرضَ الخليفةُ على أهلِ بَلْخَ غَرامةً فادحةً

كعِقابٍ لهم. عندَما علمَ أهلُ بلْخَ بهذا، أصابَهم الفزَع، وتوجّهوا إلى زوجةِ أميرِهم، وشكَوْا لَها من عدمِ قُدرتِهم على سَدَادِ الغَرامةِ التي فَرضَها الخَليفة.

فكَّرتْ زَوجةُ الأميرِ في حلٍّ لهذهِ المُشكلة، ثم اهْتدتْ إلى الحلِّ، فاستدعتِ الأميرَ الموفدَ مِن قَبلِ الخَليفة، وقَدَّمت إليه ثَوباً لَها مُرصّعاً بالجَواهِر. وكانت قيمةُ ذَلكَ الثوبِ أكبرَ مِن الغَرامةِ التي فَرضَها الخَليفة. وقالت للأمير: اذهبْ بِهذا الثوبِ إلى الخَليفة، فقد أعطيتُه صَدَقَةً عن أهلِ بَلْخَ لضُعفِ حالِهم. ذَهبَ الرسولُ إلى الخَليفة، وألقَى الثوبَ بين يَديه، وقصَّ عليه القصّةَ كامِلة. خَجِلَ الخليفةُ وقال للأمير: أَتكونُ المرأةُ أكرَم مِنّا؟. وأمَرَ برفعِ الغَرامةِ عن أهلِ بَلْخَ، كما أمرَ بإعادةِ الثوبِ الثّمينِ إلى زَوجةِ أميرِ بَلْخ. كما أعفَى أهلَ بَلْخَ مدّةَ سنةٍ ممّا كانت تُقدّمُه إلى الخليفةِ مِن خَراجٍ مَفْروض.

عادَ الأميرُ بالثوبِ إلى بَلْخ، وتَوجَّه إلى زَوجةِ الأمير، وقصَّ عليها ما حَدَث، ونَقَلَ إليها ما قالَه الخَليفة. صَمَتَت المرأةُ طويلاً وهي تَتطلّعُ إلى الثّوب، ثم رَفَعت رأسَها وهي تسألُ الأمير: وهل وَقعَ بصرُ الخليفةِ على الثّوب؟، فقال الأميرُ مُندهِشاً: بالطبعِ رآه وعاينه. فقالت بحَسْم: لا ألبسُ ثَوباً وقَعَ عليه بصرُ شَخصٍ منَ المَحارِمِ الذين لا يجوزُ لي أنْ أَظْهَرَ أمامَهم شرْعاً..

ثم أمرت ببيعِ الثّوب، ورَصْدِ ثمنِه لبناءِ المَسجِد والزّاويةِ المُلْحقَةِ به. وقد بَقيَ ثُلثُ المالِ بعدَ انتهاءِ البِناء، ويقال إنّها أمرتْ بدفنِه تحتَ ساريةٍ منْ سَوارِي المَسجِد، حتّى يكونَ مُتيسّراً عندَما تنشأُ

الحاجةُ إليه. وهذه هي الروايةُ التي وَصَلت إلى جنْكيزْخان، وجَعلته يَهدِمُ ثُلثَ المسجدِ بَحثاً عن ذلك المال، دونَ أنْ يصلَ إلى شَيئ. وابنُ بطوطةَ يَسْرِدُ هذه الحكايةَ لطرافتِها، لكنّه لا يقدّمُ ما يُثْبتُ صِحتّها.

وتنتهِي زيارةُ ابنِ بطوطةَ لمدينةِ بَلْخ، بالمرورِ على قَبْرٍ بخارجِها، يقالُ إنّه قبرُ عُكاشَةَ بنِ مُحْصِنٍ الأسدي، وهو واحدٌ مِن صَحابةِ الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم. وقد رَأى إلى جِوارِ القبرِ زاويةً فَخمَة، بخارجِها بِركةُ ماءٍ عَجيبة، علَيها شَجرةُ جَوْزٍ عَظيمة، يستظلُّ بها القادِمون صَيْفاً.

السلطانُ مَسْعود.. قاطعُ الطَّريق!.

مِن بَلْخ، يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى (هَرَاة) عبرَ جبالِ (قوة استان) مُدّةَ سَبعةِ أيام، فَيجدُ هذه الجبالَ عامرةً بالقُرى، الّتي تَتوافرُ فِيها المياهُ الجَارية، والأشجارُ المُورِقة، يكثرُ بَينها شَجرُ التّين. ويقولُ عن هَرَاة «.. وهي أكبرُ المُدنِ العَامرةِ بخُرَاسان، كبيرةٌ عظيمةُ العِمَارة.. ولأهلِها صَلاحٌ وَعفَافٌ ودِيانَة، وهم على مَذهبِ الامامِ أبِي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنه، وبلدُهم طاهِرٌ منَ الفَساد».

ويمتدحُ ابنُ بطوطةَ سُلْطانَ هَرَاة، حُسينَ بنَ غِياثِ الدّينِ الغُوري، ويَرى فيه رجلاً شُجاعاً موفّقاً، حاظياً بتأييدِ اللهِ ورعايتِه.

ودليلُ ابنِ بطوطةَ على ذلك ما حَدَثَ عندَما دَخلَ ذلك السلطانُ في حرْبٍ مع السلطانِ خَليل الذي كان قد بَغَى عليه، والّذي كان على دَرجةٍ منَ القوّةِ العَسْكرية، جَعلت أهلَ هَراةَ يقولون إنّ أقلَّ ما يَنتظرُ السّلطانَ هو أنْ يَقعَ في أسرِ السلطانِ الغَازي خليل.

والدليلُ الآخرُ الذي يُقدّمُه ابنُ بطوطةَ على تأييدِ اللهِ للسّلطان الغُوري، ما جَرَى عندَما واجهَ مسعوداً سُلطانَ الرّافضة. ويَحكِي ابنُ بطوطةَ قِصّةَ ذلك السّلطان مسعود فيقول إنّه كان بِخُراسان رَجلان: أحدُهما يسمَى مَسعوداً، والآخر يسمَّى مُحمّداً. وكان لهما خَمسةٌ من الأصحابِ الخُبَثاء، فاتّفقَ السّبعةُ على الفَساد، وقَطْع الطْريقِ وسَلْبِ الأَموال.

يقولُ ابنُ بطّوطة «.. وشاعَ خَبرُهم، وسَكنُوا جَبلاً مَنيعاً بِمقْرُبةٍ من مدينةِ بَيْهَق، وكانوا يَكْمُنون بالنّهار، ويَخرُجون باللّيلِ والعشيّ، فَيضرِبون على القُرى، ويَقطعُون الطُّرق، ويأخذون الأموال. وانْثَالَ عَليهم أشباهُهم من أهلِ الشرِّ والفَساد، فكثُرَ عددُهم واشتدَّت شَوكتُهم، وهابَهم النّاس، وضَرَبوا على مدينةِ بيهق فَملَكوها، ثم مَلكوا سِواها من المُدن. واكْتَسبوا الأموال، وجنَّدوا الجُنود، ورَكِبُوا الخَيل، وتسَمَّى مَسعودٌ بالسّلطان. وصارَ العبيدُ يَفِرُّون مِن مواليِهم إليه، وكلُّ عبدٍ فرَّ مِنهم يُعطيه الفَرَس والمال، وانْ ظَهرَت له شَجاعةٌ أمَّره على جَماعة، فعظُمَ جَيشُهم واستفحلَ أمرُه، وتمَذْهَبَ جميعُهم بمذهبِ الرَّفْض، وطَمِحُوا إلى استِئْصَالِ أهلِ السُنّةِ بِخُراسان، وأنْ يَجعلوها كلمةً واحدةً رافضيّة..».

وكان بمشهدَ طُوس شيخٌ منَ الرّافِضة يُسمَّى حَسناً ، وافقَهم على أَفعالِهم ، فسَمَّوْه الخَليفة. وقد أمرَهم ذلك الشيخُ بالعدْلِ فيما بَينَهم ، فاستجابُوا لندائِه. وفي هذا يقول ابنُ بطوطة «.. وأمرَهم بالعدل ، فأظهرُوه ، حتّى كانت الدراهمُ والدّانيرُ تَسقُطُ في معسكرِهم فلا يَلتقطُها أحد ، حتّى يأتيَ ربُّها فَيأخذَها..».

اشتدّت شَوكةُ مَسعودِ وجندِه ، حتّى إنّهم هَزَموا جيوشَ نَيْسَابُور ، وعندَما تَصدّى لهم السلطانُ طغيتمور بجيشِه هَزَموه ، ثم بعثَ إليهم نائبَه أرغون شاه ، فَهزموه هو أيضاً وأسَرُوه. وهكذا مَلكوا البلاد ، وعندَما فكّروا في غزوِ هَراةَ والاستيلاءِ عليها ، عَسْكَرُوا في مكانٍ يَبعُدُ عنها ستّةَ أيام.

جَمَعَ السلطانُ حُسين الغُوريُّ الأمراءَ والعَساكرَ وأهلَ مدينتِهِ ليستشيرَهم ، بعدَ أنْ بَلَغَه خَبرُ اقترابِ جيشِ مَسعود. وسألَهم : هل يُقيمون حتّى يأتيَ القَوم؟ ، أمْ يَمْضُون إليهم لِيلْتَقُوا بهم خارجَ المَدينة؟.. فأجمعَ الكلُّ على الخروجِ لمُلاقاةِ المُهاجِمين. وتَجهَّزَ الجميعُ لذلك ، وتجمّعَ للسلطانِ حُسين مائةٌ وَعِشرون ألفاً من الفُرسان ، بينَما بلغَ جيشُ الرافضةِ مائةٌ وخمسين ألفاً من الفُرسان.

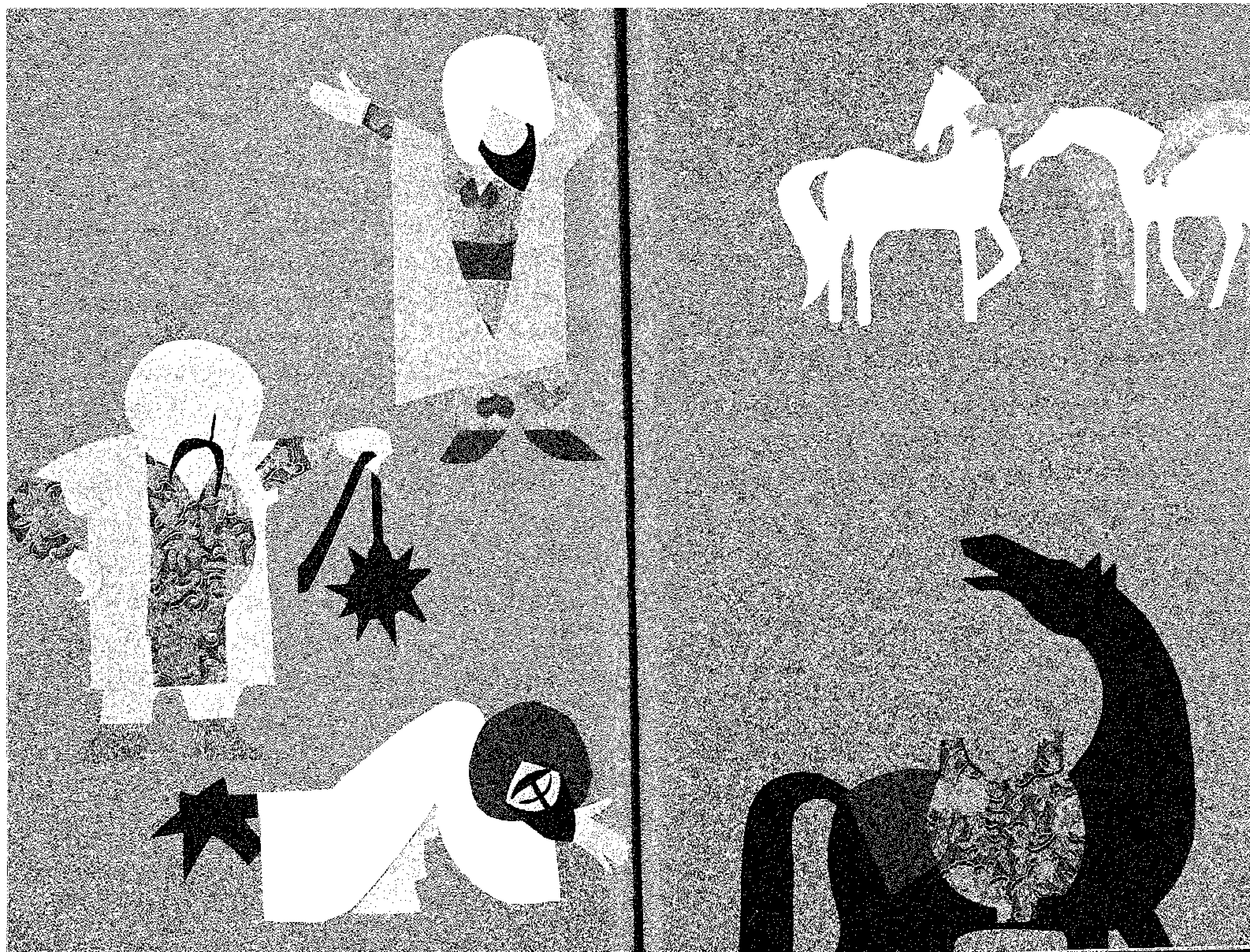
كانَ اللقاءُ في صَحْراءِ (بوشنج) ، وكان الالتحامُ طويلاً وعنيفاً. وبعدَ أَن سالَت الدماءُ كالأنهار ، وَضَحَ أنّ كِفّةَ السّلطان حُسين هي الرّاجحة ، وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «.. وصَبَرَ الفَريقان معاً. ثم كانت الدائرةُ على الرَّافضة ، وفرَّ سُلطانُهم مَسعود ، وثَبَت خليفتُهم حَسَن في عِشرين ألفاً حتَّى قُتل. وقُتلَ أكثرُهم ، وأُسرَ منهم نحوُ أربعةِ

آلاف... وذَكَرَ لي بعضُ مَن حضرَ هذه الوقيعة، أنّ ابتداءَ القِتالِ كان في وقتِ الضُّحَى، وكانت الهزيمةُ عندَ الزَّوال. ونَزَلَ الملكُ حُسين بعد الظهرِ فَصلَّى، وأُتِيَ بالطَّعام، فكانَ هو وكبراءُ أصحابِه يأكلون، وسائرُهم يَضْرِبون أعناقَ الأَسْرى.. وعادَ إلى حضرتِه بعدَ هذا الفتحِ العَظيم، وقد نَصَر اللهُ السنّةَ على يَدَيه، وأطْفأَ نارَ الفِتْنة».

مأساةُ الفقيهِ نِظامِ الدّين

في هَراة، يَلتقي ابنُ بطوطةَ برجلٍ من الزُهّادِ الصُلَحاءِ الفُضَلاء، واسمُه نِظامُ الدينِ مَولانا. وكان أهلُ هَراة يُحِبّونه ويَسْتمعون إلى نَصيحتِه. ويَلتزمون بفتاويه. وأثناءَ حَديثِ ابنِ بطوطةَ مَعْ ذلك الزَّاهدِ، عَرَفَ بعضَ جوانبِ كِفاحِه في تغييرِ المُنكَرِ ومحاربتِه. ويذكرُ ابنُ بطوطةَ واقعةً تُرْوى عن قُوّة ذلك الفَقيه في الحقّ، فيقول «ذُكِرَ لي أنّهم تَعرّفوا يوماً ما أنّ بدارِ المَلكِ حُسين مُنكراً (أي خمراً)، فاجْتمعوا لتغييرِه، وتحصَّنَ منهم بداخلِ دارِه، فاجْتمعوا على البابِ في ستةِ آلاف رَجُل، فخافَ مِنهم، فاستحضرَ الفَقيهَ وكبارَ البَلد، وكان قد شَرِبَ الخَمْر، فأقامُوا عليه الحدَّ بداخلِ قَصرِه، وانْصرفوا عنه».

ثم يحكي ابنُ بطوطةَ قصّةَ النهايةِالمُؤلمةِ التي لَقيَها ذلك الرجلُ الصّالح. فقد كان يقيمُ بالصّحراءِ القريبةِ مِن مدينةِ هَراةَ، جماعةٌ من الأتراك، مَلكُها يسمَّى طغيتمور، وقد بلغَ عددُهم حوالَى خَمسين ألفا. وكانَ الملكُ حسينُ قبلَ انتصارِه على الرَّافضة، يَخْشاهم ويقدّمُ إليهم الْهدايا في كلِّ سنةٍ حتَّى يأمَنَ شرَّهم.



كانت جماعاتٌ مِن هؤلاءِ الأَتراك تتردّدُ على هَراة ، يأتي بعضُهم سَكران ، ويشربُ بعضُهم الخمرَ في المَدينة . وكان الفقيهُ نِظامُ الدّين يقيمُ الحدَّ الشّرعيَّ عَلى شارِبي الخَمْر ، ويتعقّبُهم ، ممّا أثارَ سُخْطَهم عليه . وكان هؤلاء الأتراكُ يُغيرون على البلادِ القَريبةِ مِنهم والتابعةِ لسلطانِ الهِند ، فَيقتُلون الرجالَ ويأخُذون الغَنائم ، ويَسْبُون النّساء ، وكانوا في كثيرٍ من الأحيانِ يَسْبون بعضَ النساءِ المُسْلِمات ، اللائي يُقِمْن في المدنِ الهِنديّة . هنا ، كان الفقيهُ نظامُ الدين يتدخّلُ لاستخلاصِ النساءِ المُسلماتِ من بين أيديهم . وكان يعرفُ المُسلمةَ من غيرِ المُسلمة ، بأنّ غيرَ المُسلماتِ كُنّ يَثْقُبْنَ آذانَهُن .

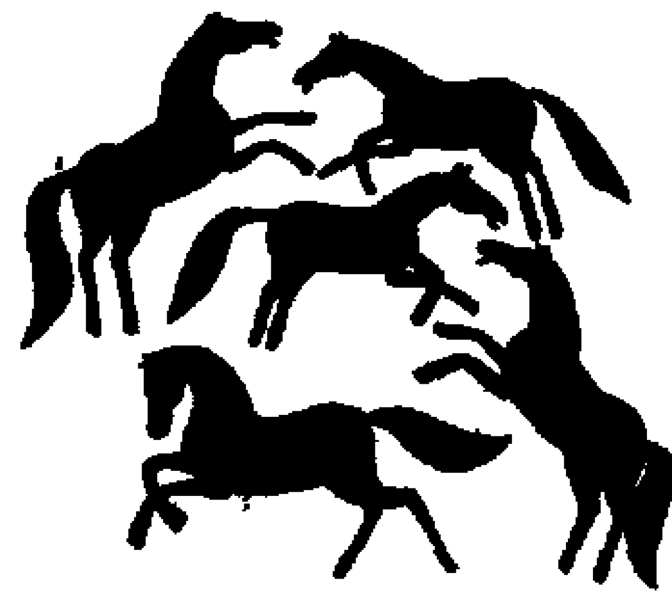
وذاتَ مرّة ، سَبَى أميرٌ مِن أمراءِ التُركِ أمرأةً مُسلمة ، وعَرفَ الفقيهُ بذلك ، فانتزعَها من يدِه ، وحرَّرها . ممّا أثارَ غيظَ الأميرِ التّركيّ ، وصمَّمَ على أنْ يأخذَ بثأرِه ، فَجمعَ جَيشاً من أصحابِه يبلغُ الآلاف ، وأغارَ على خَيلٍ لمدينةِ هراة كانت تَرعى بصحراءَ تُدعى (بدغيس) ، واستولَى الأميرُ التركيُّ علَى خَيلِ هَرَاة ، حتّى إنّه لم يترك لِمن كانوا يَرْعَون تلك الخيلَ ما يَركبونه . ثم ساقَ هذه الخيلَ إلى جَبلٍ مُرتفعٍ لا يسهُلُ على أهلِ هَراةَ مُهاجمتُه .

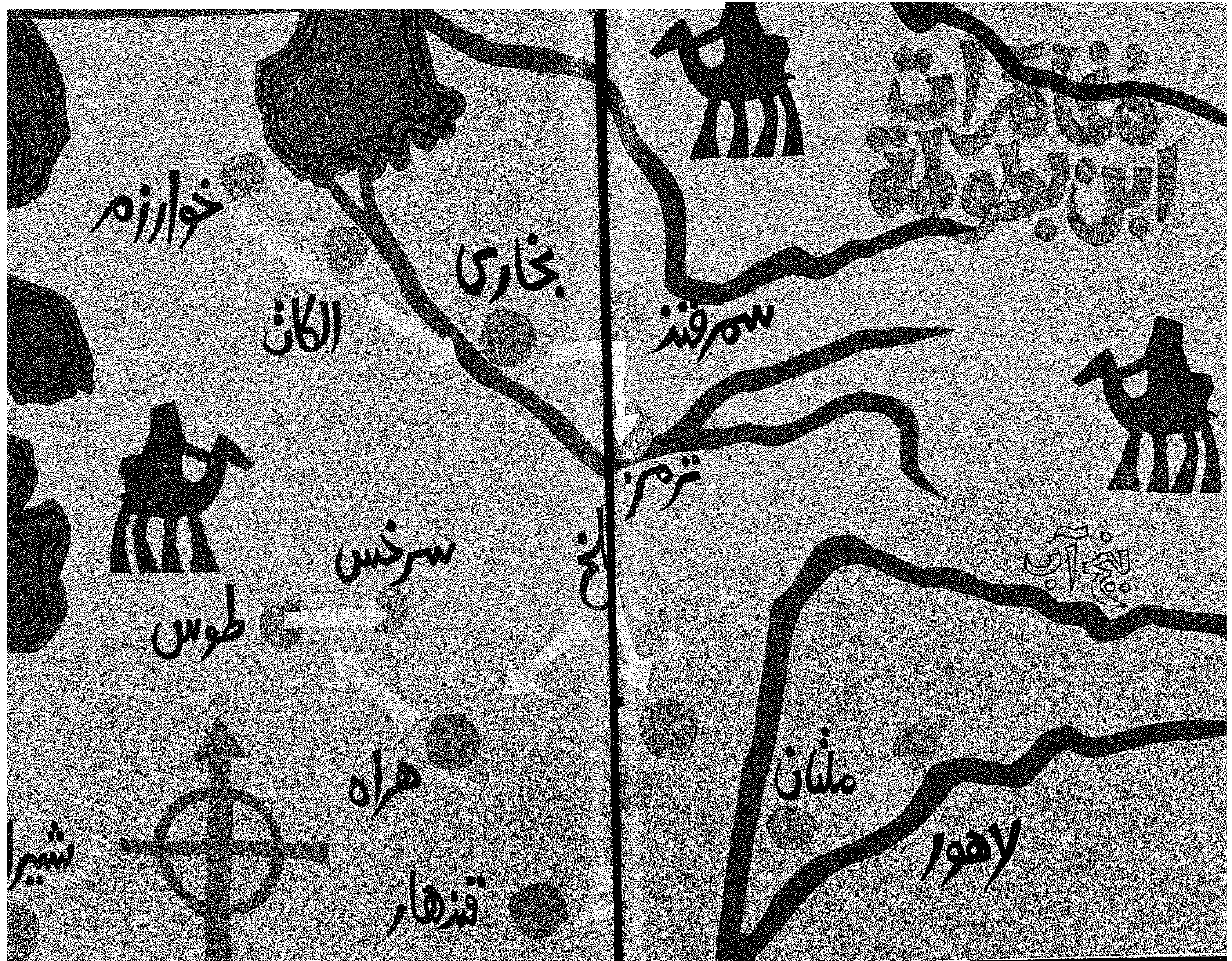
أرادَ السلطانُ حُسين أنْ يستخلصَ خيلَه ، لكنه افتقدَ الخيلَ التي يمكنُ أنْ يستخدمَها جندُه في هجومِهم ، فآثرَ المُلايَنة ، وبعثَ إلى الأميرِ التركيِّ برسولٍ يطلُبُ منه بلطفٍ ردَّ ما استولَى عليه مِن خَيل ، ويُذكِّره بالعَهدِ الذي بَينهم . فقال التركيُّ لرسولِ السّلطان : لن نسلّمَ إليكم خيولَكم وماشيتَكم ، حتّى تُسلّمونا في مقابلِ ذلك الفقيهَ نظامَ الدّين ! .. أُسْقِطَ في يدِ السلطانِ حُسين ، فقد شعَرَ أنّه لا يستطيعُ أنْ

يَفعلَ هذا. وكان مَعه في ذلك الوقتِ شيخٌ يُدعى أبا أحْمد الجستيّ، وكان له احترامٌ كبيرٌ بين أهلِ هَراة. فقال للسّلطان: أَنا مستعدٌّ لاصطحابِ الفقيهِ نظامِ الدين إلى الأتراك، ثم أعودُ به إليكم.. فتحمَّس الجميعُ لِهذا العَرْض الذي يَتضمَّنُ حلاًّ موفّقاً لمشكلتِهم.

رأى الفقيهُ نظامُ الدين اتّفاقَ الجَميعِ على ذلك، فَرَضَخَ لرأيِهم، ووافَقَ على السفرِ إلى الأتراكِ بصحبةِ الشيخِ الجستي، وركبَ معه إليهم. عندَما وصلَ الركبُ إلى مقرِّ الأميرِ التركيّ، قامَ وقال للفيقهِ نِظامِ الدين: أنت أَخذت امرأتي منّي. وضرَبَه على رأسِه بعصاً في نهايتِها كُرةٌ من المَعْدِن، فكسَرَت دِماغَه، وخرَّ الفَقِيهُ مَيّتاً.. أُسقطَ في يدِ الشّيخِ الجستي، ولم يجدْ ما يَفعلُه سوَى أن ينصرفَ عائداً. أَمّا الأميرُ الترّكي، فبعدَ أنْ شَفَى غليلَه بقتلِ الفقيه، ردَّ كلَّ ما كانَ قد أخذَه من خيلٍ وماشية.

بعدَ وقتٍ مِن ذلك الحادثِ المؤسف، كان الأميرُ التركيُّ يقومُ بزيارةٍ إلى هَرَاة. فعرفَ بوجودِه جماعةٌ من أصحابِ الفَقيه نظامِ الدّين ومُريديه، فَتحرّكوا على الفورِ يَبْحثون عن الأميرِ التركي، حتّى عَثَروا عليه، وأَقبلوا ناحيتَه كأنّهم يَنْتَوُون تَحيّتَه والسَّلامَ عليه، وكانت سيوفُهم مختفيةً تَحت مَلابسِهم، وفَجأة، انقضّوا عليه جَميعاً مرّةً واحدة.. فَقتلوه، ثم فَرُّوا هارِبين.





ابن بطوطة
خوارزم
بخارى
الكاث
سمرقند
ترمذ
بلخ
سرخس
طوس
هراه
قندهار
پنج آب
ملتان
لاهور

تَنتهِي زيارةُ ابنِ بطوطةَ لهراة، فيسافرُ مِنها إلى مدينةِ (الجام)، وهو يَصفُها قائلاً: «وهي مُتوسّطة، حَسَنة، ذاتُ بَساتينَ وأَشجار، وعيونٍ كثيرةٍ وأنهار، وأكثرُ شجرِها التُّوت، والحَريرُ بِها كَثير». ومن الجام يسافرُ إلى (طوس)، فيجدُها «أكبرَ بلادِ خُرَاسان وأعظمَها، بلدُ الامامِ الشّهيدِ أبِي حامدٍ الغَزالي رَضيَ اللهُ عنه، وبها قَبْرُه..».

تتّصلُ جَولاتُ ابنِ بطوطةَ في تلك المِنْطَقة، قبلَ أنْ يَدخلَ إلى أرضِ الهند، فَيزورُ مدينةَ (مَشْهدَ الرِضا). وهي مَدينةٌ كبيرةٌ كثيرةُ الفَواكِهِ والمياهِ الجَارِية، والطّواحين. ويصفُ ابنُ بطوطةَ المشهدَ الخاصَّ بالرِضا، وهو عليٌّ بنُ موسى الكاظِمِ بنِ جَعفرَ الصادق، الذي يَمتدُّ نَسَبُه إلى الحسينِ بنِ علي، فيقول «والمشهدُ المكرَّمُ عليه قُبَّةٌ عظيمةٌ في دَاخلِ زَاوية، تُجاورُها مَدرسةٌ ومَسجِد. وجميعُها مَليحُ البِناء، مصنوعُ الحِيطانِ بالقِيشانيّ، وعلى القبرِ دُكانٌ خشبيٌّ مُلَبَّسٌ بصفائحِ الفِضّة».

ثم يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى مَدينة (سَرَخْس)، ومِنها إلى (زَادَه). وممّا يثيرُ دَهشةَ ابنِ بطوطةَ في مدينةِ زاده، ما شاهدَه من أمرِ أَتباعِ طائفةٍ تُسمَّى الحَيدريّة، فَقد رآى طائفةً من الفُقراءِ تَضعُ حَلَقاتٍ مِنَ الحديدِ في أيدِيها وأعناقِها وآذانِها.

ومن زاده يسافرُ إلى مَدينةِ (نَيْسَابُور). فيُبدِي اعجابَه بهذه المدينة ويقولُ «.. وهي احدَى المدنِ الأربعِ التي هي قواعدُ خُرَاسان، ويقال

لَها دِمشقُ الصَّغيرة، لكثرةِ فَواكِهِها وبساتينِها ومياهِها وحُسنِها. وتَخترقُها أربعةُ أَنهارٍ، وأسواقُها حَسَنَةٌ مُتَّسِعة، ومسجدُها بَديع، وهو في وَسَطِ السّوق، ويَليه أربعٌ منَ المَدارِس، ويَجري بها الماءُ الغَزير، وفيها من الطَّلَبةِ خلقٌ كثير، يَقرأون القُرآنَ والفِقْهَ، وهيَ مِنْ حِسانِ مَدارسِ تِلكَ البِلاد، ويصنعُ بنيسابورَ ثِيابُ الحَريرِ وتُحْمَلُ مِنها إلى الهِنْد..».

ويَسرِدُ ابنُ بطوطةَ قِصّةً طريفةً حدَثَت له مع الإمام قُطبِ الدِّين النَّيسابُورِي، الذي استضافَ ابنَ بطوطةَ في زاويتِه. فقد رَأى ذلك الامامُ صبيًّا مِن خدمِ ابنِ بطوطةَ، فقال لابنِ بطّوطة: هذا الغلامُ لا يَصلُحُ لك، فَبِعْه. وافقَه ابنُ بطوطةَ على ذَلك، وتخلَّصَ من الغُلامِ في اليومِ التالي، دونَ أنْ يستفسرَ منَ الإمام. وعندَما ودَّعَ ابنُ بطوطةَ الإمامَ وانصرفَ عنْ مدينةِ نَيسابور، كَتبَ له بعضُ أصحابِه من نَيْسَابور، وقال له إن الصبيَّ قَتَلَ بعضَ أولادِ الأَتراك، فَجرَى قتلُه. وحَمِدَ ابنُ بطوطةَ ربَّه، وشكرَ للإمامِ نَصيحتَه، التي أَعفَتْهُ من مَشاكلَ ما كانَ يُحِبُّ أنْ يَتورَّطَ فيها.

مِن نيسابورَ يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ (بُسطام)، وينزلُ فيها بزاويةِ الشَّيخِ أبي يزيدَ البُسطامي، ويروحُ ابنُ بطوطةَ ينتقلُ من مدينةٍ إلى أخرَى في تلك المِنطَقةِ الرّيفيةِ مستمتعاً بحياةِ الريفِ الهَادئةِ وأنحائِه الآمنة. ويحكي ابنُ بطوطةَ عن نُزولِه بقريةِ (قندوس) في تلك النواحي، فيقول «.. فَنَزَلْنا بقندوسَ على نَهرِ ماءٍ به زاويةٌ لأحدِ شيوخِ الفقراءِ مِن أهلِ مِصر. وأضافَنا بها وَالِي تلك الأرض، وهو من أهلِ المَوْصِل، وسُكْنَاه ببُستانٍ عظيمٍ هنالك. وأَقَمنا بخارجِ هذه القريةِ نحوَ

أربعين يوماً لرعي الجِمالِ والخَيْل. وبها مراعٍ طَيبةٌ وأعشابٌ كَثيرة. والأمنُ بِها شاملٌ بسببِ شِدّةِ أحكامِ الأمير برنطيه..». وهو يصفُ تلك الحياةَ الآمنةَ فَيقول «والناسُ يَترُكون دوابَّهم مُهمَلةً دونَ رَاعٍ، بعدَ أنْ يَسِمَ كلٌّ واحدِ دَوابَّه في أفخاذِها، وكذلك فَعَلنا في هذه البِلاد..».

وهو يذكرُ واقعةً حَدثت لهم في مُخيَّمِهم بهذه المِنطَقة، تؤكدُ استتبابَ الأمنِ بِها، فَيقول «.. واتّفَقَ أن تَفقّدْنا خيلنَا بعدَ عَشَرةِ أيامٍ من نزولِنا بها، ففقدْنا مِنها ثلاثةَ أفْراس. ولمّا كانَ بعدَ نصفِ شهرٍ جاءَنا التّترُ بِها إلى منزِلنا، خَوفاً على أنفسِهم من الأحكام..».

قُطّاعُ الطُرق.. والسَّمُومُ القَاتِلَة

طالَت اقامةُ ابنِ بطوطة وصحبِه في هذه المِنطَقة، ليس فَقط لرعي الخَيلِ والجِمَال، ولكنْ انتظاراً لانقضاءِ فصلِ الشتاءِ والثّلوج. وهو يقولُ عَن هذا «وكان أيضاً من أسبابِ اقامتِنا خوفُ الثّلج: فانّ بأثناءِ الطريقِ جَبلاً يقالُ له هندوكوش، ومَعناه: قاتلُ الهُنود، لأنّ العبيدَ والجَوارِي الذين يُؤتَى بِهم من بلادِ الهند، يَمُوت هنالك الكثيرُ مِنهم، لِشدّةِ البردِ وكَثْرةِ الثّلج».

ويقولُ ابنُ بَطوطةَ إنَّ قَطْعَ ذلك الجبلِ يَستغرُق يوماً كامِلاً، لذلك أقامُوا حيثُ هُم حتّى حلَّ فَصلُ الصّيف وقَطَعُوا ذلك الجبل، بادِئين رِحلتَهم عندَ آخرِ الليلِ، فَسلَكُوا درُوبَه طَوالَ النّهار وحتّى

الغُروب. ويَحكِي ابنُ بطوطةَ أنّهم كانوا يَلُفّون أقدامَ الجِمالِ بقُماشِ اللُّباد، حتّى تَدوسَ بِهِ على الثّلوجِ، فلا تَنغرسُ أقدامُها فيه.

بينما كان ابنُ بطوطةَ يَعبُرُ جبالَ هندوكوش هذه، وَصَلَ إلى جهةٍ تُسمَّى جبلَ بشاي، واستراحَ عندَها في زاويةٍ لشيخٍ صالحٍ يُدعى أطا أولياء، ومعناها أبو الأولياء. في هذه الزاويةِ يَسمعُ ابنُ بطوطةَ روايةً لا يستطيعُ أنْ يصدّقَها. لقد شاهدَ الناسَ تأتِي من البلادِ والقُرى إلى زاويةِ ذلك الشيخِ للتبرُّك بِه. وقد ذَكَرَ له بعضُهم أنّ الشيخَ أطا أولياء عمرُه ثلثُمائةٍ وخَمْسونَ عاماً...

يقول ابنُ بطوطةَ في وصفِه لذلك الشّيخ «.. ودَخلْنا إليه فسلّمتُ عَليه وعانَقَني، وجسمُه رطبٌ لمْ أرَ ألْينَ منه، وَيظُنُّ رائِيه أنّ عُمرَه خَمسون سنَة. وذَكَرَ لي أنّه في كلِّ مائةِ سنةٍ يَنبُتُ له الشّعَرُ والأَسنان. وشككت في حالِه، واللهُ أعلمُ بصدقِه..».

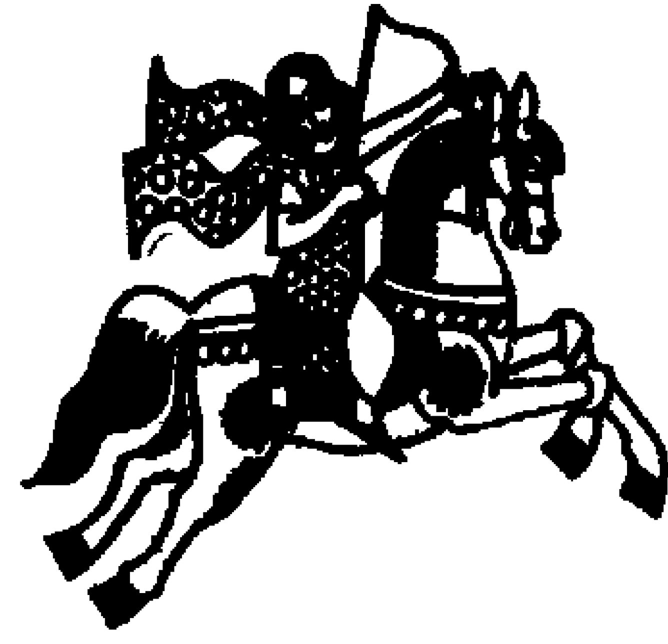
يسافرُ ابنُ بطوطةَ بعدَ ذلك إلى مَدينةِ (برون) حيث يلتقِي بالأميرِ برنطيه الذي ذكرناه مِن قَبل، فيكرمُ الأميرُ ابنَ بطّوطة، ويكتبُ إلى نوّابِه بمدينةِ (غَزْنَة) لإكرامِه ومساعدتِه. فيسافرُ مِن هنالك إلى (الجرخ)، ومِنها إلى غَزْنة. ورغمَ ما ظَهَرَ فيها من أثرِ سَبَكْتَكِين، التي انطلقَ مِنها في حروبِه وغَزَواتِه الشّهيرة لِبلادِ الهندِ. كانت المدينةُ وقتَ وصولِ ابنِ بطوطةَ شديدةَ البَرد، وقد غادرَها أغلبُ سكّانِها إلى مدينةِ (قندهار) الأكثرِ اعتدالاً في جوِّها.

آخرُ مدينةٍ يزورُها ابنُ بَطّوطةَ وصحبُه قبلَ أنْ يَعبُرَ إلى بلادِ الهندِ كانت (كَابل) عاصمةِ أفغانستان الحاليةِ التي نَعرفُها باسِم كابول. وهو

يقولُ عن هذه المدينةِ «كانت فيما سَلفَ مدينةً عَظيمة، وبِها الآنَ قريةٌ يَسكُنُها طائفةٌ من الأعاجمِ يقالُ لهم الأفغان. ولهمْ جبالٌ وشِعابٌ وشَوكةٌ قويَّة، وأكثرهُم قُطّاعَ طريق، وجبلُهم الكبيرُ يُسمَّى كوه سليمان. ويُذكرُ أنّ النبيَّ سليمانَ عليه السلامُ صَعِدَ ذلك الجَبل، فنظرَ إلى أرضِ الهندِ وهيَ مُظلمة، ورَجَعَ ولم يَدخُلْها، فَسُمِّيَ الجَبلُ بِه..».

يبارحُ ابنُ بطوطةَ وصحبُه مدينةَ كابول، يَقْصِدُون (كرماش) التي ستؤدِّي بِهم إلى أرضِ الهِند. وقبلَ أنْ يَصِلُوا إلى كرماش، يَعرِفُ ابنُ بطوطةَ أنّها عبارةٌ عن حِصنٍ بَيْنَ جبَلَين، وأنّ جَماعاتٍ منَ الأفغانِ قد دَأَبوا على قَطْعِ طريقِ المُسافِرين إلى الهِند. فاستعدَّ الرَكْبُ لذلك، وما أنْ جاوزُوا كرماشَ بقليل، حتّى ظَهَرَ لهم قُطّاعُ الطَّرِيق، فواجَهَهم ركبُ ابنِ بطوطة بالسِّهامِ والرِّماح، وأرْغمُوهم على الفِرارِ في نِهايةِ الأمر.

يتنفّسُ ابنُ بطّوطة الصُّعَدَاء، ولكنْ ما إنْ يَصلُ إلى (ششنغار) آخرِ بلادِ التّرك، حتى يَنقبضَ قلبُه وهو يستمعُ إلى أحدِ الأدلاّءِ يَقول «علينا أنْ نَعبُرَ البرّيةَ الكُبْرَى التي سنَنتهِي من اجتيازِها على أحسنِ الأحوالِ بعدَ نصفِ شَهْر... ولكنْ احْذَرُوا، فهذه البرّيةُ تَهبُّ عليها رياحُ السّمومِ القَاتِلةِ.. التي تَقْضِي على القوافلِ بكلِّ مَن فيها وما فِيها من دَوابّ... إنّها رياحٌ مميتةٌ وقاسِية.. حتّى إنّ الرجلَ إذا ما ماتَ منها، تَفسَّخَتْ أعضاؤُه...».

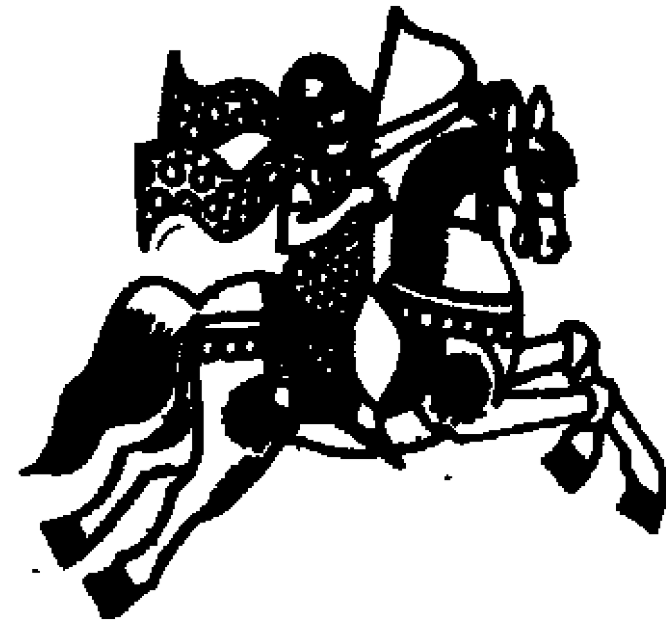


مغامرات
ابن بطوطة

١٠

عجائب بلاد الهند

اعداد : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان



عَبْرَ صَحراءِ السَّمُوم

وَصَلَ ابنُ بطوطةَ إلى آخرِ بلادِ التُّرك، وقد اعْتزمَ أنْ يَمْضيَ مُتوغِّلاً في بلادِ الهندِ التي كان يقفُ عندَ أولِ حُدودِها. كان عليه أنْ يجتازَ صَحراءَ واسعةً تَهُبُّ عليها رياحُ السُّمومِ القَاتِلة، التي تَقضِي على البَشرِ والدَّوابّ، وتجعلُ الأعضاءَ تَتفسّخُ عن بعضِها. وقد سَمِعَ ابنُ بطوطةَ أنَّ القافلةَ التي سَبَقتْ قافلتَه، والتي كان على رأسِها قاضِي مدينةِ تِرْمِذ خداوند زاده، ماتَ الكثيرُ مِن خيلِها وجمالِها. لكنَّ هذا لم يَمنعْ ابنَ بطّوطةَ مِن أن يَمضيَ في طريقِه، فصادفَه حُسْنُ الحظّ، وَوصلَ إلى نَهرِ بنج آب بأرضِ السِّندِ بسلامةٍ هو وأفرادُ قافلتِه ودَوابُّه.

في هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «وَصلْنا إلى وادِي السندِ المَعروفِ ببنج آب، ومعنَى ذلك المياهُ الخَمْسة. وهذا الوادِي مِن أعظمِ أوديةِ الدُّنْيا، وهو يفيضُ في أوانِ الحرّ، فَيزرعُ أهلُ تِلك البلادِ على فَيضهِ كما يفعلُ أهلُ الدّيارِ المصريةِ في فَيْضِ النّيل، وهذا الوادِي هو أوّلُ عُمالةِ السُّلطانِ المعظّمِ مُحمَّد شاه، ملكِ الهندِ والسِّند..».



عندَ وصولِ ابنِ بطّوطة، وجدَ في لقائِه مَن يطلقُ عَليهم اسمَ (أصحابِ الأخبار)، وهم الذين حَكَى عَنهم مِن قَبل، وقال إنّهم مُكلَّفون بكتابةِ تقريرٍ مفصّلٍ عن كلِّ مَن يدخلُ إلى حُدودِ البِلاد، حتّى إذا وَصَلَ إلى العاصمةِ دهلي (التي نعرفُها اليومَ باسمِ دِلهي)، تكُونُ لَدَى السلطانِ فكرةٌ كاملةٌ عنه، فَيلقاه بمَا يَستحقُّه. وكان بينَ السِّند، حيثُ وصلَ ابنُ بطّوطة، وبين عاصمةِ السُّلطان دهلي، مسيرةُ خَمسينَ يَوماً. لكنَّ التقريرَ الذي كَتَبَه أصحابُ الأَخبارِ وَصلَ إلى السلطانِ في خمسةِ أيامٍ فَقط. والفضلُ في ذلك يعودُ إلى نظامِ البريدِ المعمولِ بِه في تلك البِلاد، والذي يُثيرُ إعجابَ ابنِ بطّوطة.

يقولُ ابنُ بطوطةَ إنّ البريدَ ببلادِ الهِندِ صِنْفان، بريدُ الخَيلِ الذي يُسَمُّونه (أولاق)، وله مَحطّاتٌ تبعُدُ الواحدةُ عَنِ الأُخرَى أربعةَ أميال، ثم بريدُ المُشاةِ الذي تَكونُ المَسافةُ بينَ محطّاتِه ثُلثُ مِيل.

يصفُ ابنُ بطوطةَ بريدَ المُشاة، أو كَما يُسمّيه بريدَ الرَجَّالة، فيقول «.. وترتيبُ ذلك أنْ يكونَ في كُلِّ ثُلُثِ ميلٍ قريةٌ مَعْمورة، ويكونُ بخارجِها ثَلاثُ قِبابٍ يَقعُدُ فيها الرجالُ مُستعدِّين للحَركةِ، قد شَدُّوا أوساطَهم، وعندَ كلِّ واحدٍ منهم مِقرَعَةٌ مِقْدَارُ ذِرَاعَين، بِأَعْلاها جَلاجِلُ نُحَاس، فإذا خَرَج البريدُ من المدينةِ أخذَ الكتابَ (يعني الخطاب) بأَعلَى يَدِه والمقرعةَ ذاتَ الجلاجلِ باليدِ الأُخرى، وخرَجَ يشتدُّ بمنتهَى جُهدِه، فإذا سمعَ الرجالُ الذين بالقِبَاب صوتَ الجَلاجِل تأهّبُوا له، فاذَا وَصَلَهم، أخذَ أحدُهم الكتابَ من يدِه، ومرَّ بأقصَى جُهدِهِ وهو يُحرّكُ المقرعة.. ولا يَزالون كذلك حتّى يصلَ الكتابُ إلى حيثُ يُرادُ منه، وَهذا البريدُ أسرعُ مِن بريدِ الخَيْل..».

وهذا النظامُ البريديُّ لَم يكنْ يَقتصِرُ على نَقلِ الخطاباتِ والتّقارِير، بل كان هؤلاءِ الرجالُ في بعض الأحيانِ يَحْمِلون الفَواكهَ النّادرةَ مِن أنحاءِ البلادِ إلى السُّلطان، أو يَحْمِلون إليه ماءَ الشُّربِ عندَما يكونُ بعَيداً عن عاصمتِه. بل كانوا في أحيان أُخرَى يَحملون كبارَ الرجالِ مِن مدينةٍ إلى أُخرَى بنفسِ الطّريقة.

سجّلَ أصحابُ الأخبارِ كُلَّ المَعلوماتِ اللازمةِ عن ابنِ بطّوطةَ وصحبِه، شأنُهم دائماً مع كلٍّ من يريدُ أنْ يَدخلَ البِلاد، وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة «وإذا كَتَبَ المُخْبِرون إلى السلطانِ بخبر مَن يصلُ إلى بلادِه، استَوْعَبُوا الكتابَ وأمْعَنُوا في ذلك، وعرّفوه أنّه وَرَدَ رجلٌ صورتُه كذا ولباسُه كذا، وكَتبوا عددَ أصحابِه وغِلمانِه وخُدّامِه ودَوابِّه، وتَرتيبَ حالِه في حركتِه وسُكونِه، وجميعَ تصرّفاتِه، لا يُغادِرون من ذلك شيئاً، فإذا وَصَلَ الواردُ (أي المسافرُ القَادم) إلى مدينةِ ملتان، وهي قاعدةُ بلادِ السِّند، أقامَ بها حتّى ينفذَ أمرُ السّلطانِ بقدومِه وما يَجري له من الضِّيافة، وإنّما يُكرَمُ الانسانُ هنالك بقدْرِ ما يَظْهرُ من أفعالِه وتَصرّفاتِه وهمّتِه، إذ لا يعرفُ هناك ما حَسَبُه ولا آباؤه».

ويظهرُ مِن روايةِ ابنِ بطوطةَ مدَى ما كان عليه السّلطانُ محمد شاه من إكرامِ الغُرَباءِ ومحبّتِهم، وفتحِ أبوابِ العَملِ لهم، والسّماحِ لهم بالوصولِ إلى أعلَى المَراتب، فيقولُ إنّ مِن عادةِ السّلطان «إكرامَ الغُرباء ومحبّتَهم وتخصيصَهم بالولايات والمراتبِ الرّفيعة، ومعظمُ خَواصِّه وحِجّابِه ووزرائِه وأصهارِه غُرَباء، ونُفِّذَ أمرُه بأنْ يسمّى الغُرباءُ في بلدِه الأعِزّاء، فصارَ لهم ذلك اسماً عَلَماً».

ويشيرُ ابنُ بطوطةَ إلى ظاهرةٍ أخرى لَمَسَها في الهند، وهي ضرورةُ أن يتقدّمَ كلُّ مَن يصلُ إلى الهندِ بهديةٍ إلى السُّلطانِ، الذي كان بدورِه يقدّمُ إلى الشخصِ هديةً تتجاوزُ قيمتُها أضعافَ قيمةِ الهديةِ التي تقدّمَ بها. ويَحكي كيف تحوّلت هذه العادةُ إلى تِجارةٍ يسعَى البعضُ إلى استثمارِها، فيقول «ولا بدَّ لكلِ قادمٍ على هذا المَلِكِ من هديةٍ يُهْدِيها إليه، ويقدّمُها وسيلةً بينَ يديه، فيكافئُه السلطانُ عليها بأضعافٍ مُضاعَفَة.. ولمّا تَعوَّدَ الناسُ ذلك منه، صارَ التجّارُ الذين ببلادِ الهند والسندِ يُعْطون لكلِّ قادمٍ على السلطانِ الآلافَ من الدنانيرِ دَيْناً، ويجهِّزونه بما يريدُ أنْ يُهديَه إليه، أو يتصرَّف فيه لنفسِه من الدوابِّ للرُّكوبِ والجِمَال والأمْتعة، ويَخدِمونه بأموالِهم وأنفسِهم ويَقفون بين يديه كالحَشَم، فإذا وَصَل إلى السلطانِ أعطاهُ العَطاءَ الجَزيلَ فقضَى دُيونَهم ووفّاهم حُقوقَهم، فنَفَقت تجارتُهم، وكثُرت أرباحُهم، وصارَ لهم ذلك عادةً مُستمِرّة..».

هجومُ الكَرْكَدَّن

يواصلُ ابنُ بطوطةَ رِحلتَه، فيجتازُ نَهرَ السّندِ المعروفَ باسمِ بنج آب، وعلى الشاطئِ الآخرِ للنهرِ كانت تمتدُّ غابةٌ منَ القَصَب، أو نباتِ البَامبُو الكثيفِ الضَّخم. وكان طريقُ السفرِ يخترقُ تلك الغَابة. بعدَ أنْ قَطَعوا شَوطاً في ذلك الطّريق، سَمِعوا صوتَ حركةٍ عنيفةٍ بين النّباتِ على جانبٍ مِنَ الطريق. أوقفَ ابنُ بطوطَةَ فَرَسَه وقد استولَى عليه الفَزعُ

عندَما أبصرَ بحيوانٍ ضخمٍ يَخرجُ من بينِ الأغصانِ ليعترضَ طريقَ القافلة ، ولم يكن ابنُ بطوطةَ قَدْ رأى مِن قبلُ الكَرْكَدَّن ، فقال يصفُه «حيوانٌ أسودُ اللونِ عَظيمُ الجرْمِ ، رأسُه كبيرٌ مُتفاوتٌ الضّخامة .. وهو دونَ الفيلِ ، ورأسُه أكبرُ مِن رأسِ الفيلِ بأَضْعاف ، وله قَرنٌ واحدٌ بين عَينيهِ طولُه نحوُ ثَلاثةِ أذْرُع ، وعرضُه نَحوُ شِبْر .. » .

حاولَ الفرسانُ الذين يُرافِقون الركبَ اعتراضَ طريقِ الكَرْكَدَّن ، وحثَّه على الانْصِراف ، فهجَمَ على أحدِ الفُرسان ، وضربَ الفَرَسَ بقرنِه ، فأنفذَ القرنَ في فخذِ الحِصانِ وقتلَه ، ثم انصرفَ عائداً من حيثُ أتى ، وقد حاوَلَ بعضُ الفرسانِ تعقّبَه ، لكنّهم لم يَعثُروا له على أثر .

ويحكي ابنُ بطوطةَ في هذه المناسبةِ عن لِقاءاتٍ له جَرت بعدَ ذلك مع الكَرْكَدَّن ، فيقول « .. وقد رأيت الكركدَّن مرّةً ثانيةً في هذا الطريقِ بعدَ صَلاةِ العصرِ وهو يَرْعى نباتَ الأرض ، فلمّا قَصَدْناه هَرَبَ منّا . ورأيته مرّةً أخرى ونحن مع ملكِ الهِند . دَخلنا غَيْضَةَ قَصَب ، وركبَ السلطانُ على الفِيل ، ورَكِبْنا معه الفِيَلةَ ، ودَخلت الرَّجّالةُ والفُرسانُ فأثارُوه وقَتلوه ، واستاقُوا رأسَه إلى المَحلّة .. » .

بعدَ أنْ غادَرَ ابنُ بطوطةَ شاطىءَ نَهرِ السّندِ بيومين ، وَصَل إلى مدينةِ (جناني) ، التي تسكنُها طائفةٌ يُطلقُ عَليها السّامِرة ، وهُم سُلالَةَ الفاتِحين الذين فَتحوا الهندَ على أيامِ الحجّاجِ بنِ يُوسُف . وقد أقامُوا بالهندِ وتكاثرت ذُريّتُهم ، وهم مع طُولِ إقامتِهم بالهندِ لا يُخالِطون أحداً من أهلِها ، ولا يَتزوّجون منهم ، أو يشاركونهم في طعامٍ

أو مَسْكن، وكان على رأسِهم في ذلك الوقتِ أميرٌ يسمَّى ونار السامري.

يواصلُ ابنُ بطوطةَ رِحلتَه، ليصلَ إلى مدينةِ (سيوستان)، فيجدُها مدينةً كبيرةً وَسَطَ صحراءَ جَرْدَاء، لا يزرعُ على نهرِها سوَى البِطّيخ وبعضِ أنواعِ الحُبوب. وعندَ وصولِ الرّكبِ إلى هذه المدينةِ كان جَوّها حارًّا لِلْغاية، وقد عَرَفوا أنّ المدينةَ تكوُن في ذلك الوقتِ عندَ أوجِ حَرارتِها. ويصفُ ابنُ بطوطةَ كيف كان أصحابهُ يُواجِهون الحرّ الشّديد، فيقول «.. فكانَ أصحابِي يَقْعُدون عُريَانِين، يجعلُ أحدُهم فُوطةً على وَسَطِه، وفوطةً على كَتِفيه مبلولةً بِالماء، فما يَمضِي اليسيرُ منَ الزّمان، حتّى تَيْبَس تلك الفُوطةُ فَيبُلُّها مرّةً أخرى، وهكذا».

كابوسُ الجُثثِ المَصْلوبَة..

في تلك المدينةِ يَنزلُ ابنُ بطوطةَ بمدرسةٍ كبيرةٍ فِيها، ورغمَ أنّ الوقتَ كانَ لَيلاً، فقد كانت الحرارةُ لا تحتملُ تحتَ أيِّ سَقف، مما جعلَه يَصعدُ إلى سطحِ المدرسةِ لينامَ في العَرَاء. وقبلَ أنْ تَغْمَضَ عليناه، يَهبُّ مِن مكانِه مَفزوعاً وقد شاهدَ منظراً تقشعرُّ منه الأبدان!.. على سُورِ المدينةِ المواجهِ للمدرسةِ رأى جُثثاً مَصْلوبة، وقد حُشيَ جَوفُها فانتفختْ بشكلٍ مُقزِّز. لم يَغْمِضْ له جَفْنٌ طَوالَ تلك اللّيلة، وفي

الصباحِ صمّمَ على عَدَمِ البقاءِ في ذلك المكانِ بعدَ ذلك ، وبحثَ له عن مكانٍ آخرَ يَنامُ فيه.

كانَ منَ الطبيعيّ أنْ يستفسرَ عن قصّةِ تِلك الجُثثِ المصلوبةِ على سُورِ المَدينة ، فوصلَ إلى القصَّةِ التالية. كان حاكمُ المدينةِ يُسمّى كَما قُلنا الأميرَ ونار الساميٍّ ، وكان يَحكمُها بالاشتراكِ مع أميرٍ آخر ، هو الأميرُ قيصرٌ الروميّ. كان يَحكُمان باسمِ السّلطان ، ويعتمدان على ما يصلُ إلى ألفِ فارسٍ قوي. وكان من بينِ سكّانِ هذه المدينةِ هِنديٌّ لم يَدخلُ دينَ الإسلامِ يُدعَى رِتن ، وكان رتن هذا متفوّقاً في شؤون الحِسابِ والكِتابة ، استطاعَ أن يدخلَ على سُلطانِ الهندِ بين مجموعةٍ منَ الأمراء ، فأُعجبَ به السلطانُ إعجاباً شَديداً ، وأَطلقَ عليه لَقَبَ «عظيم السِّنْد» ، ونَصّبَه والياً على سيوستان وما يتبعُها مِن أراضٍ ومُدن.

عندَما وَصَل رتن إلى سيوستان في موكبٍ ضَخمٍ يُضاهي موكبَ أعظمِ الأُمراء ، تُدقُّ أمامَه الطبولُ وتُنفخُ الأَبواق ، اغتاظَ الأميران ونار وقَيصر ، فاتّفقا على قتلِه ، لكنّهما أَخفيا عَزْمَهما. بعدَ أيام ، أشارا على رتن أن يخرجَ إلى أنحاءِ المدينةِ لتفقّدِ أحوالِها ، ورافَقاه في جولةٍ واسعة ، وعندَما حلَّ المَساء ، ووجدَا أنّهما قد انفردا به في مِنْطقةٍ نائية ، فقتلاه ، وأثارَا ضجّةً كَبيرة ، وقد زَعما أنّ أسداً هَجَمَ على خيمتِهم ، وافترسَ رتن. وقد تَوجّها إلى المدينةِ يَحْمِلان جُثّته ، واستوليَا على كلٍّ ما كان السلطانُ قد أَعطاهُ من مالٍ وذَهَب. وأطلقَ جنودُ ونار عليه اسمَ مَلك فيروز ، فقسّمَ الأموالَ على جُندِه ، لكنْ لم يَشأْ أنْ يبقَى في المَدينة ، بعيداً عن قَبيلتِه ، فتسللَ مع رجالِه إلى هناك. أمّا قيصر فقد نَصّبه جندُه حاكماً وأميراً على المَدينة.

وصل خبرُ ما حدَثَ إلى عِلمِ عمادِ المُلْكِ سرتيز، أميرِ أمراءِ السِّند، الذي كان يُقيمُ بمدينةِ ملتان، فجهّزَ جيشاً كبيراً يزحفُ بعضُه برّاً، ويتقدّمُ باقِيه في نهرِ السّند. وحدثَ اللّقاءُ بينَ جيشِه وجيشِ قَيصر، فانهزمَ قَيصر الرومي هزيمةً مُنكرة، وتراجعَ مُتحصّناً بالمدينة، فشدّدَ عليهِ سرتيز الحِصَار. وبعدَ أرْبَعين يَوما، طَلبوا مِن سرتيز الأمانَ لينزلُوا إليه، فأَعطاهم الأمان. لكنْ ما إنْ ظَهَروا حتّى غَدَرَ بِهم وقتلَهم، ومثّلَ بأجسامِهم، وسَلخَ أغلبَهم وحَشَا جَوْفهم بالتِّبن، وعلّقهم على سُورِ المدينة، عِظةً لِلْجَميع.

وقد نَزَلَ ابنُ بطوطةَ بالمدينةِ عَقبَ تلك المَوقعة، فكان أنْ رأى تلك الجثثَ المَصلوبةَ المعلّقةَ على السُّورِ فَفزِعَ منها. وبحثَ عن مكانٍ آخرَ يَبيتُ فيه، ثم قرّرَ مُغادرةَ المَدينةِ نِهائيّا.

متاعبُ مَع رجالِ الجَمارك

أثناءَ إقامتِه بمدينةِ سيوستان، تعرَّف ابنُ بطوطةَ على الفَقيهِ العالمِ عَلاءِ المُلكِ الخُرَاساني، وإلى مَدينةِ (لاهري)، الذي كان قد حَضَرَ بجنْدِه ليساندَ سرتيز في استخلاصِه للمدينة. عندَما اعتزمَ عَلاءُ المُلكِ العودةَ إلى لاهري، طلبَ ابنُ بطوطةَ أنْ يَقْبلَه في صُحبتِه. وكان للفقيهِ عَلاءِ المُلك في نهرِ السندِ خَمسةَ عشرَ مَرْكَباً، أعظمُها يُعرفُ باسمِ الأهورة، وهي التي رَكبَها ابنُ بطوطةَ مع الفقيهِ الحَاكِم.

ولْندَعْ ابنَ بطوطةَ يصفُ المَراكبَ التي سافر بها إلى لاهري،

«نصفُها مُعرَّشٌ من خَشَبٍ يُصعَدُ إليه على دَرَج ، وفوقَه مجلسٌ مهيَّأٌ لجلوسِ الأمير، ويجلسُ أصحابُه بين يَدَيه ، ويقفُ المَماليكُ يَمْنَةً ويَسْرَةً بين يديه ، والرجالُ يُجدِّفون ، وهم نَحوُ أربعين.. ». كان يَحِفُّ بالأهورة أربعةُ مَراكِب ، اثْنان عن يَمينِها بِهما راياتُ الأميرِ ورموزُ حُكمِه وطبولُه وأبواقُه ، واثْنان عن يسارها فيهما المُغنّون وأهلُ الطَّرب ، «فتضرِبُ الطبولُ والأبواقُ نَوْبة ، ويُغنّي المغنّونُ نَوْبة ، ولا يَزالون كذلك من أوّلِ النهارِ إلى وقتِ الغَدَاء ، فإذا كانَ وقتُ الغَدَاءِ انضمَّت المَراكب ، وَوُصِلَ بعضُها ببعض ، ووُضِعت بينَها الاسْقَالاتُ ، وأتى أهلُ الطَربِ إلى أهورة الأميرِ فيُغنّون إلى أنْ يَفرغَ مِن أكلِه ، ثم يأكلون ، وإذا انقضَى الأكلُ عادُوا إلى مراكبِهم».

وعندَما يحِلُّ الليلُ تَتوقّفُ المراكبُ عن الإبْحار ، ويُقامُ مُعسكرٌ عَلى شاطئِ النّهر ، ينزلُ إليه الأميرُ وصحبُه ، حَيثُ تمدُّ الولائمُ لهم ، فيتناولُ الجميعُ طَعامَهم ، ثم يَقومون لصلاةِ العِشَاء ، وبعدَها يَبدأُ السّمرُ حتّى ينقضِي الليلُ ويَطلُعَ الصّباح ، فتواصلُ المَراكبُ إبحارَها. وقد استمرَّت تلك الرِحلةُ النهريةُ مدّةَ خَمسةِ أيام.

يصلُ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ لاهري فيجدُها «مدينةً حسنةً على ساحلِ البَحرِ الكَبير ، وبِها يصبُّ نهرُ السندِ في البَحر ، فيلتقِي بِها بَحرّان ، ولها مَرْسىً عظيمٌ يأتي إليه أهلُ اليَمنِ وأهلُ فارِسَ وغيرُهم ، وبذلك عَظُمت جِباياتُها وكثُرتْ أموالُها». يحتفِي الأميرُ عَلاءُ المُلكِ بابنِ بطّوطة ، فيَصْحبُه في رِحلاتٍ حولَ المدينة ، حتَّى يَصِلا إلى مِنْطقةٍ عامرةٍ بالآثارِ البِدائيةِ القَديمةِ التي تُسمَّى (تارنا).

يقولُ ابنُ بطوطَة في وَصْفِ تلك المدينةِ الأَثريّة «.. فَرأيت هُنالك ما لاَ يُحْصَى منِ الحجارةِ على صُورةِ الآدميّين والبهائمِ وقد تَغيَّر كثيرٌ منها، ودُثِرَت أشكالُه، فيبقَى مِنه صورةُ رأسٍ أو رِجْلٍ أو سِواهُما، ومنَ الحجارةِ أيضاً قلى صورةِ الحُبوبِ من البُرّ والحِمَّصِ والفُولِ والعَدَس، وهناك آثارُ سُورٍ وجُدرانِ دُور. ثم رَأينا رسمَ دارٍ فيها بيتٌ مِن حجارةٍ مَنْحوتَة، وفي وَسَطِه دكانةٌ من حجارةٍ مَنحوتةٍ كأنّها حَجرٌ واحِد، عليها صورةُ آدميّ إلاّ أنّ رأسَه طويلٌ وفمَه في جانبٍ من وجهِه ويَدَاه خلفَ ظهرِهِ كالْمَكْتُوف، وهناك كِتابةٌ على بعضِ الجُدرانِ بالهِنديّ»:

من لاهري يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى مَدينةِ (بكار)، ثم إلى مَدينة (أوجه) التي كان بِها فَي ذلك الوقتِ الأميرُ الذي يُدْعَى الْملكَ الشريفَ جلالَ الدِّينِ الكيجي. فتنعقدُ بَينهما صداقةٌ قويّة، تمتدُّ إلى أنْ يجتمعَا ثانيةً في عاصمةِ مُلْكِ سُلطان الهِند. ومِن هناك يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى ناحيةِ مدينةِ ملتان عاصمةِ بلادِ السِّندِ ومقرِّ أميرِ أمراءِ السِّند.

على بُعدِ عَشَرَةِ أميالٍ منَ المَدينة، يكونُ علَى ابنِ بطوطةَ أنْ يَعْبُرَ وادِيَ خسرو آباد، ويعاني بعضَ المتاعبِ مِن رجالِ الجَمارك، الذين يَفْرِضون المبالغَ على ما يَمرُّ مِن بضائعَ إلى المَدينة. ويقولُ ابنُ بطوطةَ إنّه بهذا الوَادِي «يُبحثُ عن أمتعة المُجْتازِين أشدَّ البحث، وتُفتّشُ رِحالُهم. وكانت عادتُهم في حينِ وصولِنا إليها، أن يأخذُوا الرُّبعَ من كلِّ ما يَجلِبُه التُّجّار، ويأخذُوا على كلِّ فَرسٍ سبعةَ

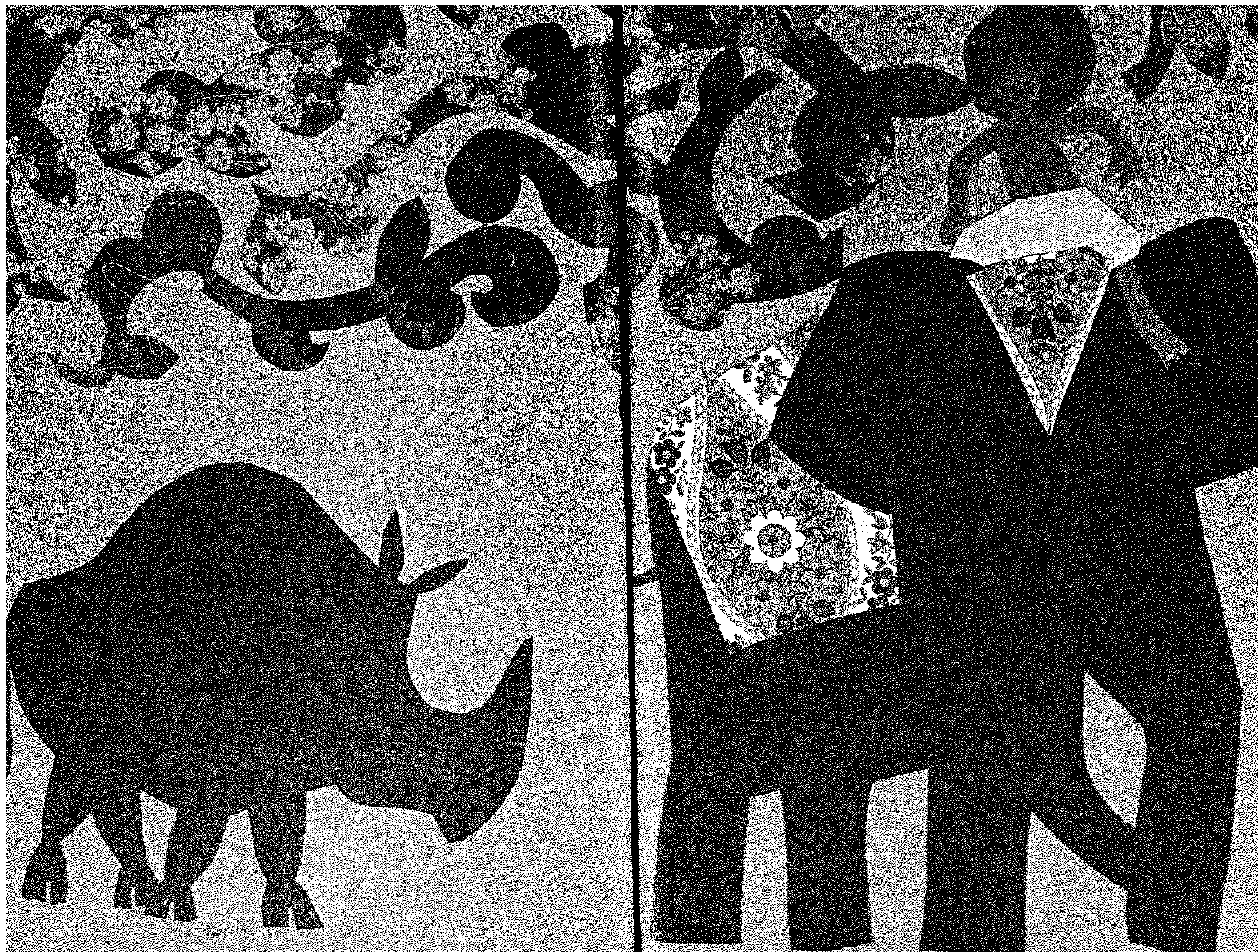
دَنَانير، ثم بعدَ وصولِنا للهندِ بسَنَتَين، رَفَعَ السلطانُ تِلكَ المَغارِمِ، وأمرَ ألاّ يؤخذَ منَ الناسِ إلاّ الزّكاةَ والعُشْر».

استاءَ ابنُ بطوطةَ منَ الطريقةِ التي فتّشَ بها رجالُ الجَماركِ أمتعتَه، فَما كان يُحبُّ لهم أنْ يَطّلِعُوا على خُصوصياتِه، لكنْ ما لبثَ أنْ أسرعَ إلى نَجدتِه أحدُ كِبارِ الجُنود، كان مُوفَداً من قِبَل الأميرِ قُطْبِ المُلْكِ وإلى ملتان، وأمرَ ألاّ يَتعرَّضَ أحدٌ لتفتيشِ أمتعتِه، وتَحرّكَ الرَّكب، ليُعَسْكرَ على شاطىءِ النّهر، ثم يَتحرّكُ في صباحِ اليومِ التالي ليدخلَ ملتان.

معركةٌ مع قُطّاعِ الطَّريق

يَحكي ابنُ بطوطَة عن لقائِه بأميرِ ملتان قُطبِ المُلْك، فيقول «لَمّا دَخلتُ عليه قامَ إليَّ وصافَحَني، وَأجلسني إلى جانبِه، وأهديت إليه مَملوكاً وَفَرسا وشيئاً منَ الزّبيبِ واللَّوْز، وهو مِن أعظمِ ما يُهدَى إليهم لأنه ليس ببلادِهم وإنّما يُجلبُ مِن خُرَاسان»، ثم يُثيرُ انتباهَ ابنِ بطوطةَ ما يَفعلُه أميرُ ملتان عندَ اختبارِ الجندِ واختيارِهم. فقد كانَ يَجلسُ وبجوارِه مَجموعةٌ مُتباينةٌ منَ الأقواس، بعضُها يسهلُ شدُّه، وبعضُها يحتاجُ إلى قوّةٍ كبيرةٍ في شَدِّها. ويأتي العسكرُ الذين يُجْرَى اختبارُهم، فَيُعطَوْنَ الأقواس، ليَرى الأميرُ إلى أيِّ مدىً تَبلغُ قوّةُ الجُنديّ، وهكذا تتحدّدُ مَرْتَبَتُه.

واختبارُ الفُرسان يَجرِي في السَّاحةِ التي يجلسُ الأميرُ في صَدْرِها.



وقد عُلّقت طَبَلةٌ على بُعد، فيتقدّمُ الفارسُ مُندفعاً وهو يُمْسكُ برُمحِه، فإذا استطاعَ أنْ يُصيبَ الطَّبلة، اجتازَ الاختبار. وكان إلى جانبِ هذا، اختبارٌ أصعبُ للفُرسان، يكونُ على الفارسِ إذا ما أرادَ اثباتَ قُدرته، أن يَخْطَفَ بسنِّ الرّمح، خاتماً مُعلّقاً في طريقه وهو يَعْدُو بقوسِه.

في ملتان يلتقي ابنُ بَطّوطةَ بقاضِي تِرْمِذ خداوند زاده، الّذي كان قد سبقَه إلى قَطْعِ البرّيّةِ التي تَهُبُّ عليها رياحُ السَّمُوم. وعَلِمَ أنّ القاضِي ينوِي السفرَ إلى عاصمةِ الهِندِ دهلي (التي نعرفها اليوم باسم دلهي). فيقررُ أنْ يَبقَى في معيّته ليسافرَ معه. أمضَى ابنُ بطوطةَ شَهْرين في ملتان، ينتظرُ حُجّابَ السّلطان الذين سيُعطونه الإذْن بالدُّخول إلى بلادِ الهِند.

عندَما وَصَلَ شمسُ الدِّين البوشنجي حاجبُ السُّلطانِ الّذي أوفدَه لاستقبالِ القاضِي خداوند زاده، سعَى ابنُ بطوطةَ إلى أنْ يأخذَ منه الإذْنَ بالدُّخول، فسألَه الحاجبُ عن سببِ مَجيئِه إلى الهِند، فقال ابنُ بطوطةَ إنه جاءَ للإقامةِ بالهندِ اقامةً دائمةً والعَمَلَ بِها. والسرُّ في ذلك أنّه كان قد علمَ أنّ القادِمين من خُراسان لا يُسمحُ لهم بالدُّخولِ إلاّ إذا جاءُوا للإقامةِ الدّائمة.

وهكذا بَدأت رِحلةُ ابنِ بطوطةَ مِن ملتان إلى دهلي، ماضياً ضِمْنَ رَكْبِ القاضِي الذي كانَ السّلطانُ قد أرسلَ إليه حَشْداً منَ الخَدَمِ والطُّهاة، لتسهيلِ رِحلتِه التي تستمرُّ أرْبعين يَوماً. ويصفُ ابنُ بطوطةَ الاستعداداتِ الّتي كانت تُجرِي لتكرِيم القَاضي، فيقول «استَصْحَبوا مِن ملتان نَحوَ عِشرين طاهياً، وكان الحاجبُ يتقدّمُ ليلاً

إلى كلِّ مَنزِل ، فَيجهِّزُ الطَّعامُ وسِواه ، فَما يصلُه خداوند زاده حتّى يكونَ الطعامُ مُتيسِّراً . . » .

وكانت أولَ مدينةٍ مِن مُدنِ الهندِ يصلُها ابنُ بطوطةَ هي (أبوهر) ، وَيبدُو أنّها مَدينةٌ صَغيرة ، لأنّه يقولُ «وهي أوّلُ تلك البلادِ الهِنديّة ، صغيرةٌ حَسَنَةٌ كثيرةُ العَمَارةِ ذاتُ أنهارٍ وأشْجار ، وليس هناك مِنْ أشجارِ بِلادِنا شَيْءٌ ما عدا النَّبَق ، لكنّه عندَهم عَظيمُ الجِرمِ شديدُ الحَلاَوة» . ومن أبوهر يسافرُ الرَّكْبُ في صَحْراءَ يقطعُها المسافرُ عادةً في يَوم . وكانت هذه الصَّحراءُ تُحاذِيها سِلسلةٌ من الجبالِ العَالِية ، يَسكُنُها الهنودُ البِداثيّون ، يُطلِقُ عَليهم ابنُ بَطّوطةَ اسمَ (كفّار الهُنود) . وقد عَرفَ ابنَ بطوطة ، قبلَ أنْ يَبدأ رِحلتَه عبرَ هذه الصَّحْراءِ ، أنّ سُكّانَ هذه الجبالِ يَقْطعون الطريقَ على المُسافِرين ويَنْهَبُونهم ، ثم يَخْتفُون في الجبالِ المَنيعَة ، فاستعاذَ باللهِ منهم .

بدأ رِحلتَه عندَ انتصافِ النَّهارِ مِن أبوهر ، بِرفقةِ اثْنَين وعشرين فارِساً ، وما أَنْ تَوسَّطوا الصّحراءَ حتّى تَصدّى لَهم كُفّارُ الهُنود ، فيقولُ ابنُ بطّوطةَ في ذلك «خَرجَ عَلينا في تلك الصّحراءِ ثَمانون رجلاً من الكُفّار ، وفارِسان . وكان أصحابِي ذوِي خبرةٍ وعُتيٍّ ، فَقاتلناهم أشدَّ القِتال ، فَقتلنا أحدَ الفارِسَين منهم وغَنِمْنا فَرسَه ، وقتلْنا مِن رجالِهم نَحو اثْنَتيْ عَشَرَ رجلاً ، وأصابَتْني نُشّابَةٌ وأصابَتْ فَرسي نُشّابةٌ ثانية ، ومَنَّ اللهُ بالسَّلامةِ منها ، لأنّ نُشّابَهم لا قُوّةَ لها . وجُرِحَ لأحدِ أصحابِنا فَرَس ، عَوّضْنا له بفرسِ الكَافِر ، وذَبحنا فرسَه المَجْروح ، فأكلَه التُّرك مِن أصحابِنا . . » .



الزوجةُ تُلقي بنفسِها في النّار

يصلُ ابنُ بطوطةَ ومَنْ مَعه عندَ انتصافِ الليلِ إلى حِصنٍ بالطريقِ يسمَّى حصنَ (أبي بكهر)، ثم يُواصلُ الرّكبُ ارتحالَه، فيصلُ بعدَ يَومين إلى مَدينةِ (أجودهن)، وفي هذه المدينةِ يَلتقي ابنُ بطوطةَ بالشَّيخِ فريدِ الدِّين البنداواني، فيقولُ عنه «وهذا الشيخُ مُبتَلى بالوَسْوَاسِ والعياذُ بالله، فلا يصافحُ أحداً ولا يَدْنُو منه. فإذا أُلصِقَ ثَوبُه بثوبِ أحدٍ غَسَلَ ثَوْبَه..».

عندما خَرجَ ابنُ بطوطةَ منْ عِند ذلك الشَّيخ، رأَى رفاقَ رِحلتِه يَجْرُون في اتجاهٍ واحِد، فسألَ أحدَهم عن سرِّ هذا العَدْو، فقالَ إن كافراً منَ الهنودِ قد مات، وأنَّ أصحابَه قد جمعوا الحطَب، وأُشْعِلت النارُ حتَّى يُحرِقوا جُثَّته، وأنَّهم سيُحْرِقون معه زوجتَه وهي حيّة، وأنّ هذه هي عادةُ الكفّارِ من أهلِ الهِند.

لم يَجِدْ ابنُ بطوطةَ في نفسِه القُدرةَ على مشاهدةِ مثلِ هذا المَنظرِ القَاسِي. فانتظرَ حتّى عادَ إليه أصحابُه، وقالُوا له إنّ الزوجة عانقَت زوجَها الميّتَ حتّى احْترقت معه. ويَحكي ابنُ بطّوطةَ عَن هذا الجوّ الذي شاهَد تفاصيلَه بعدَ ذلك كَثيراً أثناءَ اقامتِه بالهِند، فيقول «كُنت في تلك البلادِ أرى المَرأةَ من كُفّارِ الهندِ مُتزيِّنةً راكبةً والناسُ يَتْبَعونها مِن مُسْلمٍ وكافِرٍ والأطْبالُ والأبواقُ بَين يديها، ومعها البَرَاهمةُ وهُم كِبارُ الهُنود. وإذا كان ذلك ببلادِ السّلطانِ اسْتأْذَنوا السلطانَ في إحراقِها، فيُؤذَنُ لهم، فيُحْرِقُونها».

ويقولُ ابنُ بطّوطة إنّ إحراقَ المَرأةِ بعدَ موتِ زَوجِها أمرٌ يعودُ إلى الزّوجةِ وهو لَيس اجبارياً، لكنّ المرأةَ التي تُحرقُ نفسَها مع زَوجِها المُتوفّى، يكونُ ذلك شرفاً لأهلِها وعَشيرتِها. أمّا التي لا تَقْبلُ ذلك، فانّها تَلْبَسَ الثّيابَ الخَشِنةَ الرّخيصة، وتقيمُ عندَ أهلِها بائسةً مُمْتَهَنة، لأنها لمْ تُعْطِ الدليلَ على وفائِها.

ثم يَحكي ابنُ بطّوطةَ عَن واقعةٍ شاهدَها بعدَ ذلك بمدينةٍ تُسمّى (أبحرى)، وكان أميرُ هذه المدينةِ مُسْلماً، لكنّ أغلبَ سُكّانِها من الكُفّار. وكانت تَعيشُ بالقربِ من هذه المدينةِ عصاباتٌ منَ الكفّارِ العُصاةِ قُطّاع الطّرق. يَقول «فَقَطعُوا الطريقَ يوماً وخَرجَ الأميرُ المُسلمُ لقتالِهم، وخَرَجَتْ مَعه رعيّةٌ منَ المُسلمين والكُفّار، ووقَعَ بينهم قتالٌ شديدٌ ماتَ فيه مِن رعيّةِ الكفّارِ سبْعة، وكان لثلاثةٍ مِنهم زَوْجات، فاتّفقن على إحراقِ أنفُسِهنّ...».

ويَروِي ابنُ بطوطةَ كيف بَدأت مَراسمُ الاحتفالِ بالحَريق. أَمْضت النّساءُ الثلاثُ ثَلاثةَ أيامٍ في غِناءٍ وَطَربٍ وطَعامٍ وشَراب، كأنّهن يُودِّعن الدّنيا قبلَ أنْ تَلْتهِمَهُنَّ النّار، ويقول «وفي صَبيحةِ اليومِ الرابعِ أتتْ كلّ واحدةٍ مِنهن بِفرسٍ فَرَكِبَتْه وهي متزيّنةٌ مُتعطِّرة، وفي يُمناها جَوزةُ نَرْجيلٍ تَلعبُ بها، وفي يُسْراها مرآةٌ تَنظُرُ فيها وَجْهَهَا، والبَراهمةُ يَحِفّون بِها وأقارِبُها معها، ومِن بَينِ يَدَيها الأطبالُ والأبواقُ والأنْفار، وكلُّ إنسانٍ منَ الكفّارِ يقولُ لَها أبلغي السلامَ إلى أبِي أو أخِي أو أمّي أو صاحِبي، وهي تقولُ نَعَم وتَضحكُ إليهم. وركبت مع أصحابِي لأرى كيفيةَ صُنعِهن في الإحْراق، فَسِرْنا مَعَهن نحوَ ثَلاثةِ أميالٍ وانتهينا

إلى موضعٍ مُظلمٍ كثيرِ المِياهِ والأشجار، متكاثفِ الظِّلال، وبينَ الأشجارِ أربعُ قِبابٍ في كلِّ قبّةٍ صَنَمٌ منَ الحِجارة، وبينَ القِبابِ صهريجُ ماءٍ تَكاثَفت عليه الظلالُ وتَزاحَمتِ الأشجارُ فَلاَ تتخلّلُها الشّمس، فكأنّ ذلك الموضعَ بُقعةٌ مِن بُقَعِ جَهَنّم، أعاذَنا اللهُ مِنها!..».

عِندَما وَصلت النّساءُ إلى ذلك المَوقِع، نَزَلْن إلى صِهريجِ المِيَاه، بعدَ أنْ خَلَعنَ كُلَّ ما عَليهن من ثيابٍ وحُليٍّ وتَصدَّقْن بها على الفُقَراء. وعندَ انتهاءِ الأستِحْمام، ارتدتْ كلٌّ واحدةٍ مِنهن ثَوباً قُطنيًّا خَشِناً. وكانت النّيران قد أُشعِلت بالقُربِ مِن ذلك الصِّهريج في موضعٍ مُنخفِض، وقد صُبَّ عليها بعضُ أنواعِ الزّيت حتّى يَزيدَ اشتعالُها. يقولُ ابنُ بطّوطة «وهناك نَحوُ عَشَرةٍ بأيديهم حِزَمُ الحَطبِ الرّقيق، ومَعهم نَحوُ عشرةٍ بأيديهم خَشَبٌ كِبار. وأهلُ الأطبالِ والأبواقِ وقوفٌ يَنتظرون مَجيءَ المَرأة، وقد حُجِبَت النارُ بمِلْحَفَةٍ يُمسكُها الرجالُ بأيديهم.. فَرأيت إحداهن لَمّا وصلت إلى تلك المِلْحَفةِ نَزَعَتْها مِن أيدِي الرجالِ بعُنْف، وقالت لَهم وهي تَضحك: أبالنارِ تُخوِّفونَني؟.. أنا أعلمُ أنها نارٌ مُحْرِقة!..».

تقدّمت المرأةُ بشَجاعةٍ بعدَ ذلك، ورَفَعَت يديها على رأسِها تَحيّةً للنّار، ثُم ألقت بنفسِها وَسَطَ اللّهَب، بينما انْطلقت الطُبولُ والأبواقُ والمَزامِير، وقد أسرعَ الرجالُ يُلْقون ما بأيديهم مِن حطبٍ وخَشَبٍ فوقَ المرأةِ حتّى لا تتحرّك من مكانِها وَسَطَ النّار.

يَحكي ابنُ بطوطةَ وقْعَ ذلك عليه فَيقول «ارتفعت الأصواتُ

وكَثُرَ الضَّجيج، ولمَّا رَأيت ذلك كِدت أسقُطُ عَن فَرسِي، لَولاَ أصحابِي تَدَارَكُوني بالماءِ فَغَسَلُوا وجهِي وانْصرَفت..»، ثم يقول «وكذلك يفعل أهلُ الهِنْدِ في الغَرَق. يُغْرِقُ كثيرٌ منهم أنفسَهم في نهرِ الكنك وهو الذي يحجّون إليه، وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحروقين.. وإذا أتى أحدُهم ليُغرقَ نفسَه يقولُ لِمن حَضَره: لا تَظنّوا أنّي أُغرقُ نفسي لأجلِ شَيْءٍ مِن أمورِ الدّنيا أو لقلّةِ المال، انّما قَصْدِي التقرّبُ من اللهِ عزَّ وجَلَّ، ثم يُغرقُ نَفْسَه، فإذا ماتَ أخرجوه وأحرقوه، ورَمَوْا برَمادِهِ في النّهر».

تحيّة العَرْشِ الخالي!.

في الطريقِ إلى العاصمةِ دهلي يَمرُّ ابنُ بطوطَة على عِدّةِ مُدنٍ مثل (سرستي) و(حانسي) و(مسعود آباد). يبقَى ابنُ بطوطةَ في مسعودَ آباد ثَلاثة أيامٍ قبلَ أن يَقْطعَ الأميال العَشَرَةَ التي تَفصِلُ بينَه وبينَ العَاصمة. لم يَكنْ سُلطانُ الهندِ مُقيماً بعاصمتِه، وكان قد سَافرَ إلى مدينةٍ تبعُدُ عنها مَسيرةَ عَشَرة أيام واسمُها (قنوح). لكنَّ وزيرَه أحمدَ ابن إياس بعثَ إلى ابنِ بطّوطةَ بعددٍ منَ الفُقهاءِ والشّيوخِ لاستقبالِه، وكَتبَ إلى السلطانِ يُخبرُه بوصولِ ابن بطّوطة، وأرسلَ الخطابَ عن طريقِ بريدِ المُشَاة، الّذي تكلّمْنا عنه مِن قَبل، فَوصلَ الخطابُ إلى السُّلطانِ وجاءَ الردّ في خِلالِ الأَيامِ الثّلاثةِ التي بَقِيَها ابنُ بطوطةَ في مَسعودَ آباد.

عندَ ذَلكَ تَحرَّكَ الركبُ حتَّى وَصلَ إلى العاصمةِ دهلي. وفي هذا يَقولُ «وَصَلْنا إلى حَضْرةِ دهلي قاعدةِ بلادِ الهِند، وهي المدينةُ العَظيمةُ الشَّأن، الضّخمةُ الجامِعةُ بينَ الحُسنِ والحَصَانَة، وَعَليها السّورُ الذي لا يُعلَمُ له في بلادِ الدُّنيا نَظِير، وهي أعظمُ مُدنِ الهِند، بل مدنِ الإسلامِ كلِّها بالمَشْرِق».

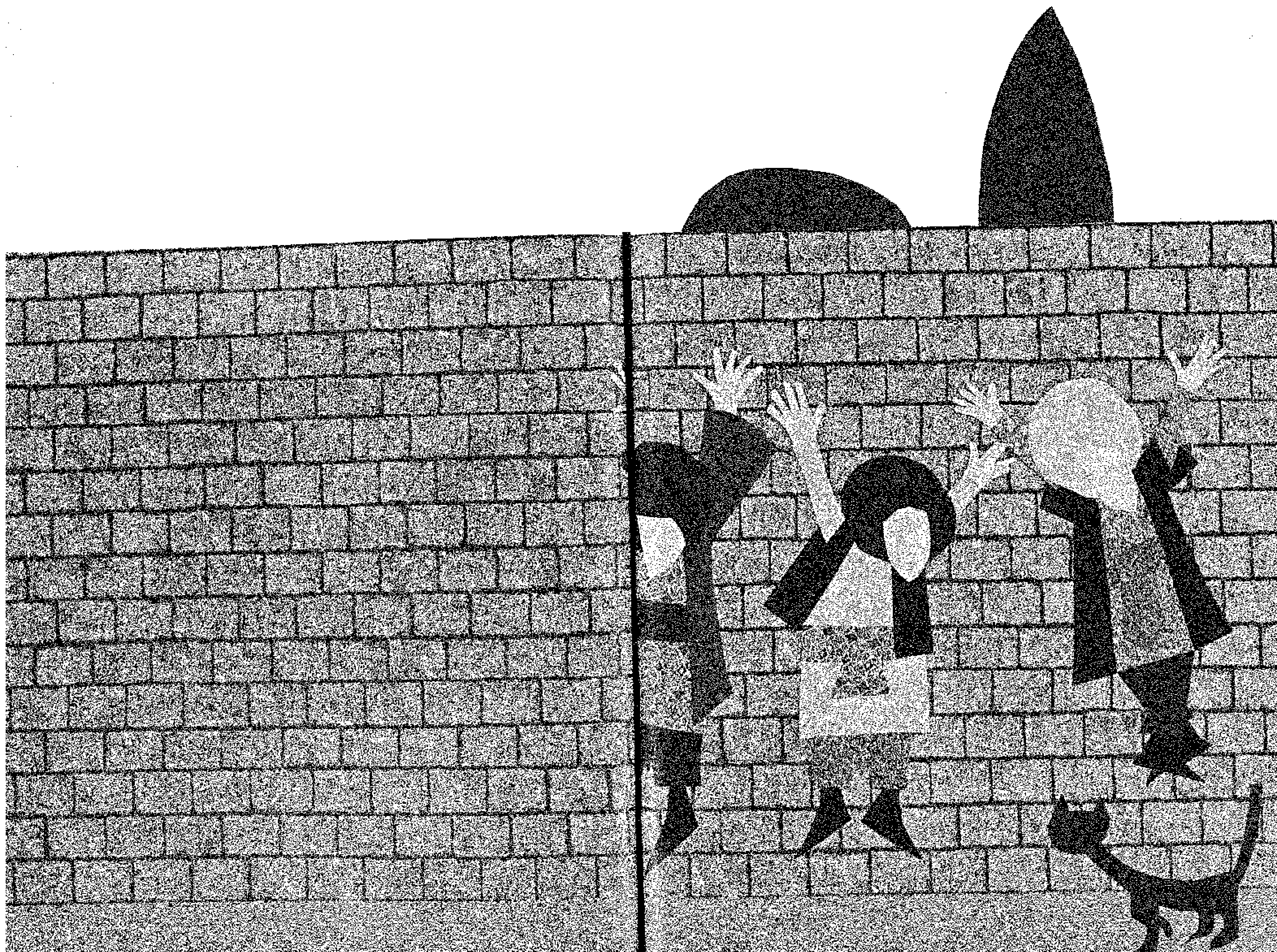
انضمَّ ركبُ ابنِ بطوطة إلى رَكبِ قاضِي تِرْمِذ خداوند زاده، عندَ دُخولِ العاصمةِ. وتوجَّه الجميعُ إلى قَصرِ السُّلطانِ المُسمّى (دار سرى). والقصرُ لَه أبوابٌ كثيرة، عندَ البابِ الأولِ يَجتمعُ الرِجالُ الذين يَنفُخُون الأبواقَ والمَزاميرَ ويَدُقُّون الطُّبول. فإذا جاءَ أميرٌ أو كَبير، أُعلنَ اسمُ القَادِمِ في نِداءاتٍ مُتَتاليةٍ أثناءَ العَزْف، ونفسُ الشيىء يحدثُ عندَ البابِ الثّاني وبخارجِ البابِ الأولِ أماكنُ يَجلِسُ عليها الجَلاَّدون المَوكولُ إليهم تنفيذُ أحكامِ الإعدامِ التي يصدرُها السُّلطان. وكان إذ نُفِّذَ حكمُ الإعدامِ في شَخْص، بقيَ جُثمانُه عندَ البابِ الأولِ مدّةَ ثَلاثةِ أيّام.

بينَ البابِ الأولِ والثّاني ممرٌّ كبير، عَلى جانِبَيه أماكنُ لجلوسِ رجالِ الحَرَسِ في نَوْباتِهم. وعندَ البابَ الثاني ينتظرُ الحَرَس. وبينَ البابِ الثاني والثالثِ مكانٌ كبيرٌ يَجلسُ فيه كبيرُ ضُبّاطِ الحَرَس، ويسمّى نَقيبَ النُّقبَاء. ويصفُ ابنُ بطوطةَ حال نَقيبِ النُّقبَاء ومَن مَعه، فَيقول «وبينَ يَدَيه عَمودُ ذَهبٍ يُمْسكُ به، وعلى رأسِه كلّةٌ مِنَ الذَهبِ مُجَوهَرَة، وفي أعلاها رِيشُ الطَّواويس، والنُّقبَاءُ بين يديه، على رأسِ كلِّ واحدٍ مِنهم شَاشِيَّةٌ مُذهّبة، وفي وَسَطِه مِنْطَقَة، وبيدِه سَوْطٌ مَقبَضُه مِن ذَهبٍ أو فِضّة».

عندَما وَصَلَ قاضِي تِرْمذ وابنُ بَطوطَة ومَن مَعهما إلى مكانِ نَقيبِ النُّقبَاء، نَهَضَ وتقدّمَهم إلى قاعةٍ مُتّسعة، حيث كان الوَزيرُ في انتظارِهم. وبعدَ تَبادُلِ التحيّة، واصَلوا جميعاً تَقَدّمَهم إلى البابِ الثّالث. وهذا البابُ يَقِفُ عليه الحَرَس، ويجلسُ عندَ فَتحتِه الكَتَبَةُ الذين يُسجِلّون أسماءَ الدّاخلين، ولا يَعْبُرُ هذا البابُ إلاّ مَن يَسمحُ لَهم السلطانُ بالدُّخول، فيُعيِّنُ لكلٍّ داخلٍ مَنْ يَسْمحُ له باصطحابِهم.

يَعبُرُ ابنُ بطوطةَ مع باقِي الجَماعةِ البابَ الثّالث، إلى القاعةِ الضَّخْمةِ التي تسمَّى (هزار أستون) ومَعناها ذَاتُ الأَلفِ عَمُود، وهي القاعةُ التي يَجلِسُ فيها السلطانُ إذا كان مَوجوداً ليستقبلَ زَائرِيه. ورغمَ عَدمِ وجودِ السُّلطانِ فوقَ عَرشِه، فقد تقدّمَ الوزيرُ فانحنَى ناحيةَ العَرْشِ حتّى كادَ رأسُه أن يَلْمَسَ الأرض، وفَعَلَ مثلَه ابنُ بطوطةَ ومَنْ كان معه. وعندَما انتهَى الجَميعُ مِن تحيّةِ العَرشِ الخَالِي، صاحَ النُّقَبَاءُ بأصواتٍ عالية «بسمِ الله..»، وهذا يَعني انتهاءَ الزِيَارة، فخرجَ الجميعُ يتقدّمُهم الوَزير، مُتوجِّهين إلى وَالدةِ السُّلطانِ لتحيَّتِها.

خرجَ الجميعُ مِن بابِ الانصرافِ الذِي يُسمَّى (بابَ الحَرَم)، حيث تُقيمُ والدةُ السلطانِ جِهان. يصفُ ابنُ بطوطةَ هذا قائلاً «فلَمّا وَصَلْنا إلى بابِها نَزَلْنا عن الدوابِّ وكلٌّ واحدٍ مِنّا قد أتَى بهديّةٍ على قَدْرِ حالِه، ودَخلَ مَعنا قاضِي قُضاةِ المَماليكِ كمالُ الدّينِ بُرْهان. فَخدَمَ الوزيرُ والقاضِي عندَ بابِها (أيّ قاما بالتّحيّة)، وخَدمْنا كَخدمتِهم، وكتبَ كاتبُ بَابِها هَدايانا، ثم خَرَجَ مِنَ الفِتْيانِ جَماعة وتقدّمَ كبارُهم إلى الوَزير، فكلّمُوه سرًّا ثُمّ عادُوا إلى القَصر، ثم رَجَعوا إلى الوَزير،



ثم عادُوا إلى القَصر، ونحنُ وَقُوف، ثم أُمِرْنا بالجُلوسِ في سَقِيفةٍ هُنالِك.

بعدَ قليلٍ أَقبلتْ مَوائدُ الطَّعام، ويبدُو أنّ التَّشاوُرَ الطَّويلَ بينَ الوَزيرِ ورجالِ والدةِ السُّلطانِ الذي حَكَى عنه ابنُ بطّوطة، كان لِلاتفاقِ عَلى أمرِ هذه الوَليمة. بعدَ الانتهاءِ مِن تناولِ الطَّعامِ والشّراب، بدَأ توزيعُ الْهَدايا التي قَدّمتْها والدةُ السُّلطان، فيقولُ ابنُ بطّوطة «ووقفَ الوزيرُ ووقفْنا مَعه، ثم أُخرِجَ مِن داخلِ القصرِ حَريرٍ وكتّانٌ وقُطن، فأُعطيَ كُلٌّ واحدٍ مِنّا نصيبَه منها». وتضمّنت الهدايا أيضاً آنيةَ ذَهبٍ فيها الفَواكهُ المجفّفةُ والحَلْوَى، وبهذا انتهتْ تحيّةُ السّلطانِ ووالدتِه، وانصرفَ الجميعُ إلى الدارِ التي أُعِدّت لنزولِهم.

يصفُ ابنُ بطوطةَ هذه الدّار، فيقول «ولمّا وَصَلت إلى الدّار التي أُعِدّت لنزولي، وَجدت فِيها ما يُحتاجُ إليه مِن فَرْشٍ وبُسُطٍ وحُصُر وأواني وسَريرِ الرُّقاد. وأَسِرَّتُهم بالهندِ خَفيفةُ الحِمْل، يَحمِلُ السريرَ مِنها الرجلُ الوَاحدة، ولا بدّ لكلٍّ واحدٍ أن يستصحبَ السريرَ في السّفر، يحملُه غُلامُه على رأسِه.. وأَتَوْا تلك الليلةَ بِرُجَلين أحدُهما الطّاحونيّ (الموكولُ إليه أمرُ الدّقيق)، ويُسمُّونه الخَرّاص، والآخرُ الجزّارُ ويسمّونُه القَصّاب، فَقَالوا لِتأخُذوا مِن هذا كَذا وكذا من الدّقيق، ومِن هذا كذا وكذا من اللّحْم». كانت هذه هي ضيافةَ والدةِ السّلطان، وبعدَها وَصَلت ضِيافةُ السلطانِ التي كانت أَعظم، تَتضمَّنُ المالَ والثِّيابَ والطّعام.

أسوارُ دَهْلي وجامعُها

اطمأنَّ ابنُ بطوطةَ على مُقامِه، فبدأَ يتَطلّعُ مِن حولِه، مُستكشفاً مَعالمَ العاصمةِ التي يَعيشُ فيها. فيجدُها مدينةً كبيرةً للغاية، هي في واقعِ الأمرِ أربعُ مدنٍ متجاوراتٍ متَّصِلات. أقدمُ هذه المُدنِ الأربعِ تِلك التي أنشأها الهُنودُ قبلَ دُخولِ الإسلام، والتي أُطلِقَ أسمُها دَهْلي على العَاصمة. والمدينةُ الثّانيةُ تسمَّى (سيري) ويطلقُ عَليها أيضاً دارُ الخِلافة، وهي مقرُّ السّلاطينِ السَّابقين. والثالثةُ تُسمَّى (تغلق آباد) على اسمِ بانِيها السّلطانِ تغلق والدِ السّلطانِ الحالي. والرابعةُ تُسمَّى (جهان بناه) وهي التي يَسكنُها السلطانُ الحَالي.

والسُّورُ الذي يُحيطُ بالعاصمةِ منَ الأسوارِ الضَّخْمة، يصفُه ابنُ بطّوطةَ فيقول «والسورُ المُحيطُ بمدينةِ دَهْلي لا يوجدُ له نَظيرٌ، عَرْضُ حائطِه أحدَ عَشرَ ذِرَاعاً وفيه بيوتٌ يَسكنُها السُّمّارُ وحُفّاظُ الأَبْواب، وفيها مخازنُ للطّعَام يُسمّونُها الأَنْبارَات ومخازنُ للعُدَد، ومخازنُ للمَجانِيق والرَّعَّادَات (وهي من الأسلحة)، ويبقَى الزّرعُ بها مدةً طائلةً لا يتغيّرُ ولا تَطرُقُهُ آفة، ولقد شاهدتُ الأَرُزَّ يُخرَجُ مِن بعضِ تِلك المخازنِ ولونُه أسْود، ولكنّ طَعمَه طَيّب».

ثم يصفُ بناء السّور، فيقول «ويَمشي في داخلِ السورِ الفُرسَانُ والرِّجالُ من أوّلِ المدينةِ إلى آخرها، وفيه طِيقَانٌ مُفتّحةٌ إلى جهةِ المَدينةِ يَدخلُ منها الضَّوء، وأسفلُ السورِ مَبنيٌّ بالحِجارة، وأعلاهُ بالآجرٌ، وأبراجُه كَثيرةٌ مُتقارِبة. ولهذه المدينةِ ثمانيةٌ وعِشرون باباً. وهم يُسمّون البابَ دروازة».

وممّا يثيرُ إعجابَ ابنِ بطوطةَ في دَهلي جامعُها الضَّخم، المبنيُّ بالحِجارةِ البَيضاءِ المَنحوتةِ نَحتاً جَميلاً، وملصقةٌ بالرّصاصِ في إتْقان. ولجامعِ دَهلي ثلاثَ عشرةَ قُبّةً من الحجارة، وله أربعةُ صُحون، وفي وَسَطِ الجامعِ عَمودٌ من مَعدِنٍ غريب، قال أحدُ حُكماءِ الهندِ لابنِ بطوطةَ إنّه مصنوعٌ من مَعدِنٍ يسمّى بالهندِيةِ هفت جوش، وتعني المَعادنَ السّبْعة. وكعادةِ ابنِ بطوطةَ راحَ يسجّلُ قِياساتِه للجامِع، فَفكَّ شاشَ عِمامتِه وَبَسَطه، ثم لفّه حولَ العَمودِ ليعرفَ مقدارَ مُحيطِه، ويقول إنّه يبلغ ثَمانيةَ أَذْرع، ثم يقول «.. وعندَ البابِ الشّرقيّ منْ أبوابِ المسجدِ صَنَمانِ كَبيران جدّاً منَ النُّحاسِ مَطروحان بالأرضِ قدْ أُلصِقَا بالحِجَارة، ويطأُ عليهما كلُّ داخلٍ إلى المسجدِ أو خارجٍ منه»، ذلك أنَّ الجامعَ كان قد بُنيَ في موقعِ معبدٍ وَثَنيّ.

ويَحكي ابنُ بطوطَة عَن صَومعةٍ في الصَّحْنِ الشَّماليِّ للمسجد، لم يَرَ مَثيلاً لَها في بلادِ الإسلامِ كُلِّها. وهي مصنوعةٌ منَ الرُّخَام الأبيضِ والذَهبِ الخَالِص. وممرُّ هذه الصومعةِ يبلُغُ منَ الاتساع والقوّةِ بحيثُ يُمكنُ للفيلِ أن يَصعدَ عليه، ويحكي ابنُ بَطّوطة «حَدّثني مَن أثقُ به أنّه رأى الفيلَ حين بُنِيت يَصعدُ بالحِجارةِ إلى أعلاها».

سِرُّ تَسميةِ الشّيخِ الكَفكيّ

يواصلُ ابنُ بطوطةَ جولاتِه الاستِكْشَافِيّةَ في الْمَدينة، فَيَرى بخارجِ دَهلي حَوْضاً عَظيماً (أو برْكة) يتجمّعُ فيه الماءُ الذِي تَشربُ منه

الْمَدِينة ، ويتجمّعُ الماءُ فيه عندَ سقوطِ الأَمْطار ، طولُه حَوالَي مِيلَين وعرضُه حَوالَي مِيلْ ، وعلى جانِبَيه حُجُراتٌ صغيرةٌ مُوزّعةٌ يَهْبِطُ مِنها دَرَجٌ حَجَرِيٌ ، ينزلُ عليه الناسُ ليأخُذوا الْمَاء ، وبجانبِ كلِّ حُجرةٍ من الحُجُرات «قُبّة من حجارةٍ فيها مجالسُ للمتنزّهين والمُتفرّجين. وفي وَسَطِ الحَوضِ قبّةٌ عظيمةٌ منَ الحِجارةِ المَنْقُوشة ، مجعولةٌ طَبقَتَين ، فإذا كثُرَ الماءُ في الحَوْض ، لم يكنْ مِنْ سبيل إليها إلاّ في القَوارِب . وفي داخلِها مَسْجِد ، وفي أكثرِ الأوقاتِ يُقيمُ فِيها الفقراءُ المُنقطعون إلى الله .. فإذاَ جفَّ الماءُ في جوانبِ هذا الحَوْضِ زُرِعَ فِيها قَصَبُ السّكّر والخِيارُ والقِثّاءُ والبِطّيخ» .

ثم يَحكِي ابنُ بَطوطة عَن حَوضٍ آخرَ أكبرَ مِن هذا الحَوْض ، يقعُ بَين دَهلي ودارِ الخلافَة ، على جوانبِه أربعون قُبّةً يسكُنُ فيها المُغَنّون والعازِفون ، ويُطْلِقون على مكانِهم اسمَ (طَرَب آباد) . ويقولُ إنّ أهلَ الطَرَبِ من الرجالِ والنساءِ يُواظِبون على أداءِ فَرائضِ الدِّين ، فيقول «ولقد شاهدتُ الرِجالَ أهلَ الطَرَبِ في عُرسِ الأميرِ سيف الدّين ، ولكلِّ واحدٍ مِنهم مُصلّي تحتَ رُكبتِه ، فاذا سَمِعَ الأذانَ قامَ فتوضّأَ وصلّى ..» .

ولا يَنْسَى ابنُ بطوطَة أنْ يزورَ القُبورَ الهامّةَ في المدينة ، وهو يَحكِي هنا عن قبرِ أحدِ الشّيوخ فيقول «فَمِنها قبرُ الشّيخ الصالحِ قُطْبِ الدّين بَخْتِيَار الكَعكيّ » .. وسببُ تَسميةِ هذا الشّيخ بالكعكيّ أنّه كان إذا أتاهُ الّذين عليهم الدُّيونُ شَاكِين منَ الفَقرِ أو القِلةِ أو الّذين لهمَ البناتُ ولَمْ يَجِدوا ما يُجهِّزوهُنّ به إلى أزواجِهن ، يُعطِي مَن أتاه مِنهم كَعكةً منَ الذَهبِ أو مِنَ الفضّةِ حتّى عُرِفَ مِن أجلِ ذلك بالكعكيّ ..» .

كما يَحرِصُ ابنُ بطوطةَ على مُلاقاةِ فُقَهاءِ ومشايخِ المَدينة. ويَحكي عن شيخٍ صالحٍ عالمٍ منهم اسمُه عَلاءُ الدِّينِ النِّيلي، نسبةً إلى نِيلِ مصرَ على ما يُظَنّ، كان عندَما يعظُ الناسَ يومَ الجمعة، يَتُوبُ مِنهم الكَثير، وَيَسقُطُ بعضُهم مَغشيًّا عليه من فَرطِ التأثر. ويَحكي ابنُ بطوطَة واقعةً لذلك الشيخِ حَضَرَها بنفسِه، فقد كانَ الشيخُ يَعظُ ذاتَ يومٍ فردّدَ بعضَ الآياتِ التي تتحدّثُ عن يَومِ الساعةِ والحِساب. يقولُ ابن بطوطة «.. فصاحَ أحدُ الفُقراءِ مِن ناحيةِ المسجدِ صيحةً عَظيمة، فأعادَ الشيخُ الآية، فصاحَ الفقيرُ ثانية، ووقَعَ مَيْتاً. وكنت فِيمَنْ صَلّى عليه، وحَضَر جَنازَته..».

شعائرُ العَزاءِ في وَفَاةِ الأبنَة

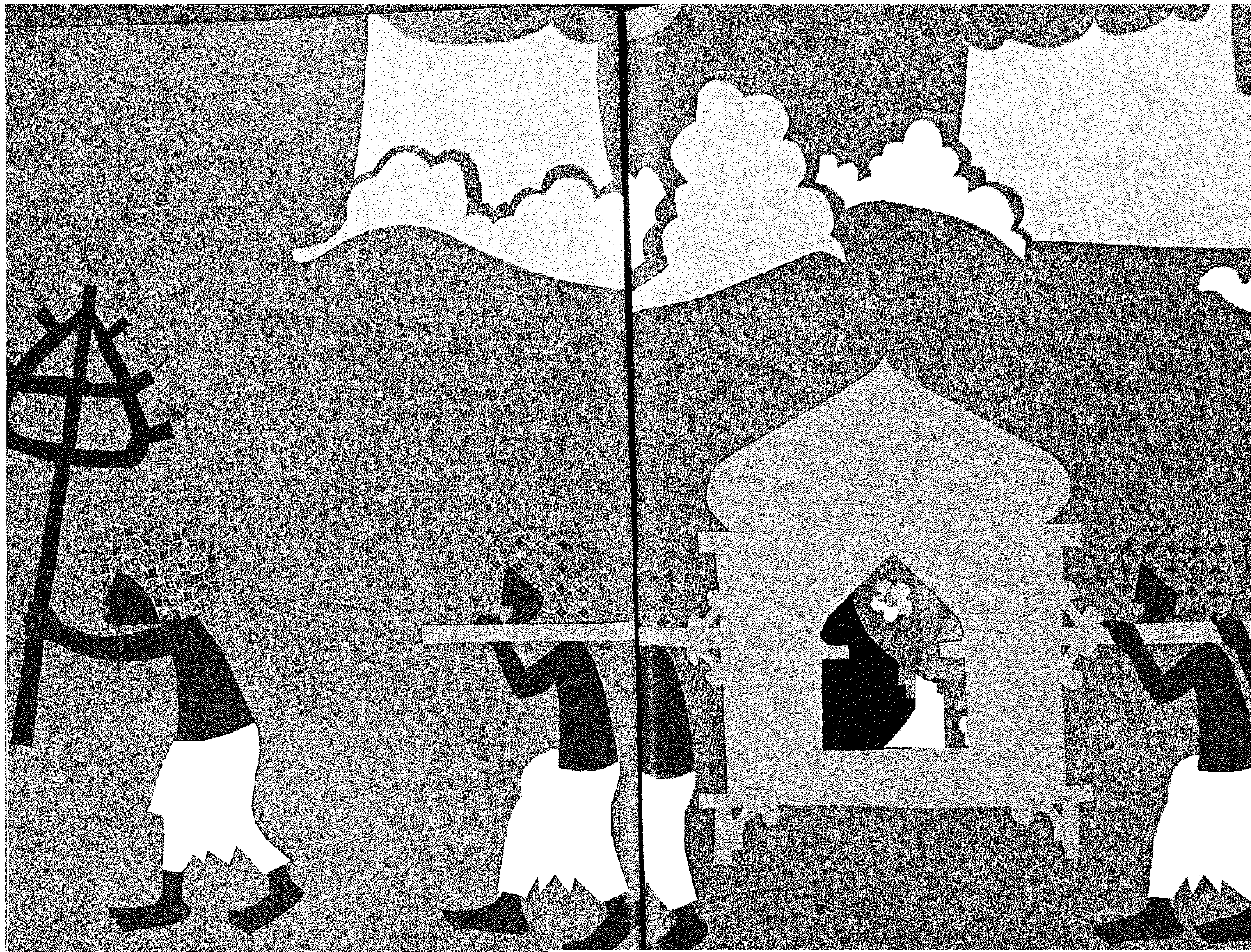
مَضَى شَهرٌ ونصفٌ على وُصولِ ابنِ بطّوطة، ولم يَحضُرِ السّلطانُ بعدُ إلى عاصمةِ مُلكِه. ثم حَدث أنْ تُوفِّيتَ طفلةٌ لابنِ بطوطةَ لمْ تبلُغْ بعدُ السنةَ مِن عُمرِها. وعلمَ الوزيرُ بخبرِ الوَفَاة، فأمرَ أنْ تُدفَنَ في زاويةٍ بناها خارجَ بابِ المدينةِ المطلِّ على المَقابر. ثم كتبَ الوزير إلى السلطانِ يُخبِرُه بالوَفَاة، فجاءَ الردُّ في اليومِ التالي مُتضمّناً ما يجبُ على الوَزيرِ أن يُقدِّمَه لابنِ بطّوطةَ في هذه المناسبة.

يقولُ ابنُ بطوطةَ عن تلك الواقعةِ مُستَعْرِضاً طُقوسَ الوَفاةِ والعَزاءِ عندَ الهنودِ «.. وعادتُهم أنْ يَخرُجُوا إلى قبرِ المَيْتِ صبيحةَ اليومِ الثالثِ مِنْ دَفنهِ، ويَفْرِشُون جوانبَ القبرِ بالبُسُطِ وثيابِ الحَرير، ويَجْعَلون

على القَبْرِ الأزاهير، وهي لا تنقطعُ هُنالك في فصلٍ منَ الفُصول، ويجعَلون أغصانَ النّارَنْجِ والليمونِ بثمارِها، وانْ لم يكنْ فيها ثِمارٌ عَلَّقوا مِنها حبّاتٍ بالخُيوط. ويَصُبّون على القَبرِ الفواكه اليابسةَ وجوزَ النّارَجيل (جوز الهند). ويجتمعُ النّاس، ويؤتى بالمصاحفِ فَيقرأون القُرآن، فإذا ختَموا أَتَوْا بماءِ الجُلاّبِ فَسَقَوْه النّاس، ثم يُصبُّ عليهم ماءُ الوردِ صَبًّا».

«ولمَّا كانَ صبيحةُ اليومِ الثالثِ من دَفْنِ هذه البِنت، خَرجتُ الصبحَ على العادَة، وأَعددتُ ما تيسّرَ مِن ذلك كلِّه، فَوجدت الوزيرَ قد أمرَ بترتيبِ ذلك، وجاء الحاجبُ والقاضِي وجملةٌ من كِبارِ أهلِ المدينة.. قَعدت مَع أصحابِي بِمَقْرُبَةٍ من القَبر، فلمَّا فَرَغُوا من قِراءةِ القرآنِ بأصواتٍ حِسَان، قامَ القاضِي فقرأ رِثاءً في البنتِ المُتوفّاة، ثم أخذَ الحاجبُ وأَصحابُه بَراميلِ ماء الوردِ فصبّوا على النّاس، ثم دَارُوا عَليهم بأقداحِ شُرْبَةِ النّبات، ثم أُتِيَ بإحدَى عَشْرَةَ خِلعةً لي ولأصحابي، ثم رَكِبَ الحاجبُ وَرَكِبنا معه إلى دارِ السّلطانِ فَخَدمْنا للسرير (أي أَدّينا التحيةَ للعَرْش)، وانْصرَفتُ إلى منزِلي، فما وصلتُ إلاّ وقد جاءَ الطعامُ من دارِ المَخدومةِ جِهان (والدةِ السّلطان) ما ملأَ الـدّارَ ودُورَ أصحـابـي، وأكلُـوا جميعـاً، وَفَضَلَت الأقراصُ والحَلواءُ والنّبات، فأقامَتْ بقَاياها أياماً، وكل فعلُ ذلك كلِّه بأمرِ السُّلطان».

ثم حلَّ الدورُ بعدَ ذلكَ على والدةِ السلطانِ لتعزيةِ أُمِّ البنتِ المُتوفّاة، فأَرسلَتْ إِلَيها المِحَفّةَ التي عليها ما يُشبهُ الهَوْدَجَ، يُغطّيهِ نسيجُ الحَريرِ الرّقيق، ويَحْمِلُها الفِتْيان. وقفتْ المِحَفّةُ عندَ بابِ البيتِ



فَركبتْ فِيها أمُّ الطفلةِ المُتوفّاة ، وانصرفَ بِها الفِتيانُ إلى حيثُ والدةُ السّلطان ، فَبقِيَتْ في ضيافتِها لَيْلَة ، ثمَّ عادتْ في اليومِ التالي مُحَمّلةً بالْهَدايا ، « وقد أعْطَوْها ألف دينار دراهمَ وأساورَ ذَهبٍ مُرصَّعة ، وتَهليلاً منَ الذهبِ مُرصَّعاً أيضاً ، وقَميصَ كَتّانٍ مُزركشٍ بالذَّهَب ، وخلعةَ حريرٍ مُذهَّبة ، وتَختاً بأثْواب ».

المُؤَذِّنون على الفِيَلَة

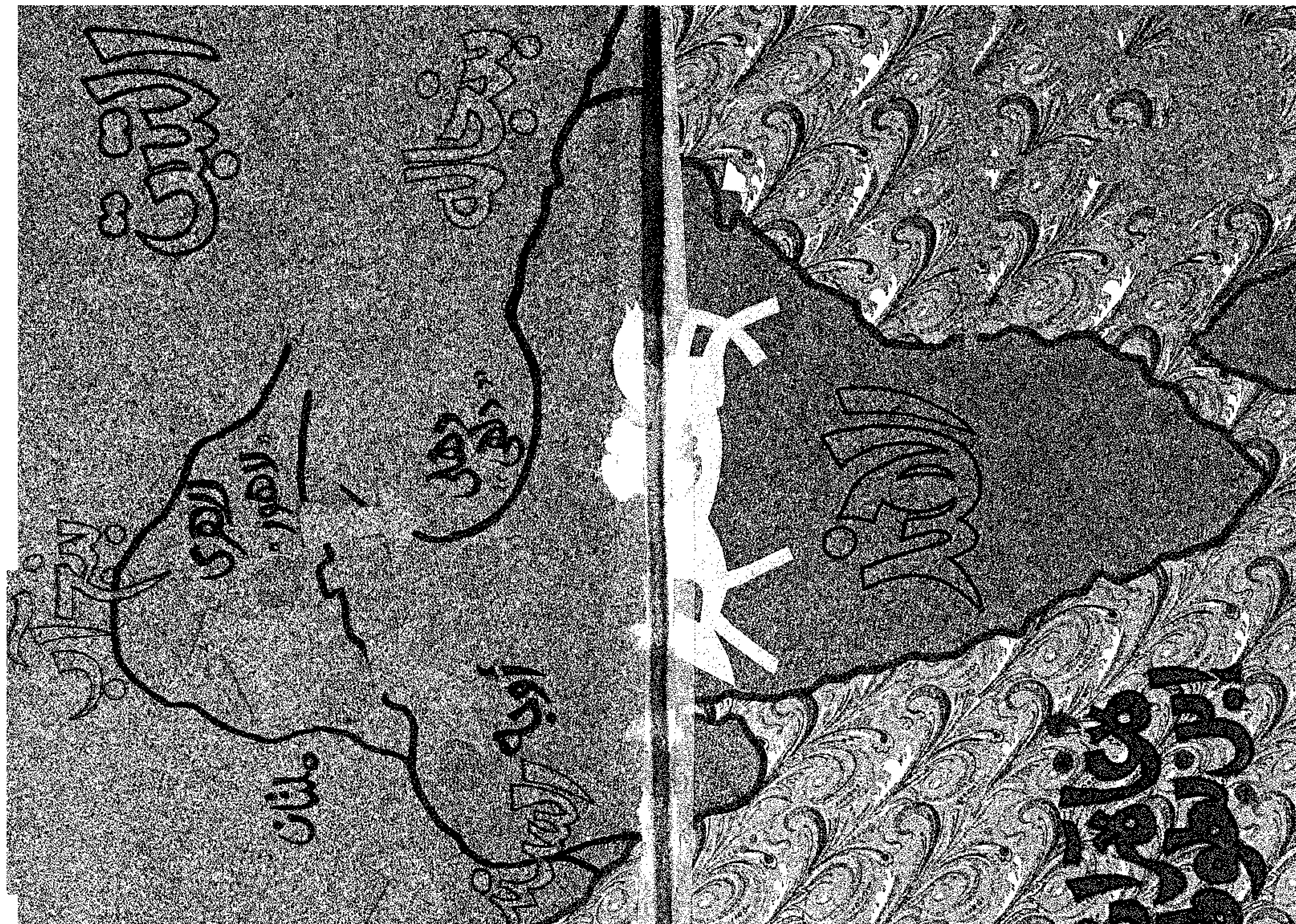
ورغمَ أنّ السّلطانَ حتى ذلك الوقتِ لم يكنْ قد عادَ إلى عاصمته ، فقد أرسلَ تعليماتِه إلى وزيرِه بأَنْ يُنَظِّمَ لابنِ بطوطةَ أسبابَ معيشتِه ومصادرَ دَخْلِه. وكان نظامُهم في ذلك أنْ يُخصّصَ للفردِ إيرادُ بعض القُرَى والأراضي ، يُنفِقُ ممّا يتجمّعُ من جباياتِها. وقد خُصِّصَ لابنِ بطوطةَ إيرادُ قريةِ (بدلى) وقرية (بسهى) ونصفُ إيراد قريةِ (بالمره) ، وهذه القُرى بالقُربِ من إقليمٍ يُسَمّى (هنديت).

ويَتولّى جبايةَ أموالِ كلِّ إقليمٍ أو مجموعةٍ منَ القُرَى شخصٌ كبيرٌ منَ الهنودِ غيرِ المُسلمين يُطلَقُ عليه لَقَبُ (جوطري) ، وهو الذي يَتصدّى لسكانِ هذه القُرَى من الهنودِ الوثَنيِّين.

وعادةً ما تتصلُ سُكْنَى الهنودِ المُسْلمين مع غيرِهم من غيرِ المُسْلمين ، غيرَ أنّ الحُكْمَ والولايةَ تكونُ دائماً للمُسلمين. أمّا الهنودُ الذين لا يَرْغَبون في ولايةِ المُسْلمين ، فإمّا أنْ يَعِيشُوا في الجبالِ العَالِية ، يَتحصّنون بها ، أو يَعِيشوا في غابْاتِ القَصَب (أو نباتِ

البامبو). يقول ابنُ بطّوطة «ولهم غَيْضَاتٌ من القَصَب، وقصبُهم غيرُ مُجوّف، ويَعْظُمُ ويلتفُّ بعضُه على بَعْض، ولا تُؤثِرُ فيه النار، وله قوّة عَظيمة، فيسكُنون تلك الغِياضَ وهي لهم مثلُ السُّور، وبداخِلها تكونُ مَواشِيهم وزروعُهم، ولَهم فيها المِياهُ ممّا يَتجمّعُ مِن ماءِ المَطر. فلا يُقْدَرُ عليهم إلاّ بالعساكِرِ القويّةِ منَ الرجالِ الذين يَدخُلون تلك الغِياضَ ويَقْطَعون تلك القُصُبَ بآلاتٍ مُعَدّةٍ لذلك».

تستقرُّ أحوال ابنِ بطّوطة، وقد تأمّنتْ مواردُ رزقِه هو ومَنْ معه. ويبقَى في انتظار وصولِ السّلطان، فَيحِلُّ عيدُ الفِطر، ويصفُ ابنُ بطوطةَ طريقةَ احتفالِهم بعيدِ الفِطر، فيقول «وأَطلَّ عيدُ الفطرِ والسلطانُ لم يَعُدْ بعدُ إلى الحَضْرة، فلمّا كان يومُ العِيد، رَكِبَ الخطيبُ على الفِيل، وقد مُهِّدَ له على ظهرِه شبهُ سَرير، ورُكِّزت أربعةُ أعلامٍ فِي أركانِه الأربعة، وَلَبِسَ الخطيبُ ثيابَ السَّواد، وركبَ المؤذِّنون على الفِيَلَة، يُكبِّرون أمامَه، وركبَ فُقهاءُ المدينةِ وقضاتُها وكلُّ واحدٍ مِنهم يَستصحبُ صَدَقَةً يتصدقُ بِها حين الخروجِ إلى المُصَلّى. ونُصِبَ على المُصلّى صِيوانُ قُطْن، وفُرِشَ بِبُسُط، واجتمعَ الناسُ ذَاكرين الله تَعالَى، ثم صَلَّى بهم الخطيبُ وخَطَب، وانصرفَ الناسُ إلى منازلهم، وانْصرفْتُ إلى دارِ السّلطان، وجُعِلَ الطعامُ فَحضرَه المُلوكُ والأمراءُ والأعزّة وهُم الغُرَباء، وأَكلوا وانْصرَفوا».



حَدَثَ كلُّ هذا والسلطانُ لم يَرجعْ بعدُ إلى عاصمةِ مُلكِه. وانصرفَ ابنُ بطوطةَ إلى دِراسةِ أحوالِ المدينةِ والتعرّفِ على أهلِها، وعَقَدَ الصّداقاتِ مع شيوخِها ومع فُقهائِها. فكانَ مِن بينِ مَن تَعرّفَ عليهم، الامامُ الصالحُ العالمُ كَمالُ الدِّينِ عبدُ الله الغاريّ، نسبةً إلى غارٍ كان يَسكُنُه خارجَ دَهلي. وقد تَعلّقَ ابنُ بطوطةَ بذلكَ الشّيخ، وأُعجبَ بزُهْدِه وتَقْواه، وكان يتردّدُ عليه في زاويتِه، كما زارَه في ذلك الغارِ الذي يَتعبّدُ فيه ثَلاثَ مَرّات.

ويَحكِي ابنُ بطوطةَ عن حادثٍ جَرى، جعلَه يزدادُ إيماناً ببصيرةِ ذلك الشيخِ ويقرّرُ أنْ ينقطع إلى صُحْبتِه مُخلّفاً عَرَضَ الدّنيا وراءَ ظَهرِه. وبَطَلُ ذلك الحادِثِ صبيّ كان يَخدِمُ ابنَ بطوطةَ هَربَ من خدمتِه، وهو يقول عَن هذا «كان لي غلامٌ فأبِق منّي، وألفيتُه بيدِ رَجُلٍ منَ الترك، فذهبت لانتزاعِه من يدِه، فقال لي الشيخُ إنْ هذا الغلامَ لا يَصلُحُ لك فلا تأخذْه. وكان التركيُّ راغباً في المُصالحة، فصالحتُه بمائةِ دينارٍ أخذتها مِنه وتَركته له (أيْ الصبي). فلمّا كان بعدَ ستّةِ أشهرٍ قَتلَ سيّدَه. وأُتيَ بِه إلى السلطانِ فأمَرَ بتسليمِه لأولادِ سيّدِه فَقتلوه. ولمّا شاهدت لهذا الشيخِ هذه الكرَامة، انقطعت إليه ولازمتُه وتَركت الدّنيا، وَوَهبت جميعَ ما كان عندِي للفُقراءِ والمَساكين، وأقمت عندَه مدّةً كنتُ أراه يواصلُ عَشَرة أيامٍ وعِشرين يوماً (يَعْني الانقطاع للعِبادة)، ويقومُ أكثَر اللّيل. ولم أزلْ معه حتّى بَعث إليّ السلطان، وَنشِبْتُ في الدُّنيا ثانية..».

وقبلَ وُصولِ السّلطان ، تعرّف ابنُ بطّوطةَ على قاضِي قُضاةِ الهِندِ والسِّندِ الفقيهِ العالمِ كَمالِ الدّين محمد بن البُرْهان الغَزْنويّ الملقّب بِصدْرِ الجهان. وتواصَلت جَلساتُ ابنِ بطوطةَ مع قاضِي القُضَاة، الذي استطاعَ أنْ يُشْبعَ فُضولَ ابنِ بطوطةَ بغزيرِ مَعلوماتِه عن تاريخِ الفَتحِ الاسلاميّ للهِند ، وعن سِيَرِ السَّلاطينِ الذين تَعاقَبُوا على مُلْكِ البِلاد ، حتّى وَصلت مقاليدُ الحُكمِ والسلطنةِ إلى سُلطانِ ذلك الزّمان أبِي المُجاهد مُحمّد شاه.

ولم يشعُرْ ابنُ بطوطةَ بمرورِ الأيّامِ واللّيالِي وهو يستمعُ إلى أخبارِ ذلك التاريخِ الغَريب ، بكلِّ ما فِيه من مُغامراتٍ وحُروبٍ ومكائدَ وانْقِلاباتٍ دَمويّة ، ومواقفَ مُثيرةٍ عَجيبة.

* * *

لئن كانت القصة ـ أي قصة ـ تستهوي القارىء وتجتذبه، فالأحرى بحكايات الرحلات وأخبار الأسفار أن تسترعي اهتمام الصغير والكبير على حد سواء، وذلك لما فيها من صدق الوصف وحقيقة الواقع، ولما تنطوي عليه من سرد مخاطر الأسفار ووصف غرائب المخلوقات وعجائب الكائنات.

وابن بطوطة رائد من روّاد الرحلات الذين جابوا الأقطار ودونوا ما شاهدوا فيها من عجيب العادات وغريب الأفعال. لقد دون ابن بطوطة كل مشاهداته بصدق وأمانة واخلاص، بأسلوب سهل رشيق واضح، لا تكلف فيه ولا تصنّع، حتى ان القارىء لرحلات ابن بطوطة ليتخيل نفسه وكأنه يعيش الأحداث التي مر بها ابن بطوطة، وينتقل إلى الأقطار التي زارها يرافقه في حله وترحاله.

من هنا كان الدافع لنشر هذه الرحلات التي ترجمت إلى البرتغالية والانكليزية والفرنسية والألمانية والتي أطلق على كاتبها لقب أمير الرحالين المسلمين.

مغامرات ابن بطوطة

إعداد: راجي عنايت

رسوم: بهجت عثمان





...سسة العربية
...سات والنشر
...LEDIRKA